هاروكي موراكامي

رواية

مقتل الكومنداتور

I ـ فكرة تظهر

ترجمة : ميسرة عفيفي

دار الآداب

@ketab_n
Follow Me
31.8.2021

هاروكي موراكامي

مقتل الكومنداتور

ترجمها عن اليابانيَّة: ميسرة عفيفي

رواية

دار الآداب - بيروت

مقتل الكومنداتور

I ـ فكرةٌ تَظْهر

مقتل الكومنداتور

هاروكي موراكامي/كاتب يابانيّ

ترجمها عن اليابانيّة: ميسرة عفيفي

الطبعة الأولى عام 2020

ISBN 978-9953-89-6885

Killing Commendatore

copyright © 2017 by Haruki Murakami

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

بيروت - لبنان

هاتف: 861632 (03) - 861633 (01)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

الجزء الأوَّل

فِكْرَةٌ تَظْهَرُ

تمهيد

اليوم، عندما استيقظتُ من قيلولة قصيرة، وجدتُ «الرجل عديم الوجه» قبالتي. كان جالسًا على المقعد المواجِه للأريكة التي كنتُ أنا فوقها. يحدِّق إليَّ مباشرةً بعيْنيْن وهميَّتيْن لوجهٍ غير موجود.

كان الرجلُ طويلَ القامة، لم يتغيَّر مظهره منذ المرَّة السَّابقة التي رأيتُه فيها. يعتمر قبَّعة سوداء بحافَّةٍ عريضة تُخفي نصفَ وجهه العديم، ويرتدي المعطفَ الطويل ذا اللَّون الكئيب ذاته.

قال عديم الوجه بعد أن تأكَّد من صحوتي التامَّة: «أتيتُ إليك لترسم لي البورتريه. لقد وعدتني بذلك. أتذكُر؟»

كانت صوته خفيضًا ورتيبًا.

«أجل، أذكر. لم يكن لديَّ ورقٌ من أيِّ نوعٍ حينذاك، لذا تَعَذَّر عليَّ أن أرسمك. وأعطيتُك بالمقابل تميمةً على شكل بطريق». حتَّى صوتي كان بلا تعبير، رتيبًا مثل صوته.

«آه، لقد أحضرتُها معي».

وبقوله هذا، مدَّ يده اليمنى أمامه ـ كانت يده طويلة جدًّا ـ ليريني في قبضته تميمة البطريق البلاستيكيَّة، التي كانت مجرَّد حلية صغيرة تُعلَّق على الهاتف الجوَّال. أسقطها الرجلُ لتقع على منضدة القهوة الزجاجيَّة، فأحدثتْ صوتَ ارتطامٍ خافت.

«سأعيدها إليك، فلا بدَّ أنَّك في حاجةٍ إليها. يُفترض أنَّها تميمةُ حماية، ستحمي كلَّ المهمِّين حولك. ولكنْ، إزاء ذلك، أريدك أن ترسم لي البورتريه».

وقعتُ في حيرة.

«لكنَّك تفاجئني بهذا الطلب، فأنا لم يسبقْ لي أن رسمتُ بورتريهًا لرجلٍ عديم الوجه».

كدت أختنق بجفافٍ شديدٍ في حلقي.

«لقد سمعتُ أنَّك رسام بورتريه رائع. ولا بدَّ لأيِّ شيءٍ من بداية»، قال عديم الوجه، ثمَّ ضحك. أو أعتقدُ أنَّه ضحك؛ إذ تناهى إلى مسمعي ما يشبه أصداء ضحكةٍ آتيةٍ من كهفٍ عميقٍ، لكأنَّها صوت ريحٍ عدميَّة.

نزع القبَّعة السَّوداء التي تغطِّي نصف وجهه. لا وجهَ في المكان الذي يجب أن يكون فيه، إنَّما ضبابٌ بلون الحليب يتماوج حول نفسه.

نهضتُ واقفًا، وأحضرتُ من المرسم دفتَر الرَّسم وقلمَ رصاص ليِّنَ الرأس. ثمَّ جلستُ على الأريكة، وحاولتُ أن أرسم بورتريهًا لعديم الوجه ذاك. ولكنَّني لم أدرِ من أين أبدأ! لم أستطع تحديد نقطةٍ أنطلق منها، إذ ما من شيء هناك إلَّا العدم. كيف من الممكن خلقُ شكلٍ

لِما ليس له وجود؟ علاوةً على ذلك، فإنَّ الضباب الأبيض الذي يُحيط بالعدم ما انفكَّ يتحرَّك مغيِّرًا شكله باستمرار.

قال عديمُ الوجه: «حبَّذا لو أسرعتَ. فأنا لا أستطيع المكوث هنا طويلًا».

كنت أشعر بدقَّات قلبي تنبض مدوِّيةً في صدري. ما من وقتٍ كافٍ. عليَّ أن أُسرع. لكنَّ أصابعي التي تُمسك بقلم الرصاص توقَّفت في الفراغ على ما كانت عليه، فاقدةً قدرتها على التحرُّك بأيِّ حال. كما لو أنَّ يدي قد شُلَّت من معصمها. ثمَّ إنَّه كان محقًّا، فثمَّة أشخاصٌ عليَّ أن أحميهم، وليس بمستطاعي إلَّا رسمُ اللَّوحات فقط. ومع ذلك، عجزتُ عن رسم «عديم الوجه» هذا رغم محاولاتي. حملقتُ في دَوَران الضباب الحليبيّ هناك. بعد فترة، قال عديمُ الوجه:

«عذرًا، لقد فات الوقت».

ثمَّ نفث من فمه اللاموجود نهرًا ضخمًا من ضبابٍ أبيض.

«انتظر! لعلَّك تمنحني بضع دقائق...»

اعتمر الرجل القبَّعة السَّوداء مرَّة أخرى، فاختفى نصفُ وجهه، ثمَّ قال: «سأزورك ثانيةً عاجلًا أم آجلًا. فربَّما تستطيع أن ترسم وجهي حينها. وحتَّى ذلك الحين، سأحتفظ بتميمة البطريق».

ثمَّ اختفى عديمُ الوجه، وكأنَّه تبخَّر في الهواء بلحظة واحدة، مثلما يختفي الضباب الرَّقيق فجأةً بفعل ريحٍ عاصفة. ولم يبقَ إلَّا المقعدُ الفارغ والمنضدة الزجاجيَّة التي اختفت تميمة البطريق من فوقها أيضًا.

أكان ما رأيتُه حلمًا قصيرًا، حلمًا عابرًا؟ لكنَّني كنتُ متيقِّنًا من أنَّه لم يكن كذلك. وإلَّا لكان كلُّ العالم الذي أعيش فيه مجرَّد أحلام.

ربَّما أتمكَّن من رسم وجهٍ للعدم يومًا ما، كما استطاع أحدُ الرسَّامين أن يرسم لوحة «مقتل الكومنداتور». لكنَّني في حاجةٍ إلى الوقت. ينبغي أن أجعل الزمن حليفي.

- 1 -

إن كان السطح غائمًا

كنتُ أسكن فوق قمّة جبلٍ على مقربة من مدخل وادٍ ضيّق، ما بين شهر مايو من ذلك العام وحتّى بداية العام اللّاحق. ورغم عدم انقطاع الأمطار في عمق الوادي صيفًا، فإنَّ الطقس على الجانب الآخر من المرتفعات غالبًا ما كان صافيًا. وذلك بفضل هبوب رياحٍ جنوبيَّة غربيَّة قادمة من المحيط، إذ تدخل الغيومُ المحمَّلة بالمطر الّتي تأتي بها تلك الرّياح إلى الوادي، فتسبِّب هطولَ الأمطار عند صعودها سفوح الجبل. وبما أنَّ البيت قد بُنِي عند حافَّة تلك الحدود بالضبط، فكثيرًا ما تهطل الأمطار بغزارة في حديقته الأماميَّة، في حين أنَّ الشمس ساطعة على خلفيَّته. أحسستُ في البداية بدهشة كبيرة، لكنَّني اعتدتُ على الأمر حتّى بتُّ أراه طبيعيًّا مع مرور الوقت.

كانت الغيوم منخفضةً ومتفرّقةً بين الجبال المحيطة. ومع هبوب الرياح، تلوح ظلالُ أجزاء تلك الغيوم على بطن الجبل، كأنَّها أرواحُ هائمة

جاءت من الماضي لتبحث عن ذكرياتها المفقودة. فترقص الأمطار ناصعةُ البياض كرذاذ الثلج، مع الرّيح، رقصةً صامتة. ونظرًا إلى هبوب النسائم بلا انقطاع، استطعتُ قضاءَ الصيف بارتياح من دون استخدام مكيّف الهواء.

كان البيت صغيرًا وقديمًا، لكنَّ حديقته واسعة جدًّا. تنبت فيها الحشائش البرِّيَّة الخضراء، وتنمو إذا أُهمِلت، لتمنح ملجأً لعائلةٍ من القطط. ولكنْ، عندما جاء البستانيّ واقتلع الحشائش، أحسَّت القطط بالإزعاج وانتقلت إلى مكانٍ آخر. كانت العائلة مكوَّنةً من قطَّة ذات نقش مخطَّط، وصغارها الثلاثة. وكانت تعابير الأمّ صارمة، وجسمها هزيلًا جدًّا، من المحتمل أنَّها تجد صعوبة في العثور على قوت يومها!

بُنِيَ البيت على قمَّة الجبل، لتطلّ شرفته الكبرى على الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة، بحيث يظهر جزءٌ بسيطٌ من المحيط بين أشجار الغابة البرِّيَّة الكثيفة؛ ما يعادل كمِّيَّة الماء اللَّازمة لملء حوضِ استحمام. جزءٌ ضئيلٌ جدًّا من المحيط الهادئ العملاق. ووفقًا لما قاله شخصٌ أعرفه يعمل في شركة عقاريَّة، يختلف سعر الأرض اختلافًا هائلًا بين الإطلالة على المحيط من عدمها، حتَّى لو كانت إطلالة ضيِّقةً كتلك. على أنَّ الأمر سيَّان بالنِّسبة إليّ: أن أرى المحيط أو لا أراه. فتلك القطعة المرئيَّة من المحيط تبدو كتلة رصاص قاتمة عند النَّظر إليها من مسافة بعيدة. والحقّ، أنَّني لا أفهم مطلقًا ما سرُّ توق الناس لرؤية البحر إلى هذه الدَّرجة. فأنا، خلافًا لهم، أفضّل تأمُّل الجبال المجاورة. فالناحية المقابلة من الوادي تتغيَّر ملامحها تبعًا لتغيُّر الفصول والمُناخ، ومجرَّد إحساسي بهذا التغيّر اليومي كان يُبعد عنّي الملل.

وكنتُ قد انفصلتُ عن زوجتي في تلك الآونة، وشرعنا بمعاملة الطلاق رسميًّا. ولكنْ، في النهاية، حدثتْ عدَّة أمور جعلتنا نستعيد حياتنا الزوجيَّة معًا مرَّة أخرى.

إن أردنا وصف تلك التفاصيل صعبة الفهم، التي لا يستوعب حتَّى الزوجان العلاقةَ بين أسبابها ونتائجها، فلن نجد إلَّا وصفًا معتادًا جدًّا، كالقول: «عادت المياه إلى مجاريها». غير أنَّ هنالك فجوة زمنيَّة تزيد عن تسعة أشهر بين الحياتيْن الزوجيَّتَيْن (فلنقل: الشوط الأوَّل والشوط الثاني) وكأنَّها قناة مائيَّة عميقة حُفرتْ في برزخِ أرضٍ يابسة!

ما يزيد عن تسعة أشهر! هل كانت فترة انفصال طويلة؟ قصيرة؟ شخصيًّا، لا أستطيع الحكم على هذا. وعندما أعيد النَّظر فيها، الآن، تبدو لي أقرب إلى الخلود تارةً، وأقصر من هنيهةٍ انقضت بلمح البصر تارةً أخرى. يحمل كلُّ يومٍ جديد لي انطباعًا مختلفًا. كمَثَلِ أنَّنا نريد تصوير شيء ما، فتوضع علبةُ سجائر إلى جواره لتوضيح حجمه الحقيقيّ؛ لكنّ علبة السجائر الموضوعة إلى جانب الصُّور في ذاكرتي تتمدَّد وتتقلَّص كما تقتضيه الحالة النفسيَّة الآنيَّة. لا أعرف السَّبب وراء تغيُّر كلّ شيء وكلّ حدث داخل ذاكرتي باستمرار، بل وحتَّى تلك المقاييس، التي يُفترض أن تظلّ ثابتة، تتغيَّر، تجاوبًا مع تلك التغيُّرات ربَّما.

ولكنْ، فليكن واضحًا، هذا لا يعني أنَّ التغيُّرات في ذاكرتي تطاول ماضيَّ بأكمله، أو أنَّ ذكرياتي تتمدَّد وتتقلَّص بطريقة عشوائيَّة. فلقد سارت حياتي فيما مضى هادئةً متَّسقة، وبمنطقيَّةٍ لا بأس بها. أمَّا إذا تحدَّثنا عن تلك الشهور التِّسعة تحديدًا، لوجدنا أنَّ حياتي سقطتْ في حالة فوضى عارمة لا تُوصف بأيّ شكل. ستبقى تلك الفترة استثنائيَّة بالنِّسبة إليَّ بكلّ المقاييس، مغايرةً لطبيعتي كليًّا؛ كنتُ في أثنائها مثل

رجلٍ يسبح في بحرٍ هادئ، فإذا بدوّامةٍ مجهولة المصدر تسعى لابتلاعه، فلا يقوى على الإفلات منها.

هذا ما يفسّر على الأرجح غموض أحداث تلك الفترة. فعندما أفكّر فيها مليًّا (أنا الآن أكتب بعد مرور أعوامٍ طويلة) تتداعى كلّ الأشياء، وتنعدم دقّتها، وتنفرط الرّوابط بينها، وتتباين أحجامها ومسافاتها كثيرًا؛ إذ يكفي أن تشرد عيناي لوهلةٍ حتى يتغيّر التسلسل المنطقيّ لما جرى. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّني عازمٌ في حدود ذكائي على بذل قصارى جهدي للمضيّ في هذه الحكاية. وقد تخلُص المحاولة إلى غير ذي جدوى، لكنّني سأتشبّث ما استطعتُ بالمقياس المؤقّت الذي وضعتُه بنفسي. فلعلّ ذلك السبّاح فاقد القوى يعثر على قطعة خشبٍ تتقاذفها الدوّامة بجانبه فيتشبّث بها.

اشتريتُ سيّارةً مستعملةً رخيصة الثمن فور انتقالي إلى ذلك البيت. كان ذلك أوّلَ شيء أفعله؛ فسيّارتي القديمة استُهْلِكت حتّى صارت خردةً. لا غنًى عن السيّارة، خاصّةً بحالة الإقامة وحيدًا في منطقة نائية وفوق قمّة جبل، بل وحتّى لشراء مستلزمات الحياة اليوميّة. ذهبتُ إلى متجر سيّارات مستعملة لشركة تويوتا في ضواحي مدينة أوداوارا، ووجدتُ سيّارة «كارولا واغن»، زهيدة الثمن. قال البائع إنّ لونها «أزرق بروديّ»، لكنّها بالأحرى كانت بلون وجه مريض نحيل. لم تقطع سوى ستة وثلاثين ألف كيلومترًا، وكان سعرها قد خُفِّض كثيرًا، لأنّ لها في الماضي سجلًّا في دفتر الحوادث. جرّبتُها بجولةٍ سريعة، فلم تصادفني أيُّ مشكلة في الإطارات والمكابح. وكان ذلك كافيًا طالما أنّني لن أستخدمها في الطرق السريعة.

أعارني ماساهيكو أمادا هذا البيت. كان معي في المجموعة نفسها أثناء الدراسة في كلّيّة الفنون. كان يكبرني بعامَيْن اثنيْن، ولكنّه كان

أحدَ الأصدقاء القليلين الذين انسجمتُ معهم، وكنَّا نتقابل من وقت إلى آخر بعد أن تخرَّجنا. ترك ماساهيكو رسمَ اللَّوحات بعد التخرُّج، وتوظَّف في شركة دعاية وإعلان، حيث كان يعمل مصمِّمَ غرافيك. وعندما علم أنَّني انفصلتُ عن زوجتي وما من مكانٍ يأويني حينذاك، عرض عليَّ السكن في بيت أبيه الخالي، قائلًا إنَّها أفضلُ طريقةٍ لحراسة البيت أثناء غياب والده. وكان والده هو توموهيكو أمادا، رسّام اللَّوحات اليابانيَّة الشهير، ويقع بيتُه فوق جبلٍ في ضواحي أوداوارا، ويستخدمه بيتًا ومرسمًا في الوقت نفسه، وانكفأ فيه بعد وفاة زوجته. لقد مرَّ حوالى عشر سنوات على وفاتها، فظلَّ يعيش مسترخيًا وحده هناك. لكنَّه بعد عشر سنوات من ذلك، تفاقمت حالة الخَرَف لديه، فتقرَّر إدخالُه مؤسَّسة رعاية مسنِّين راقية تقع في مرتفعات إيزو، وأصبح ذلك البيت مهجورًا منذ عدَّة أشهر.

قال أمادو: «إنَّه بيتٌ منعزلٌ فوق قمَّة جبل، ولا يمكن على أيِّ حال وصفُه بالمكان المريح. لكنَّني أضمن لك أنَّه مكان هادئ بنسبة مئة بالمئة. إنَّها البيئة المثاليَّة حقًّا لرسم اللَّوحات. فما من شيء يُشتِّت التَّركيز» ـ قال ماساهيكو.

أمَّا بالنِّسبة إلى الإيجار، فكان رمزيًّا فعلًا لاستيفاء الشكنيّات فقط.

«البيت المهجور تتردَّى حالتُه؛ أضف إلى ذلك، بعد قلقي من حدوث سرقاتٍ أو حرائق فيه. وسأطمئنّ بمجرَّد أن يسكنه شخصٌ ما بشكلٍ دائم. وأعرف أنَّك لن ترتاح نفسيًّا ما لم تدفع مقابلًا لاستئجاره. ولكن اِعلمْ أنَّني، في حال احتجتُ إليه، قد أطالبك بإخلائه بشكلٍ مفاجئ في مهلة زمنيَّة قصيرة».

لم يكن لديَّ اعتراض. فأمتعتي في الأساس يمكن حملُها في سيَّارة شحن صغيرة. وإنْ قيل لي: اتركِ البيت! فسأخليه في اليوم التالي مباشرةً.

وهكذا، انتقلتُ للإقامة في ذلك البيت بعد انقضاء عطلات شهر مايو المتوالية. كان البيت صغيرًا، يتألَّف من طابق واحد، ومبنيًّا على طراز معماريّ غربيّ، ويمكن وصفُه بالكوخ الريفيّ، ومساحته تناسب شخصًا واحدًا ليعيش فيه. يقع البيت فوق قمَّة جبل منخفض الارتفاع، محاطًا بغابة برِّيَّة كثيفة الأشجار، وحتَّى أمادا نفسه لا يعرف مساحةَ ملكيَّتهم بدقَّة. وفي حديقة البيت، شجرةُ صنوبر ضخمة تبسط أغصانها الغليظة في الجهات الأربع. وقد وُضِعت الصخورُ التي تميِّز الحدائقَ اليابانيَّةَ هنا وهناك، وثمَّة شجرةُ موز عظيمة بجانب المنارة الصخريَّة.

وكما ذكر أمادا، فقد كان المكان هادئًا بلا أيِّ شكّ في هذه النقطة. ولكنْ، بالنَّظر مليًّا الآن، أعرف أنّه كان مخطئًا حينما جزم بأنْ لا شيء سيُشتِّت التركيز البتَّة.

أثناء الأشهر الثمانية التي قضيتُها في ذلك الوادي، أي بعد الانفصال عن زوجتي، أقمتُ علاقةً بامرأتيْن. وكانت كلتاهما متزوِّجتيْن، إحداهما أصغر منِّي سنًّا، والأخرى أكبر؛ كما أنَّ كلتيْهما من تلاميذي في المدرسة التي كنت أعلِّم فيها الرسم.

انتهزتُ إحدى الفرص، وعرضتُ عليهما الأمر (الأمر الذي لا أفعله في الأوضاع العاديَّة مطلقًا ـ فمِن صفاتي أنَّني أخجل من الغرباء، وأتملَّص من تصرُّفٍ كهذا)، فلم ترفض أيٌّ منهما عرضي. بل كانت دعوتهما إلى السَّرير سهلةً جدًّا، وبدت منطقيَّة أيضًا، ولستُ أدري لماذا! لم يراودني أيُّ إحساس بالذنْب في إغواء نساءٍ يتعلَّمن على يدي. بل

بدا لي أنَّ إقامة علاقة جنسيَّة معهما أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا، كأنْ نسأل عن السَّاعة شخصًا نصادفه في الشارع.

كانت المرأة الأولى في أواسط العشرينيَّات، فارعة القامة، ووسيعة العينَيْن السَّوداوَيْن. نهداها صغيران وخصرُها رفيع. جبينها عريضٌ، وشعرُها سَبْطٌ وجميل، وأذناها كبيرتان مقارنةً بجسمها. وربَّما لا يمكن وصفها بالجميلة كلّيًّا، إلَّا أنَّ وجهها يتميَّز بملامحَ جذَّابةٍ وعميقةٍ، كانت ستغري أيَّ رسّامٍ لرسمها (بالفعل، بما أنَّني رسَّام، حاولتُ رسمها على المسوَّدات عدَّة مرَّات). لم يكن لديها أطفال. زوجها يدرِّس مادَّة التاريخ في مدرسة ثانويَّة أهليَّة، لكنَّه في البيت يُوسِعُها ضربًا. فلأنَّه لا يجرؤ على استخدام العنف في المدرسة، راح يفرّغ غيظه في البيت. غير أنَّه كان يتفادى لطم وجهها لحسن الحظِّ. وما كنت لأدرك أنَّه يضربها إلَّا لأنَّني رأيتُها عاريةً، وتبيَّنتُ آثار الجروح والكدمات في مواضع مختلفة من جسمها. كانت تكره أن يطَّلع أحدٌ على ذلك؛ ولطالما أرادت إغراق الغرفة في ظلامٍ تامّ كلَّما نزعنا ملابسنا، وهممنا بممارسة الحبّ.

لم تكن تحبّ الجنس كثيرًا. وكانت تشتكي من أنَّني أوجعها عندما ألجها، لأنَّ مهبلها لم يكن رطبًا كفاية. وكم حاولتُ إطالة أمد المداعبة، واستعمال المراهمَ المُرطِّبةً؛ بلا جدوى. كانت تتألَّم كثيرًا، وغالبًا ما صاحت بأعلى صوتها من شدَّة ألمٍ لا يُحتَمل.

وعلى الرَّغم من ذلك كلّه، كانت راغبةً في ممارسة الجنس معي. أو أنَّها لم تُبْدِ أيَّة كراهية من ذلك على الأقلّ. تُرى ما السبب؟ لعلَّها كانت تبحث عن الألم بملء إرادتها. وربَّما كانت تبحث عن انعدام المتعة. أو لعلَّها أرادت أن تعاقب نفسها بشكلٍ ما. فالإنسان يبحث عن

أمورٍ متنوّعة في حياته. إلّا أنَّ أمرًا واحدًا بالتأكيد لم تكن ترغب فيه حينذاك: الحميميَّة.

كانت تأبى أن تأتي إلى بيتي أو أن أجيء إلى بيتها. لذا، كنّا نذهب بالسيّارة إلى فندق مخصّص للعشّاق، يقع في منطقة بعيدة نسْبيًّا على ساحل البحر، ونمارس الجنس هناك دائمًا. كنّا نتواعد في موقف سيّارات فسيح، تابعٍ لأحد المطاعم العائليَّة، وغالبًا ما ندخل الفندق في الواحدة بعد الظهر، ونخرج قُبَيْل الثالثة. كانت النظّارة الشمسيَّة الكبيرة لا تفارق عينيْها، سواءً في الجوّ الغائم أم الماطر. إلّا أنّها تغيَّبت عن الموعد المحدَّد في إحدى المرّات؛ ولم تعد تأتي إلى دروس الرّسم أيضًا. وهكذا، انتهت تلك العلاقة العاطفيَّة القصيرة والباهتة مع تلك المرأة. لم أمارس الحبّ معها بالمجمل أكثر من أربع مرّات أو خمس.

أمّا المرأة المتزوِّجة التي أقمت معها علاقة غراميَّة بعد ذلك، فكانت تعيش حياةً عائليّة سعيدة لا تشوبها نواقص أو احتياجات. كان عمرها واحدًا وأربعين عامًا آنذاك (على ما أذكر)، أيْ تكبرني بخمس سنوات. وكانت قصيرةَ القامة، ووجهُها حَسَن المظهر، ترتدي دائمًا ملابسَ رفيعة الذوق. وبفضل تردُّدها إلى نادٍ رياضيّ وممارستها اليوغا، فإنَّ بطنَها كان خاليًا من الشحوم واللّحم الزائد. لديها سيّارة ميني كوپر حمراء. سيّارةٌ جديدة اشترتها لتوّها، تراها تتلألأ في الأيّام المشمسة وإنْ من مسافة بعيدة. وكانت ابنتاها تتعلّمان في مدرسة أهليّة خاصّة، تَفْرض أقساطًا طائلة، في منطقة شونان، وكانت هي نفسها من خرّيجات تلك المدرسة. وزوجها صاحب شركة، لم تقل لي ما نوعها (ولم يكن يهمّني معرفة ذلك بالطبع).

لا أفهم جيِّدًا سببَ عدم رفضها دعوتي المفضوحة إلى إقامة علاقة جنسيَّة. ربَّما كنت أتمتَّع بمغناطيس فريدٍ من نوعه في ذلك الوقت، فجذب روحَها إليَّ (إنْ صحَّ التعبير) كما يجذب المغناطيسُ أيّ قطعةِ حديد. أو ربَّما لا شأن للمغناطيس أو الرُّوح؛ وشاءت الظروفُ أنَّها كانت تبحث عن محفِّزاتٍ جنسيَّة بديلة خارج حياتها الجنسيَّة، وكنتُ أنا ذلك الرجل الذي في متناول اليد.

على أيَّة حال، استطعتُ تأمين متطلّباتها وقتذاك، بلا تردُّد، أو حيرة بطريقةٍ عفويَّة كليًّا. وبدا أنها كانت تستمتع هي أيضًا بتلك العلاقة بتلقائيَّةٍ قصوى. فمن الزاوية الجسديَّة (ولم يكن هناك زوايا أخرى جديرة بالاعتبار فعلًا)، كانت علاقتنا في منتهى السلاسة. كنَّا ننجز ما علينا بنقاوةٍ لا يعكِّر صفوها شيء، لا بل وصلت تلك النقاوة إلى مستوى يقترب من التجريد، حتَّى إنَّني فوجئتُ أنا نفسي بتلك الفكرة كلَّما انتبهتُ إليها في خضمّ العلاقة.

من المؤكَّد أنَّني عُدتُ إلى حالتي الطبيعيَّة بعد ذلك. وفي أحد أَصْباحِ بدايات الشتاء ذات الأشعة الشَّحيحة، اتَّصلت بي هاتفيًّا، وقالت بصوتٍ بدا كأنَّها تقرأ كلامًا مكتوبًا: «أعتقدُ أنَّنا من الأفضل ألَّا نتقابل بعد الآن، لأنَّنا حتَّى لو تقابلنا فلا مستقبل لتلك العلاقة». ربَّما قالت شيئًا قريبًا من هذا!

بالتأكيد، كان الوضع كما قالت تمامًا. علاقتنا من الأصل لم يكن لها جذور حتَّى يمكن أن يصبح لها مستقبل.

حين كنت أدرس في كلِّيَّة الفنون الجميلة، كنتُ متخصِّصًا في رسم اللَّوحات الزيتيَّة. ما أقصده وهو مجالٌ متنوِّع وواسع النطاق، لا يمكنني شرح موضوعاته وأشكاله، لكنَّ المُراد به عمومًا هو تلك اللَّوحات

التي «كنتُ أرسم فيها صورًا غير مجسَّدة أو ملموسة، بكامل حرِّيَّتي عدَّة مرَّات، من دون قيدٍ أو شرط». سَبَقَ أن شاركتُ بمعارض فنِّيَّة، وحصلتُ على جوائز صغيرة. ونُشرتْ لوحاتي في مجلَّات فنِّيَّة متخصِّصة. وكان عدد أساتذتي وزملائي الذين يُقدِّرون أعمالي ويشجِّعونني لا بأس به. وكنت أؤمن بامتلاكي موهبةً معيَّنة في الرسم، من دون المبالغة بعقدِ آمالٍ عظيمة على المستقبل. إلَّا أنَّ المؤسف كان يكمن في اضطراري إلى مرسمٍ كبيرٍ يتَّسع لألواحٍ كبيرةٍ من خشب القنّب، تناسب لوحاتي الزيتيَّة، ما يؤدِّي إلى ارتفاع تكلفة الرَّسم بالضرورة. ولا داعي للتذكير بأنَّ احتماليَّةَ ظهور شخصٍ غريبِ الأطوار، مستعدٌّ لشراء لوحاتٍ تجريديَّة عملاقة لرسَّامٍ مجهولٍ وتعليقها على جدران بيته، هي احتماليَّةٌ تقارب الصِّفر مهما اختلفت الظروف والأحوال.

وما دمت لا أستطيع تغطية تكاليف حياتي اليوميَّة بالاقتصار على رسم اللَّوحات التي أحبُّها فقط، اقتضى الأمر بعد تخرُّجي من الجامعة أن أرسم بورتريهات تجاريَّة، لكي أحصل على قوت يومي. رحتُ أرسم صورًا مجسَّدةً للشخصيَّات التي يُطلَق عليها «أعمدة المجتمع» (بغضّ النَّظر عن حجم «العمود» وضخامته) مثل مُدراء المدارس، وشخصيَّات جامعيَّة مهمَّة، ونوَّابٍ برلمانيِّين، وأعيان الأقاليم، إلخ. وكانوا جميعهم، بلا استثناء، يريدون أسلوبَ رسمٍ مطمْئِنًا وواقعيًّا ومتساميًا. لوحاتٌ بسيطة، عمليَّة أكثر من كونها فنِّيَّة، تصلح للتَّعليق على جدران غرف الاستقبال أو مكاتب رؤساء الشركات. بمعنًى آخر، كان عملي يتطلَّب منِّي رسم لوحات تجاريَّة تقف تمامًا على الطرف النقيض ممَّا أرغب في رسمه أنا بصفتي رسَّامًا. ولو أضفتُ أنَّني كنتُ مُكرَهًا، فهذا ليس مردُّه غرورُ الفنَّان على الإطلاق!

ثمّة شركة صغيرة في حيّ يوتسويا متخصّصة في طلبيّات البورتريه، قدّمني إليها أستاذي في الكلّيّة شخصيًا، ووقّعتُ معها عقدًا حصريًا. لم تكن ستقاضيني براتبٍ ثابت، إنّما لو أنجزتُ عددًا معيّنًا من اللّوحات، سأحصل على أجرٍ يلبّي الحاجات الأساسيّة لشابٍّ أعزب يعيش بمفرده: سأدفع إيجارَ بيت صغير يقع عند السكك الحديديّة لمحطّة سيبوكوكوبونجي، وأعيش حياةً متواضعة، وأتناول ثلاث وجبات يوميًا بقدر المستطاع، وأشتري نبيذًا رخيصًا من حين لآخر، وأذهب إلى السينما أحيانًا رفقة صديقةٍ ما. وبقيتُ هكذا لعدّة سنوات: كلّما أنجزتُ عددًا كافيًا من البورتريهات، يضمن لي الضروريّ للمعيشة، تفرّغتُ لرسم ما راق لي من لوحاتٍ فنّيّة. كنت، بطبيعة الحال، أجد رسمَ البورتريه مجرّد وسيلة مؤقّتة للحصول على قوتٍ يوميّ في تلك الآونة، ولم أكن أنوي الاستمرار على هذا المنوال إلى ما لا نهاية.

لم يكن عملًا مضنيًا على الإطلاق، فهو عمل بدنيّ بحت. لقد سَبَقَ وعملتُ أثناء الدراسة الجامعيّة في شركةٍ لنقل الأمتعة والأثاث؛ كما عملتُ بائعًا في محلّ بقالة أيضًا. كانت أعباء رسم الوجوه تبدو نزهةً بالمقارنة مع تلك الأشغال، من الناحية البدنيّة والنفسيّة على السّواء. فما إن تلتقط السّمات الجوهريّة لوجهٍ ما، حتّى تتكرّر خطوات العمل ذاتها. أصبحتُ أنهي البورتريه الواحد في وقتٍ قياسيّ؛ فالأمر لا يختلف كثيرًا عن قيادة الطائرة من خلال منظومة الطيّار الآليّ.

وهكذا، بعد الدأب على العمل برتابة حوالى العام أو أكثر، عرفتُ أنّ البورتريهات التي أرسُمها تنال استحسانًا وتقييمًا عاليًا على غير ما توقّعتُ. كان الزبائن راضين عن لوحاتي، ولم يتقدّموا بأيّ شكوى. فمن الطبيعيّ أن يقلّ الطلب إذا ازدادت شكوى الزبائن من براعة الرسّام،

وقد يُفسخ التعاقدُ معه صراحةً. أمَّا إذا كانت سمعةُ أعماله جيِّدة، زاد عليه الطلب، وزاد أجره شيئًا فشيئًا. إنَّ عالَم رسَّامي البورتريهات مجالٌ احترافيٌّ في منتهى الجدِّيَّة. ولكنْ، مع أنَّني كنتُ رسَّامًا مبتدئًا فعليًّا، فقد كانت الطلباتُ تأتيني بلا انقطاع واحدًا تلو الآخر. وارتفع الأجر إلى حدٍّ ما. وراح الموظَّف المسؤول عنِّي في الشركة يُظهِر إعجابًا واهتمامًا بأعمالي. كما أكَّد أحد العملاء إنَّ لوحاتي فيها «لمسة متميِّزة».

ولم أجد سببًا لذلك الثناء على البورتريهات التي أرسمها! فمن جهتي، كنتُ أنجز العمل الذي يُطلَب منِّي، واحدًا بعد آخر، من دون أن أُفرِغ فيه كلَّ شغفي. وصدْقًا، إن سُئلتُ لمن رسمتَ هذا الوجه، فلن أستطيع تذكُّر صاحبه. غير أنَّ هدفي في الحياة كان أن أصبح رسَّامًا، فإذا أمسكتُ بالفرشاة وتوجَّهتُ نحو اللَّوح، فإنَّ قلبي لن يطاوعني على رسم لوحةٍ تافهة، أيًّا يكنْ نوعها. وإلَّا اعتبرتُها خيانةً لروحي الفنِّيَّة، واحتقارًا للمهنة التي طَمَحْتُ إليها. وعلى هذا النحو، فإنَّني أتفادى الخِزْيَ والعار حتَّى لو لم تكن النتيجة مدعاةً للفخر. أعتقد أنَّ هذا يُسمَّى «الأخلاق المهنيَّة». أمَّا بالنِّسبة إليَّ، فكنت أعرف فقط أنَّه «لا ينبغي لي التصرُّف بشكلٍ مغاير».

هناك أمرٌ آخر في هذه المهنة. لقد صمَّمتُ، منذ البداية وحتَّى النهاية، على إنفاذ طريقتي الخاصَّة في الرَّسم. قبل كلِّ شيء، لم أكن أطلب من الشخص أن يظلَّ واقفًا أمامي كالموديل كي أرسم له وجهه. بل كنت أصرّ على مقابلة الزبون فَوْر تلقِّي طلبه. وأطلب منه أن يخصِّص لي ساعةً واحدة من وقته كي نتحادث وجهًا لوجه، في لقاءٍ عاديّ، بمفردنا. لا أعمد إلى رسم خطوطٍ هنا ومسوَّدةٍ هناك؛ إنَّما كنت أطرح عليه أسئلة متنوِّعة، فيجيب عليها: متى وُلِد، وأين، في أيِّ عائلة، كيف كانت طفولته

وصباه، ما المدارس الذي تعلَّم فيها، ما الوظائف التي شغلها، ما شكل أسرته الحاليَّة، وما الذي فعله لبلوغ مستواه الطبقيّ... كنَّا نتكلَّم على حياته اليوميَّة وهواياته. يتحدَّث أغلب الناس عن أنفسهم بكلّ سرور، بل وبحماسةٍ وحَمِيَّة (ربَّما لأنّهم في العادة لا يجدون مَن يودّ سماع تلك الأشياء). وغالبًا ما كان اللّقاء، المتَّفق على أن يكون ساعة، يمتدّ إلى ساعتَيْن أو ثلاث ساعات. وبعد ذلك، أطلب منه خمسَ أو ستّ صور فوتوغرافيَّة شخصيَّة، من الصور المعتادة التي يلتقطها بعفويَّة واعتياديَّة في حياته اليوميَّة. وفي بعض الحالات، (بعضها لا كلّها) أستخدم آلة التَّصوير الصغيرة التي أملكها، وأصوِّر وجه الزبون عدَّة صور من زوايا مختلفة.. هذا كلّ شيء.

كان عددٌ كبيرٌ من العملاء يسألني بشيء من القلق: «أما من ضرورة لأخذ الوضعيَّة المناسبة للبورتريه، والجلوس في ثبات لفترة طويلة؟». الجميع يترقَّب تذوُّقَ ذلك العذاب في اللَّحظة التي يقرِّرون فيها التوجُّه إلى الرسَّام كي يرسم وجوههم. يتخيَّلون ما اعتادوا مشاهدته في الأفلام وغيرها من الدراما: الرسَّام ـ وقد بات لا يضع طاقيَّة البيريه على رأسه ـ يمسك الفرشاة بيده، عابس الوجه، مُركِّزًا انتباهه على لوح القنَّب، حيث يقف الشخص قبالته بهيبةٍ وثبات، من دون أن يُحرِّك أيّ عضلة من جسمه..

فكنت أسألهم: «هل تريد فعلَ ذلك؟ اعلمْ أنَّ الذي ليس معتادًا على الوقوف كالموديل قد يتعب كثيرًا. يجب أن تحافظ على ثبات جسمك بوضعيَّة واحدة لوقتٍ طويل. سينتابك مللٌ خانق، وستتصلَّب عضلاتُ كتفيْك. ولكنْ، إن كنتَ تفضِّل هذا، فلا بأس عندي».

ومن الطبيعيّ أنَّ تسعةً وتسعين بالمائة منهم لا يرغبون ذلك. لأنَّ أغلبيَّتهم في أوج نشاطهم العمليّ، وليس لديهم وقتُ فراغ. وقد

يكون بينهم عجوزٌ أو متقاعدٌ عن العمل، فيفضّلون تلافي تلك المشقَّة إن أمكن.

وكنتُ أُطمئن العميلَ قائلًا: «يكفي أنَّنا التقينا وتحادثنا. لن تختلف جودةُ اللَّوحة التي أرسمها مطلقًا، سواء أبقيتَ واقفًا أمامي أم لا. وإن خيَّبتِ اللَّوحة أملَكَ، فسأتحمَّل كامل المسؤوليَّة، وأعيد رسمَها مجدَّدًا».

وبهذا، تكتمل اللَّوحةُ في غضون أسبوعَيْن (وينبغي انتظار أيَّامٍ كثيرة حتَّى تجفّ الألوان الزيتيَّة). لم أكن في حاجةٍ إلى وقوف الشخص بنفسه أمامي، إنَّما إلى الذاكرة الحيَّة عنه (بل إنَّ وجود الشخص بنفسه قد يشكِّل عائقًا أمام إنجاز اللَّوحة أحيانًا)، ذاكرةٍ مجسَّمةٍ ثلاثيَّة الأبعاد. يكفي أن أنقلها مثلما هي إلى سطح اللَّوحة. وكان يبدو أنَّني أحمل ذاكرةً بصريَّة قويَّة منذ ولادتي. وبالنِّسبة إلى أيِّ رسَّامٍ محترف، تشكِّل تلك الموهبة ـ تلك القدرة الفنِّيَّة المتميِّزة ـ سلاحًا فعَّالًا لا يُستهان به.

هناك شيءٌ آخر أراه مهمًّا، في خطوات العمل تلك، وهو أن أتوجَّه إلى الزبون بمشاعر ودٍّ وألفة، ولو قليلًا. لذا، كنت أبذل جهدًا، خلال تلك الساعة من لقائنا الأوَّل، كي أغرف منه أكبرَ قدْرٍ من العناصر التي تضعني في مشاركة وجدانيَّة معه. وكان بينهم مَن لا أستطيع استلطافه بأيِّ حال. وآخرون كنت سأتهرَّب منهم إذا توجَّب عليَّ التعامل معهم باستمرار. بيد أنَّه ليس من الصعب اكتشاف صفة محبَّبة أو اثنتَيْن في الزبون، أثناء محادثتنا الموجزة، لبناء المودَّة عليها. ثمَّة نورٌ برَّاق في قلب كلِّ كائن بشريّ أيًّا يكن، إذا تبصرَّتَ جيِّدًا في أعماقه. وكنت أصمِّم على العثور على ذلك الشيء بمهارة، وإذا بدا سطح اللَّوحة غائمًا (وهو غائمٌ في أكثر الحالات ربَّما)، فينبغي إزالة الغيوم عنه وتنظيفه بقطعةٍ

من القماش، ما سيؤدّي حتمًا إلى انتقال ذلك النور وبريقه إلى العمل الفنّيّ.

وهكذا، أصبحتُ رسّامًا متخصّصًا في رسم البورتريهات، من دون سابق تخطيط. وغدا اسمي معروفًا إلى حدٍّ ما في ذلك العالم الضيّق الفريد. وعندما تزوّجتُ، أنهيتُ عقدي الحصريّ مع تلك الشركة التي تقع في حيّ يوتسويا، وعملتُ مستقلًّا، من خلال وكيل أعمال متخصّص في تجارة اللّوحات الفنّيّة، وصرت أتلقّى العروضَ بشروطٍ ومميّزاتٍ أفضل. كان الوكيل أكبر منّي بعشر سنوات تقريبًا، وكان ذا مواهب وقدرات وطموح. هو الذي اقترح عليّ الاستقلال والتّركيز على عمل أكثر أهمّيّة. ومنذ ذلك الحين، أخذتُ برسم عدد كبير من وجوه الأشخاص (كان غالبُهم من رجال المال والأعمال والسياسة. كلُّهم مشاهير في مجالاتهم، لكنّني لم أكن أعرف أيًّا منهم تقريبًا)، وصرتُ أحصل على دخلٍ لا بأس به. لكنَّ هذا لا يعني أنّني أصبحتُ قامةً في ذلك المجال. يختلف عالم لوحات البورتريه عن عوالم الرسم الأخرى بشكل عامّ، كما يختلف عن عالم التّصوير الفوتوغرافيّ. فالمصوّر المتخصّص في تصوير الوجوه فوتوغرافيًّا يتلقّى تقديرًا، وشهرةً وإنْ محدودة؛ لا يحصل عليهما رسّام البورتريه مطلقًا. ومن النادر جدًّا أن تخرج لوحاتُه إلى العالم الخارجيّ. لأنّها لا تُنشَر في مجلّات الفنون المتخصّصة، ولا تُزيّن بها المعارضُ التشكيليّة، إنّما تظلّ معلّقةً على جدران الصالات الداخليّة، حتّى يطويها النسيان بعد أن يتراكم فوقها الغبار. وإنْ صَادف وجود شخص يتأمّل تلك اللّوحة بتمعُّن (بسبب فراغه الزائد على الأرجح)، فمن المستحيل أن يسأل عن اسم صانع اللّوحة.

أفكِّر أحيانًا أنَّني مثل العاهرة الراقية في عالم الرسم. فأنا أستغلّ التقنيَّة، وأنفِّذ جملةً من الأعمال المحدَّدة متجنِّبًا الوقوع في الخطأ بكلِّ ما يمليه عليَّ ضميري. إنَّني موهوب، وقادرٌ على إرضاء العميل. كنتُ محترفًا على أرفع الدرجات، لكنَّني لا أعمل كالآلة، بل أستخدم مشاعري بطريقتي الخاصَّة. ولم يكن أجري زهيدًا، لكنَّ الزبائن يدفعون بلا تذمُّر البتَّة؛ ذلك لأنَّ عملائي ليسوا ممَّن يشغلون بالًا بالمبلغ المدفوع. تناقلت الألسن براعتي في الرَّسم من شخص إلى آخر حتَّى ذاع صيتي. وبفضل ذلك، لم تنقطع عنِّي زيارات العملاء، وكان جدول المواعيد مكتملًا على الدوام. غير أنِّي لا أجد أيَّ رغبة أو شهوة في ذلك العمل إطلاقًا.

لأنَّني لم أصبح رسَّامًا لهذا النوع، ولم أصبح إنسانًا من هذا النوع، بسبب رغبتي وطموحي. بل إنَّ التيَّار هو الذي جرفني في ظروف مختلفة، وتوقَّفتُ في غفلةٍ منِّي عن الرسم الإبداعيّ. وكان أحد الأسباب أنَّني تزوَّجتُ، وبات لزامًا عليَّ التَّفكيرُ في حياة اقتصاديَّة مستقرَّة. ولم يكن ذلك السببَ الوحيد. فالواقع أنَّني، قبل زواجي بوقتٍ طويل، كنتُ بالفعل لا أشعر برغبةٍ عميقة في «رسمٍ إبداعيّ». وربَّما تذرَّعتُ بالحياة الزوجيَّة! فلقد أصبحتُ في سنٍّ لم يعد فيها مقبولًا أن أوصَف بالشابّ، ويبدو أنَّ شيئًا ما - يشبه اللَّهبَ المشتعلَ في القلب - راح يخفت في داخلي. وبدأتُ أنسى شيئًا فشيئًا الإحساسَ بالدفء الذي كان ذلك اللَّهب يؤمِّنه.

كان عليَّ أن أخرج من تلك الحالة في لحظةٍ معيَّنة. أن أتَّخذ إجراءً ما، لكنَّني ما فتئتُ أؤجِّله. ثمَّ سبقتني زوجتي في وضع نهايةٍ لكلّ ذاك؛ وكنتُ حينها في السادسة والثلاثين من العمر.

ـ 2 ـ

ربَّما يذهب الجميع إلى القمر

قالت لي زوجتي بهدوءٍ تامّ: «أعتذر بشدَّة، يبدو أنَّني لن أقدر على العيش معك أكثر من ذلك». ثمَّ ظلّت صامتةً لوقت طويل.

كان إعلانًا مفاجئًا تمامًا، ولم أكن أتوقَّعه مطلقًا. ولم أعرف بما أردّ حيال ذلك القول المباغت، وآثرتُ انتظار ما سيتبعه. لم أتوقَّع تكملةً سعيدةً، ولم يكن في وسعي حينَها سوى الانتظار.

كان أحدنا جالسًا قبالة الآخر في غرفة الطعام، تفصل بيننا المائدة، بعد ظهر يوم أحد في منتصف شهر مارس. وكنَّا على وشك الاحتفال بعيد زواجنا السادس في منتصف الشهر التالي. لم تنقطع الأمطار الباردة منذ صباح ذلك اليوم. أوّل ما فعلتُه، بعد أن تلقَّيتُ إعلانَها ذاك، أنْ أوليتُ وجهي ناحية النافذة، للتأكُّد من هطول المطر. فرأيتُ أمطارًا واهنة تهطل في سَكينة، وما من رياح. ورغم ذلك، كان المطر آتيًا ببردٍ يخترق الجلدَ ببطء، يخبرنا أنَّ الربيع ما يزال بعيدًا. تراءت أضواء برج

طوكيو البرتقاليّة من خلف الأمطار. ولم يكن في السماء طائر واحد؛ فلا بدَّ أنَّ الطيور تنتظر هائمة توقُّف الأمطار و لجأت إلى مأمنٍ تحت إفريز.

«ألن تسألني عن السبب؟» ـ سألتني زوجتي.

هززتُ رأسي بخفَّة، بما لا يوحي بنعمٍ أو بلا، مجرَّد هزَّةٍ لاإراديَّة، إذ لم أجد ما أقوله فعلًا، وبوضوح.

كانت ترتدي سُترةً خفيفةً بلونٍ قرمزيّ فاتح وياقةٍ واسعة، تكشف أربطة قميصها الداخليّ الأبيض عند عظام الترقوة. وبدت الأربطة كمعكرونة السپاغيتي المستَخدَمة في وجبةٍ مميّزة على وجه الخصوص.

قلتُ أخيرًا، وأنا أنظر إلى تلك الأربطة لاإراديًّا: «عندي سؤال واحد». كان صوتي فظًّا، متشنّجًا، وقد فَقَدَ نبرته.

«آمل أن أستطيع الإجابة عليه!»

«هل أنا المسؤول عن قراركِ هذا؟»

استغرقتْ زوجتي وقتها في التَّفكير، ثمّ سحبتْ نَفَسًا عميقًا ببطء، كمن ظلّ غاطسًا أمدًا طويلًا حتّى أخْرَجَ وجهه من سطح الماء.

«ليست مسؤوليّةً مباشرة، كما أعتقد».

«ليست مباشرة؟»

«لا، لا أعتقد ذلك».

حاولتُ أن أزِنَ النبرةَ المريبة لكلماتها، كالذي يضع بيضةً في كفّ يده ليتأكّد من وزنها. «هل تقصدين أنّني مسؤول مسؤوليّة غير مباشرة؟»

لم تجب زوجتي على هذا السؤال.

لكنّها قالت بديلًا عن الردّ: «منذ عدّة أيّام، قبل الفجر، رأيتُ حلمًا غريبًا. كان الحلمُ حيًّا لدرجةٍ ما عدت أميّز فيها حدود الحلم عن

الواقع. وعندما استيقظتُ، فكَّرتُ بأنَّني لم أعد قادرة على العيش معك. لا بل تيقَّنتُ من ذلك».

«بِمَ حلمتِ؟»

هزَّت رأسَها، وقالت: «اعذرني، لا أستطيع أن أخبرك بما احتواهُ الآن».

«هل لأنَّ الأحلام تخصّ الحالم وحدَه؟»

«ربَّما».

«هل ظهرتُ أنا في الحلم؟»

«لا، لم تكن في الحلم. وهذا ما قصدتُه بعدم مسؤوليَّتك المباشرة».

ولكيْ أقول شيئًا ما، لخَّصتُ ما سمعتُه للتوّ. لقد اعتدتُ منذ زمن على تلخيص ما يدلو به مُحدِّثي عندما لا أدري ماذا أقول (ولا داعي لوصف كم يضيق صدر الطرف الآخر من ذلك).

«بمعنى، أنَّكِ رأيتِ حلمًا حيًّا إلى أبعد الحدود منذ بضعة أيَّام. وعندما استيقظتِ من النوم، تيقَّنتِ أنَّكِ ما عدتِ قادرةً على الاستمرار معي. ولكنَّكِ لا تستطيعين أن تقصّي عليَّ الحلم، لأنَّ للأحلام خصوصيَّةً. أهذا ما أردتِ قوله؟»

أومأتْ برأسها، وقالت: «تمامًا».

ـ «أجل، لكنّ هذا لا يفسّر أيَّ شيء».

وضعتْ يديْها على المائدة، ونظرتْ من أعلى إلى داخل كوب قهوتها. كما لو أنَّها أرادت أن تستشير إلهًا بقراءة قعر القهوة. وبدا من نظرة عينيْها أنَّها تحاول فكّ رموزٍ في غاية الغموض وتعدُّد المعاني.

كان للأحلام بالنِّسبة إلى زوجتي معانٍ مهمَّة دائمًا. ولطالما قرَّرتْ أفعالها أو غيَّرتْ أحكامَها بناءً على حلم رأته. ولكنْ، مهما قلنا عن تعظيمها لشأن الأحلام، فمن غير الممكن أن تضرب عرض الحائط بزواجٍ دام ستَّة أعوام، لأنَّها رأت حلمًا يشبه الواقع.

«بالطبع، الحلم مجرَّد زناد. لقد اتَّضحتْ أمورٌ عديدةٌ بناءً على رؤية ذلك الحلم» ـ قالت وكأنَّها قرأتْ ما طرأ في ذهني.

«إذا سُحِب الزناد، خرجتْ طلقةُ رصاص» ـ قلت.

«ماذا تقصد؟»

«الزناد في المسدَّس عنصرٌ في منتهى الأهمِّيَّة. أرى أنَّ تعبير «مجرَّد زناد» غيرُ ملائم».

لم تقل زوجتي شيئًا، بل ظلَّت تحملق في وجهي بصمت. لا يبدو أنَّها فهمت مقصد كلامي. والحال، أنَّني أنا أيضًا لم أفهم ما عنيتُ بذلك.

سألتُها: «هل أنتِ على علاقةٍ برجلٍ آخر؟»

أومأت بنعم.

«وهل تنامين مع ذلك الرجل؟»

«أجل. أنا آسفة، ليس لديَّ مبرِّرات».

ربَّما كان يجدر بي أن أسألها مَن هو؟ ومنذ متى؟ لكنَّني لم أكن مهتمًّا لمعرفةَ ذلك؛ ولم أشأ أن أفكِّر بالأمر. لذا، أشحتُ بصري تجاه النافذة مرَّةً أخرى، وتأمَّلتُ حالةَ الأمطار المتساقطة. ما الذي منعني من إدراك ما حدث حتَّى تلك اللَّحظة؟

«بأيِّ حال، هذا مجرَّدُ شيءٍ واحد بين أشياء كثيرة».

سبرتُ أرجاء الغرفة كلّها بعينيّ. يُفترض أنّني تآلفتُ مع المكان بعد كلّ تلك السنوات، لكنَّ أجواءه تغيَّرت فجأةً، حتّى بدا لي منظرًا من بلاد غريبة.

مجرَّد شيء واحد بين أشياء كثيرة؟

ما الذي تعنيه بـ«مجرَّد شيء واحد»؟ تساءلتُ متوجِّسًا. إنَّ زوجتي تُمارس الجنسَ مع رجل غيري، لكنَّ هذا «مجرَّد شيء واحد» بين أشياء كثيرة تحدث. تُرى ما تلك الأشياء؟

قالت: «سأغادر البيت خلال أيّام، لستَ مضطرًّا لفعل شيء. أنا مَنْ عليه أن يتركَ بيت الزوجيّة بالتأكيد، لأنّني أنا التي ينبغي أن تتحمَّل المسؤوليّة».

«هل قرَّرتِ سلفًا إلى أين ستذهبين؟»

لم أحصل على جواب، لكنّه بات من الواضح أنّها اتَّخذت قرارها. وأغلب الظنّ أنّها ما كانت لتفتح الموضوع لو أنّها لم تقم بتدابير مسبقة. انقضَّ عليَّ شعورٌ فتّاكٌ بالضعف وقلَّة الحيلة، كأنّني أتعثَّر في ظلام ليلٍ حالِك. لقد قطعتْ زوجتي أشواطًا طويلة، من دون أن أعرف عن الأمر أيَّ شيء.

قالت: «سأباشر إجراءات الطلاق بأسرع ما يمكن، وأتمنّى ألّا تعرقل مجراها. أعلم أنّه سيبدو لك قرارًا أنانيًا، ولكن...»

توقَّفتُ عن تأمُّل المطر، ونظرتُ إلى وجهها. وشعرتُ مرّةً ثانيةً بالشعور نفسه، وهو أنّني لم أفهم تلك المرأة على الإطلاق، على الرَّغم من قضاء ستّ سنوات معها تحت سقفٍ واحد. كمن يتأمَّل القمر كلّ ليلة، لكنّه لا يفهم أيَّ شيءٍ عنه.

تكلّمتُ قائلًا: «لي عندكِ طلبٌ واحد. إن نفّذتِهِ، لكِ مطلقُ الحرّيّة في ما تفعلين. وسوف أختم على أوراق الطلاق بلا نقاش».

«ما هو؟»

«أنا مَن سيترك هذا البيت. بل سأتركه اليوم. وأطلب منكِ أن تبقي هنا».

«تترك البيت اليوم؟» قالت بدهشة.

«ألا تفضّلين الإسراع؟»

فكّرتْ قليلًا ثمّ قالت: «إن كانت هذه رغبتك، فسأفعل».

«تلك هي رغبتي ولا أريد أيّ شيء آخر».

كان ذلك ما أريده حقًّا. كنت مستعدًّا لفعل أيّ شيء على أن أُترَكَ وحيدًا خلال أمطار مارس الباردة في هذا البيت، الذي صار يبدو حطامَ أطلالٍ بائسة!

«سآخذ السيّارة معي، لا مانع لديكِ؟»

لا حاجة إلى السؤال؛ فالسيّارة قديمة، ومغيّر السرعات فيها يدويّ. تنازل لي عنها أحدُ الأصدقاء قبل زواجي، وتجاوز عدّادُها مائة ألف كيلومتر منذ زمن طويل. ناهيك أنّ زوجتي لا تحمل رخصةَ قيادةٍ أصلًا.

«سأعود في وقتٍ لاحق لأخذ أدوات الرسم والملابس، هل تمانعين؟»

«لا مانع. ولكنْ ماذا تقصد بوقتٍ لاحق؟ بعد متى تقريبًا؟»

«لا أعرف» ـ قلت. إذ لم أكن خليَّ البال لأفكّر في تلك الأشياء حينها. حتّى الأرض التي تحت قدميّ لم تعد باقيةً على حالها؛ وكان النهوض والبقاء واقفًا يُعدُّ إنجازًا في حدّ ذاته.

«أسألك لأنَّني قد لا أمكث هنا وقتًا طويلًا» ـ قالت زوجتي بنبرةِ مَنْ يصعب عليه قول ذلك.

«ربَّما يذهب الجميع إلى القمر» ـ قلت.

يبدو أنَّها لم تسمع جيِّدًا، فسألتْ: «ماذا؟ ماذا قلت الآن؟»

«لا عليكِ. لم أقل شيئًا ذا أهمِّيَّة».

قضيتُ ذلك المساء، حتى السَّابعة، وأنا أملأ أغراضي الضروريَّة في حقيبة رياضيَّة كبيرة، ووضعتُها في صندوق سيَّارتي الخلفيّ، بيجو 205 حمراء. وكانت الأغراض عبارةً عن عدَّة أطقم من الملابس، وأدوات الاستحمام، وبعض الكتب، ويوميَّاتي. فضلًا عن عدَّة التخييم التي كنتُ أحملها معي عند الذهاب في نزهة جبليَّة. ودفتر رسم المسوَّدات، ومجموعة أقلام رصاص. لم يخطر في بالي أكثر من تلك الأغراض. لا بأس؛ إذا احتجتُ إلى شيء فسأشتريه من مكانٍ ما.

وعندما حملتُ الحقيبة الرِّياضيَّة على كتفي وخرجتُ من الغرفة، كانت زوجتي على حالها، جالسةً إلى المائدة في غرفة الطعام. وكوبُ القهوة فوق المائدة على حاله. ومن المؤكَّد أنَّها ظلَّت تنظر فيه بالنظرة السَّابقة نفسها.

«عذرًا، أنا أيضًا أريد منك طلبًا واحدًا ـ قالت ـ إنْ وقع الطلاق وانفصلنا نهائيًّا، فهلَّا سمحتَ بأن نظلّ صديقيْن؟»

لم أفهم مغزى كلامها. وما زلت أنظر إليها بعد أن ارتديتُ الحذاء، وعلَّقتُ الحقيبةَ على كتفي، ويدي على مقبض الباب.

«نظلّ صديقيْن؟»

«إن كان ذلك ممكنًا. نتقابل من حينٍ لآخر، ونتجاذب أطراف الحديث».

لم أفهم بعد. نظلّ صديقيْن؟ نتقابل من حينٍ لآخر ونتجاذب أطراف الحديث؟ أيُّ حديثٍ هذا الذي نتجاذب أطرافه عندما نتقابل؟

بدا لي أنّها تلقي ألغازًا على مسمعي. تُرى ما الذي تحاول أن تخبرني إيّاه؟ أنّها لا تكِنّ لي البغضاء؟

فقلتُ: «حسنًا، مَن يدري؟». لم أجد كلماتٍ أخرى. ومن المرجّح أنّني لو وقفتُ في المكان نفسه، كما أنا، وفكّرتُ أسبوعًا كاملًا، فلن أستطيع العثور على تعبيرٍ آخر. لذا، فتحتُ البابَ بيدي، وخرجتُ.

خرجتُ من البيت من دون أن أفكّر بملابسي التي كنتُ أرتديها آنذاك. وما من شكٍّ في أنّني لم أكن لأنتبه حتّى لو كنت أرتدي معطف الاستحمام وثياب النوم! فعندما وقفتُ أمام مرآةٍ كبيرةٍ في حمّامات إحدى استراحات الطُرق السريعة، رأيتُ أنّني كنتُ أرتدي السُترةَ المخصَّصة للرسم، وفوقها معطفٌ مصنوعٌ من ريش الطيور ذو لون برتقاليّ مُبهرَج، وبنطلون جينز أزرق، وجزمة العمل. وكنت أعتمر قبّعةً قديمةً من الصوف. كانت السُترة خضراء، بعنقٍ دائريٍّ مهلهل الأوبار، وعليها بُقع ألوان زيتيّة بيضاء. أمّا بنطلون الجينز الأزرق، فكان الشيء الوحيد الجديد من بين ملابسي، وكان لافتًا جدًّا للانتباه بسبب لونه الأزرق الجديد. كنت أبدو في مظهرٍ فوضويٍّ للغاية، لكنّه لا يصل إلى حدّ وصفه بالشاذّ. أمّا ندمي، فكان لأنّي نسيتُ أن ألفّ عنقي بالشال.

عندما خرجتُ بالسيّارة من مرآب البناية تحت الأرض، كانت أمطارُ مارس الباردة ما تزال تهطل في صمت. وكانت مسّاحتا سيارة البيجو القديمة تُصدران صوتًا أشْبه بسعالِ عجوزٍ مبحوح.

لم أستطع تحديدَ وجهتي. قدتُ السيّارة في شوارع العاصمة بلا غاية، لفترة. ثمّ توجّهتُ من تقاطع نيشي أزابو إلى حيّ أوياما، مرورًا بطريق غايئن الغربيّ. وعند المربّع الثالث لحيّ أوياما، توجّهتُ يمينًا نحو أكاساكا. فانعطفتُ يمينًا وشِمالًا حتّى وصلتُ إلى حيّ يوتسويا. وهناك، دخلتُ محطّة وقودٍ لمحتُها في الطريق، وملأتُ الخزّان كلّه. كما طلبتُ فحص زيت المحرّك وضغط هواء الإطارات. وملأتُ سائلَ تنظيف زجاج الواجهة أيضًا، فربما أُضطرُّ إلى القيادة مسافةً طويلة، أو أقرّر الذهابَ إلى القمر!

دفعتُ التكاليف ببطاقة الائتمان، وعدتُ مرّةً أخرى إلى الطريق. كانت الطرق خاليةً في مساء يوم أحدٍ ممطر. فتحتُ المذياع على موجات إف إم، لكنّها كانت تبثّ أحاديثَ مملّةً جدًّا، ونبراتُ المتحدّثين حادّة جدًّا. وكان في مشغّلِ الأقراص المدمجة، المجموعةُ الغنائيّة الأولى للمطربة شيريل كرو، فاستمعتُ إلى ثلاث أغنيات منه، ثمَّ أطفأتُه.

انتبهتُ أنّني كنتُ على طريق ميجيرو. واستغرقتُ وقتًا لتحديد وجهتي. وأثناء ذلك، عرفتُ أنّني أسير من حيّ واسيدا باتّجاه منطقة نيريما. ضقتُ ذرعًا بالصمت، فضغطتُ ثانيةً على زرّ مشغّل الأقراص، واستمعتُ إلى أغانٍ أخرى لشيريل كرو؛ ثمَّ أطفأته مجدّدًا. كان الصمت ضاغطًا، والموسيقى مزعجة. لكنَّ الصمتَ أقلُّ الضررين. لم تكن أذناي تسمعان سوى أنين مطّاط المسّاحتين المتآكل، وصوتِ الإطارات المتواصل وهي تتقدّم في تلك الطريق المبلّلة.

وفي ذلك الصمت، تخيّلتُ زوجتي بين ذراعيْ رجلٍ غيري.

قلتُ لنفسي: كان ينبغي أن أكتشف الأمرَ بمفردي من قبل. لماذا لم يخطر في بالي؟ فنحن لم نمارس الحبّ على مدى أشهر. وكلّما

تقرَّبتُ منها أطلقتْ أعذارًا مختلفة. لا بل كانت غير متحمِّسة للممارسة، قبل ذلك بكثير. لكنَّني فكَّرتُ حينها أنَّ الإنسان تأتيه فتراتٌ كتلك، أو أنَّها قد تكون مرهقةً من العمل اليوميّ الشاقّ، ناهيك بحالة الجسم الصحِّيَّة! إلَّا أنَّها، خلافًا لذلك، كانت تنام مع رجل آخر. منذ متى يا تُرى؟ حاولتُ أن أعود بذاكرتي إلى الوراء. ربَّما منذ أربعة أو خمسة أشهر تقريبًا. أيْ في أكتوبر أو نوفمبر.

لكنَّني لم أستطع تذكُّر ما حدث في أكتوبر أو نوفمبر من العام الماضي.

وما زلت أحاول أن أتذكَّر ما حدث في خريف العام الماضي، وأنا أراعي عدم الاقتراب من ضوء مكابح السيَّارة التي تسير أمامي، متجنِّبًا عدم تخطِّي الإشارة الحمراء. فكَّرتُ بتركيزٍ شديدٍ حتَّى شعرتُ برأسي يحترق. وكنتُ أبدِّل سرعات السيَّارة بلا وعي، بالتزامن مع تيَّار السيَّارات التي تسير على يميني. فلم أشعر بالامتنان إلى هذه الدَّرجة في حياتي على قيادة سيَّارةٍ ذات تغييرٍ يدويّ؛ إذ كنت ملزمًا بتحريك يديَّ وقدميَّ إضافةً إلى التفكير بأفاعيل زوجتي.

تُرى ما الذي حدث في شهريْ أكتوبر ونوفمبر؟

تخيَّلتُ رجلًا ينزع عن زوجتي ملابسَها بيديْه في مساءٍ خريفيّ فوق سرير كبير. تذكَّرتُ أربطة قميصها الداخليّ الأبيض، وتذكَّرتُ تحته حلمةَ ثديها ورديَّةَ اللَّون. لم أشأ أن أتخيَّل تلك الأشياء، لكنَّني لم أستطع بأيِّ شكلٍ من الأشكال إيقافَ سلسلة التخيُّلات وهي تتوالى دفعةً واحدة! أطلقتُ تنهيدةً، وأوقفتُ السيَّارة في موقف استراحةٍ على الطريق كنتُ قد لمحتُه. فتحتُ النافذة، واستنشقتُ الهواءَ الرطب في الخارج بملء رئتيَّ، محاولًا تهدئة نبضات قلبي، بكلِّ ما يكفي من

الوقت. نزلتُ من السيَّارة. واخترقتُ الطريق وسط المطر الناعم بلا مظلَّة، سوى قبَّعة الصوف الشبكيَّة. ودخلتُ المحلّ، وجلستُ على مقعد في أعمق ركنٍ منه.

كان المحلّ خاليًا. جاءت النادلة لأخذ الطلب، فطلبتُ قهوةً ساخنة وشطيرة شرائح بالجبن واللحم المقدَّد. أغمضتُ عينيّ وأنا أحتسي القهوة، وهدَّأتُ مشاعري. جاهدتُ في طرد مشهد احتضانِ رجلٍ آخر لزوجتي إلى خارج رأسي، لكنَّ المشهد لم يختفِ بسهولة.

ذهبتُ إلى الحمَّام، وغسلتُ يديّ بالصابون جيِّدًا. وتأكَّدتُ مجدَّدًا من وجهي الذي يظهر أمامي في المرآة. كانت العينان أصغرَ ممَّا هما عليه عادةً، بدتا حمراويْن من تجمُّع الدماء فيهما. كنتُ أُشبه حيوانًا بريًّا تجرِّده المجاعة من قوّته تدريجيًّا، نحيلَ الجسد بشكلٍ مرعب. مسحتُ وجهي بالمنشفة، ثمّ نظرتُ إلى المرآة. فرأيتُ فيها رجلًا منهكًا في السادسة والثلاثين من العمر، يرتدي سُترة رثَّةً ملطَّخةً ببقع الألوان الزيتيَّة.

تساءلتُ وأنا أتأمَّل صورتي: تُرى إلى أين أحاول الذهاب؟ أو إلى أين قد وصلتُ بالأحرى؟ ما هذا المكان وأين يقع؟ بل، وقبل ذلك كلّه، مَن أنا في الأصل؟

فكَّرتُ وأنا أتأمَّل نفسي في المرآة أن أحاول رسمَ بورتريه لنفسي. ولو افترضنا موقتًا أنَّني نجحتُ في ذلك، فأيُّ جانبٍ من نفسي سأرسم؟ هل أكِنُّ مشاعرَ ودٍّ ولو ضئيلة تجاه ذاتي؟ هل سأعثر ولو على مجرَّد بريقٍ واحدٍ يلمع بشكلٍ ما؟

عدتُ إلى مقعدي عاجزًا عن إيجاد قرار نهائيّ. وبعد أن أنهيتُ القهوة، جاءت النادلة وصبَّت لي المزيد. فطلبتُ منها كيسًا من الورق،

ووضعتُ فيه الشطيرة التي لم تمسَّها يداي. من المؤكَّد أنَّني سأجوع لاحقًا، لا رغبة عندي في الطعام الآن.

خرجتُ من الاستراحة، وسلكتُ الطريق بالاتِّجاه نفسه، حتَّى ظهرتْ لافتةٌ تعلن عن مدخل طريق «كان إتسو» السريعة. فقرَّرتُ أن أسير فيها باتِّجاه الشَمال. لا أعرف ماذا في الشمال، لكنِّي أحسستُ أنَّ التوجُّه إلى الشمال خيرٌ من التوجُّه نحو الجنوب. كنت أريد الذهاب إلى مكان باردٍ ونظيف. أيًّا يكن، شمالًا أو جنوبًا، ليس أهمّ عندي من الرحيل بعيدًا عن تلك المدينة.

فتحتُ صندوقَ الأغراض، فعثرتُ فيه على خمسة أو ستة أقراص مدمجة. كان أحدُها يحوي أداء فرقة «إموزيتشي» الإيطاليَّة لمقطوعة «أوكتيت» (الوتريَّات الثمان) لمندلسون، فقد كانت زوجتي تحبّ الاستماعَ كثيرًا إلى ذلك العمل أثناء التجوُّل بالسيَّارة. يتكوَّن العمل من دمجٍ غريبٍ لفرقتيْن من رباعي الوتريَّات، لكنَّه لحنٌ رائع. ألَّفه مندلسون وهو في السادسة عشرة من عمره. كانت زوجتي هي التي أخبرتني بذلك. طفلٌ معجزة.

«ماذا فعلتَ عندما كنتَ في السادسة عشرة من عمرك؟»

«كنتُ أَهِيمُ حبًّا بإحدى رفيقات الصفّ» ـ أجبتُها هكذا وأنا أتذكَّر من الماضي.

«وهل ارتبطتَ بها؟»

«كلَّا، بل لم أتحدَّث إليها تقريبًا. كنتُ أتأمَّلها من بعيد فقط. لم تكن لديَّ الشجاعةُ لمخاطبتها. ثمَّ كنت أعود إلى البيت وأرسمها. رسمتُ لها عددًا كبيرًا من المسوَّدات».

«ومنذ ذلك الحين، ما زلتَ تفعل الشيء نفسه» ـ قالت زوجتي ضاحكةً.

«حقًّا، أنا أفعل الشيء نفسه تقريبًا منذ زمنٍ بعيد».

كرَّرتُ في دماغي تلك الكلمات: حقًّا، أنا أفعل الشيء نفسَه تقريبًا منذ زمنٍ بعيد.

أخرجتُ قرص شيريل كرو، ووضعتُ عوضًا عنه ألبومَ «الأهرامات» لرباعيّ الجاز الحديث. توجَّهتُ إلى الطريق السريع مستقيمًا نحو الشمال، وأنا أستمع إلى عزف ميلت جاكسون المنفرد في وصلة بلوز هادئة. كنتُ آخذ قسطًا من الراحة من حينٍ لآخر في استراحات الطريق، أتبوَّل لوقت طويل، وأحتسي عددًا من فناجين القهوة السَّوداء الساخنة، لكنَّني خلال اللَّيل تقريبًا، لم أبعد يديّ عن مقود السيَّارة. أسير دائمًا في الحارة الثانية، ولا أميل إلى حارة السَّير السَّريع إلَّا إذا عمدتُ إلى تجاوز سيَّارة نقلٍ بطيئة، ثمَّ أعود إلى الحارة الثانية فورًا. ومن الغريب أنَّني لم أشعرْ بالنّعاس. لم أشعر بالنّعاسِ حتَّى ظننتُ أنَّ النومَ لن يَزورني أبدًا. وهكذا، قبل شروق الشمس، وصلتُ إلى بحر اليابان.

عندما وصلتُ إلى محافظة «نيبغاتا»، انعطفتُ يمينًا نحو الشمال، بمحاذاة ساحل البحر، ودخلتُ محافظة «أكيتا» مرورًا بمحافظة «ياماغاتا»، ثمَّ عبرتُ البحرَ إلى جزيرة «هوكايدو» من محافظة «أوْموري». وكنت قد خرجتُ عن الطريق السريع، وأكملتُ رحلتي في الطرق العاديَّة، ببطء وتأنٍّ، إذ لم أكن على عجلةٍ من أمري. وإذ هبط اللَّيل، عثرتُ على فندق تجاريٍّ رخيص، أو نُزُلٍ يابانيّ بسيط الطِّراز، فدخلتُه وقضيتُ فيه ليلتي نائمًا على سرير ضيّق. ولحسن الحظّ، كنت سرعان ما أغفو مهما كان شكل المكان ونوع الفراش.

في صباح اليوم الثاني، اتَّصلتُ بوكيل أعمالي من مكان قريب من مدينة موراكامي، وأخبرتُه أنَّني سأتوقَّف عن العمل في رسم البورتريهات

لفترة طويلة قادمة. كان لديَّ عدد من الطلبات التي لم تُنجَز، لكنَّني لم أكن حينها في وضعٍ يسمح لي بالعمل مطلقًا.

قال بصوت صارم: «لا ينبغي أن تفعل ذلك. لقد قبلتُ الطلبيَّات على اسمك».

فاعتذرتُ، وقلتُ له: «ما باليد حيلة. أرجو أن تُبلغ العميل أنَّني تعرّضتُ لحادث مروريّ أو شيء من هذا القبيل، وأنَّ هناك رسَّامين كثيرين غيري».

صمت الوكيل بضع لحظات. لم أكن قد تأخَّرتُ قطّ عن تسليم أعمالي في الموعد المحدَّد قبل تلك المرَّة. فهو يعلم تمامًا أنَّ الإخلال بالمسؤوليَّة ليس من شِيَمي.

«هناك ظروف خاصَّة تجبرني بالبقاء بعيدًا عن طوكيو لفترة قادمة. وأعتذر أنَّني لن أستطيع العمل أثناء ذلك».

«ماذا تعني بفترة قادمة؟ ما طول هذه الفترة؟»

احترتُ بما أردّ. أغلقتُ الهاتف الجوَّال، وأوقفتُ السيَّارة فوق جسر أوَّل نهرٍ أصادفه، وتخلَّصتُ من آلة التواصل الصَّغيرة تلك بإلقائها من النافذة في النهر. لا عُذر لديَّ، وعلى الوكيل أن ييأس. فليفكِّر أنَّني ذهبتُ إلى القمر!

عرّجتُ إلى مصرفٍ في مدينة أكيتا، وسحبتُ نقدًا من ماكينة السَّحب الآليّ، وتأكَّدتُ من رصيدي المتبقّي. ما زال في حسابي قدْرٌ جيّدٌ من المال. وبما أنَّ بطاقة الائتمان موصولةٌ بهذا الحساب، فهذا يعني أنَّني سأستطيع مواصلة تلك الرّحلة، طالما أنَّني لن أنفق كثيرًا، إلَّا على تكلفة الوقود والطعام والإقامة في فندق رخيص.

ثمَّ اشتريتُ خيمةً بسيطة وكيسَ نومٍ من محلّ للتخفيضات في ضواحي مدينة هاكوداتِه، وملابس داخليَّة تقي من البرد، فالطقس باردُ جدًّا في بدايات الربيع في هوكايدو. وحرصتُ على التخييم إذ صادفتُ معسكر تخييمٍ مفتوح، بغية تقنين المصروف ما أمكنني. كنتُ أشعر داخل الخيمة بحرّيَّةٍ وانتعاش، بسبب بقاء الثلج متجمِّدًا فوق الأرض، ناهيك ببرودة اللَّيل، وربَّما بسبب اختناقي من النوم في غرف الفنادق الرَّخيصة الضيِّقة! أمَّا تحت الخيمة، فتمتدّ الأرض الصلدة، والسماءُ فوقها بلا حدود. نجومٌ لا حصر لها تتلألأ. ولا شيء آخر.

استمرَّ بي الطَّواف بسيَّارة البيجو، في أنحاء هوكايدو، قرابة ثلاثة أسابيع، بلا غاية محدَّدة. وجاء شهر أبريل ولمَّا تَذُبِ الثلوج، ومع ذلك كانت السماء تغيِّر ألوانها بشكلٍ منقطع النظير، وبدأت براعمُ النباتات تتفتَّح. وكنتُ إذا صادفتُ منطقة ينابيع ساخنة صغيرة، أبِيتُ في نُزُلٍ قريبٍ منها، وأستحمّ فيه، وأغسل شعري وأحلق لحيتي، وأتناول وجباتٍ صحيَّةً نسبيًّا. ومع ذلك، عندما وقفتُ على الميزان، اكتشفتُ أنِّي نَقُصتُ حوالى خمسة كيلوغرامات مقارنةً بما كنت عليه في طوكيو.

لم أقرأ الجرائد ولم أشاهد التلفزيون. حتَّى مذياعُ السيَّارة ساءت حالتُه تقريبًا بعد وصولي إلى هوكايدو، فلم أتمكَّن من استخدامه. وهكذا، بتُّ لا أعرف ما الذي يحدث في الدُّنيا على الإطلاق، ولا أريد أن أعرف. ذات مرَّة، دخلتُ مغسلةً أتوماتيكيَّةً في مدينة «توماكوماي»، وغسلتُ جميع ملابسي التي اتَّسخت. وأثناء انتظاري انتهاء الغسيل، ذهبتُ إلى حلَّاقٍ قريب، وطلبتُ منه أن يحلق شعرَ رأسي، من دون لحيتي. وحينها، رأيتُ بعينيَّ نشرةَ أخبار على قناة «إن إتش كيه» بعد غيابٍ طويل. بل إنَّ صوت المذيع كان يقتحم أذنيَّ حتَّى وأنا مغمض

العينَيْن. لكنَّ الأخبار التي أُذيعتْ في تلك النشرة، من البداية إلى النهاية، لا تعنيني إطلاقًا، حتَّى ظننتُ أنَّ الأحداث تقع في كوكبٍ آخر، أو أنَّ أحدًا اختلقها بما يلائم الموقف.

الخبر الوحيد الذي بدا أنَّه يعنيني كان موت عجوز في الثالثة والسبعين، هجم عليه دُبّ وهو يحصد فطرَ عشّ الغراب في منطقة جبليَّة من هوكايدو. وقال المذيع إنَّ الدُبّ بعد أن يفيق من سباته الشتويّ يكون خطيرًا للغاية بسبب جوعه الشديد وأعصابه المشدودة. وقد حَدَثَ أحيانًا أنّني، حين أبِيت في الخيمة، أنتبه فجأةً أنّني أثناء تنزُّهي قد أوغلتُ في الغابة، ولم يكن من المُستبعَد أو المستغرَب لو كنتُ أنا ضحيَّة ذاك الدبّ! صادف أنَّ الدبّ هاجم ذلك العجوز، ولم يهاجمني أنا. لكنّي، إذ سمعتُ الخبر، لم أشعر بالتعاطف مع العجوز الذي قُتِل غيلةً. لم يراودني أيٌّ من ألمٍ أو رعبٍ أو صدمةٍ لا بدَّ أنَّ المسكين أحسّ بها. بل لقد استلطفتُ الدبَّ أكثر من العجوز، ثمّ قلت في نفسي: كلّا، ليس استلطافًا؛ هو شُعورٌ أقربُ إلى التواطؤ في الجريمة.

فكَّرتُ وأنا أنظر إلى نفسي في مرآة الحلّاق: أنا لستُ في حالة طبيعيَّة. «يبدو أنّني أوشك على الجنون» ـ غمغمتُ بصوت خفيض، ومن الأفضل ألّا أقارب أحدًا وأنا على هذه الحال، لفترةٍ قصيرةٍ على الأقلّ.

ومع انتصاف أبريل، ضقت بالبرد ذرعًا. فتركتُ هوكايدو ورائي، وعبرتُ البحرَ باتّجاه هونشو. تقدَّمتُ على الطريق بمحاذاة ساحل المحيط الهادئ من أوْموري إلى إيواتِه، ومن إيواتِه إلى مياغي. وكان الطقس، كلَّما هبطتُ جنوبًا، يتّسم بملامح ربيعٍ حقيقيٍّ رويدًا رويدًا. وكنت، كما المتوقَّع، أفكِّر بزوجتي. أفكِّر بيد المجهول الذي ربَّما

يحاول معانقتها على السّرير آنذاك، في مكانٍ ما. لم أكن أريد التّفكيرَ بذلك، لكنّني لم أستطع.

لقد قابلتُ زوجتي، التي تصغرني بثلاث سنوات، قبل أن أبلغ الثلاثين بقليل. كانت تحمل شهادة العمارة من الدرجة الثانية، وتعمل في مكتب معماريّ صغير يقع في حيّ يوتسويا. كانت صديقةً لرفيقتي في المدرسة الثانويّة. كان وجهها حلوًا وشعرها سبْطًا طويلًا، وتضع مساحيقَ تجميلٍ خفيفةٍ (لكنّي، سأكتشف فيما بعد، أنّ طباعها ليست هادئةً كما توحي ملامحها). قابلناها مصادفةً، أنا ورفيقتي، أثناء تواعدنا في أحد المطاعم، فعرّفتني إليها، ووقعتُ في حبّها منذ تلك اللّحظة.

لم تكن ملامحُ وجهها متميّزةً تميُّزًا خاصًّا. لم ألحظ عيبًا معيَّنًا فيها، وبالمقابل لم تكن جذّابةً للعيون. أهدابُها طويلة، وأنفها رفيع، قامتها تميل إلى القِصْر، وتقصّ شعرَها بشكلٍ جميل، شعرها الذي يصل إلى عظام الترقوة (كانت تهتمّ به كثيرًا). وثمّة شامةٌ صغيرةٌ على الزاوية اليمنى لشفتيْها المكتنزتيْن، تتحرّك بشكلٍ عجيب بالتوافق مع تغيُّر تعابيرها، ما يُضفي عليها جاذبيةً شبقيّةً خافتة، إذا ما نُظِر إليها بانتباهٍ شديد. أمّا إذا نظرنا إليها نظرةً عامّةً، وجدنا أنّ رفيقتي التي كنتُ على علاقةٍ بها، أجملُ منها كثيرًا. ومع ذلك، فقد سلبتْ قلبي فجأةً بنظرةٍ واحدة، وكأنّه قد ضُرِب بصاعقة. تُرى لِمَ حَدَثَ هذا؟ استغرق الأمرُ منّي عدّة أسابيع لمعرفة السبب. وقد عرفته فجأةً، في لحظةٍ معيّنة: إنّها تُذكِّرُني بشقيقتي الصغرى الراحلة، بوضوحٍ وجلاء.

لا يمكنني القول إنّهما متشابهتان جسديًّا، ولو قارن أحدٌ بين صورتيْهما لأكّد على عدم وجود أيّ شبه. وهذا سبب عدم انتباهي في البداية. إنّما كانت تذكّرني بشقيقتي، لا بملامح الوجه، بل بتعابيره

وحركاته، خصوصًا بريق العينَيْن، لدرجةٍ خلتُ فيها الشبهَ تامًّا وعجيبًا. فكأنَّ الماضي يُبعث من جديد أمام عينيّ، من خلال سحرٍ أو شيءٍ كهذا!

كانت شقيقتي تصغرني هي أيضًا بثلاثة أعوام، وقد وُلدتْ بخللٍ في صمَّامات القلب. وأُجريتْ لها عمليَّات عدَّة وهي رضيعة، ونجحتْ كلُّها، لكنَّ عواقبها ظلَّت مستعصية. ولم يعرف الأطبَّاء أنفسهم إن كانت تلك الآثار ستزول مع الزمن تلقائيًّا أم ستنجم عنها مشاكل مميتة. توفِّيت شقيقتي في نهاية الأمر وأنا في الخامسة عشرة. كانت قد بدأت تتردَّد للتوّ إلى المدرسة المتوسطة؛ وقد صارعتْ ذلك الخلل الوراثيّ طوال عمرها القصير، لكنَّها لم تفقد صفاتِها المرِحة المتفائلة. ولم تشتكِ أو تبكِ حالَها، بل لطالما وضعتْ خططًا مُحْكَمةً للمستقبل، ولم يكن الموت من ضمن تلك الخطط. كانت تتميَّز بذكاءٍ فطريّ، ولم تتدنَّ نتائجها في الدراسة عن درجة ممتاز (أفضل منِّي كثيرًا). إرادتُها قويَّة، لا تحيد عن قرارها مهما حدث. وإذا تشاجرنا، الأمر الذي نادرًا ما يحدث، فكنتُ أنا من يستسلم دائمًا. هَزُلَ جسدُها جدًّا في أواخر عمرها، لكنَّ عينَيْها حافظتا على العنفوان وفيض الحياة.

كانت تانك العينان هما بالضبط ما جذبني إلى زوجتي. ففي عمقهما شيءٌ ما. وفي اللَّحظة التي رأيتُ فيها تيْنك المقلتَيْن للمرَّة الأولى، اهتزَّ قلبي بشدَّةٍ لهما. ومع ذلك، لم أفكِّر في إعادة إحياء شقيقتي الراحلة من خلال زوجتي. فأنا نفسي لا أستطيع تصوُّر مآلِ طلبٍ كهذا إلَّا خيبة الأمل. لكنِّي كنت أتطلَّع، أو بالأحرى في حاجةٍ إلى بريق الإرادة المتفائلة في عينَيْها، إلى منبع الدفء الضروريّ من أجل الحياة. كان ذلك الأمر مألوفًا بالنِّسبة إليَّ، وربَّما كان ينقصني حينها.

استطعتُ أن آخذ منها رقمَ هاتفها، واتّصلتُ بها كي نلتقي. دُهِشتْ طبعًا، واحتارت في الردّ؛ إذ كنتُ حبيبَ صديقتها. لكنّني لم أتراجع. قلت لها إنّني أريد ملاقاتها لتبادل الحديث فقط، لا أكثر. تناولنا الطعام في مطعم هادئ، وتحدّثنا ونحن جالسان وجهًا لوجه إلى المائدة. كان الحديث في بدايته متحفّظًا وجافًّا، فدبّت فيه الروح تدريجيًّا. كنت أريد معرفة كثيرٍ من الأشياء عنها، فلم تنقصني الحيلة في إيجاد المواضيع. وعرفتُ أنّ يوم ميلادها يفرق عن يوم ميلاد شقيقتي بثلاثة أيّام فقط.

«هل تمانعين إذا رسمتُ لك رسمًا سريعًا؟» ـ سألتها.

«الآن؟ هنا؟» ـ قالت وهي تنظر حولها. وكنّا قد طلبنا الحلوى للتوّ.

فقلتُ لها: «سأنجز الرّسم قبل وصول الحلوى».

«حسنًا، لا أمانع» ـ قالت وهي بين شكٍّ ويقينٍ من كلامي.

أخرجتُ من حقيبتي دفترَ المسوّدات الصّغير الذي أحمله معي دومًا، ورسمتُ مسوّدةً سريعةً لوجهها بقلم رصاص B2. وأنجزتُه كما وعدتُ، قبل أن تُحمَل إلينا أطباقُ الحلوى. كانت عيناها أهمَّ جزءٍ بالطبع. كنت أريد رسم هاتَيْن العينَيْن تحديدًا. ففيهما، يمتدّ عالمٌ عميقٌ يتخطّى الزمن.

أريتُها الرّسم. ويبدو أنّه أعجبها.

«إنّه رسمٌ حيٌّ جدًّا»، وفيه روح نشطة.

«لأنّ ذاتكِ أنتِ هي الحيّة جدًّا».

أخذتْ تتأمّل الرّسمَ طويلًا وكأنّها تعتني به. كانت كَمَنْ رأى بعينيْه ذاتَه التي لم يكن يعرفها من قبل.

«سأهديه لكِ إذا أعجبكِ».

«حقًّا؟ أيمكنني أخذه؟» سألتُ.

«بالتأكيد، فهو مجرَّد مسوَّدة».

«أشكرك».

تعدَّدت لقاءاتُنا بعد ذلك، حتَّى ارتبطنا. كان مسارًا طبيعيًا جدًّا. ويبدو أنَّ رفيقتي أُصيبت بصدمة كبيرة عندما عرفتْ أنَّ صديقتَها الحميمةَ خطفتني منها. وأعتقدُ أنَّها ربَّما كانت تخطِّط للزواج منِّي، فمن الطبيعيّ أن تثورَ غاضبةً (ولكنْ، لم تكن لديَّ أيُّ نيَّة في الزواج منها بأيّ حال). كانت زوجتي كذلك على علاقةٍ بآخر حينها، ولم تنتهِ تلك العلاقة بسهولة هي أيضًا. وثمَّة عقبات أخرى! لكنَّنا تزوَّجنا في غضون ستة أشهر تقريبًا. وأقمنا مناسبةً صغيرةً للاحتفال جمعت الأصدقاءَ فقط، واستقرَّت حياتُنا في شقَّة تقع في حيّ هيرُو. كانت الشقَّة لعمِّها، فأجَّرها لنا بثمنٍ رخيص نسبيًّا. جعلتُ من غرفة ضيِّقة مرسمًا لي، وواصلتُ العملَ في رسم البورتريهات بشكل أكثر جدِّيَّةً، لأنَّه لم يعد عملًا موقَّتًا بالنِّسبة إليَّ؛ فالحياة الزوجيَّة تتطلَّب دخلًا مستقرًّا، وكان رسمُ الوجوه الوسيلةَ الوحيدة المتاحة لي للحصول على دخلٍ لائق. كانت زوجتي تتردَّد من هناك إلى المكتب المعماريّ في محطَّة يوتسويا سانتشومِه بواسطة مترو الأنفاق. ومن البديهيّ أن أتولَّى المهام المنزليَّة، لأنَّني كنتُ أبقى في البيت. ولم أشعر بأيِّ معاناة جرَّاء ذلك، فأنا لا أكره أعمال البيت أساسًا، لأنَّني كنتُ أعتبرها فرصةً لتغيير مزاج العمل. فأعمال البيت على الأقلّ أمتع بكثير من الاضطرار إلى الذهاب يوميًّا إلى شركةٍ ما مُكرَهًا على العمل المكتبيّ.

أعتقد أنَّ السنوات الأولى من الحياة الزوجيَّة كانت هادئةً لكلٍّ منَّا، وكنَّا قانعيْن بها. وسرعان ما استقرَّت حياتُنا، ونشأ إيقاعٌ مريحٌ تلقائيًّا.

كنتُ آخذ نهايةَ الأسبوع والعطلاتِ الرسميَّةَ راحةً من الرَّسم، ونخرج معًا هنا وهناك. فأحيانًا، نذهب إلى المتاحف الفنِّيَّة، وأحيانًا أخرى نذهب في نزهة في الضواحي، أو أحيانًا نمشي في طرق العاصمة بلا هدف محدَّد.. خصَّصنا وقتًا لأحاديثنا الجادَّة، نتبادل فيه أحدثَ المعلومات عن كلٍّ منَّا، وكانت تلك عادةً مهمَّةً لنا. يصارح بعضُنا بعضًا بما حدث له بصراحةٍ ومن دون إخفاء أيِّ شيء، ثمَّ نتبادل الآراء والانطباعات حول ذلك.

لكنَّني تعمَّدتُ ألَّا أصارحها في أمرٍ واحدٍ فقط، وهو أنَّ عينيْها تذكِّرانني بعيْنيْ شقيقتي الصغرى التي ماتت في الثانية عشرة من عمرها، وأنَّ الشبه هو السَّبب الأكبر الذي جذب قلبي إليها. وربَّما لم أكن لأحاول إيقاعَها في حبِّي بحماسةٍ مماثلة لو أنَّ لها عينَيْن مختلفتَيْن! شعرتُ أنَّ من الأفضل ألَّا أصارحَها بذلك. والواقع، أنَّني لم أخبرها به نهائيًّا. كان ذلك هو السرَّ الوحيدَ الذي أخفيتُه عنها. لكنَّني لا أعرف السرَّ الذي أخفته عنِّي - والأرجح أنَّها أخفت عنِّي سرًّا ما.

اسمُ زوجتي يوزو، على اسم ثمار اليوزو، أحد أنواع اللَّيمون المستخدمة في الطبخ. وكنتُ أثناء عناقنا في السرير أحيانًا، أناديها ممازحًا بسوداتشي، وهو نوع آخر من اللَّيمون. أهمس به في أذنها خفيةً. وكانت في كلِّ مرَّة تضحك، ثمَّ تغضب قائلةً: «اسمي يوزو، لا سوداتشي. إنَّهما متشابهان حقًّا، لكنَّهما مختلفان أيضًا».

تُرى متى اتَّخذت علاقتنا مسارًا خاطئًا؟ ما فتئتُ أفكِّر وأنا أمسك مقود السيَّارة متنقِّلًا من استراحة طريقٍ إلى أخرى، ومن فندقٍ رخيص إلى آخر، بلا غاية واضحة لذلك التنقُّل. غير أنَّني لم أستطع تحديدَ نقطة التغيُّر في مسار علاقتنا! فلقد ظننتُ دائمًا أنَّها تسير على ما يرام. بالطبع،

مثلَ كلِّ زوجيْن في العالم، كانت لدينا بعضُ المشاكل العالقة، نتجادل فيها بنقاشٍ يحتدّ أحيانًا. وأعتقدُ أنَّ أكبر مشكلة كانت قضيَّة إنجاب أطفال من عدمه. لكنَّني لطالما رأيتُ أنَّه ما زال هناك وقتٌ قبل اللُّجوء إلى إصدار قرار حاسمٍ ونهائيّ يبتّ بالمسألة (أي أنَّها مشكلة يمكن تأجيلها). باستثناء ذلك، عشنا حياتَنا الزوجيَّة بطريقة طبيعيَّة، وتقبَّلَ كلٌّ منَّا الآخر نفسيًّا وجسديًّا قبولًا جيِّدًا. وكنتُ مقتنعًا بذلك، حتى نهاية النهاية.

لماذا كنت متفائلًا إلى هذه الدرجة؟ أو بالأحرى، لماذا كنت غبيًّا إلى هذه الدرجة؟ لا ريب أنَّ في رؤيتي ثغرةً رافقتني منذ الولادة. يبدو أنَّني أغفل عن رؤية شيءٍ ما دائمًا. وهذا الشيء عادةً ما يكون خطيرًا.

في الصباح، بعد أن تذهب زوجتي إلى عملها، كنت أركِّز في الرَّسم حتَّى ما بعد الظهيرة. وبعد الغداء، أخرج للتنزُّه في الجوار، ثمَّ أتسوَّق. وعند الغروب، أبدأ بإعداد الطعام، ثمَّ أذهب إلى نادٍ رياضيّ قريب للسباحة، يومَيْن أو ثلاثة في الأسبوع. وبعد أن تعود زوجتي إلى البيت، أطبخ وأحضِّر المائدة للعشاء. ثمَّ نشرب جعةً أو نبيذًا. وإذا اتَّصلتْ بي لتقول إنَّها ستتأخَّر في ساعات العمل الإضافيَّة وستتناول العشاء في مكان ما قرب المكتب، أجلس وحيدًا إلى المائدة وأتناول طعامًا بسيطًا. باتت حياتُنا الزوجيَّة على هذا المنوال، طيلة السنوات الستّ. ولم أشتكِ يومًا من ذلك.

وغالبًا ما حدث أنَّ زوجتي عملت لساعاتٍ إضافيَّة نظرًا إلى كثرة العمل. فازداد عددَ الأمسيات التي قضيتها أتناول العشاء وحيدًا. وكانت، أحيانًا، تعود إلى البيت قرابة منتصف اللَّيل، مبرِّرةً تأخُّرها بالقول: «العمل يتزايد في هذه الفترة»، وتفصِّل أنَّ أحد الزملاء ترك العملَ فجأةً، فكان عليها سدّ الفراغ، لأنَّ المكتب لم يوظِّف بديلًا منه

حتَّى الآن. وعندما تعود في ذلك الوقت المتأخّر من اللَّيل، تكون مرهقةً جدًّا. وما إنْ تستحمّ حتَّى تغطّ في نومٍ عميق. وهكذا، لم نعد نمارس الحبّ إلَّا قليلًا. كما كانت في بعض الأحيان تعجز عن إنهاء أعمالها، فتضطرّ إلى الذهاب للعمل في عطلة نهاية الأسبوع. وكنتُ بالتأكيد أصدّق تفسيراتها على عواهنها، إذ لم يكن لديَّ أيُّ سببٍ للشكّ فيها.

لكنَّني أتساءل، الآن، ربَّما لم يكن ثمَّة عمل إضافيّ! ما يعني أنَّه حين كنت أتناولُ الطعام وحيدًا، كانت تقضي ذلك الوقتَ الحميمَ مع حبيبها الجديد على سرير أحد الفنادق.

شخصيَّةُ زوجتي اجتماعيَّة تقريبًا. مظهرُها يُوحي بالهدوء والسكينة، لكنَّها بالغةُ الذكاء وسريعةُ البديهة، وتحتاج بدرجةٍ ما إلى حياة اجتماعيَّة نشيطة. لم أكن أؤمِّن لها تلك الحياةَ الاجتماعيَّة. لذا، كانت يوزو كثيرًا ما تخرج مع صديقاتها لتناول الطعام في الخارج (كان لديها عدد كبير من الصديقات)، أو تذهب مع زملائها للشرب بعد انتهاء العمل (كانت تتحمَّل الكحول أكثر منِّي، ولا تَسْكر بسهولة). ولم أعترضْ على خروجها للاستمتاع بمفردها، بل ربَّما كنتُ أحثُّها على ذلك.

عندما أفكِّر في الأمر الآن، أجد أنَّ علاقتي بشقيقتي الصغرى كانت شبيهةً بذلك. فأنا منذ الصغر، لم يكن يروقني قضاء الوقت خارج البيت، وكنتُ بعد عودتي من المدرسة أتقوقع في غرفتي وحيدًا لأقرأ أو أرسم. أمَّا شقيقتي، فكانت شخصيَّتها اجتماعيَّة تمتلئ حيويَّةً ونشاطًا. فنادرًا ما تطابقت اهتماماتنا ونشاطاتنا فيما يتعلَّق بالحياة اليوميَّة المعتادة. لكنَّ أحدنا كان يفهم الآخر جيِّدًا، ويحترم طبيعته المختلفة. ولعلَّه أمرٌ نادرٌ بين أخٍ أكبر وأختٍ صغرى في تلك المرحلة العمريَّة!

لكنَّنا ما فتئنا نتبادل الأحاديث، إذ نصعد إلى منصَّة نشر الغسيل في الطابق الثاني، صيفًا وشتاءً، ونتحدَّث بلا ملل. وكانت معظم أحاديثنا عن الأشياء المرحة والفكاهيَّة، ونطلق ضحكاتنا العالية.

قد لا يكون لذلك السَّبب أيّ شأن، لكنَّني كنتُ في جزءٍ منّي مطمئنًّا تمامًا إلى تلك العلاقة بزوجتي. لقد أدَّيتُ دوري في الحياة الزوجيَّة، دورَ الشريك المساند الصامت، بشكلٍ طبيعيٍّ وواضح. غير أنَّ يوزو لم تكن ربَّما كذلك. لعلَّها كانت تشعر بعدم الرضى كلّيًّا في جزء من حياتنا الزوجيَّة. زوجتي وشقيقتي مختلفتان جدًّا من حيث الطِباع. وأنا، لا حاجة لقول ذلك، لم أعد صبيًّا في العقد الثاني من عمري.

انتهى أبريل أيضًا. وعندما أقبل شهر مايو، بدأتُ أتعب من قيادة السيَّارة كلَّ يوم. ومللتُ من التَّفكير دومًا في الأمر نفسه بلا نهاية وأنا أمسك بمقود السيَّارة. أكرِّر التساؤلات ذاتها، لكنَّني لا أحصل على شيء! انتابني ألمٌ في ظهري ربَّما، من شدَّة الجلوس على مقعد القيادة. ناهيك أنّ سيَّارة بيجو 205 سيَّارة شعبيَّة في الأصل. مقاعدها غير مريحة، كما أنَّ نوابضها أخذت تتآكل بشكلٍ واضح. بدأتُ أشعر بألمٍ مزمنٍ في قاع العين لكثرة النَّظر إلى الطريق أمام انعكاس الضوء. وإذ فكَّرتُ بذلك، اكتشفتُ أنَّني أتنقَّل مستعجلًا ما يزيد عن شهر ونصف الشهر تقريبًا بلا هوادة، وكأنَّ شخصًا يُطاردني.

وسط الجبال، بالقرب من الحدود الفاصلة بين محافظتيْ مياغي وإواتِه، عثرتُ على ينابيع ساخنة علاجيَّة ريفيَّة صغيرة، وقرَّرتُ أن آخذ استراحة هناك. كانت الينابيع بلا اسم، تقع في عمق الوادي، وفيها مبيتٌ يستخدمه سكَّانُ المنطقة للإقامة الطويلة من أجل العلاج. كان السعر رخيصًا، وبإمكان الشخص أن يطبخ في مطبخٍ مشتركٍ لجميع

النزلاء. كنتُ أدخل الينبوع الساخن كي تستريح روحي، وأنام قدر رغبتي، وبذلك تعافيتُ من إرهاق القيادة والسفر. وكنتُ أقرأ مستلقيًا على ظهري فوق حصير التاتامي. وإذا مللتُ من قراءة الكتب، أخرجتُ دفترَ الرَّسم من حقيبتي، ورسمتُ. فقد عادت إليَّ الرَّغبةُ في الرَّسم بعد انقطاع طويل جدًّا. رسمتُ في البداية زهورَ الحديقة وأشجارَها، ثمّ رسمتُ الأرانبَ التي يربّيها أصحابُ النُزُل الريفيّ في الحديقة. كان رسمًا بسيطًا بقلم الرصاص، لكنّه نال إعجابَ كلِّ مَن رآه. بعد ذلك، رسمتُ وجوهَ الأشخاص المحيطين بي، كلَّما طُلب منّي: أرسم المقيمين معي والعاملين في النُزُل، والمارّين من أمامي. أرسم أناسًا ربَّما لن أقابلهم مرَّةً أخرى. ثمَّ أقدِّم اللَّوحات هديّةً لمن يرغب.

فكَّرتُ أخيرًا في ضرورة العودة إلى طوكيو. لن أصل إلى شيء بمواصلة السفر على الأرجح. وها قد تبيَّنتُ أنَّني ما أزال راغبًا في الرَّسم، لا رسم البورتريه التجاريّ، ولا المسوَّدات البسيطة، بل رسم لوحات فنِّيّة من إبداعي أنا، باستقرارٍ وسكينة. لا أعرف إنْ كنت سأنجح في هذا أم لا، ولكنْ، بأيّ حال، عليَّ أن أبدأ.

وهكذا، نويتُ أن أقودَ سيَّارة البيجو، وعبور إقليم طوهوكو حتى العودة إلى طوكيو. لكنَّ عمرَ السيَّارة الافتراضيّ انتهى على الطريق رقم 6، قبل دخولي مدينةَ إيواكي بقليل. شُرِخَ أنبوب الوقود، وتعطَّل المحرِّك تمامًا. ولم أكن قد أجريتُ للسيَّارة صيانةً من أيِّ نوع حتى ذلك الوقت. ولا أستطيع إبداءَ أيَّ شكوى بهذا المآل. الأمر الوحيد الذي حالفني فيه الحظُّ أنَّ السيَّارة تعطَّلت قرب ورشةِ ميكانيكيّ دمث الخُلق. أكَّد على صعوبة الحصول على قطع غيار لسيَّارة بيجو قديمةِ الطِّراز في هذا المكان، وإنْ طلبناها ستستغرق وقتًا. وحتَّى في

حال إصلاحها، ستتعرَّض لمشكلة في قطعة أخرى، خصوصًا أنَّ حزام المروحة في خطر، وبطانةَ المكابح تآكلت حتى آخر مداها، وعازلَ الصدمات في حالة سيِّئة بسبب القِدَم. قال: «لا أنتفض منها، ولكنْ من الأفضل منحها موتًا رحيمًا».

كنتُ حزينًا لوداع البيجو التي شاركتني الحياةَ في الطرق على مدى شهر ونصف الشهر، وقارَبَ عدَّادُها من بلوغ المائة وعشرين ألف كيلومتر. ولكنْ، لم يكن أمامي إلَّا أن أتركها وأمضي قُدُمًا. وفكَّرتُ أنَّ السيَّارة هي التي لفظتْ أنفاسَها الأخيرةَ بدلًا منِّي.

أهديتُ الخيمةَ وأدواتِ التخييم للميكانيكيّ تعويضًا لإرساله السيَّارة إلى المقبرة. وبعد أن رسمتُ مسوَّدةً سريعةً لسيَّارة البيجو 205، حملتُ على كتفي الحقيبة الرياضيَّة الوحيدة، ورجعتُ إلى طوكيو في قطار خطّ «جوبان». ومن المحطَّة، هاتفتُ ماساهيكو أمادا، وشرحتُ له وضعي الحاليّ من دون تعقيدات. قلت له إنَّ حياتي الزوجيَّة لا تسير على ما يرام، فخرجتُ في رحلة سفر بعض الوقت ورجعتُ إلى طوكيو توًّا، وليس هناك مكانٌ أعود إليه. وسألته عن مكان يسمح لي بالإقامة فيه.

«إنْ كان الأمر كذلك ـ قال ـ ثمَّة بيتٌ مناسبٌ تمامًا: البيت الذي أقام فيه والدي وحيدًا لفترة طويلة قبل أن يدخل مأوى العجزة في مرتفعات إيزو. البيت خالٍ، ولن تحتاج إلى تجهيزه بأيِّ شيء. ففيه الأثاث وأدواتُ المعيشة الضروريَّة كلُّها. موقعه ليس ملائمًا نسبيًّا، لكنَّ الهاتف ما يزال يعمل. بإمكانك النزول فيه إذا أعجبك».

قلت له إنَّه عرضٌ لا أحلم به. وبالفعل، كان عرضًا لا أحلم به مطلقًا.

وهكذا، بدأتُ حياتي الجديدة في مكانٍ جديد.

- 3 -
مجرَّد انعكاسٍ فيزيائيّ

بعد مرور عدَّة أيَّام من نزولي في بيت الجبل في ضواحي مدينة أوداوارا، اتَّصلتُ بزوجتي. وقد اضطررتُ إلى الاتِّصال بها خمسَ مرَّات حتّى استطعتُ التحدُّث إليها. يبدو أنَّ انشغالها في العمل ظلّ على حاله، فما زالت تعود إلى البيت في وقت متأخِّر. أو ربَّما كانت تقابل شخصًا ما خارج البيت. وفي كلا الحالتين، لم يَعُدْ الأمر يعنيني.

«أين أنتَ الآن؟» ـ سألتني يوزو.

«أنا الآن أقيم في بيت أمادا في أوداوارا»، قلت لها؛ ثمَّ شرحتُ لها التفاصيل التي أدَّت إلى إقامتي في ذلك البيت.

«لقد اتَّصلتُ بكَ مرَّاتٍ عديدة على هاتفك الجوَّال» ـ قالت يوزو.

فقلت: «لم أعد أحمله معي». ربَّما جرف التيَّارُ هاتفي بعيدًا إلى بحر اليابان. «اسمعي، أريد أن آتي إلى البيت قريبًا لأخذ بعض الأغراض. هل تمانعين؟»

«أعتقد أنَّ مفتاح البيت ما زال معكَ، أليس كذلك؟»

كنتُ قد فكّرتُ مرّةً في إلقائه مع الهاتف الجوّال في النهر، لكنّني عدلتُ عن الفكرة، فربّما يطلبون منّي أن أُعيدَه، لذا احتفظتُ به. «هل تمانعين أن أدخل البيت بمفردي، عندما لا تكونين هناك؟»

«حسنًا، إنّه ما يزال بيتك أنت أيضًا. لا أمانع بتاتًا. ولكنْ أين كنتَ؟ وماذا فعلتَ طوال تلك المدّة؟»

أجبتُ أنّني كنتُ في رحلة سفر طويلة. وحيدًا، بالسيّارة. طفتُ أقاليم الشمال الباردة هنا وهناك، حتّى انتهى عمر السيّارة في منتصف الطريق. أجملتُ تلك التفاصيل بإيجاز.

«لكنّكَ بخير الآن، أليس كذلك؟»

«ما زلتُ على قيد الحياة. السيّارة هي التي ماتت».

صمتتْ يوزو برهةً، ثمّ قالت: «لقد حلمتُ بكَ منذ فترة قصيرة».

لم أسألها أيّ حلمٍ كان. لم أشأ معرفة أيّ شيء عن الصورة التي ظهرتُ بها في أحلامها. ولم تتحدّث هي أيضًا عن الحلم.

«سوف أترك لكِ مفتاح البيت» ـ قلت لها.

«لا فرق عندي. افعلْ ما يحلو لكَ».

«سأترك المفتاح في صندوق البريد عند مغادرة المنزل».

صمتت قصيرًا، ثمّ قالت: «هل تذكر عندما رسمتَ وجهي بمسوّدة سريعة في لقائنا الأوّل؟»

«أجل، أذكر».

«ما زلتُ أُخرِجُ الرّسم من حين لآخر، وأتأمّله. لقد رسمتَه بجودةٍ عالية. أشعر أنّني أرى فيه ذاتي الحقيقيّة».

«ذاتك الحقيقيّة؟»

«أجل».

«ألا ترين وجهَكِ في المرآة كلَّ صباح؟»

«الأمر مختلف ـ فسَّرتْ يوزو ـ لأنَّ ذاتي التي أراها في المرآة مجرَّد انعكاسٍ فيزيائيّ».

بعد أن أنهيتُ المكالمة، ذهبتُ إلى الحمَّام وتأمَّلتُ المرآة. انعكس وجهي فيها. كنتُ أحدِّق إلى وجهي بجدِّيَّة لأوَّل مرَّة منذ فترة طويلة. لقد قالت زوجتي إنَّ ذاتها التي تراها في المرآة مجرَّد انعكاس فيزيائيّ. بدا لي وجهي المنعكسُ هناك كأنَّه مجرَّدُ جزءٍ وهميٍّ لذاتي التي انقسمتْ إلى جزأيْن. كنت في المرآة، لا أرى إلَّا الجزء الذي لم أختره بإرادتي. حتَّى إنَّه لم يصل درجة الانعكاس الفيزيائيّ.

بعد يومَيْن اثنيْن، ذهبتُ إلى البيت في هيرُو بسيَّارة تويوتا كورولا، بعد الظهر، وجمَّعتُ أغراضي. كانت الأمطار تهطل منذ الصباح بلا توقُّف. ركنتُ السيَّارة في مرآب البناية تحت الأرض، حيث تنبعث رائحة الأيَّام الماطرة كالمعتاد.

صعدتُ بالمصعد، وفتحتُ الباب بالمفتاح. وعندما دخلتُ البيت بعد غياب ما يقرب من شهريْن، تملَّكني انطباعٌ بأنِّي شخصٌ غريب يقتحم المكان من غير حقّ! مع أنَّني عشتُ فيه ستة أعوام، ومن المفترض أنَّني اعتدتُ كلَّ ركن من أركانه، غير أنَّ المنظر خلف الباب لا يحتوي على شيء منِّي. تكدَّستْ أطباق الطعام في حوض المطبخ، لكنَّها تبدو أنَّ زوجتي فقط مَن استخدمها. وثمَّة ملابسُ نُشرَتْ في الحمَّام، وكانت ملابس زوجتي وحدها. جرَّبتُ أن أفتح الثلَّاجة،

فوجدتُ فيها طعامًا لا أذكر أنّني رأيتُه من قبل؛ معظمه وجبات جاهزةً. حتّى الحليب وعصير البرتقال كانا من إنتاج شركةٍ ليست بتلك التي كنت أشتري منتجاتها. وكانت المُجمّدة ممتلئة كلّها. لم أكن أشتري الوجبات المجمّدة إطلاقًا. في غضون شهريْن، تغيَّرت أمورٌ كثيرة!

راودتني رغبة عارمة في غسل الأطباق المكدّسة في الحوض، وجمْع الغسيل من على الحبال وطيّه (وَكِيِّه إن أمكن)، وترتيب الأطعمة في الثلّاجة بشكلٍ جميلٍ ومنسّق. لكنّي لم أفعل ذلك بالطبع؛ فقد أصبح هذا البيت فعلًا بيتَ شخصٍ غريبٍ عنّي، وليس لي الحقّ في لمس أيّ شيء فيه.

شغلتْ أدواتُ الرّسم الحيّزَ الأكبرَ من الأمتعة. مَسانِد وألواح، وصندوقٌ ضخم وضعتُ فيه الفُرَش والألوان بأنواعها. ثمَّ الملابس. أنا في الأصل لا أحتاج إلى عدد كبير من الملابس، إذ كنتُ لا أبالي بارتداء الثياب نفسها دائمًا. ليس لديَّ بدلات ولا ربطات عنق. وباستثناء المعاطف الشتويّة الثقيلة، كانت حقيبةُ السفر الكبيرة كافيةً لكلِّ ملابسي.

وثمَّة عددٌ من الكتب التي لم أقرأها بعد، ودزّينة من الأقراص، وكوبُ القهوة الخزفيّ الأثير لديَّ. ملابس السباحة مع نظّارة السباحة وغطاء الرأس. لن أقع في أزمة إذا استغنيتُ حتّى عن هذه الأشياء.

كانت فرشاةُ الأسنان، وعدّةُ الحلاقة، ومرطّبُ الوجه، ومضادُّ أشعة الشمس، ومقوّي الشعر، ما تزال في مكانها في الحمّام. كما ظلّت علبةُ الواقي الذكريّ لم تُفتح بعد. لكنّي لم أشأ أخْذ جميع تلك الأشياء إلى مسكني الجديد. ستتخلّص منها زوجتي بالطريقة التي تراها مناسِبة.

بعد أن حملتُ الأغراض إلى السيَّارة، عدتُ إلى المطبخ، وحضَّرتُ كوبًا من الشاي، ثمَّ جلستُ لأشربه إلى مائدة الطعام. بإمكاني السماح لنفسي بذلك. كانت الغرفة غارقةً في سكينة تامَّة، ما أعطى هواءَ الغرفة ثِقلًا خفيفًا. كنتُ كمن يجلس وحيدًا في قاع البحر!

بقيتُ قرابة نصف الساعة بمفردي في تلك الغرفة. لم يأتِ زائرٌ واحد، ولم يرنّ جرسُ الهاتف، في تلك الأثناء. سوى أنَّ منظِّم الثلَّاجة توقَّف عن الدوران فجأة، ثمَّ عاود الدوران مرَّةً أخرى. أصختُ السَّمع في وسط الصمت، أبحث عن دلائل في تلك الغرفة، كأنَّني أُدلي بمثقال لقياس عمق الماء. ولكنْ، مهما أطلتُ النَّظر، فقد كان البيت لامرأةٍ تعيش فيه بمفردها، يمنعها الانشغالُ في العمل عن إيجاد وقت لإنجاز أعمال البيت، فتنجزها مجتمعةً في عطلة نهاية الأسبوع. كنت كيفما أدرتُ نظري في زوايا البيت، وجدتُ أنَّ كلَّ الأشياء تخصُّها وحدها، فلم أعثر على أيِّ أثر لشخصٍ آخر (بل لم أعثر على أثرٍ لي أنا أيضًا). من المؤكَّد أنْ لا رجلَ يأتي إلى البيت. هذا ما توصَّلتُ إليه. كانا يلتقيان في الخارج على الأرجح.

وخلال كلِّ ذلك الوقت الذي قضيته وحيدًا في البيت، تصرَّفتُ كما لو أنَّ أحدًا يسجِّل حركاتي بكاميرا مراقبة مخبَّأة في المكان. شعورٌ غريبٌ لا أقوى على وصفه. لكنَّها كانت فرضيَّة مستبعدة، فزوجتي تكاد لا تفقه شيئًا في الآلات، حتى إنَّها لا تستطيع تغييرَ بطَّاريَّة جهاز التحكُّم بمفردها. فمن غير الوارد أنَّها استطاعت تركيبَ كاميرا مراقبة. والحال، أنَّ أعصابي كانت حسَّاسة أكثر ممَّا ينبغي. تحرَّكتُ حركاتٍ متوالية، ولم أُقدِم على أيِّ فعلٍ غير ضروريّ أو غير لائق. لم أفتح أدراج يوزو للبحث في محتوياتها. كنتُ أعلم أنَّها تحتفظ برسائلها المهمَّة ودفتر يوميَّاتها

الصَّغير في عمق الدُّرْج الذي يحتوي على جواربها، لكنّي لم أمسّه. وكنت أعرف كلمة مرور حاسوبها المحمول (إن لم تكن قد غيَّرتْها)، لكنّي لم أفتحه. لا شأن يخصُّني بعدُ في هذه الأشياء. اكتفيتُ بغسل كوبِ الشاي، وجفَّفتُه بمنشفة، ثمَّ أرجعتُه إلى مكانه على رفّ الأواني، وأطفأتُ الضوء. وقفتُ بجوار النافذة أتأمَّل الأمطارَ التي تُواصل هطولَها في الخارج. كان برج طوكيو البرتقاليّ ينتصب خافتًا خلف المطر. وبعد ذلك، أسقطتُ المفتاح في صندوق البريد، ورجعتُ بالسيَّارة إلى أوداوارا. استغرقت المسافةُ ساعة ونصف الساعة تقريبًا. لكنّي كنت كمن ذهب في رحلة يوم كامل إلى بلاد غريبة.

وفي اليوم التالي، اتَّصلتُ بوكيل أعمالي، وقلتُ له إنَّني عدتُ إلى طوكيو، واعتذرتُ منه عن عدم تمكُّني من الاستمرار في العمل رسّامًا للبورتريه.

«أمَعنى ذلك أنَّك لن ترسم البورتريهات مجدَّدًا؟»

«لا، على الأرجح»، قلتُ له.

قَبِلَ إعلاني هذا بكلماتٍ موجزة، ولم يُبدِ أيّ شكوى أو ما يمكن اعتبارُه تحذيرًا أو نصيحةً؛ فهو كان يعلم تمامًا أنَّني إذا قرَّرتُ أمرًا لا أرجع عنه.

فقال في النهاية: «إنْ غيَّرتَ فكرتك، اتَّصلْ بي في أيّ وقت. فأنت مُرحَّبٌ بك دومًا».

شكرته ممتنًّا.

«ربَّما كان سؤالي تطفُّلًا، ولكنْ كيف ستجد قوتَ يومك؟»

أجبتُه بصراحة: «لم أقرِّر بعد. أعيش بمفردي، ومصاريفُ المعيشة لن تكلِّف كثيرًا. وحتى الآن، ما يزال لديَّ بعضُ المدخَّرات».

«هل ستستمرّ في رسم اللّوحات؟»

«ربَّما. فأنا لا أتقن فعل شيء آخر».

«أتمنّى لك التوفيق».

كرّرت له شكري. وبعدها، خطر في بالي فجأةً أن أسأله: «هل هناك ما يجب عليَّ أن أذكره؟»

«شيءٌ يجب عليك أن تذكره؟»

«لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك. أعني، هل لديك ما تنصحني به؟»

فكَّر الوكيل قليلًا، ثمَّ قال: «يبدو لي أنَّك تستغرق زمنًا أطول من الناس العاديّين لكي تقتنع بأمرٍ ما. ولكنْ، بالنَّظر إلى المدى البعيد، أعتقد أنَّ الزمن سيحالفك».

بدت عبارته أشبَه بعنوان أغنيةٍ قديمةٍ لمجموعة «رولينغ ستونز».

«هناك أمرٌ آخر. ـ أكمل حديثه ـ أعتقد أنَّك تمتلك موهبة فريدة في رسم البورتريه. لديك قدرةٌ رهيبة على اختراقٍ مباشرٍ لعمق الشخص الذي ترسمه، والتقاط كلّ ما تحتويه أعماقه بحاسَّة سادسة. وإنَّها لموهبة نادرة. ومن المؤسف أنَّك تمتلك هذه الموهبة ولا تستخدمها».

«لكنّي لا أريد أن أرسم البورتريه الآن».

«فهمتُ ذلك. ولكنْ، يُفترَض أنَّ تلك الموهبة ستنقذك يومًا ما. أتمنَّى أن تسير أمورُك على ما يرام».

تمنَّيت أنا أيضًا أن تسير الأمور على ما يرام، وأن يكون الزمنُ حليفي.

في اليوم الأوَّل، اصطحبني ماساهيكو أمادا، ابن مالك البيت، بسيَّارته الڤولڤو، إلى أوداوارا. ثمَّ قال لي: «إن أعجبك البيت، يمكنك السكنُ فيه منذ اليوم».

نزلنا من آخر مَخرج في الطريق السَّريع الرَّابط بين أوداوارا وأتسوغي، وتوجَّهنا نحو الجبل في طريق ضيِّقةٍ ومعبَّدة بالإسفلت. ثمَّة حقول زراعيَّة على جانبَيْها، وبيوتٌ بلاستيكيَّة لزراعة الخضروات، تفصل بينها أشجار البرقوق. لم أرَ في الطريق جنسَ بشرٍ تقريبًا، ولم أصادف إشارةَ مرورٍ واحدة. وفي النهاية، أصبحت الطريقُ صاعدةً ومتعرِّجةً بشدَّة. سرناها بسرعة منخفضة، حتَّى ظَهَرَ البيت في الأعلى. ثمَّة عمودان عملاقان فقط عند المدخل، لا بوَّابة، لا سور. ويبدو أنَّهم كانوا ينوون تشييد بوَّابةٍ وسور، فباشروا العمل ثمَّ توقَّفوا فيما بعد. ربَّما لاحظوا عدم الجدوى من ذلك أثناء العمل. ثمَّة لافتةٌ فخمة، معلَّقة على أحد العمودَيْن عند المدخل، مكتوبٌ عليها «أمادا»، تشبه لوحات الإعلانات. وخلفها، البيتُ الريفيّ الصَّغير على الطراز الغربيّ، إذ تنتأ فوق سطحه المستوي مدخنةٌ من طوبٍ أحمر بَهتَ لونُه. كان المبنى مكوَّنًا من طابق واحد، لكنَّ السقف مرتفعٌ خلافًا للمعتاد. كنت قد توقَّعتُ بيتًا يابانيًّا تقليديًّا، ما دام قد سكن فيه أحد أشهر رسَّامي النيهونغا/فنّ الرَّسم اليابانيّ التقليديّ.

أوقفنا السيَّارة في المرآب الفسيح بجوار المدخل. وعندما فتحنا الباب، صاح عدد من الطيور التي تشبه غربانَ القيق بصوتٍ حادّ، وحلَّقت نحو السماء من فوق أغصان شجرة قريبة. بدت أنَّها غير مرحِّبة بدخولنا هذا المكان. كان البيت محاطًا كليًّا بغابة بَرِّيَّة موحشة، والجانب الغربيّ وحدَه يشرف على وادٍ بإطلالةٍ رائعة.

«ما رأيك؟ مكانٌ خالٍ خلوًّا رائعًا» ـ قال لي أمادا.

وقفتُ عند الباب، ونظرتُ حولي. بالتأكيد، خالٍ خلوًّا رائعًا. أذهلتني فكرة بناء بيتٍ في مثل هذا المكان الموحش. لا بدَّ أنَّ صاحبَه يكره التعامل مع البشر بشدّة.

سألتُه: «هل سكنتَ فيه من قبل؟»

«لا، لم أسكن فيه لفترات طويلة. سوى بعض المرّات، مع العائلة بأكملها، هربًا من الحرّ، في العطلة الصيفيّة فقط. لقد نشأتُ في بيتٍ في حيّ «ميجيرو» مع أمّي لظروف الدراسة. أمّا أبي، فكان يأتي إلى طوكيو ويقيم معنا عندما يفرغ من الرّسم، ثمّ يعود إلى هنا لاستئناف العمل. وبعد أن توفّيت والدتي، منذ عشرة أعوام، أقام أبي هنا وحده إقامةً دائمةً، وانعزل عن العالم تقريبًا. وكنتُ حينها مستقلًّا».

جاءت سيّدة في أواسط العمر تسكن بالقرب من هنا، هي التي كانت تهتمّ بشؤون البيت. شرحتْ لي بعضَ الأمور العمليّة: طريقة استخدام أجهزة المطبخ، وطلب أنابيب الغاز والوقود، ومكان أنواع مختلف الأدوات، ومكان إخراج القمامة ومواعيدها.. إلخ. ويبدو أنّ الرسّام كان يعيش حياةً بسيطةً في البيت، مستقلًّا بنفسه، وذلك لقلّة الأجهزة والأدوات التي يستخدمها. ثمّ لا حاجة إلى محاضرة مستفيضة. قالت: إن صادفتَ شيئًا لا تفهمه، هاتفْني في أيّ وقت (والنتيجة أنّني لم أتّصل بها مطلقًا طوال إقامتي).

«من الأفضل أن يسكن أحدٌ هنا. فالبيت غير المأهول تتردّى حالته، ويصبح في خطر. ناهيك بالخنازير البرّيّة والقرود التي تقترب من المكان إذا عرفت أنّه مهجور» ـ أضافت.

«كثيرًا ما تظهر الخنازير البرّيّة والقرود من وقت إلى آخر في هذه الناحية» ـ أكّد أمادا.

«احترسْ من الخنازير البرّيّة. ـ قالت السيّدة ـ فالخنازير تظهر هنا في الربيع بحثًا عن فطر عشّ الغراب لتأكله. وبصفةٍ خاصّة، الأنثى التي

تربِّي صغارًا، تكون هوجاء وخطيرة جدًّا. والدبابير خطيرة أيضًا. ثمَّة أناس ماتوا من لسعتها. الدبُّور يبني أعشاشه في غابات البرقوق».

كانت غرفة المعيشة، التي تحتوي على مدفأة مفتوحة، تشكِّل مركزَ البيت. وفي الجهة الغربيَّة منها، هنالك شرفة كبيرة ورحبة ومسقوفة. وفي الجهة الشماليَّة، ثمَّة مرسمٌ مربَّع، كان الرسَّام الشهير يرسم فيه لوحاته. وفي الجهة الشرقيَّة، يقع المطبخ، وبجواره قاعةُ طعام محدودةُ المساحة، ثمَّ الحمَّام، فغرفة النوم الرَّئيسة الواسعة، وغرفة نوم أصغر للضيوف. هناك منضدة في غرفة نوم الضيوف. ويبدو أنَّ الرسَّام كان محبًّا للقراءة، فرفوف المكتبة مكدَّسةٌ بعددٍ كبير من الكتب القديمة، ولا بدَّ أنَّه كان يتَّخذ تلك الغرفةَ مكتبًا له. البيت نظيف، والسكن فيه مريح بالنِّسبة إلى قِدَمِه. أمَّا الأمر العجيب (وربَّما ليس بعجيب)، عدم وجود أيِّ لوحةٍ. الجدران خالية تمامًا من أيِّ زينة.

كان الأثاث مكتملًا، كما قال لي ماساهيكو أمادا، بما فيه الأدوات المنزليَّة وعدَّة النوم والطعام. «لا حاجة للإتيان بأيِّ شيء» يكفي أن تأتي بملابسه فقط، هذه كلماته. وكان محقًّا. بل حتَّى حطب التدفئة موجودٌ بكمِّيَّات فائضة في المخزن تحت الإفريز. لا تلفزيون في البيت (كان والد ماساهيكو يكره التلفزيون بشدَّة)، لكنَّ غرفة المعيشة فيها نظام ستريو عظيم. كانت السمَّاعات من نوع أُوتوغراف العملاقة، طِراز «تانّوي»؛ ومكبِّر الصوت المنفصل، عبارةٌ عن أسطوانةِ هواءٍ مفرغ أصليَّة. وثمَّة مجموعة مختارات عظيمة من أقراص الفونوغراف. وبنظرة سريعة، كانت صناديق الأوبرا أكثرها عددًا.

«ما من مُشغِّل أقراص مدمجة ـ قال أمادا. كان والدي يكره الأجهزة الحديثة، ولا يثق إلَّا بالأشياء القديمة. وبالطبع، لن تجد

أثرًا للإنترنت. إذا احتجتَ إليه، عليك بالنزول إلى مقهى إنترنت في المدينة».

قلت إنَّني لن أكون في حاجةٍ ماسَّةٍ إليه.

«وإذا أردتَ أن تعرف ماذا يجري في العالم، فليس أمامك إلَّا الاستماعُ إلى نشرة الأخبار من راديو الترانزستور الموجود على أحد رفوف المطبخ. وعمومًا، من الصعب التقاط الموجات هنا وسط الجبال. قد لا تسمع إلَّا إذاعة NHK فرع شيزوكا، لكنَّها أفضل من لا شيء».

«ليس لديَّ أدنى اهتمام بما يجري في العالم».

«هذا أفضل. يبدو أنَّك لو صادفتَ والدي لانسجمتَ معه».

«أكان والدك محبًّا للأوبرا؟» ـ سألته.

«أجل. إنَّه رسَّامٌ للفنّ اليابانيّ التقليديّ (النيهونغا)، لكنَّه كان يعمل وهو يستمع إلى الأوبرا. ويبدو أنَّه أثناء دراسته في ڤيننا، كان دائمَ التردُّد على مسارحها. هل تستمع إلى الأوبرا أنت أيضًا؟»

«من حينٍ لآخر».

«أنا لا أسمعها أبدًا. أجدها طويلة جدًّا ومملَّة. ثمَّة تسجيلات أوبرا بكمِّيَّات هائلة، يمكنك سماعُها كما يحلو لك، لأنَّ أبي لن يحتاجها بعد الآن. ويُفترض أنَّه سيكون سعيدًا بأن تسمعها».

«لن يحتاجها؟»

«لأنَّ مرض الزهايمر بلغ عنده درجة متقدِّمة. لم يعد يفرِّق بين الأوبرا والمقلاة».

«قلتَ ڤيننا؟ هل درس والدك فنَّ النيهونغا في ڤيننا؟»

«لا بالطبع. مهما بالغنا في القول، فما من إنسان مهووس يذهب إلى ڤينّا خصّيصًا لدراسة الرّسم اليابانيّ التّقليديّ. كان أبي في الأصل متخصّصًا في الرّسم الغربيّ، لذا، ذهب إلى ڤينّا للدراسة. كان يرسم حينها لوحاتٍ زيتيَّة في غاية الحداثة. لكنَّه، بعد فترة من عودته إلى اليابان، تحوّل فجأةً إلى النيهونغا. هذه حالة متكرّرة في مجتمع الفنَّانين. لعلَّ الهويَّة القوميَّة تصحو عندما يسافر المرء إلى الخارج».

«ثمَّ حقَّق نجاحًا».

هزَّ أمادا كتفيْه بلامبالاة، وقال: «من وجهة نظر المجتمع. ولكنْ، من وجهة نظر ابنه، كان لا يعدو أن يكون رجلًا صعبَ المراس. لا شيء في رأسه إلَّا رسمُ اللَّوحات.. وعاش حياته يفعل ما يشاء، لكنَّه بات الآن ظلًّا لذاته تلك».

«كم عمره الآن؟»

«اثنان وتسعون عامًا. يُقال إنَّه في شبابه أسرف في اللَّهو واللَّعب، لكنَّني لا أعلم تفاصيل ذلك».

شكرته قائلًا: «ممتنٌّ لك على كلِّ ما فعلته من أجلي. لقد أنقذتني هذه المرَّة».

«هل أعجبك المكان؟»

«أجل، سأكون سعيدًا لو سمحتَ لي بالإقامة هنا فترة من الوقت».

«لا مانع لديَّ. لكنّي بأيّ حال، أتمنَّى أن تُصلَح الأمورُ بينك وبين يوزو».

لم أعلّق على كلامه الأخير. فأمادا ذاته غيرُ متزوّج. بل سمعتُ إشاعةً بأنَّه ذو ميول جنسيَّة مزدوجة، واحترتُ في تصديق ذلك. صداقتنا طويلة، لكنَّنا لم نناقش تلك الأمور.

«هل ستستمرّ في رسم البورتريه؟» ـ سألني وهو يغادر البيت.

شرحتُ له تفاصيلَ رفضي القاطع للعمل في رسم البورتريه.

فطرح السؤال نفسه الذي سألني إيَّاه وكيلُ أعمالي: «كيف ستجد قوتَ يومك بعد الآن؟»

فأدليتُ بالردّ نفسه: سأقلِّص من نفقاتي، وسأعيش على ما بقي عندي من مدَّخرات. وسألتفت أخيرًا للرَّغبة في الرَّسم الحُرّ، متَّبعًا الوحي بلا قيود.

«فكرة جيِّدة. ـ قال أمادا ـ افعل ما يطيب لك لمدَّةٍ من الوقت. ولكنْ، ألا تنوي تعليم الرَّسم أيضًا، هل يزعجك ذلك؟ هناك مركز ثقافيّ أمام محطَّة أوداوارا، وفيه دوراتٌ لتعليم الرَّسم. التلاميذ هم من الأطفال على الأغلب، ثمّ أضيفت دوراتٌ للبالغين من سكَّان المدينة أيضًا. لمجرَّد رسم المسوَّدات بالرصاص والألوان المائيَّة، لا لوحات زيتيَّة. يدير تلك الفصولَ أحدُ معارف والدي، ولا يهدف إلى الربح، إنَّما يفعلها تطوُّعًا. غير أنَّه يعاني حاليًا من نقص المعلِّمين؛ وأعتقد أنَّه سيسعده إن ساعدتَه في ذلك. لن يكون أجرك عاليًا، لكنَّه قد يغطِّي تكاليف المعيشة. يكفي أن تأخذ فصلًا من يومَيْن في الأسبوع، لا أعتقد أنَّه سيشكِّل عبئًا عليك».

«لكنِّي لم أعلِّم الرَّسمَ من قبل، ولا أعرف الكثير عن الرَّسم بالألوان المائيَّة».

«إنَّه أمر بسيط جدًّا. فهو ليس مكانًا لتخريج متخصِّصين. ستقوم بتعليم المبادئ الأوليَّة فقط؛ وستعرف سرّ العمل خلال يوم واحد، لاسيَّما أنَّ تعليم الأطفال محفِّز. ثمَّ إنَّك إذ نويتَ البقاء هنا وحيدًا، فلا بدَّ لك من النزول إلى المدينة يومًا أو اثنين في الأسبوع، وإلَّا أصبحتَ

غريب الأطوار. هل شاهدتَ فيلم «Shining» البريق؟ لا أتمنّى لك مآلًا كهذا!»

قلَّد أمادا وجهَ الممثِّل جاك نيكلسون. كان لديه موهبة تقليد الوجوه منذ زمن.

ضحكتُ، وقلت: «لا بأس، سأجرِّب. لكنّي لا أضمن النتيجة».

«حسنًا، سأتَّصل بالمدير لأخبره».

بعد ذلك، ذهبنا إلى مركز سيَّارات تويوتا مستعملة، يقع على طريق رئيسة. واشتريتُ سيَّارة كورولًّا واغِنْ نقدًا على دفعة واحدة. ومنذ ذلك اليوم، بدأتُ حياتي وحيدًا فوق أحد جبال مدينة أوداوارا. فبعد قرابة الشهريْن من الترحال المستمرّ، باشرتُ حياةً هامدة، حياةَ توقُّفٍ تامّ.

من النقيض إلى النقيض.

ومع بداية الأسبوع التالي، استلمتُ فصلًا يومَي الأربعاء والجمعة، في المركز الثقافيّ أمام المحطّة. أجريتُ مقابلةً شخصيَّة بسيطة. وبما أنَّ أمادا كان وساطتي، عُيِّنتُ على الفور. كانت الدورة لتعليم الكبار مرَّتيْن في الأسبوع، وكُلِّفتُ بدورةٍ أخرى للأطفال. وسرعان ما اعتدتُ على تعليم الأطفال؛ كنتُ أستمتع برؤيتهم يرسمون. وكما قال أمادا، فإنَّ في تعليمهم محفِّزًا. تآلفتُ سريعًا معهم. ولم يكن عملي يزيد عن الطّواف لرؤية رسومهم، وإعطائهم بعضَ النصائح الفنِّيَّة البسيطة، وتشجيعهم بإيجاد النقاط الجيِّدة في أعمالهم ومدحها. كانت سياستي هي أن أجعلهم يرسمون الشيء نفسه مرَّاتٍ عديدةً قدر الإمكان. ثمّ أعلِّمهم أنَّنا حين نرسم الشيء نفسه، من زوايا مختلفة، فسنجد أنَّه يتغيَّر. فمثلما للبشر جوانبُ عديدة، فإنَّ الأشياء أيضًا تتعدَّد جوانبها. فَهِمَ الأطفالُ سريعًا أهمِّيَّة هذا الأمر.

بالمقابل، كان تعليمُ الرَّسم للكبار أصعبَ قليلًا. فالذين يتردَّدون إلى تلك الدورات كانوا إمَّا كبارًا في السنّ تقاعدوا عن العمل، أو ربَّاتِ بيوت كَبُر أطفالُهنَّ قليلًا، فصار لديهنَّ متَّسعٌ من الوقت. وبالطبع، لم يكن لهؤلاء عقولٌ مرنة مثل الأطفال، وليس سهلًا عليهم أن يتقبَّلوا أيًّا من ملاحظاتي. لكنَّ بعضهم كان لديه حاسَّة فنِّيَّة قابلة للنموّ، نسبيًّا، ومنهم مَن كان يستمتع بالرَّسم على طريقته الخاصَّة. وكنتُ أعطي عددًا من النصائح المفيدة لمن يرغب، ولكنِّي في الغالب أدعهم يرسمون كما يشاؤون. وكم كان من الصَّعب العثور في رسومهم على نقاط جيِّدة، وامتداحها قدرَ الإمكان! بدا أنَّ ذلك يُشعِرهم بسعادة بالغة. ففكَّرتُ بأنَّه قد يكفي أن يشعر المرء بالسرور بفضل الرَّسم.

وفي ذلك السِّياق، أقمتُ علاقةً بالمرأتَيْن المتزوِّجتَيْن. كانت كلتاهما ممَّن يتردَّدن على دروسي (وبالمناسبة، كانتا ترسمان لوحاتٍ لا بأس بها). لا أعرف إن كان ما فعلته أمرًا يُغتفر، فأنا الأستاذ بالنتيجة، حتَّى لو كنت بلا رخصةٍ رسميَّةٍ للتدريس؛ لكنِّي كنتُ أرى أنَّ المبدأ الأساسَ هو عدم وجود مشكلةٍ في أن يقيم شخصان راشدان علاقةً جنسيَّةً بناءً على تراضٍ بينهما، ومن المؤكَّد بالمقابل أنَّ ذلك السلوك لن ينال ثناءً من وجهة نظر المجتمع.

لن أقدِّمَ تبريرات، ولكنْ لم يكن لديَّ حينذاك أيُّ متَّسع للتَّفكير في صحَّة ما أفعله. كنتُ متشبِّثًا بقطعة خشب، تاركًا التيَّارَ يقذفني إلى حيث شاء. فالظلامُ كان حالكًا حولي، وليس في السماء قمرٌ ولا نجوم. ولن أنجو من الغرق إلَّا إذا تمسَّكتُ بقطعة الخشب تلك، لكنِّي كنتُ لا أعلم أيَّ شيء عن المكان الذي أنا فيه، ولا إلى أيِّ مكان ذاهب!

بعد عدَّة أشهر من اجتيازي تلك الصعوبة، اكتشفتُ لوحةَ توموهيكو أمادا المعنونة بـ«مقتل الكومنداتور». غير أنِّي لم أكن لأعرف حينها بأنَّ هذه اللَّوحة ستُحدِث تغييرًا جذريًّا في حياتي.

- 4 -
معظمُ الأشياء تبدو جميلةً، بالنَّظر إليها من بعيد

في صباح يومٍ مشمس من أواخر مايو، حملتُ مجموعة أدوات الرَّسم الخاصَّة بي إلى المرسم الذي كان يستخدمه الرسَّامُ الشهير توموهيكو أمادا من قبل، ووقفتُ بعد غيابٍ طويل أمام لوح قنَّب ناصع البياض (لم يتبقَّ في المرسم أيٌّ من الأدوات التي استخدمها الرسَّامُ الكبير، لا بدَّ أنَّ ابنه جمعها ووضعها في مكانٍ ما). كانت غرفة المرسم مربَّعةَ الشكل بطول خمسة أمتار لكلّ ضلع، والأرضيَّة مغطَّاةً بالألواح الخشبيَّة، والجدرانُ بيضاء. الأرضيَّة عارية، من دون أيّ بساط. على جهة الشَمال، ثمَّة نافذة كبيرة، تتدلَّى منها ستائر بيضاء بسيطة؛ بينما كانت النافذة المطلَّة على الشرق صغيرةً وبلا ستائر. لا وجود لأيّ لوحة على الجدران، كما هي حال بقيَّة جدران البيت. هناك حوضٌ خزفيّ كبير في ركن الغرفة لغسل الفُرَش وإزالة الألوان الزيتيَّة عنها، لا بدَّ أنَّه أُستخدِمَ

كثيرًا في الماضي، حتّى امتزجت على سطحه بقعٌ من كلّ أنواع الألوان. وإلى جانب الحوض، مدفأةٌ كيروسين قديمةُ الطراز. وفي السقف، مروحةٌ كهربائيَّةٌ كبيرة. وثمَّة طاولة عمل، ومقعدٌ خشبيّ دائريّ عالٍ بلا مسند للظهر. وعلى الرفوف التي أُلحقتْ بالجدار، نظامُ صوتيَّات، بحيث يتمكَّن الفنَّان القدير من سماع الأسطوانات أثناء الرَّسم. شممتُ رائحة الشجر المنعشة وهي تدخل من النافذة. كانت تلك المساحة مهيَّأة تمامًا ليركِّز الرسَّام في رسم لوحاته، قولًا واحدًا، ففيها كلُّ الأشياء الضروريَّة مجتمعةً، وما من شيء واحدٍ زائدٍ عن الحاجة.

بحصولي على تلك البيئة الجديدة، اشتدَّت فيَّ الرَّغبة لرسم شيءٍ ما. كانت مثل لوعةٍ هادئة. فالوقت المتاح لي بات غير محدود فعلًا. لا ضرورةً لرسم لوحاتٍ من أجل كسب قوت اليوم، ولست ملزَمًا بإعداد الطعام من أجل زوجتي بعد عودتها من العمل (لم أكن أتثاقل في هذا مطلقًا، لكنَّه يبقى التزامًا). لست حرًّا بإعداد الطعام من عدمه فحسب، بل لديَّ الحقّ في عدم تناول الطعام نهائيًا، والموت جوعًا إن أردتُ. كنتُ حرًّا تمامًا، وبوسعي فعل أيّ شيء كما أشاء من دون أن أراعي مشاعر أحد.

لكنّي لم أتمكَّن من الرسم، إذ كنت أقف قدَّام اللوح لساعات، أحملق في سطحه الأبيض الناصع، من دون أدنى فكرة عمَّا يجب أن أرسم فيه. لم أجد أيّ نقطة أبدأ منها. مثل روائيٍّ فَقَدَ الكلمات، مثل عازفٍ فَقَدَ آلته: مشتّتًا وسط ذلك المرسم المربَّع عديم الزينة.

لم يسبق أن خضتُ تجربةً كتلك من قبل. فعندما كنتُ أقفُ قبالة اللَّوح، كان قلبي في اللَّحظة ذاتها ينأى عن الحياة اليوميَّة المعتادة، ويظهر شيءٌ ما في رأسي. وكان في ذلك الشيء صور مفيدة أحيانًا،

أو مجرَّد أوهامٍ عديمة الجدوى أحيانًا أخرى. لكنَّ شيئًا ما كان يظهر عمومًا. ثمَّ أبحث في تلك الأشياء عن فكرة مناسبة، فأستحوذ عليها وأنقلها إلى اللَّوح، فيتطوَّر العمل من تلقاء نفسه. لكنَّني آنذاك لا أرى ذلك الشيء الذي أحتاج إليه من أجل البناء، فمهما تدفَّقت الرَّغبة، واستعرت اللَّوعة في صدري، ثمَّة ضرورةٌ لبداية حقيقيَّة.

كنت أستيقظُ في الصباح الباكر (قبل السادسة تقريبًا)، فأحضِّر القهوة في المطبخ أوَّلًا، ثم أدخل المرسمَ حاملًا كوبَ القهوة، وأجلس على المقعد أمام اللَّوح، وأحاول تركيز مشاعري. أصغي إلى صدى قلبي، لعلِّي أجد فيه صورةً يُفترَض أنَّها هناك. ثمّ أعود منهزمًا وخالي الوفاض دائمًا. يصيبني اليأس بعد أن تبوء محاولة التركيز الطويلة بالفشل، فأجلس على أرضيَّة المرسم، وأُسند ظهري إلى الحائط، وأستمع إلى أوبرا پوتشيني (لا أدري لماذا كنت حينها لا أستمع إلَّا لپوتشيني). أسمعُ أوبرا «توراندوت» و«البوهيميَّة»، أنظر عاليًا إلى مروحة السقف التي تدور بتكاسل، بانتظار مجيء فكرةٍ أو موضوعٍ ما. عبثًا. لا شيء سوى شمس مطلع الصيف تنتقل ببطء في السماء نحو الغرب.

فيمَ الخللُ يا تُرى؟ هل لأنَّني لم أرسم سوى البورتريهات التجاريَّة طيلة أعوام؟ أم ربَّما تلاشى إلهامي، مثلما يبدِّد الموجُ رمالَ الساحل تدريجيًّا؟ على أيِّ حال، سلك التيَّار في لحظةٍ ما وجهة خاطئة. ففكَّرتُ أنَّني محتاجٌ إلى الوقت. عليَّ بالصبر كثيرًا. يجب أن أجعل الزمنَ حليفي. إن نجحتُ في ذلك، سأعاود مؤكِّدًا ركوب التيَّار الصَّحيح. لا بدَّ أنَّه سيمرّ بي. لكنِّي، صدقًا، لم أكن متيقِّنًا.

بدأتْ علاقتي بالزوجتَيْن في تلك الفترة أيضًا. ربَّما كنتُ أبحث عن منفذٍ من ذلك الوضع الضاغط. أردتُ الخروج بأيِّ شكلٍ من حالة

الجمود التي وقعتُ فيها، ومن الضروريّ أن أجد مُحفِّزًا (أيًّا يكن) يزلزل روحي. بثُّ أملٍ من وحدتي أيضًا. ولم أعاشر النساء منذ فترة طويلة.

عندما أفكّر في تلك المرحلة الآن، أرى أنَّ أيَّامي كانت تجري بطريقةٍ غريبة حقًّا: أستيقظُ في الصباح الباكر، أدخل المرسم المربَّع ذا الجدران البيضاء، أقف أمام لوح الرَّسم ناصع البياض، مستجديًا أيّ فكرة أو صورة، ثمَّ أجلس على الأرض وأستمع إلى پوتشيني. فأمَّا في الإبداع، كنتُ أواجه عدمًا متكاملًا. لقد كتب كلود دبيوسي ذات مرَّة، متحدِّثًا عن فترة عجزه عن التأليف: «يومًا بعد يوم، بكلِّ بساطة، أصنع العدم». لقد كنتُ مثله تمامًا في ذلك الصيف، مستغرِقًا في «صناعة العدم» كلَّ يوم. بل ربَّما اعتدتُ على مواجهة العدم، يوميًّا، من دون أن يصبح مألوفًا لديَّ إن لم نقل صديقيْن.

كانت الزوجة الثانية تأتي مرَّتيْن في الأسبوع، بعد الغداء، بسيَّارة ميني كوپر حمراء. كنَّا ندخل السريرَ على الفور، متعانقيْن. نلتهم أجساد بعضنا بعضًا طوال الظهيرة حتَّى نشبع. بالتَّأكيد لم يكن ذلك بالعدم. فلقد كان هناك جسدٌ حقيقيٌّ بلا شكّ. واستطعتُ أن ألمس كلَّ جزء منه في الواقع، وأن أمرِّر شفتيَّ عليه. وهكذا كنتُ، كأنَّني أضغط على قاطع الضوء مرارًا، أتأرجح بين العدم الغامض الذي لا يمكن إدراكُه وبين الوجود المفرط في حقيقته. قالت إنَّ زوجها لم يحتضنْها منذ ما يقرب العاميْن. يكبرها بعشر سنوات، ومشغولٌ في عمله، ويعود إلى البيت في وقتٍ متأخِّر. ومهما أغرته بوسائل عدَّة، لا يبدي فيها تلك الرَّغبة.

«أتساءل عن السَّبب... مع أنَّ جسمك مثير وفاتن» ـ قلت لها.

شدَّت كتفيْها، وقالت: «لقد مرَّ أكثر من خمسة عشر عامًا على زواجنا، ولدينا طفلتان. ما عاد يراني غضَّةً».

«لكنَّكِ تبدين لي «طازجةً» للغاية».

«شكرًا. كلماتُكَ تُشعِرني بأنَّني خضعتُ لـ«إعادة تدوير»».

«تقصدين أنَّكِ موردٌ طبيعيّ «يتجدّد»؟»

«بالضبط».

«إنَّكِ مورد في منتهى الأهمّيَّة. وفيه إفادةٌ للمجتمع».

أطلقت ضحكةً خافتة، وقالت: «شرط ألَّا يُستخدَم بالطريقة الخاطئة».

وعدنا لينهش كلٌّ منَّا المواردَ الطبيعيَّة للآخر.

لكي أكون صادقًا، لم تجذبني تلك المرأةُ بشخصيَّتها الإنسانيَّة. وأعتقد أنَّها، بهذا المعنى، كانت تختلف عن النساء اللَّواتي ارتبطتُ بهنَّ سابقًا. لم يكن بيننا أمورٌ مشتركة كثيرة لنتحدَّث فيها. ويكاد ينعدم التطابق في بيئة كلٍّ منَّا وتجربته الماضية. وبما أنَّني في الأصل مُقِلٌّ في الكلام، فكانت هي التي تتكلَّم في غالبيّة لقاءاتنا. تحدِّثني عن أشيائها الشخصيَّة، فأجيب بإيماءةٍ أو بتعليقٍ عامّ؛ فمن الصعب أن نسمّي ما يجري بيننا بـ«الحوار».

كان حدثًا جديدًا فعلًا بالنِّسبة إليَّ، إذ كنت معتادًا على الاهتمام إنسانيًا بشخصيَّة المرأة التي تجذبني، وتأتي العلاقةُ الجسديَّة نتيجةً لذلك الاهتمام. أمَّا مع تلك المرأة، فقد جاء الجنس أوَّلًا. ولم يكن الأمر يزعجني. إذ استمتعت بالجنس أثناء علاقتي بها. ومن الوارد أنَّها استمتعت هي أيضًا. فلطالما بلغتِ الذروةَ مرَّات عدَّة وهي بين ذراعيّ، كما قذفتُ داخلَها مرَّات عدَّة.

قالت لي إنَّها المرَّة الأولى التي تنام فيها مع رجل غير زوجها منذ أن تزوَّجت. وعلى الأرجح أنَّها لم تكن تكذب. أمَّا أنا، فتلك هي تجربتي

الأولى في النوم مع امرأةٍ بعد الانفصال عن زوجتي (كلًّا، هناك استثناء واحد: شاركتُ السرير مع فتاة. لا لأنّني أردتُ ذلك. سأتحدّث عن هذه القصّة لاحقًا).

«صديقاتي متزوّجاتٌ جميعًا، وغالبًا ما يخنَّ أزواجهنّ. ويحكين لي كثيرًا عن ذلك» ـ قالت لي.

«إعادة تدوير» ـ قلت.

«لكنّي لم أكن أتوقّع مطلقًا أن أصير مثلهنّ».

نظرتُ إلى السقف وفكّرتُ في يوزو. تُرى هل تفعل الآن الشيء نفسه هي أيضًا مع رجلٍ آخر في مكانٍ ما؟

وبعد أن تغادر تلك المرأة، أبقى بمفردي في وحدةٍ طاغية. ما زال تجويفُ جسمها على السّرير كما هو. لا أجد رغبة في صنع شيء، فأقضي الوقت بالقراءة مستلقيًا على مقعدٍ في الشرفة الكبيرة. كانت الكتب في رفوف مكتبة الرسّام أمادا كلُّها كتبًا قديمة. وكثيرٌ منها رواياتٌ يندر وجودُها آنذاك. ومع أنّها حظيت في زمانها بشعبيّة وشهرة واسعة، فإنّ الناسَ في غفلةٍ من الزمن نَسَوها وأصبحت أعمالًا لا تمتدّ إليها يدُ في الأغلب. كنتُ أفضّل قراءةَ تلك الروايات القديمة. فشاركتُ ذلك العجوز، الذي لم يسبق لي أن التقيت به، مشاعرَ البقاء في الماضي وحيدًا.

وكنت أفتح زجاجة نبيذ بعد غروب الشمس (فشراء نبيذٍ، رخيص بطبيعة الحال، وقتذاك، كان أقصى أبّهة أسمح لنفسي بها). وأستمع إلى الأسطوانات القديمة (LP). كلُّ أسطوانات السيّد أمادا تحتوي على موسيقى كلاسيكيّة، ومعظمها من الأوبرا وموسيقى الحُجْرة. ويبدو أنّه

استخدمها بعنايةٍ وحرص؛ فما من خدشٍ واحد على سطحها. كنتُ أسمع الأوبرا في النهار، وموسيقى الوتريَّات الرباعيَّة لبيتهوفن وشوبرت في اللَّيل.

سمحتْ لي العلاقة بامرأةٍ متزوِّجة تكبرني سنًّا بمعانقة جسدها الأنثويّ بوتيرةٍ منتظمة، وأشعرتني بالاستقرار النَّفسيّ نوعًا ما. وقد خمدتْ مشاعرُ القلق والتَّعقيد عندي بلمس بشرةٍ ناعمةٍ لامرأةٍ ناضجة. وعلى الأقلّ، كنتُ في حضورها أرجئ التَّفكير بشكوكي ومخاوفي. لكنَّها لم تساعدني في العثور على فكرةٍ أرسمها. مع أنَّني رسمتُ جسدَها العاري في السرير بقلم الرصاص غير مرَّة. وكانت أغلب الرُّسوم من النوع الإباحيّ: قضيبي في فرجها، وقضيبي بفمها، إلخ. كانت تتأمَّل تلك المسوَّدات بسرورٍ وتتضرَّج حياءً. غالبيَّة النساء يكرهن أن يلتقط الرجلُ هذه الوضعيَّات بآلة تصوير، ويثير هذا التصرُّفُ فيهنّ مشاعرَ نفورٍ وحذرٍ تجاهه. لكنَّهنَّ يبتهجن أمام رسومٍ سريعة، خصوصًا إذا كانت على درجةٍ رفيعة من الجودة. ذلك لأنَّ الرسوم تفيض بحرارة الحياة، لا يشوبها برود الآليّ للصورة الفوتوغرافيَّة. وعلى الرَّغم من ذلك كلّه، وعلى الرَّغم من جودة تلك الرسوم، لم تظهر أيّ فكرةٍ تلهمني بحقّ.

لم يعد الفنّ التجريديّ، الذي كنت أفضِّله أيَّام الدراسة، يجذبني حينذاك. وحين كنت أنظر إلى الماضي، كانت تلك اللَّوحات التجريديَّة التي رسمتُها في السَّابق، تبدو لي مجرَّد «بحثٍ بسيطٍ عن الشكل». كنت في صباي منجذبًا بشدَّة إلى الجمال التقليديّ وتوازن الأشكال. لا بأس في هذا على الإطلاق. إلَّا أنَّني آسَف على كوني لم أُضْفِ العمق الروحانيّ الضروريّ على الجمال والتوازن. بتُّ أفهم جيِّدًا: كلُّ ما استطعتُ الحصول عليه حتَّى اللَّحظة لم يكن سوى متعة سطحيَّة

متفاوتة في منح الأشياء شكلًا معيَّنًا. لم أحصل على شيءٍ يزلزل روحي بقوَّة وعنفوان. ما عدا «البراعة» إذا أردنا أن نكون متفائلين.

كنت قد أتممتُ السادسة والثلاثين عامًا؛ أكاد أقترب من الأربعينيَّات. كنت مقتنعًا بضرورة أن أجد طابعًا أو أسلوبًا خاصًّا. فسنُّ الأربعين في حياة الإنسان هي أحد معابر العمر: إذا تجاوزه لن يعود مثلما كان. ما زال أمامي أربعُ سنوات. لكنَّ السنوات الأربع تمرّ في لمح البصر. ثم إنَّني قد أضعتُ كثيرًا من الوقت في طرقٍ متعرِّجة، إذ لم أقم بشيءٍ سوى رسم البورتريه لكسب قوتي، وعليَّ أن أجتهد أن أجعل الزمن حليفي.

أثناء إقامتي في ذلك البيت الجبليّ، تولَّدتْ لديَّ رغبةٌ في معرفة تفاصيل أكثر عن توموهيكو أمادا، مالكِ البيت. لم يَسْبق لي أن اهتممتُ بفنّ النيهونغا التقليديّ قطّ، ومع أنَّني سمعتُ باسم توموهيكو أمادا، ولو كان من طريق الصدفة، وأعرف أنَّه والدُ أحد أصدقائي، فإنَّني لم أكن أعرف الرجل حقّ المعرفة، ولا اللَّوحات التي رسمها! كان توموهيكو أمادا معلِّمًا بارزًا في مجاله، لكنَّه لم يحظَ على ما يستحقّ من شهرة، ولم يكن يَظْهر على الملأ مطلقًا، بل كان يقضي حياته وحيدًا في هدوء ـ هذا أقصى ما أعرفه عنه.

ولكنّي، لشدَّة استماعي إلى مختاراته من الأسطوانات الموسيقيَّة على الاستريو الذي تركه، وقراءتي لكتبه المصفوفة على رفوف مكتبته، ونومي في السَّرير الذي نام عليه، وتحضيري للطعام في مطبخه يوميًّا، واستخدامي يوميًّا للمرسم الذي كان يستخدمه، أصبح اهتمامي بشخصيَّة توموهيكو أمادا يتزايد. ما يشبه الفضول، إن صحّ التَّعبير. لقد انصبَّ اهتمامي الكبير على مسيرته التي بدأها بالاتِّجاه نحو الرَّسم

الحديث إلى درجة الذهاب إلى ڤيننا لدراسته، غير أنَّه انعطف نحو النيهونغا/الرَّسم اليابانيّ التَّقليديّ بعد أن عاد من ڤيننا. تطوُّرٌ أراه مبهرًا. لا أعرف تفاصيلَه، لكنَّ المنطق يقول لي إنَّه ليس من السَّهل مطلقًا على رسَّامٍ ما انفكَّ يرسم لوحاتٍ ذات طرازٍ غربيّ، أن يتخلَّى عن كلِّ الطرق والمهارات التي اكتسبها بعد عناءٍ دام سنوات، ليقرِّر أن يبدأ من الصفر. إلَّا أنَّ توموهيكو أمادا فعلها بشجاعة. ولا بدَّ من وجود سببٍ مقْنعٍ دفعه لذلك الخيار!

في أحد الأيَّام، عَرّجتُ إلى المكتبة البلديَّة العامَّة في أوداوارا، بعد أن أنهيتُ درس الرَّسم في المركز الثقافيّ. بحثتُ عن مجموعة لوحات توموهيكو أمادا في المكتبة. وعثرتُ هناك على ثلاثة مجلَّدات ضخمة لأعماله، ربَّما لأنَّه كان فنَّانًا محليًّا أيضًا. وفي أحد تلك المجلَّدات، ثمَّة مُلحقٌ للّوحات الغربيَّة التي رسمها في العشرينيَّات من عمره. ذُهلتُ من التشابه بين لوحاته تلك وما رسمتُه في الماضي من لوحاتٍ «تجريديَّة». لم يكن التشابه في الأسلوب (إذ كان متأثِّرًا جدًّا بالمذهب التكعيبيّ قبل الحرب)، إنَّما في ذلك «البحث الشَّرِه عن الشكل في حدّ ذاته»، تبيَّنتُ أنَّه لا يختلف كثيرًا عن موقفي من الشكل. وبطبيعة الحال، نظرًا إلى كونه رسَّامًا عبقريًّا، كانت لوحاته أكثرَ عمقًا وإقناعًا من لوحاتي. حتَّى التقنيَّة كانت لديه بجودةٍ مهولة، نال على أساسها تقديرًا كبيرًا حينذاك بالتأكيد! وعلى الرَّغم من ذلك، ثمَّة «شيءٌ ناقصٌ» في لوحاته تلك.

جلستُ فترةً طويلةً في المكتبة أتمعَّن في تلك الأعمال بالتَّفصيل. تُرى ما الشيء الناقص؟ لم أستطع تحديدَه بدقَّة، لكنِّي توصَّلتُ في النهاية إلى خلاصةٍ مفادها: إنَّ النقص في تلك اللَّوحات ليس له أيّ

تداعيات. ولو أنَّ مؤلِّفها لم يستطع العثور على ذلك النقص، لما استاء أحدٌ من ذلك. ربَّما كان حُكمي قاسيًا، لكنَّها الحقيقة، بالنَّظر إلى تلك الأعمال بعد سبعين عامًا من إنجازها.

قلَّبتُ الصفحات، وصولًا إلى لوحاته بعد «التحوُّل» إلى فنّ الرَّسم اليابانيّ التقليديّ، بحِقَبه المختلفة. فبعد مرحلة البداية التي تركت بصمات غير واضحة لأنَّه كان يقلِّد أسلوبَ من سبقه من الرَّسامين الطليعين إلى أن أخذ يشقّ طريقه المتفرّد في تيَّار النيهونغا، تدريجيًّا، ولكنْ بثقةٍ عالية. استطعتُ تتبُّعَ مسار ذلك التحوُّل. فلئن كان فيه حالة تجريبٍ تجعله يرتكب أخطاء، فإنَّه لم يقع في حيرةٍ إزاء فكرته إطلاقًا. ومنذ أن وضع فرشاته في خدمة النيهونغا، اكتسبت أعماله طابعًا أصيلًا ومتميِّزًا، وكان على دراية بذلك. وصار يمضي في ذلك الاتِّجاه بثقةٍ ورباطة جأش. حتَّى إنَّني لم أعد أشعر بذلك الشيء الناقص الذي شعرتُ به إزاء لوحاته الغربيَّة. وإنَّ هذه أكبر من أن تُسمَّى تحوُّلًا، بل سموًّا ونقاءً.

كان توموهيكو أمادا في البداية مثلَ جميع رسَّامي النيهونغا، يرسم الزهورَ والمناظرَ الموجودة في الواقع. ثمَّ تحوَّل، لسببٍ ما، إلى رسم مناظرَ من التاريخ اليابانيّ القديم. ثمَّة لوحاتٌ اتَّخذ مواضيعَها من عصر هييان وعصر كاماكورا. لكنَّ العصر الأثير لديه هو عصر الأمير شوتوكوتايشي، الموافق للقرن السَّابع الميلاديّ. لقد أعاد إحياءَ مناظر ذلك العصر، والأحداث التي حصلت فيه، والحياة المعتادة لعامَّة الناس، بجسارةٍ كبيرة ودقَّةٍ متناهية. ومن البديهيّ أنَّه لم يكن قد شاهد تلك المناظر على أرض الواقع، لكنَّه على الأرجح شاهدها من خلال

بصيرته واضحةً جليّة. لا أعرف سبب اختياره عصرَ أسْكا[1] بالتَّحديد. إلّا أنّه أصبح عالمَه المتميّز وأسلوبَه الذي تفرّد به. وفي الوقت ذاته، أخذ يصقل تقنيّات فنّ الرّسم اليابانيّ بشكل عامّ.

بالتعمُّق في أعماله، لاحظتُ أنّه بات إلى حدٍّ ما قادرًا على رسم ما يريد بحُرّيّةٍ وسلاسة. ومن ثَمّ، صارت ريشتُه ترقص وتقفز فوق سطح اللّوحة بانسيابيّةٍ عالية. وكانت الفراغات البيضاء هي أروع ما في لوحاته. هذا تناقضٌ، لكنَّ أجمل ما في اللّوحة هو الجزءُ الناقص، الذي لم يُرسَم. فبفضل جرأته على عدم رسم ذلك الجزء، استطاع أن يُبرز ما يريد. ولا بدَّ أنَّ فنّ النيهونغا يتميّز بهذه التقنيّة؛ إذ لم يحدث أن رأيتُ فراغاتٍ بذلك الاتّساع في لوحةٍ غربيّة. تملّكني انطباعٌ بأنّني فهمتُ عمومًا سبب انعطافة أمادا. أمّا الأمر الذي لم أكن أعرفه، فهو الحقبة التي اتَّخذ فيها قراره الجريء، وبدأ بالشروع فيه.

قرأتُ سيرته الذاتيّة المختصرة في آخر المجلّد. وُلد في أَسُو، بمحافظة كوماموتو، لأسرةٍ ثريّة. والدُه من أعيان الأقاليم ومن كبار مُلّاك الأراضي. برزتْ موهبتُه في الرّسم منذ صباه، وأظهر عبقريّةً فيه رغم صغر سنّه. وعندما تخرَّج من مدرسة طوكيو للفنون الجميلة (جامعة طوكيو للفنون الجميلة حاليًّا)، عُقدتْ عليه آمالٌ كبيرةٌ في المستقبل، فذهب إلى ڤيِنّا للدراسة ما بين 1936 وحتى 1939. وفي بداية العام 1939، قُبَيل اندلاع الحرب العالميّة الثانية، عاد إلى الوطن على سفينة ركّابٍ غادرتْ ميناءَ بريمن ـ إن تحدَّثنا عن الفترة بين العامَيْن 1936

(1) عصر أسْكا الممتدّ ما بين 538 و710 بعد الميلاد، والذي شهد دخول البوذيّة إلى اليابان. وسمّي بذلك نسبةً إلى منطقة أسْكا التي كانت مقرًّا للبلاط الأمبراطوريّ آنذاك (المحرّر).

و1939 فهي الفترة التي قضاها في ڤيِنّا تصادف سيطرة هتلر على مقاليد الحكم في ألمانيا. وفي مارس 1938، وقعت عمليّة أنشلوس، وضُمَّت النمسا على إثرها لألمانيا. ما يعني أنَّ تومو هيكو أمادا الشابّ كان في ڤيِنّا وسط اضطرابات ذلك الزمن العصيب. ولا ريب أنّه كان شاهد عيان على أحداثٍ تاريخيّة دراماتيكيّة للغاية.

ولكنْ، ما الذي وقع له شخصيًّا؟

قرأتُ دراسةً منشورةً في مجلَّد أعماله الفنِّيَّة بعنوان تحليل أعمال توموهيكو أمادا. لكنِّي استخلصتُ منها غموضًا تامًّا بشأن فترة إقامته في ڤيِنّا. تستعرض الدراسةُ كثيرًا من التَّفاصيل المحدَّدة لمسيرته رسَّامًا لفنّ النيهونغا التقليديّ بعد عودته إلى اليابان، لكنَّها لا تُقدِّم سوى تكهُّناتٍ مبهمةٍ بلا براهين حول دوافع «التحوُّل» الذي يُفتَرض أنَّه بدأه في ڤيِنّا. فما الذي فعله في ڤيِنّا؟ وما الذي جعله يحسم قراره بهذا التحوُّل الجريء؟.. تظلّ هذه ألغازًا لا حلّ لها.

عاد توموهيكو أمادا إلى اليابان في فبراير من العام 1939، واستقرّ في بيتٍ بالإيجار، يقع في منطقة سِنداغي في طوكيو. وفي تلك الآونة، كان قد تخلَّى تمامًا عن الرَّسم بالطريقة الغربيَّة. وظلَّ يتسلَّم تحويلاتٍ ماليَّةً من عائلته شهريًّا، تعينه على تدبُّر أموره المعيشيَّة. كانت والدته بصفة خاصَّة تحبُّه إلى درجة الدلال. وكان في تلك الفترة، يدرس أصولَ فنّ النيهونغا معتمدًا على نفسه. وحاول غيرَ مرَّة أن يبحث عن أستاذٍ يتتلمذ على يديه، لكنَّه لم يفلح. فالتواضع ليس من طباعه أصلًا، ولا هو قادرٌ على تمتين الصداقات وإقامة العلاقات الدافئة، بل كانت سمة الانعزال الروحيّ العميق والجذريّ صفةً مهيمنةً عليه طوال حياته.

وقع الهجوم على ميناء بيرل هاربر في نهاية العام 1941. وبعد دخول اليابان الحرب بكلّ قوّتها، غادر أمادا طوكيو التي ساد فيها التوتُّر، وعاد إلى بيت عائلته في قرية أسو. ولأنَّه الابن الثاني، فقد أفلتَ من أعباء تولّي إدارة أملاك العائلة، وأُعطي بيتًا صغيرًا مع خادمة عاش فيه بمفرده، وقضى هناك حياةً هادئةً خلال سنوات الحرب غير مكترثٍ لأهوالها تقريبًا. ولحسن الحظّ، أو لسوئه، كان قد وُلد بتشوُّهٍ خُلُقيٍّ في الرئة، ما جعله في مأمنٍ من التجنيد في الجيش (إلَّا إذا كانت حيلةً من العائلة لتخليصه من الخدمة العسكريَّة). لم يكن يعاني الجوع مثل عامَّة الشعب اليابانيّ؛ وطالما أنَّه كان يسكن في وادٍ عميقٍ بين الجبال، فلا خوف عليه من القذائف الأميركيَّة إلَّا في حال وقوع خطأ مأساويّ. وهكذا، ظلَّ منعزلًا في أحد جبال أسو حتَّى نهاية الحرب عام 1945. قطع كلَّ علاقته بالمجتمع، فلا غرابة في أن يصبَّ كلَّ تركيزه على تعلُّم فنون النيهونغا تعلُّمًا ذاتيًّا. وخلال تلك الفترة، لم يعرض أيّ عمل فنّيٍّ البتَّة.

لم يكن من الهيِّن على أمادا التزام الصمت طيلة ستّ سنوات، والانعزال كلِّيًا عن دائرة الضوء في الوسط الفنِّيّ، وهو الذي ذهب حتَّى فيِنًا لدراسة الرّسم الغربيّ، عاقدًا الآمال بمستقبلٍ يضمن له شهرةً واعترافًا في العالم بأسره. وبالمقابل، فإنَّه لم يكن بالشخص الذي يستسلم للإحباط بسهولة. فبعد أن وَضعت الحربُ الطويلةُ أوزارَها، وسط معاناة الجميع للخروج من تلك الفوضى الكبرى، ظهر توموهيكو أمادا بانطلاقةٍ جديدة رسَّامًا صاعدًا في رسم النيهونغا. وبدأ يعرض لوحاته، التي راكمها طيلة تلك السنوات، واحدةً بعد أخرى. ولئن كان كبار الفنَّانين قد رسموا أثناء الحرب لوحاتٍ وطنيَّة تعبِّر عن سياسات الدولة البطوليَّة، اضطرُّوا بعد ذلك إلى تحمُّل المسؤوليَّة، فالتزموا

الصمت وانكفأوا عن الظهور. فاغتنم أمادا تلك الفرصة العظيمة للفت الأنظار إلى أعماله لكونها تمثِّل إمكانيَّة كبيرة لثورة إصلاحيَّة في فن الرَّسم اليابانيّ. باختصار، كان الزمن حليفه.

لا توجد نقاطُ مهمَّة أخرى في النبذة تستحقّ الذِكر. فالحياة، بعد تحقيق النجاح تصبح رتيبةً ومملَّة. ومن المعلوم أنَّ ثمَّة فنَّانين ما إن يحقِّقوا النجاح حتَّى يتَّجهوا نحو الدمار مباشرةً؛ لكنَّ هذه ليست حالة توموهيكو أمادا. فلقد حصل على جوائز لا حصر لها (لكنَّه رفض استلامَ وسام الثقافة قائلًا إنَّه «سيُشتِّت ذهنَه»)، وأصبح شخصيَّةً شهيرة في المجتمع. ومع مرور الأعوام، ارتفعتْ أسعارُ لوحاته، وعُرِضَتْ معظمُها في أماكن عامَّة. ولم يتوقَّف الطلب على شرائها. وذاع صيته في الخارج أيضًا. ينطبق عليه تعبير «تجري الرِّياح بما تشتهي السُّفن». لكنَّه لم يشأ الظهور على الملأ يومًا؛ وكان يرفض رفضًا قاطعًا تولِّي أيِّ منصبٍ عامّ. ولم يلبِّ أيّ دعوة لحضور مناسبات، سواء أكانت في اليابان أم خارجها. انعزل في بيته فوق أحد جبال أوداوارا (أي هذا البيت الذي أقمتُ فيه)، وكرَّس نفسه للإبداع الفنِّيّ كلِّيًّا.

وها قد بلغ الثانية والتسعين، ليجد نفسه في دارٍ للعجزة في مرتفعات إيزو، لا يقوى على تمييز الأوبرا من المقلاة.

أغلقتُ المجلَّد، وأرجعتُه إلى أمين المكتبة.

عندما كان الطقس صحوًا، كنتُ أخرج إلى الشرفة وأستلقي على المقعد الطويل، حاملًا بيدي كأسًا من النبيذ الأبيض. وكنت أتساءل، وأنا أتأمَّل النجوم التي تلمع في السَّماء جهة الجنوب، عمَّا يمكنني تعلُّمُه من حياة توموهيكو أمادا. هناك عدَّة نقاط بالتأكيد: الشجاعة وعدم الخوف من التغييرات في الحياة، وأهمِّيَّة أن تجعل الزمن حليفَك. وفوق

ذلك، اكتشاف أسلوبٍ متفرّدٍ ومواضيع أصيلة. ليس سهلًا بالتأكيد. ولكنْ، إذا أراد المرء أن يصبح مبدعًا، فلا بدَّ أن يحقّق شيئًا ما، مهما كلَّفه الأمر. وقبل بلوغ الأربعين، إن أمكن.

ولكنْ، ما التجارب التي خاضها توموهيكو أمادا في ڤينّا؟ وعلى أيٍّ من الأحداث كان شاهدًا؟ وما السَّبب الذي جعله يترك رسم اللَّوحات الزيتيّة إلى الأبد؟ تخيَّلتُ راياتِ الصليب المعقوف ذاتَ اللَّونَيْن الأحمر والأسود، ترفرف عاليةً في سماء ڤينّا. كان الطقس في تخيُّلاتي شتويًّا على الدوام، ومن يدري لماذا! وأمادا شابًّا يسير في طرقات تلك المدينة، يرتدي معطفًا ثقيلًا، يلفّ عنقه بلفاع، ويضع طاقيّة البيريه على رأسه. وجهُه لا يُرَى. تتساقط نُدَفُ الثلج، ويظهر الترامُ بعدما انعطف عند زاوية الشارع. وأمادا يسير، بينما يتَّخذ زفيرُه الأبيض في الهواء شكلَ الصمتِ نفسِه. وأهلُ المدينة، داخل المقاهي المدفَّأة جيِّدًا، يحتسون قهوةً ممزوجةً بمشروب الرُّومْ.

حاولت أن أقارن بين مناظر عصر أسْكا، التي رسمها أمادا في السنوات اللَّاحقة، والمناظر القديمة لشوارع ڤينّا. غير أنَّني مهما طوَّعتُ قوَّة الخيال، لم أستطع العثور على أيِّ قاسمٍ مشترك بينهما.

كانت الشرفة تواجه واديًا ضيِّقًا على جانبيْه. وعلى الجهة المقابلة، من الوادي سلسلة جبال. وعلى أسطح تلك الجبال، بُنيَتْ عدَّةُ بيوت تتخلَّلها مسافاتٌ واسعةٌ من الحدائق الخضراء. ثمَّة مسكنٌ كبير، قبالتي، نحو اليمين، وقد بُنِيَ من الخرسانة البيضاء، وزجاجُه مطعَّمٌ بالأزرق المرشَّح، على الطريقة الحديثة. يليق به وصفُ «قصر» أكثر من «بيت». تفوح منه رائحةُ الرفاهيَّة والأناقة إلى درجة كبيرة. ويتكوَّن من ثلاثة طوابق بمحاذاة سفح الجبل. وعلى الأرجح، أنَّه من

تصميم فنَّان معماريّ من الدَّرجة الأولى. اشتُهِرت المنطقة منذ زمن بعيد بالمنتجعات الموسميَّة، لكنَّ ذلك القصر يبدو أنَّه مأهولٌ طوال العام؛ فالأنوار من خلف الزجاج تُضاء فيه كلَّ ليلة. وبطبيعة الحال، قد تكون إضاءةً أوتوماتيكيَّة للحماية من السرقات. لكنِّي خمَّنتُ أنَّ الأمر مختلف، فالأنوار تضاء وتطفأ في أوقاتٍ زمنيَّةٍ تختلف في كلِّ ليلةٍ عن الأخرى. يضيء الزجاجُ كلُّه أحيانًا ليبدو مثل واجهة عرضٍ في طرقات المدينة؛ وأحيانًا يغرق المبنى بأكمله في ظلام اللَّيل، بينما تبقى أضواءُ الحديقة وحدها بنورٍ خافِت.

كان للبيت شرفة تطلّ على الوادي (شبيهة بأعلى جسرٍ في السفينة)، وكنت ألحظ وجود شخص على تلك الشرفة من حينٍ لآخر. وكثيرًا ما ظهر عند الغروب. لستُ متأكِّدًا إن كان رجلًا أم امرأة، إذ كان ظلُّه صغيرًا، يتلقَّى الإضاءة من الخلف. لكنَّني رجَّحتُ أن يكون رجلًا، نسبةً إلى أطراف ظلّه وتحرُّكاته. كان بمفرده دائمًا؛ ولعلَّه وحيدٌ بلا عائلة!

تُرى أيُّ نوعٍ من الأشخاص يسكن مثلَ هذا البيت؟ تركتْني عرضةَ فرضيَّاتٍ لكثرة ما كان عندي من وقتٍ فارغ. هل يسكن هذا الرجلُ فعلًا بمفرده في ذلك البيت الجبليّ المنعزل عن بقيَّة السكَّان؟ ماذا يعمل؟ لا جدال في أنَّه يعيش حياةً مترفةً وحرَّةً في ذلك القصر المؤنَّق بالزجاج الفاخر. ذلك لأنَّه لن يحتاج إلى التردُّد على عمله يوميًّا في المدينة قادمًا من هذه المنطقة النائية. ومن المرجَّح أنَّ إمكانيَّاته لا تجعله يقلق من أعباء المعيشة. ولكنْ، من وجهة نظره، قد يفكِّر أنَّني أنا أيضًا، أعيش أيَّامي وحيدًا في راحة بال وبلا منغِّصات، على الجانب الآخر من الوادي. إنَّ معظم الأشياء تبدو جميلةً، بالنَّظر إليها من بعيد.

ظهر ظلُّ الرجل في تلك اللَّيلة أيضًا. جلس مثلي على المقعد الطويل في شرفته، ولم يتحرَّك قيد أنملة. كان، على ما يبدو، يفكِّر مثلي في أمرٍ ما، وهو يتأمَّل النجوم التي تتلألأ في السَّماء. بدا لي كذلك على الأقلّ. حتّى في اللَّحظات السَّعيدة، ثمَّة ما يكدِّر بال الناس. رفعتُ كأسَ النبيذ بيدي قليلًا، كتحيَّةٍ خفيَّةٍ إلى ذلك الشخص على الجانب المقابل من الوادي.

في تلك الآونة، لم أكن أتخيَّل أنَّ ذلك الرجل سرعان ما سيدخل حياتي، ويحوِّل مسارها تحوُّلًا كبيرًا. وأفترض أنَّه لولا وجوده، لما حدثت تلك الأحداث الجسام، ولولا وجوده ربَّما، كنت سأفقد حياتي في الظلام من دون أن ينتبه إليَّ أحد.

عند النَّظر إلى الخلف بعد مرور الوقت، تبدو حياتُنا بالغةَ الغرابة والعجب؛ وحافلةً بأحداثٍ تكاد لا تُصدَّق، تتطوّر بأشكالٍ عصيَّة حتَّى على التخيُّل! إلَّا أنَّها حين تقع في الحاضر، لا نجد فيها ما هو غريب أو عجيب مهما أمعنَّا النَّظر في كلّ جوانبها. إنَّ ما نراه، في الحياة اليوميَّة المتواصلة، عبارةٌ عن أحداثٍ منطقيَّةٍ تدور بشكل اعتياديٍّ كليًّا. ومن الممكن أنْ لا يكون لتلك الأحداث أيُّ منطق؛ لكنَّنا إذا أردنا فهم منطقها من عدمه، فعلينا أن ننظر إليها من مسافةٍ زمنيَّةٍ بعيدة.

بأيِّ حال، وبشكلٍ عامّ، وبغضّ النَّظر عن منطقيَّة الأشياء، فإنَّ النتيجة النهائيَّة هي التي غالبًا ما تكشف المعنى. وإنَّ النتيجة حقيقيَّة، وواضحة لكلّ ذي عينَيْن، وتستخدم قوَّة تأثيرها. بيد أنَّه ليس من السَّهل تحديد الأسباب التي أدَّت إلى تلك النتيجة. والأصعب هو الإمساكُ بالأسباب باليد، وإظهارها للآخرين: «انظروا ها هو السَّبب». والأسباب موجودة دائمًا بالطبع. لا نتيجة بلا سبب؛ مثلما أنَّه لا عِجَّة بلا بيض.

يحدث الأمر ذاته بالسقوط المتسلسل لقِطع الدومينو: فالقطعة الأولى (سبب) تُسقِط القطعةَ التي تليها (نتيجة)، وهذه بدورها تُسقِط التي تليها (سبب). ومع استمراريَّة هذه العمليَّة فترة طويلة، لا يفهم المرء بعدُ السببَ الأساس. أو يفقد الاهتمامَ بالأمر كلّه، أو يفقد الرَّغبةَ في فهمه. وتنتهي الحكاية بـ «سقطتْ كلُّ القطع متتاليةً». حكايتي التي سأرويها، ستتّخذ منحىً مشابهًا أيضًا.

وهكذا، فإنَّني سأروي هنا عن أوَّل قطعتَيْن من الدومينو: ذلك الجار اللغز الذي يسكن في الجانب المقابل من الوادي، واللَّوحة التي عنوانُها «مقتلُ الكومنداتور». سأبدأ باللَّوحة.

- 5 -
آهِ، لم يعد يتنفَّس. تجمَّدتْ أطرافُه

الغرابة الأولى التي صدمتني فور إقامتي في ذلك البيت، هو انعدام ما يمكن أن نسمّيه لوحةً في أيّ مكانٍ منه. لم يقتصر الأمر على انعدامها من على الجدران، بل لا وجود لأيٍّ منها في ركن المهملات أو الخزائن البتَّة. لا لوحةً لتوموهيكو أمادا، ولا أيّ رسَّام آخر. كلّ الجدران عارية بلا زينة. لم أعثر حتَّى على آثار مسامير مدقوقة فيها لتعليق أُطُر اللَّوحات. كان الرسَّامون، على حدّ علمي، يعيشون محاطين باللَّوحات، كثيرةً أم قليلةً، من صنع أيديهم أم من صنع غيرهم. إذ تتراكم حولهم لوحاتٌ متنوّعة في غفلةٍ منهم: كالثلج المتواصل في هطوله، يتجمَّع مهما حاول المرءُ إزالته.

سألتُ ماساهيكو أمادا عن السَّبب عندما اتَّصلتُ به ذات مرَّةً لأمرٍ ما. هل إنَّ أحدًا جَمَعَ اللَّوحات وحملها بعيدًا؟ أمْ إنَّها لم يكن لها وجودٌ منذ البداية؟

«لم يكن أبي يفضّل الاحتفاظَ بلوحاته ـ قال ماساهيكو. فما إن ينجز عملًا ما حتى يتّصل بتاجر اللّوحات ويسلّمه إيّاه. أمّا الأعمال التي لا يقتنع بها، فكان يتخلّص منها بالحرق في حديقة البيت. ولهذا السّبب، لا غرابة من عدم وجود أيٍّ من لوحات والدي في البيت».

«لم يكن لديه لوحاتٌ لرسّامين آخرين؟»

«كان لديه أربع لوحات أو خمس. لوحات قديمة لماتيس، وبراك،... إلخ. وكلّها صغيرة الحجم، اشتراها من أوروبا قبل الحرب، عن طريق أحد معارفه. فلم يكن سعرها غاليًا. بالطبع، ارتفع سعرُها كثيرًا الآن. لقد جمّعتُها عندما دخل والدي مأوى العجزة، ووضعتُها أمانةً عند تاجر اللّوحات الأثير عند والدي. إذ لم يكن من المناسب تركُها في بيتٍ خالٍ من ساكنيه. أعتقد أنّها موجودة الآن في مستودع خاصّ بالأعمال الفنّيّة مزوّد بمكيّف للهواء. فيما عدا ذلك، لم ترَ عيناي أيّ لوحةٍ لرسّامٍ آخر في البيت. لم يكن أبي، في الواقع، يستلطف العاملين في مهنته، وكانوا يبادلونه هذا الشعور بالتأكيد. بتعبيرٍ لائق، كان كالذئب المنفرد؛ بتعبيرٍ فظّ، كان غرابًا متمرّدًا على السرب».

«أقام والدُك في ڤيِنّا منذ العام 1936 وحتّى مطلع العام 1939، أليس كذلك؟»

«أجل. أقام هناك حوالى العامَيْن. لكنّي لا أعرف لماذا اختار ڤيِنّا تمامًا. مع أنّه كان يفضّل الرسّامين الفرنسيّين».

«وبعد أن عاد إلى اليابان، تحوّل فجأةً إلى تيّار النيهونغا. فما السّبب الذي جعله يتّخذ هذا القرارَ الحاسم؟ هل حدث له شيء عندما كان في ڤيِنّا؟» ـ تابعتُ تساؤلاتي.

«هذا أحدُ ألغازه، لأنَّ والدي لم يتحدَّث عن فترة إقامته في ڤيِنّا بسرور. كان يذكر أشياء قليلة القيمة. حديقة الحيوانات التابعة للبلديَّة، الأطعمة، مسرح الأوبرا. كان كتومًا جدًّا بالمجمل، لاسيَّما بمسائله الشخصيَّة. ولم أعمد إلى طرح أسئلة فيها؛ فلطالما عشنا متباعدَيْن، لا نلتقي إلَّا من فترةٍ إلى أخرى. كان وجودُه يشبه زيارةَ أحد الأقرباء، أكثر منها زيارة أب. وبعد دخولي المدرسةَ المتوسِّطة، أصبح وجودُه يُثقِل عليَّ، وبتُّ أتجنَّبه. ولم آخذ رأيه كذلك عند دخولي كلِّيَّة الفنون الجميلة. لا أقول إنَّني عشت وسط بيئة عائليَّة معقَّدة، لكنَّها لم تكن أسرة طبيعيَّة كذلك. فهمتَ قصدي؟»

«على الأرجح».

«على أيِّ حال، لقد تبخَّرت ذكريات والدي من رأسه. أو أنَّها غارقة تمامًا في قاع وحلٍ عميق. إذا طرحتَ عليه سؤالًا لا يجيب. لم يعد يعرفني. وأرجِّح أنَّه لم يعد يعرف نفسه. أفكِّر أحيانًا بأنَّه كان عليَّ أن أسأله عن أشياء كثيرة قبل أن يمسي على هذه الحال. ولكنْ، فات الوقت».

صمت ماساهيكو وكأنَّه يتأمَّل في أمرٍ ما. ثمَّ سألني: «لماذا تريد معرفة ذلك؟ ما دافعُك إلى الاهتمام بوالدي؟ هل حدث شيءٌ ما؟»

«لا، لا. كلُّ ما في الأمر أنّي، عندما سكنتُ البيت، شعرتُ بما يشبه ظلَّ والدك هنا وهناك. فأجريتُ بحثًا سريعًا عنه في مكتبة البلديّة».

«ما يشبه ظلَّ أبي؟»

«دلالاتٌ على وجوده».

«وهل هو شعورٌ كريه؟»

هززتُ رأسي نافيًا أمام سمَّاعة الهاتف. «كلَّا، ليس كريهًا. أشعر ببساطة أنّ طيف توموهيكو أمادا ما يزال يلوح في المكان. يرفرف في الهواء».

غرق ماساهيكو في التّفكير. ثمّ قال: «لقد أقام فيه وقتًا طويلًا، وكذلك أبدع فيه أعمالًا كثيرة. وربّما ظلّ طيفُه في المكان فعلًا. وصراحةً، ربّما كان هذا ما يمنعني من الاقتراب من البيت بمفردي».

سمعتُ كلامه من دون أن أعلّق بشيء.

واصل ماساهيكو: «أعتقد أنّني أخبرتك بهذا من قبل: توموهيكو أمادا بالنّسبة إليّ مجرّد عجوز فظّ، ويَصعب التعاملُ معه. منغلقٌ دومًا على نفسه في مكان عمله، يَرسم متجهّمًا. عندما كنت أوجَد معه تحت سقف واحد، كانت أمّي تحذّرني دائمًا: إيّاك أن تزعج والدك أثناء عمله. لذا، لم أستطع اللّعب أو الصياح. ربّما كان شخصًا مشهورًا في المجتمع ورسّامًا عبقريًّا، لكنّه بالنّسبة إلى طفل صغير، كان رجلًا مزعجًا فقط. وبعد أن اتّخذتُ مسارَ الفنون، كان اسم والدي عبئًا ثقيلًا نوعًا ما. فكلّما قدّمتُ نفسي، سُئِلتُ: هل أنت من أقارب توموهيكو أمادا؟ حتى إنّني فكّرتُ في تغيير اسمي بسببه. إلّا أنّني الآن لا أرى أنّه كان شخصًا سيّئًا. لقد حاول أن يحبّ ابنه على طريقته الخاصّة. ولكنّه ليس من نوع الآباء الذين يغدِقون الحبّ بلا حساب. وهذا أمر لا قوّة له فيه؛ كان الرّسم هو الأهمّ بالنّسبة إليه. أليس الفنّانون هكذا، عامةً؟»

«ربّما»، قلت.

«فأنا لستُ فنّانًا إذن ـ قال ماساهيكو متنهّدًا. هذا الشيء الوحيد الذي تعلّمتُه منه».

«ذات مرَّة، إن لم أخطئ، ألم تقل لي إنَّ والدك في شبابه كان متحرِّرًا، يفعل ما يريد، وقتما يريد، بما يناسب هواه؟».

«أجل. لكنَّه تغيَّر قبل أن أولد بقليل. أمَّا في شبابه، فكان مدلَّلًا. كان طويلَ القامة، جميلَ الوجه؛ سليل عائلةٍ ثريَّةٍ في الإقليم. وكان موهوبًا في الرَّسم حتَّى العبقريَّة. فهامت به النساء. وكان من جانبه ضعيفًا تجاه المرأة. حتَّى لقد وصل به الأمر في إحدى المرَّات إلى موقف معقَّد، كما سمعتُ، استدعى تدخُّل العائلة لتصفية الموضوع بمبلغٍ طائلٍ من المال. لكنَّ أقاربي يقولون بأنَّه تغيَّر منذ عودته من الدراسة في أوروبا، كأنَّه شخصٌ آخر».

«شخصٌ آخر؟»

«أجل، لقد كفَّ عن المجون. انعزل في بيته منهمكًا بالرَّسم. وساءت علاقته بالناس إلى أقصى درجة. وعندما عاد إلى طوكيو، ظلَّ أعزب فترةً طويلةً، واستمرَّ في العمل حتَّى بات قادرًا على العيش برفاهيَّة من رسم اللُّوحات. فبدا وكأنَّه تذكَّر الأمرَ فجأةً، فتزوَّج من إحدى بنات قريته، وكأنَّه يخطُّ آخرَ صفحةٍ في دفتر حسابات حياته. كان زواجه في سنّ متأخِّرة جدًّا. ثمّ ولدتُ أنا. ولا أعرف إن كان قد عاود المجون بعد زواجه أمْ لا. لكنَّه، بكلِّ حال، كفّ عن اللَّعب الصاخب».

«تغيُّر هائل».

«صحيح. ولكنَّ والديْه ابتهجا للتغيير. لم يعد يسبِّب لهما إزعاجًا بمشاكله النسائيَّة. لكنِّي ما سألت أحدًا من أقاربي عمَّا حدث في ڤينَّا، وعن سبب تخلِّيه عن الرَّسم الغربيّ، وتحوُّله إلى النيهونغا، إلَّا وأعرب عن جهله. لقد أغلق والدي فمَه عن ذلك الموضوع، مثل قواقع المحار الصلدة في قاع البحار».

والآن، ما من جدوى لفتح تلك القوقعة، باتت فارغة. شكرتُ ماساهيكو، وأنهيتُ المكالمة.

اكتشفتُ إحدى لوحات تومو هيكو أمادا عن طريق المصادفة، بعنوان غريب: «مقتل الكومنداتور».

كنتُ، في منتصف اللَّيل أحيانًا، أسمع خشخشةً خافتةً فوق سقف غرفة النوم. ظننتُ في البداية أنَّ فأرًا أو سنجابًا دخل سندرة خلسة. ثمَّ أدركتُ أنَّه ليس بصوتٍ تصدره أطرافُ القوارض الصَّغيرة. ولا بزحف الأفاعي حتَّى! كان يوحي بصوت تجعيد الورق الزيتيّ باليد. لم يكن مزعجًا إلى درجة الحرمان من النوم، لكنِّي كنتُ قلقًا إلى حدٍّ ما من وجود كائنٍ مجهولٍ داخل البيت. ربَّما يكون حيوانًا يُلحِق أضرارًا بالبيت!

بعد البحث في كلِّ الجوانب، انتهى بي المطاف إلى اكتشاف فتحة في سندرة، أعلى خزانة غرفة الضيوف. كانت الفتحة مربَّعة، بثمانين سنتمترًا لكلِّ ضلع. أتيتُ من المخزن بسُلَّم الألومنيوم، وأمسكتُ مصباحًا يدويًّا صغيرًا، ورفعتُ غطاء الفتحة. أدلفتُ رأسي إلى الداخل بحذر، ونظرتُ حولي. كانت مساحةُ السقيفة أوسع ممَّا ظننتُ، لا يدخلها إلَّا قليلٌ من ضوء النهار، عبْر فتحتَي تهويةٍ صغيرتَيْن على اليمين وعلى اليسار. وجَّهتُ إضاءة المصباح الصَّغير إلى كلِّ زواياها، فلم أرَ شيئًا، أو على الأقلّ، لم أشاهد شيئًا يتحرَّك. استجمعتُ شجاعتي ودخلتُ من الفتحة إلى السندرة.

كانت تعبق بروائح الأماكن المغلقة، لكنَّها ليست بالرَّائحة المقزِّزة. الغبار يتراكم على الأرضيَّة بكثرة: يبدو أنَّ تهويةَ المكان جيِّدة. هناك بعض العوارض المنخفضة الممتدَّة فوق رأسي، لكنِّي إذا

تجنَّبتها سأستطيع الوقوف في المكان والمشي فيه. تقدَّمتُ إلى الأمام بحذر، وفحصتُ فتحتَي التهوية. ثمَّة شبكةٌ من الحديد قد وُضعتْ على كلٍّ منهما، فلن تستطيع الحيوانات الكبيرة المرور. ولكنْ، يوجد قطْعٌ في الفتحة ناحية الشَمال، وربَّما نتج بشكل طبيعيّ من اصطدام شيء ما بالشبكة، أو ربَّما مزَّقها أحدُ الحيوانات كي يدخل إلى السقيفة. في كلا الحالتَيْن، الشبكة مخترقة بما يسمح بمرور حيوان صغير بسهولة.

بعد ذلك مباشرةً، وقعتْ عيناي على المسؤول عن إحداث تلك الأصوات اللَّيليَّة. كان يختفي في الظلام فوق إحدى العوارض: بومةٌ قرناء صغيرة، رماديَّة اللَّون. ويبدو أنَّها كانت مغمضة العينَيْن، تغطّ في النوم. أطفأتُ المصباح، وابتعدتُ قليلًا لئلَّا أخيفها. أخذتُ أتفحَّص ذلك الطائر. تلك هي المرَّة الأولى التي أرى فيها بومةً عن كثب. بدت لي كأنَّها قطَّةٌ نَبَتَ لها ريشٌ، أكثر من كونها طائرًا. مخلوقٌ حيٌّ في غاية الرَّوعة.

يبدو أنَّ تلك البومة القرناء تقضي النهارَ هناك بهدوءٍ وراحة، وعندما يحلّ الظلام، تخرج من فتحة التهوية للبحث عن فريسةٍ لها في الجبال. ولا بدّ أنَّني كنتُ أستيقظ من نومي على الصوت الذي تُصدره عند خروجها ودخولها. لا ضرر منها. فضلًا عن أنَّ وجود البومة سيضع حدًّا للقلق من توطُّن الفئران والثعابين في السندرة. يكفي أن تظلّ هناك. وسرعان ما رقّ قلبي لها. فنحن كلانا نستعير هذا البيت بشكل موقَّت، ونتعايش. لها الحقّ في البقاء هناك قدْر ما تشاء. بعد أن نظرتُ إليها طويلًا، عدت بخطواتٍ محترسة. وفي تلك اللَّحظة، لمحتُ لفَّةً كبيرةً بجانب فتحة المدخل.

واكتفيتُ بنظرةٍ واحدة لأدرك أنَّها لوحة فنّيَّة. كان طولها مترًا ونصف المتر، بعرض متر، ومغلَّفة بإحكام في ورق يابانيّ بنّيّ اللَّون مخصَّص

لتغليف اللَّوحات، ومربوطة بأحبال مزدوجة. وليس في السندرة شيء آخر. البومة القرناء رماديَّة اللَّون عند العارضة، وأشعة الشمس الخافتة المتسرِّبة من فتحتَي التهوية، ثمّ اللَّوحة المغلَّفة المسنودة بالطُّول على الجدار. أَسَرَ قلبي شيءٌ يشبه الخيالَ في ذلك الخليط!

حاولتُ أن أحمل تلك اللَّفَّة بهدوءٍ وحرصٍ شديديْن. لم تكن ثقيلة؛ مجرَّد لوحةٍ محاطةٍ بإطار بسيط. كان الغبار الخفيف متراكمًا عليها. وأظنّ أنَّها موضوعة في ذلك المكان منذ زمن بعيد، من دون أن تراها عينُ إنسان. ثمَّة بطاقةٌ مثبَّتةٌ بسلكٍ معدنيّ على الأحبال، كُتِب عليها بحبرٍ أزرقَ جافّ: «مقتل الكومنداتور». الخطّ منمَّقٌ إلى درجة كبيرة. وعلى الأرجح أنَّه عنوان اللَّوحة.

لا أعلم لماذا وُضِعت تلك اللَّوحة وحدها مخبَّأةً سرًّا في السندرة. فكَّرتُ بما عليَّ فعله. الشيء البديهيّ والقويم أن أتركها في مكانها هناك؛ فهذا بيتُ توموهيكو أمادا، واللَّوحة له بلا جدال (وربَّما كان توموهيكو هو الذي رسمها)، وحرص على إخفائها لئلَّا يراها أحد، لسببٍ يخصُّه وحده. وهكذا، فكَّرتُ أن أتركها في السندرة صحبة البومة. فالأمر لا يعنيني.

ورغم رجاحة عقلي، لم أتمكَّن من كبح جماح الفضول الذي استشرى فيَّ. لقد أذهلني العنوان تحديدًا. تُرى ما محتوى اللَّوحة؟ ولماذا اضطُرَّ توموهيكو أمادا إلى إخفائها وحدها، من بين جميع لوحاته، في السندرة؟

أمسكتُ اللَّفَّة لأرى إنْ كانت تمرّ من فتحة السندرة أم لا. بحسب المنطق، لا شيء يمنع إخراجَ شيءٍ أُدْخِلَ مسبقًا إلى هناك. فلا منفذ آخر للسندرة إلَّا هذا. ومع ذلك، قمتُ بالمحاولة. وكما توقَّعتُ، استطعت إخراجها بتمريرها على حافَّتيْ زاويتيْها المتقابلتيْن. تخيَّلتُ

منظر توموهيكو أمادا وهو يحمل اللَّوحة إلى السندرة. من المفترض أنَّه كان بمفرده، يحمل سرًّا في قلبه. كنت أتخيَّل المشهد كما لو أنَّني أراه في الواقع رؤيا العين.

لن يغضب توموهيكو أمادا إن عرف أنَّني أنزلتُها، هذا إن وصله الخبر. وعيُهُ يمرّ بحالة فوضى عميقة حاليًا. «لا يدرك الفرقَ بين الأوبرا والمقلاة»، على حدّ تعبير ابنه. والأرجح، أنَّه لن يعود إلى هذا البيت مرَّةً أخرى. وعلاوةً على ذلك، فإن تُركت اللَّوحةُ في السندرة حيث مُزِّقَتْ شبكة تهويتها، فقد تلتهمها الفئران أو السناجب لاحقًا، أو تستعمرها الحشرات. وهذا يعني خسارةً فنِّيَّة كبيرة، إنْ كانت اللَّوحةُ من رسم توموهيكو أمادا فعلًا.

أنزلتُ اللَّفَّة إلى رفّ الخزانة العلويّ، ثم لوَّحتُ بيدي سريعًا إلى البومة القابعة فوق العارضة مودّعًا، ونزلتُ إلى أسفل، وأغلقتُ غطاءَ الفتحة بهدوء.

لم أفكّ الغلاف على الفوْر، بل أسندتُ تلك اللَّفَّة البُنِّيَّةَ إلى جدار المرسم عدَّة أيَّام، ثمّ جلستُ على الأرض أتأمَّلها بلا غاية. لم أستطع اتِّخاذ قرارٍ حاسمٍ حول أحقِّيَّتي بذلك الغرض. مهما كان الأمر، تظلّ اللَّوحةُ مِلْكَ شخصٍ آخر. وإن أردتُ فعلها حقًّا، فلا بدَّ على الأقلّ من استئذان ابن أمادا، ماساهيكو. لكنَّ فكرة إخباره بوجود تلك اللَّوحة لم تكن تروق لي أساسًا. لقد أحسستُ، بشكلٍ ما، أنَّ المسألة شخصيَّةٌ، بيني وبين توموهيكو أمادا حصرًا. وليس في وسعي أن أشرح هذا الإحساس المريب. لكنَّه كان حقيقيًّا بأيّ حال.

كنتُ أحملق في اللَّوحة المغلَّفة بإحكام وصرامة في غلافٍ من الورق اليابانيّ (إذا سلَّمنا أنَّها لوحة)، حتَّى كدت أمزِّق الحبال المعقودة

بنظري حرفيًّا. إلى أن حسمتُ أمري. كان فضولي أقوى وأشدّ إلحاحًا من كلّ آداب السلوك واحترام القواعد والأصول. بإمكاني اعتباره فضولًا مهنيًّا، بما أنّني رسّام أنا أيضًا، أو فضولًا خالصًا كبقيّة البشر. كاد الفضول يقتلني، فاتّخذتُ قراري حتّى لو احتقرني الناس جميعًا. أحضرتُ مقصًّا، وقطعتُ الأحبال المربوطة بإحكام. ثمّ نزعتُ ورقَ الغلاف البُنّيّ، بعناية وبطء كي أحافظ عليه؛ فقد أضطرُّ إلى تغليفها به من جديد.

اكتشفتُ تحت الغلاف الورقيّ، الملفوف غير مرّة، لوحةً في إطار بسيط، مغطّاةً بقماش أبيض يشبه الشاش. فنزعتُه بحرصٍ وهدوء وحذر، مثلما تُنزع ضمّاداتُ شخصٍ مصابٍ بحروق شديدة.

ظهرتْ لوحةٌ مرسومةٌ بأسلوب النيهونغا كما توقّعتُ مسبقًا. لوحةٌ مستطيلة، عرضها أكبر من طولها. وضعتُها على الرفّ، وأخذتُ أتأمّلها بعد أن ابتعدتُ عنها قليلًا.

إنّها، بلا أدنى ريب، عملٌ من أعمال توموهيكو أمادا. هذا أسلوبه بلا جدال، ولقد رسمها بطريقته المتميّزة. الفراغات البيضاء الجريئة، والتّصميم الديناميكيّ. مشهدٌ لرجال ونساء من عصر أسْكا، يرتدون ملابس ذلك العصر، وتسريحات شعرهم كذلك. لكنْ ما أثار دهشتي هو ما تحتويه من عنفٍ لدرجةٍ تكتم الأنفاس.

على حدّ علمي، لم يرسم توموهيكو أمادا لوحات عنيفة، إطلاقًا. كان يستهوي المواضيع الهادئة والمسالمة، المفعمة بالحنين إلى الماضي. وفي بعض الأحيان، اختار للوحاته حدثًا تاريخيًّا، تنصهر فيه الشخصيّاتُ في طراز عصرها، وتعيش في وئام مجتمعٍ صغير، ضمن الطبيعة الحيّة للأزمان القديمة. يتشاركون إرادةً جمعيّة، أو ينعمون بمصيرٍ هادئ مشترك. ويبدو أنّ ذلك العالم كان بالنّسبة إليه كالمدينة

الفاضلة. وظلّ يرسمه من جوانب متعدِّدة، ومن وجهات نظر مختلفة. وأطلق العديدُ من الناس على ذلك الأسلوب وصفَ «رفض الحداثة» أو «العودة إلى الماضي». وبالطبع، ثمَّة آراء انتقدته بوصفه «الهروب من الواقع». والحال، أنَّ أمادا، بعد عودته من ڤينّا إلى اليابان، تخلَّى عن الرَّسم الزيتيّ الحداثيّ، وانطوى على نفسه في ذلك العالم المسالم، من دون أن يبرِّر قراره لأحد.

إلَّا أنَّ الدماء كانت تسيل في لوحة «مقتل الكومنداتور» بتدفُّق كبير وواقعيَّة كاملة، إذ يتصارع رجلان، يحمل كلٌّ منهما سيفًا من سيوف القدماء الثقيلة، بما يبدو أنَّها مبارزة حتَّى الموت. شابٌّ ينازل عجوزًا، وقد غرس الشابُّ سيفَه بعمقٍ في صدر العجوز. كان الشابّ ذا شاربٍ أسودَ دقيق، ويرتدي رداءً من اللَّون الأخضر الباهت، ملتصقًا بجسمه كثيرًا. أمَّا العجوز، فكان ذا لحية بيضاء وفيرة، ويرتدي رداءً أبيض، وعلى عنقه قِلادةٌ من حبَّات الخرز، وقد سقط السيف من يده، ولمَّا يقعِ السيفُ على الأرض. كان غريمه قد ضرب الشريان الأبهر، فانبثقت الدِّماء من صدر العجوز بقوَّة كبيرة، حتَّى تضرَّج بها رداؤه الأبيض، واعوجَّ فمه من شدَّة الألم، وجحظت عيناه فراح ينظر شزرًا بحسرةٍ إلى الفراغ. لقد أدرك أنَّه هُزم، لكنَّه لم يحسَّ بعدُ بالألم الحقيقيّ.

أمَّا الشابّ، على الجانب الآخر، فكانت عيناه في غاية البرود، وهو يحدِّق مباشرةً إلى خصمه. لا يشوبهما أيّ أثرٍ لندمٍ أو تردُّد أو شفقة، ولا حتَّى انفعال. لا ترى مقلتاه إلَّا انتصاره المحتوم، واقترابَ موت العجوز. ولم تكن الدِّماء المتدفِّقة إلَّا برهانًا على ذلك.

والحقّ، إنِّي كنتُ حتَّى ذلك الوقت، أعتبر النيهونغا فنًّا فارغًا يصوِّر عالمًا ساكنًا وشكليًّا. أيْ أنَّ الأساليب المتَّبعة فيه، وموضوعاته،

لا تناسب التَّعبيرَ عن المشاعر الهائجة. كنتُ أراه عالمًا لا شأن لي به. لكنَّني، إزاء لوحة «مقتل الكومنداتور» لتوموهيكو أمادا، أدركتُ أنَّي كنت خاطئًا تمامًا. لأنَّ مشهد صراع هذيْن الرجليْن، في مبارزة عنيفة حتَّى الموت، يهزّ بعمق. رجلٌ منتصر ورجلٌ مهزوم. رجلٌ سدَّد ضربةً قاضية، ورجلٌ تلقَّاها ليلقى مصرعه. سُحِرتُ بذلك التباين. ففي اللَّوحة شيءٌ يميِّزها.

هناك أشخاص آخرون يراقبون المنازلة عن قرب. بينهم فتاة شابَّةٌ، ترتدي كيمونو أبيض فاخرًا. شعرها مسرَّحٌ إلى أعلى ومبهرجٌ بزينة كبيرة. وتغطِّي فمها الموارب بإحدى يديْها. بدت كأنَّها تكتم أنفاسَها، وتوشك على إطلاق صرخة ألم مدوِّيّة. وعيناها الجميلتان في حالة اتِّساع!

ثمَّة أيضًا شابٌّ آخر، يرتدي ثيابًا متواضعة، تصلح لسهولة التحرُّك، وليست مزيَّنةً كثيرًا، وتميل إلى اللَّون الأسود. ينتعل في قدميْه خُفًّا بسيطًا. بدا أنَّه خادمٌ أو ما شابه. لا يحمل سيفًا، إنَّما في جراب خصره خنجرٌ ليس إلَّا. كان صغيرَ الجسم، قصيرَ القامة، ذا لحية خفيفة، ويحمل بيده اليسرى ما يشبه دفترَ كتابة. قد يكون مثلَ الموظَّف الإداريّ الذي يحمل حافظةَ الكتابة، إن وصفناه بكلمات عصرنا هذا. كان يمدّ يده اليمنى في الهواء محاولًا إمساك شيءٍ ما، لكنَّها لا تمسك أيّ شيء. وليس من الواضح إن كان خادم العجوز أمْ خادم الشاب، أمْ خادم الفتاة. الأمر الوحيد المفهوم هو أنَّ تلك المبارزة وقعتْ فجأةً، بشكلٍ عفويّ، لتضع نهايةً لموقفٍ ما، وأنَّها كانت خارجَ توقُّعات الفتاة والخادم كليْهما. إذ تظهر على وجهيْهما، بلا أدنى شكّ، ملامحُ الدَّهشة الكاملة.

أمَّا الوحيد الذي لا يبدي أيّ مظهرٍ من مظاهر الدَّهشة، فهو الشابّ القاتل. وعلى الأرجح، أنَّه ما من شيء كان ليدهشه! لم يكن

مجرمًا بطبعه، ولا مستمتعًا بالقتل، غير أنّه لا يتردَّد مطلقًا في إنهاء حياة إنسانٍ ما، من أجل هدفٍ ما. كان صغير السنّ، تفيض المثاليَّةُ منه (لا أعرف أيَّ مثاليَّةٍ هي)، مفعمًا بالطاقة. ماهرٌ في استخدام فنون السَّيف. لم يكن ليدهشه أن يرى موتَ العجوز على يديْه، العجوز الذي كان في أرذل العمر. بل كان يراه أمرًا طبيعيًا ومنطقيًا.

ثمّ هناك شاهدٌ آخر، مريب. كان في أسفل يسار اللَّوحة، كأنَّه يمثِّل حاشيةً أُلحقتْ بالمتن الأصليّ. وكان يرفع غطاءً ملصقًا بالأرض، ليفتح نصفه تقريبًا، ويبرز رأسه من تلك الفتحة متلصِّصًا. الغطاء مربَّعٌ وخشبيّ على ما يبدو، ذكَّرني بالمدخل المؤدِّي إلى السندرة في هذا البيت، إذ كانا متطابقيْن من حيث الشكل والحجم. كان الرجل يشاهد أولئك الأربعة من تلك الفتحة.

فتحةٌ ثُقِبَتْ في الأرض؟ بالوعةٌ مربَّعة؟ مستحيل! لا وجود لصرفٍ صحّيّ في عصر أسْكا. ناهيك بأنَّ مشهد المبارزة كان خارجيًا، في مكانٍ ليس فيه شيء إطلاقًا. وما في الخلفيّة، إلَّا شجرة صنوبر وحيدة خفيضة الأغصان. فما سرّ وجود فتحة ذات غطاء في أرض ذلك المكان؟

كانت الغرابة تميِّز ملامح الرجل الذي يُبرز رأسَه من الفتحة أيضًا. وجهُه رفيعٌ وطولانيٌّ كالباذنجان الأعوج، وتغطِّيه لحيةٌ سوداء كلِّيًّا، وشعرُه طويلٌ وغير مسرَّح. يبدو أنَّه شخصٌ متشرِّد، أو زاهدٌ متنسِّك اعتزل العالم، أو أنَّه رجلٌ ممسوس أصابه الخرف؛ لكنَّ نظراته كانت ثاقبة، تلمع بنور الحكمة. إلَّا أنَّها حكمةٌ غير متأتِّية من خلال المعرفة، بل إنَّها من نوعٍ منحرف (ما يشبه الجنون). حصل عليها من طريق المصادفة. من المستحيل معرفة ثيابه، إذ لم أستطع رؤية شيء منه باستثناء عنقه. كان يراقب المبارزة، لكنَّه لم يُدهَش من نتيجتها، بل بدا

وكأنَّه يشاهد حدثًا متوقَّعًا، سيقع حتمًا، أو كأنَّه جاء ليراقب مسار الأمور، بدافع الفضول. لا تنتبه الفتاة ولا الخادمُ إلى وجوده خلفهما؛ إذ إنَّ عنف المبارزة أبهرهما، فلم ينظرا إلى الخلف.

تُرى من يكون ذلك الرجل؟ ولماذا يختبئ في الأرض بهذا الشكل في ذلك المشهد التاريخيّ القديم؟ وما غاية توموهيكو أمادا من رسم ذلك الفرد المريب والغامض، عند حافَّة اللَّوحة خصِّيصًا، كما لو أنَّه أراد أن يدمِّر توازن العمل بأيِّ ثمن؟

ولماذا سمَّاها «مقتل الكومنداتور» أصلًا؟ لا شكَّ أنَّ المقتول في اللَّوحة ذو رتبة عالية. لكنَّ مظهره عجوزًا بملابس ذلك العصر القديم لا يتناسب مطلقًا مع تسمية «الكومنداتور». فمن البديهيّ، أنَّ لقب «الكومنداتور/قائد كتيبة الفرسان» ظهر في العصور الوسطى أو الحديثة في أوروبا. وليس هناك مثل هذه الوظيفة في التاريخ اليابانيّ. لكنَّ ذلك لم يمنع توموهيكو أمادا من تسمية لوحته بهذا العنوان الغامض. ولا بدّ من وجود سبب!

على أنَّه كان لكلمة «الكومنداتور» ما يثير ذاكرتي نوعًا ما. أتذكَّر أنَّني سمعتُها من قبل. تابعتُ آثار تلك الذاكرة، كأنَّني أمسك خيطًا رفيعًا أجذبه نحوي. يُفترض أنَّ عينيَّ لمحت الكلمة في روايةٍ أو مسرحيَّةٍ ما. بل إنَّها عملٌ فنّيّ شهير جدًّا. تُرى أين؟ فإذا أنا أتذكَّر فجأةً: إنَّها أوبرا «الدون جوڤاني» لموتسارت. وإن لم تخنّي الذاكرة، فإنَّ العمل يُفتَتَح بمشهدٍ معنونٍ بـ«مقتل الكومنداتور». ذهبتُ إلى رفّ الأسطوانات في غرفة المعيشة، وأخرجتُ صندوق مجموعات «الدون جوڤاني»، وألقيتُ نظرةً سريعةً على الشرح المكتوب، ثمّ تأكَّدتُ أنَّ العمل يبدأ بمشهدٍ لقتل قائد كتيبة الفرسان فعلًا. ولم يكن له اسم، بل كُتِب فقط أنَّه «الكومنداتور».

أُلِّفَ سيناريو الأوبرا الأصليّ باللُّغة الإيطاليَّة، وفيها أنَّ العجوز الذي يُقتَل في البداية هو (Il Commendatore). وفي الملاحظات، ترجمها أحدهم باليابانيَّة (Kishidanchō). ولا أعلم في الواقع ما «الكوماندداتور» بالتَّحديد: أهي رتبة أَمْ وظيفة؟ ولم أعثر في أيٍّ من تلك الشروح على تفسير. فهو في تلك الأوبرا، بلا اسم، وينحصر دورُه في أن يُقتَل على يد الدون جوڤاني في البداية، ثمَّ يظهر في النهاية على شكل شبحٍ مشؤوم أمام قاتله ليقوده إلى الجحيم.

تبيَّن لي الأمر جليًّا إذ تمعَّنتُ فيه. فالشابّ الذي رُسم في تلك اللَّوحة بملامح وجه فتاةٍ جميلةٍ هو الدون جوڤاني (بالإسبانيَّة الدون خوان)، والعجوز المقتول هو الكومنداتور المعظّم. والفتاة هي الدونَّة آنا، ابنته الجميلة. والخادم هو ليپوريللو، خادم الدون جوڤاني، الذي يحمل في يده السجلّ المفصَّل بأسماء النساء اللواتي أغواهنَّ سيّدُه. قائمةٌ طويلة جدًّا.

لقد اجتهد الدون جوڤاني محاولًا إغواء الدونَّة آنا، فبارز والدها الذي كان عائقًا أمامه، ما أدَّى إلى مصرعه. إنَّه ذلك المشهد الشهير. فكيف لم أنتبه إليه منذ البداية؟ ربَّما كان ذلك بسبب البعد الشاسع بين تأليف موتسارت للأوبرا، وفنّ النيهونغا في عصر أسُكا. هذا ما جعلني لا أربط بينهما. لكنّي عندما عرفتُ، تبيَّنتُ كلّ شيء: لقد «وفّق» توموهيكو أمادا بين عالم موتسارت واليابان القديمة. محاولةٌ جديرةٌ بالاهتمام، أقرّ بذلك. ولكنْ، لماذا أقدم عليها؟ إنَّها تختلف تمامًا عن مواضيع رسمه المعتادة. ولماذا غلَّف اللَّوحة بإحكامٍ متعمّدًا، وأخفاها عن العيون في السندرة؟

وما معنى وجود ذلك الرجل ذي الوجه الطولانيّ الرفيع الذي يطلّ برأسه من الأرض في أقصى يسار اللَّوحة؟ لا وجود لهذه

الشخصيَّة في أوبرا دون جوڤاني لموتسارت بالتأكيد. لكنَّ أمادا، لغايةٍ معيَّنة، أضافها إلى المشهد. كما أنَّ الدونَّة آنا في الأوبرا لا تشهد مقتل والدها أمام عينَيْها؛ لأنَّها ذهبتْ تستجير خطيبها الفارس الدون أوتاڤيو، وعند عودتهما إلى موقع الحادث، وجدا والدها وقد لفظ أنفاسَه الأخيرة. لقد غيَّر توموهيكو أمادا التصميم الأوبراليّ ببراعة؛ لعلَّه أراد أن يضفي على الحدث طابعًا دراميًّا. ولكنْ من الصعب أن يفكِّر المرء بأنَّ ذلك الرجل المتلصِّص الذي يُبرز رأسه من باطن الأرض هو الدون أوتاڤيو، أيًّا تكن زاوية النظر. فملامحُ تلك الشخصيَّة توضِّح عدم انتسابها إلى عالم النبلاء. لا يمكن أن يكون فارسَ العدالة الواعي الذي أتى لإغاثة الدونَّة آنا.

هل هو جِنٌّ مارق أتى من الجحيم؟ هل ظهر بتلك الهيئة ليستطلع على الدون جوڤاني مسبقًا قبل أن يسوقَه إلى الجحيم في نهاية القصَّة؟ لا. مهما أطلتُ النَّظر فيه، لم أكن أقتنع بأنَّه جنٌّ أو شيطان. فالأرواح الملعونة لا تمتلك مثل ذلك البريق الغريب في العيون. والشيطان لا يتلصَّص بوجهه من الأرض بعد أن يرفع غطاءً خشبيًّا مربَّع الشَّكل فيكشفَ أمرَه بنفسه. كان لذلك الشخص أن يؤدِّي دورًا مؤذيًا. خطر في بالي أن أسمِّيه موقتًا «طويل الوجه».

استغرقتُ في تفحُّص اللَّوحة صامتًا عدَّة أسابيع. لم أجد أيَّ رغبةٍ في رسم لوحاتٍ من تأليفي عندما كنت أقف أمام ذلك المشهد. وفقدتُ الرَّغبة في الطعام بشكلٍ لائق أيضًا. أفتح الثلَّاجة، وآخذ منها ما تقع عيناي عليه من الخضراوات ثمّ آكلها بالمايونيز؛ أو أفتح إحدى المعلَّبات المخزَّنة، وأسخِّن محتواها في وعاءٍ على النار. هذا كلّ شيء. كنتُ أجلس على أرضيَّة المرسم، أحدِّق في لوحة «مقتل الكومنداتور»

بلا ملل، وأستمع إلى أسطوانة «الدون جوڤاني» مرارًا. وعندما يأتي المساء، أشرب كأسًا من النبيذ أمام اللَّوحة دومًا.

لوحةٌ رُسمت بمهارة عظيمة، برأيي. لكنَّها لم تكن موجودة في الأعمال الكاملة لتوموهيكو أمادا، على حدّ علمي. ما يعني أنَّ أوساط الرَّسم لا تعلم شيئًا عن وجودها. فلو كان مُعلَنًا عنها من قبل، كانت ستصبح بلا شكّ رائعة ذلك الفنَّان العبقريّ. وكانوا سيستخدمونها ملصقًا دعائيًا في افتتاح أحد معارِضه. ثمَّ إنَّها ليست مجرَّد لوحة عظيمة فحسب، إنَّما تتميَّز بقوَّةٍ خارجةٍ عن المألوف. وهذه حقيقةٌ يستحيل أن ينفيها أحدٌ، وإن كان لديه بصيصٌ من الحسّ الفنِّيّ. ففيها ما يؤلِّب مشاعر الناظر إليها بعمق. وتحتوي على شيء ذي دلالة، يغري من يراها بقوّة الخيال.

باتت عيناي لا تفارق «طويل الوجه» الملتحي، القابع على يسار اللَّوحة. كنتُ أشعر أنَّه فتح الغطاء لكي يدعوني، شخصيًّا، إلى الذهاب معه إلى العالم السفليّ. والحال، أنَّني كنتُ أتوقُ شوقًا لمعرفة العالم الموجود تحت ذلك الغطاء. تُرى من أين جاء؟ وماذا يفعل هناك؟ وهل سيُغلق الغطاء مرَّةً ثانيةً في النهاية، أم سيظلّ مفتوحًا دائمًا؟ كنتُ أستمع إلى المشهد نفسه من أوبرا الدون جوڤاني مرّاتٍ ومرّات، وأنا أتأمَّل اللَّوحة. إنَّه المشهد الثالث من الفصل الأول بعد الافتتاحيَّة. إلى أن حفظتُ كلمات المقطع عن ظهر قلب:

الدونَّة آنا:

«آهٍ، يا لَكَ من قاتل! لقد قتلتَ أبي!
تلك الدّماء.. ذلك الجرح..
إنَّ الوجه يُظْهِرُ بالفعل لونَ الموت،

وانقطعت الأنفاس،
وبردت الأطراف..
أبي! أبي الحنون!
أنا على وسك أن أغيبَ عن الوعي،
كأنّني أوشك على الموت بهذه الحالة».

ـ 6 ـ
حتَّى هذه اللَّحظة، هو عميلٌ بلا وجه

في أواخر الصيف، تلقَّيتُ مكالمة هاتفيَّة من وكيل أعمالي. كانت أول مكالمة تأتيني بعد غيابٍ طويل. وكان الطقس في الظهيرة ما يزال صيفًا حارًّا، حتَّى إذا غابتِ الشمسُ، أمسى هواءُ الجبل باردًا جدًّا. خفَّ صريرُ الجنادب تدريجيًّا، وبالمقابل، ارتفع أزيز الحشرات الأخرى بشكلٍ جماعيّ ضخم. كان تغيُّر الفصول، وسط تلك البيئة الطبيعيَّة، يفعل فعله بلا تردُّد، خلافًا لتغيُّرها وقت إقامتي في المدينة.

تحدَّثنا أنا والوكيل عن المجريات الأخيرة، في بداية المكالمة. وفي الحقيقة، لم يكن لدينا شيء ذو أهمِّيَّة كبيرة لنتبادله.

«بالمناسبة، أما زلتَ ترسم؟ هل العمل يسير من دون عقبات؟»

«تدريجيًّا» ـ قلت. وكنت أكذب بالطبع. فقد مرَّت أربعةُ أشهر تقريبًا على انتقالي إلى هذا البيت، وما زال اللَّوحُ ناصعَ البياض كما كان.

«هذا جيِّد. أرجو أن تُريني أعمالَكَ قريبًا. فربَّما أتمكَّن من مساعدتك».

«أشكرك. سأفعل قريبًا».

ثمَّ أخذ يتحدَّث عن سبب اتِّصاله. «اتَّصلتُ بك لأعرض عليك شيئًا. هل ترغب برسم بورتريه، لمرَّة واحدة فقط؟»

«سبق وأخبرتُكَ: البورتريه لم يعد يهمُّني».

«أجل. أذكر ذلك بالتَّأكيد. لكنَّ الأجر هذه المرَّة عالٍ إلى درجةٍ خياليَّة».

«عالٍ إلى درجةٍ خياليَّة؟»

«رائع إلى درجة تفوق الوصف».

«رائع، إلى أيِّ درجة؟»

نطق الوكيل بالرقم، وكدتُ أصفر عفويًّا من هول ما سمعتُ. لكنَّني تمالكتُ أعصابي، وقلت له بنبرةْ هادئة: «أعتقد أنَّني لستُ الوحيدَ المتخصِّص برسم البورتريه في العالم».

«أجل، البارعون موجودون، لكنَّهم ليسوا كُثُرًا كما تعتقد».

«فلِمَ لا تتَّجه إلى واحدٍ منهم؟ لن يرفض أحدٌ الأجر الذي ذكرتَه».

«لكنَّ العميل اختارك أنتَ بالاسم. اشترط أن ترسم البورتريه أنتَ بالذات. لا يريد رسّامًا آخر».

حوَّلتُ سمَّاعةَ الهاتف من اليد اليمنى إلى اليسرى، وحككتُ باليمنى خلف أذني.

«العميل يقول إنَّه شاهد عددًا من أعمالك وأعجبْته بشدَّة. يقول إنَّه من الصعب العثور على قوَّة الحياة نفسها عند رسَّامين آخرين».

«لم أفهم. بل أستغرب أنَّ أحدًا شاهد «عددًا من أعمالي». فأنا لا أفتتح معرضًا خاصًّا بي كلَّ عام في معارض الفنون».

«لا أعرف تفاصيل الأمر ـ قال بنبرةٍ يتخلَّلها الارتباك قليلًا. لقد أبلغتُك ما قاله العميل بحذافيره. وقد أبلغتُه منذ البداية أنَّك لم تعد ترسم البورتريه. وقلت له أيضًا إنَّ قرارك حاسم، وإنَّك لن ترجع عنه مهما أُلحَّ عليك. لكنَّه لم ييأس. بل وعرض ذلك المبلغ».

حاولتُ أن أفكِّر في العرض وأنا ممسكٌ بسمَّاعة الهاتف. ولكي أكون صادقًا، فإنَّ المبلغ دغدغ مشاعري. ثمَّ دغدغ كبريائي كثيرًا وأغراني أنَّ أحدًا يُقدِّر أعمالي. لاسيَّما أنَّها لوحاتٌ رسمتُها للحصول على أجر، كما يقال. لكنَّني كنت قد قطعتُ عهدًا مع نفسي بعدم العودة إلى رسم البورتريهات التجاريَّة. ثمّ انتهزتُ فرصة انفصالي عن زوجتي لاتِّخاذ قرارِ بدء حياةٍ جديدة، ولا أستطيع التراجع عن هذا القرار لمجرَّد أنَّه وُضعتْ أمام عينيَّ كمِّيَّةٌ كبيرةٌ من المال.

سألتُ الوكيل: «ولكنْ، ما الذي يدفع العميل ليكون سخيًّا إلى ذلك الحدّ؟»

«ثمَّة الكثير ممَّن لديهم فائضٌ من المال، مع أنَّ المجتمع يمرّ بأزمة اقتصاديَّة حاليًّا. هناك الكثير ممَّن جنوا أموالًا طائلة بالمضاربة في بورصات الإنترنت، ناهيك برجال أعمال في مجال المعلوماتيَّة. كما أنَّ بإمكانهم أن يدفعوا أجر البورتريه بخصمه من الضرائب مباشرةً».

«البورتريه يُخصَم من الضرائب؟» ـ سألتُ متعجِّبًا.

«من الممكن اعتبار البورتريه أحد مستلزمات مكتب الشركة، لا عملًا فنيًّا للترفيه».

«كم أثلجتَ صدري بهذه المعلومة»، قلت متهكّمًا.

مضاربٌ في بورصات الإنترنت، أو مستثمرٌ في مجال المعلوماتيَّة، يرغب في رسم صورة شخصيَّة له لتعليقها على جدران مكتبه على أنَّها من مستلزمات الشركة... لم يقنعني هذا التبرير، حتَّى لو كان المال فائضًا لديه، أو خصم المبلغ من الضرائب. فهؤلاء، في غالبيَّتهم، شبابٌ يمارسون أعمالهم مرتدين بناطيل الجينز الكالح، وأحذية من ماركة نايكي، وقمصانًا رثَّةً قصيرة الأكمام، وسترات من محل جمهوريَّة الموز، ويفتخرون باحتساء القهوة من مقاهي ستاربكس بأكوابِ ورقٍ مقوّى. لن تتناسب لوحاتُ البورتريه الزيتيَّة التقليديّة مع أذواقهم وأساليب حياتهم. لكنّ العالم زاخرٌ بأنواع مختلفة من البشر! لا يمكننا التعميم. فربَّما هناك مَن يريد أن يُرسَمَ وهو يشرب قهوة ستاربكس أو سواها (قهوةٌ آتيةٌ من «أسواق التجارة العادلة» حصرًا بطبيعة الحال).

«لكنَّ العميل وَضَعَ شرطًا واحدًا فقط ـ تابع وكيلي، أن ترسمه مباشرةً، وهو قبالتك. سيُفرّغ من وقته ما تراه ضروريًّا».

«لكنّي لا أرسم بهذه الطريقة عادةً».

«أعرف. أخبرتُه.. أنت تلتقي بالعميل شخصيًا، لكنَّك لا تحبّ أن ترسمه مباشرةً. هذه طريقتك في الرّسم، لكنَّه أراد أن تضحّي هذه المرّة استثناءً. إنَّه شرطه الوحيد».

«وما معنى كلّ ذلك؟»

«لا أعلم».

«إنَّه طلبٌ غريب للغاية. لماذا يصرّ على شرطه؟ يُفترض أن يكون مسرورًا لكونه لا يقف ساعاتٍ ليقوم بدور الموديل».

«وأنا أيضًا أراه غريبًا نوعًا ما. إلَّا أنَّ الأجر، لا يمكن الاعتراض عليه».

«بالتأكيد. لا يمكن الاعتراضُ على أجرٍ كهذا».

«الأمر متعلّقٌ بك. لا أطلب منك أن تبيع روحَكَ أو مبادئك. يدك ماهرة في رسم البورتريهات، وهي محلّ تقدير».

«أشعر أنّني قنَّاصٌ منسحبٌ من عصابة مافيا، ويقولون لي: هذا آخر رجلٍ تقتله».

«لكنَّك لن تُضطَرَّ إلى إراقة الدّماء. ما رأيك؟ هل تقبل هذا العرض؟»

ردَّدتُ الجملة في رأسي: لن تُضطَرّ إلى إراقة الدماء. ثمَّ تذكَّرتُ مشهد لوحة «مقتل الكومنداتور». فسألتُه: «أيَّ نوعٍ من البشر ذاك الذي سأرسمه؟»

«للصدق، ليس لديَّ أدنى فكرة».

«ألا تعرف كذلك إنْ كان رجلًا أم امرأة على الأقلّ؟»

«لا أعرف. لم أُبلَّغ بأيّ شيء عن جنسه أو عمره. حتَّى هذه اللَّحظة هو عميلٌ بلا وجه. لم أتكلَّم معه شخصيًّا، بل اتَّصل بي محامٍ وأبلغني أنَّه وكيل عن العميل، وأنا أتفاوض مع ذلك المحامي فقط».

«لكنَّه مشروعٌ نظيف، أليس كذلك؟»

«أجل، لا شبهة فيه مطلقًا. فالطرف الآخر مكتبُ محاماةٍ معروف. وحال الاتّفاق، سيحوّلون المبلغ فورًا».

أطلقت تنهيدة وأنا ممسكٌ بسمَّاعة الهاتف.

«إنَّك تفاجئني بهذا العرض. يبدو أنّني لن أستطيع الردّ فورًا. أعطني مهلةً لأفكّر».

«لا مانع. فكِّرْ جيِّدًا حتّى تقتنع تمامًا. فالعميل ليس على عجلة من أمره».

شكرتُه وأغلقتُ الهاتف. وذهبتُ إلى المرسم، إذ ما من شيء آخر أقوم به. أشعلتُ الضوء، وجلستُ على الأرضيَّة أتأمَّل لوحة «مقتل الكومنداتور». شعرتُ بجوعٍ خفيف، فذهبتُ إلى المطبخ، وحملتُ وعاء الكاتشب والبسكويت المملَّح، وعُدتُ إلى المرسم، للتأمُّل في اللَّوحة وأنا أتناول البسكويت المملَّح بعد وضع الكاتشاب عليه. لكنَّه لم يكن لذيذًا بالطبع. بل كان مقرفًا بصراحة. ولم أكن أتلذَّذ بالطعم حينذاك، فسواء أكان لذيذًا أم مقرفًا، حسبي أنَّه يملأ البطن ويقضي قليلًا على الجوع.

لقد سلبت اللَّوحة لُبِّي بشدَّة! كنت مبهورًا بشكلها العامّ وتفاصيلها. حتَّى بتُّ سجينًا فيها. فبعد أن تأمَّلتُها بعمقٍ عدَّة أسابيع، اقتربتُ إليها، وأخذتُ أفحصها بدقَّة ملتقطًا تفاصيلَها واحدًا بعد آخر. وأبرز ما جذبني هو التَّعبيرات البارزة على وجوه الأشخاص الخمسة. رسمتُ مسوَّدةً دقيقةً بقلم الرصاص لتعبيرات وجه كلٍّ من تلك الشخصيَّات: من الكومنداتور إلى الدون جوڤاني، ومنه إلى الدونَّة آنا، ومنها إلى ليپوريللو، حتَّى وصلتُ إلى «طويل الوجه». وقد فعلتُها مثلما ينقل محبُّ القراءة جُملًا أعجبتْه من أحد الكتب إلى مفكِّرته، حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمةً، بعناية بالغة، وبدون تغيير. كانت تلك أوَّل تجربةٍ لي في رسم مسوَّدةٍ بقلمي الرصاص لشخصيَّاتٍ من لوحة يابانيَّة تقليديَّة هي الأولى في حياتي. غير أنِّي عندما هممتُ بالرسم، أدركتُ أنَّ الأمر أصعب بكثير ممَّا توقَّعته. ففي الأصل، تميل طريقةُ التَّعبير في فنّ النيهونغا إلى الرَّسم السطحيّ أكثر منه إلى الرَّسم المجسَّم، وذلك

بجعل الخطوط ركيزتَها الأساسيَّة. فتكون الأهمِّيَّة من نصيب الترميز والتورية أكثر من واقعيَّة العمل. ومن المستحيل أنَّ مشهدًا مرسومًا بتلك التقنيَّة يُنسَخ من خلال الأسلوب التعبيريّ «الغربي». ومع ذلك، وبعد عدَّة محاولات من التجربة والخطأ، أصبحتُ قادرًا على تنفيذ ذلك بمهارة. لا يمكن أن نسمِّيها «مواءمة» حقيقيَّة، بيد أنَّ اللَّوحة تطلَّبت منِّي تأويلًا معيَّنًا! فلنقل إنِّي «ترجمتها» بطريقتي الخاصَّة. لذا، توجَّب عليَّ أن أحيط إحاطةً تامَّة بالمعنى العميق للمشهد الأصليّ. بعبارةٍ أخرى: يجب أن أفهم وجهةَ نظر الرسَّام توموهيكو أمادا، بل وأن أفهم طريقته الإنسانيَّة في الحياة.

بعد أن كرَّستُ نفسي لذلك العمل، أدركتُ فجأةً أنَّ العودة إلى رسم البورتريه، بعد انقطاعٍ طويل، قد لا تكون فكرة سيِّئة. فأنا متوقِّفٌ تمامًا عن الرَّسم بكلِّ الأحوال، لدرجة أنَّني لم أتلقَّ أيّ إشارة إلى ما ينبغي رسمُه أو ما أريد رسمَه حتَّى تلك الأونة. وقد لا أكون راغبًا كليًّا في ذلك، إلَّا أنَّه لا بأس بتحريك اليد قليلًا. كنت أخشى أنَّني إذا استمرَّت بي الحال هكذا، من دون أيِّ فكرةٍ تظهر، فقد ينتهي بي المطاف إلى عجزٍ شاملٍ عن رسم أيِّ شيء على الإطلاق. وربَّما أصبح عاجزًا حتَّى عن رسم البورتريه. لا شكَّ في أنَّ المبلغ كان مغريًا، وكنت حينها أعيش حياةً خاليةً من المصاريف الثقيلة تقريبًا. لكنِّي لا أستطيع الاعتماد على راتب تعليم الرَّسم وحده. ولقد ذهبتُ في رحلة سفرٍ طويلة، واشتريتُ سيَّارة كورولا واغن، فتناقصتْ مدَّخراتي تدريجيًّا. فكان الأجر الكبير يغريني حقًّا.

اتَّصلتُ بالوكيل، وقلتُ له إنَّني سأقبل العرضَ لهذه المرَّة فقط. وكان سعيدًا بذلك طبعًا.

«ولكن، هل أنا مضطرٌ إلى الذهاب هناك لملاقاة الزبون ورسمه وهو قبالتي؟»

«لا تقلق. لقد قال إنَّه سيذهب إليك بنفسه إلى أوداوارا».

«أوداوارا؟»

«أجل».

«وهل يعلم ذلك الشخصُ بيتي؟»

«يقول إنَّه يسكن بالقرب منك. ويعرف أنَّك تقيم الآن في بيت توموهيكو أمادا».

سادني الصمت برهةً. ثمَّ قلتُ: «أمر عجيبٌ. فلا أحد تقريبًا يعلم أنَّني أسكن هنا، وخاصَّة أنَّ هذا بيت توموهيكو أمادا».

«أنا لم أكن أعلم بالطبع».

«حسنًا، فكيف عرف هو بذلك؟»

«لا أعلم. لم يخبرني بالأمر. لكنَّنا نحن الآن في عالمٍ من السهل جدًّا لأيِّ شخصٍ أن يطَّلع على أيِّ شيء من خلال الإنترنت. وبالنِّسبة إلى رجلٍ متمرِّس، قد لا يكون هناك أسرار شخصيَّة».

«هل يسكن في جواري عن طريق الصدفة؟ أم أنَّ أحد أسبابه اختياري عائدٌ لكونه يسكن في جواري؟»

«لا أدري. بإمكانك أن تسأله ما شئت حين تلتقي به».

«حسنًا، متى سنباشر العمل؟»

«متى أردتَ. سأبلغ العميل جوابك، وأتَّصل بك ثانيةً لأخبرك بالخطوة التالية».

بعد أن أغلقتُ السمّاعة، خرجتُ إلى الشرفة، واستلقيتُ على المقعد الطويل، وأخذتُ أفكّر في مآلات الأمر. وكلّما فكّرتُ، ازدادت الأسئلة. لم يرق لي في البداية أنَّ العميل يعرف أنّني أعيش في هذا البيت. شعرتُ كأنَّ شخصًا ما يتتبّع أثري على الدوام، ويراقب كلّ تحرُّكاتي ووقفاتي. ولكنْ، من له أن يهتمّ بإنسانٍ مثلي إلى هذه الدَّرجة؟ ولماذا؟ ناهيك بانطباعي عن أنَّ الموضوع برمَّته مفبركٌ بمهارةٍ شديدة. كان للوحات البورتريه التي أرسمُها سمعة جيِّدة، فضلًا عن أنّني واثقٌ بنفسي إلى حدٍّ ما، لكنَّها في النهاية، ليست سوى بورتريهات مثل غيرها، ولا يمكن اعتبارها «أعمالًا فنّيّة»، مهما كانت زاويةُ النظر إليها. ثم إنّني، من وجهة نظر المجتمع، رسّامٌ مجهولٌ تمامًا. وحتى لو شاهد أحدهم بعض لوحاتي وأُعجب بها (من جهتي، لم أكن أحمل تهانيهم محمل الجدّ)، فهل كان سيدفع مثلَ ذلك الأجر بكرمٍ باذخ؟

وهنا، خطرت في بالي فكرة على حين غرّة. هل يمكن أن يكون ذلك العميلُ هو زوج المرأة التي أقيمُ معها علاقةً حاليًّا؟ ليس هناك أيُّ دليل، لكنّي لا أجد ما ينفي الاحتمال من جهة أخرى. ولم أفكّر بإنسانٍ مجهولٍ يسكن في جواري، وقد يكون مهتمًّا بي شخصيًّا، إلّا زوجَها. ولكنْ، لماذا يحاول أن يدفع مبلغًا كبيرًا لمن تخونه زوجتُه معه كي يرسم له لوحة شخصيّة؟ لا منطق في ذلك. إلّا إذا كان إنسانًا غريب الأطوار!

سلَّمتُ أمري في النهاية. فلندعِ التيّارَ الهادرَ يجرفني، لعلّنا نرى آخره. فإنْ كان للرجل خطّة مبيَّتة، سأقرّر فيما بعد كيف أتعامل معه. وربّما كان ذلك أجدى كثيرًا من أن يكون المرء مقيَّدًا وسط الجبل من دون أن يَقْدر على الحركة. ثمَّ إنَّ الفضول اشتعل في نفسي. ما

نوع الشخص الذي كنت سأرسمه؟ وما وراء ذلك الأجر الباهظ؟ كنت متلهّفًا لمعرفة الأمر.

عندما حسمتُ أمري، شعرتُ بالراحة إلى حدٍّ ما. واستطعتُ في تلك اللّيلة، بعد وقتٍ طويل، أن أنام عميقًا من دون التّفكير في شيء. وبدا لي أنّني سمعتُ خشخشةَ البومة القرناء وهي تتحرّك في اللّيل. وقد يكون مجرّد حلمٍ رأيته!

- 7 -

اسمُ سهلُ الحفظ، بما في ذلك من إيجابيَّات وسلبيَّات

تبادلتُ ووكيل أعمالي في طوكيو مكالماتٍ هاتفيَّة عدَّة مرَّات، حتَّى قرَّرنا أنَّني سألتقي بالعميل الغامض بعد ظهر يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي (وظلّ اسمُ العميل حتَّى تلك اللَّحظة مجهولًا). ألححتُ على اتِّباع طريقتي المعهودة، بألَّا أبدأ العملَ فعليًا في اللِّقاء الأوَّل، وأن يقتصر لقاؤنا على حوارٍ بسيط مدَّة ساعة. ما من اعتراضات.

ومن البديهيّ أنَّ الضرورةَ الجوهريَّة في رسم البورتريه تكمن في الإحاطة بالمعالم المميَّزة لوجه الشخص المراد رسمه. لكنَّ هذا بمفرده ليس كافيًا، إذ قد ينتهي بك الأمر إلى رسم صورةٍ كاريكاتوريَّة. أمَّا ضخُّ الحياة بالبورتريه، فهذا يتطلَّب مقدرةً على إدراك ما تخفيه ملامح الوجه في أعماقها. فالوجه مثل خطوط الكفّ، إن صحَّ التَّعبير. لكنّ ما يميِّزه

عن خطوط الكفّ، هو أنَّه لا يبقى على حاله منذ الولادة، إنَّما يتغيَّر حتَّى يأخذ شكلًا معيَّنًا كلَّما مرَّ الزمنُ وعاشَرَ صاحبُه بيئاتٍ مختلفة.

في صباح يوم الثلاثاء، رتَّبتُ البيت، ونظَّفتُه، وزيَّنتُ المزهريَّة بورودٍ قطفتُها من الحديقة. ونقلتُ لوحةَ «مقتل الكومنداتور» من المرسم إلى غرفة نوم الضيوف، بعد أن غلَّفتُها بالورق اليابانيّ الذي كانت ملفوفةً به أصلًا. لا يجب أن يلمح أحدٌ تلك اللَّوحة.

عند الساعة الواحدة وخمس دقائق، وصلت سيَّارةٌ صاعدةٌ من المنحدر، وتوقَّفتْ في المرأب أمام مدخل البيت. ظلَّ دويُّ المحرِّك الثقيل المهيب يتردَّد فترةً في محيط المكان. كان صوتًا يشبه زئير وحشٍ عملاق، راضٍ عن نفسه، في عمق أحد الكهوف. محرِّكٌ ذو سعة ضخمة. توقَّف المحرِّك بعد ذلك، فتنزَّلت السَّكينةُ فوق الوادي من جديد. كانت السيَّارة رياضيَّةً من طراز جاغوار كوبّيه، فضِّيَّة اللَّون. انعكستْ أشعَّةُ الشمس المبهرة التي تسرَّبت من بين الغيوم على مصدِّ عجلاتها المصقول. لست على اطِّلاعٍ واسعٍ بالسيَّارات، لكنَّني تكهَّنتُ أنَّها أحدث طِراز، وأنَّ عدَّاد المسافات فيها لم يتخطَّ عشرة آلاف كيلومتر، وأنَّ سعرها لا يقلّ عن عشرين ضعفِ ثمن سيَّارة الكورولا المستعملة التي اشتريتُها. غير أنِّي لم أُدهَش، فالرجل سيدفع المبلغ الضخم إيَّاه لرسم بورتريه. فلا عجب حتَّى وإن جاء على ظهر يخت عملاق.

نزل من السيَّارة رجلٌ متوسِّط العمر، أنيقُ الملبس. يضع نظَّارة شمسيَّة ذات لونٍ أخضر غامق، ويرتدي قميصًا قطنيًّا أبيض - بل ناصع البياض - بأكمامٍ طويلة، وبنطالًا قماشيًّا بلون الكاكي. حذاؤه بلونٍ رمليٍّ يصلح لركوب الزوارق. وطول قامته لا يزيد عن المئة وسبعين سنتيمترًا أو شيء كهذا. ووجهه أسمر بفعل الشمس. كان في مجمله يعطي

انطباعًا بالنظافة القصوى. لكنَّ شعره هو الذي لفت انتباهي بادئ الأمر. إذ كان كثيفًا يتموّج بخفّة، وأبيض اللّون كلّيًا، من دون أيّ شعرة سوداء. لم يكن شيبًا ولا خليطًا من بياضٍ وسواد، بل أبيضَ بياضًا خالصًا كثلجٍ يتساقط توًّا.

كنتُ أراقبه من بين ستائر النافذة وهو ينزل من السيّارة، ثمّ أغلق بابَها (فصَدَرَ ذلك الصوتُ الخفيف المحبّب الذي تتميّز به السيّارات الفارهة حين تُغلَق أبوابها)، وضع مفتاحها في جيبه ولم يقفلها، وسار متوجّهًا نحو المدخل. مشيته مهيبة، منتصب القامة، حركاته منتظمة، لا يستخدم أيّ عضلةٍ إلّا بما يساعده على السّير، ولا بدَّ أنّه يمارس تمارين رياضيّةً كلّ يوم، بل يمارسها بصرامةٍ شديدة. ابتعدتُ عن النافذة، وجلستُ على مقعدٍ في غرفة المعيشة، حيث انتظرتُه أن يقرع الجرس. وإذّاك، مشيتُ ببطء حتّى المدخل، وفتحتُ الباب.

وما إن رآني حتّى نزع نظّارته الشمسيّة عن عينيْه ووضعها في جيب قميصه. ثمّ مدَّ يدَه لمصافحةٍ لا تشوبها كلمات. فمددتُ يدي تلقائيًا. فصافحني بحرارةٍ وقوّة، مثلما يفعل الأميركيّون عادةً. أحسستُ أنَّ قوّة المصافحة زائدة عن اللّازم قليلًا، لكنّها لا ترقى إلى حدّ الألم.

قال الرجل بصوتٍ واضح: «مرحبًا. اسمي مِنْشِكي». كانت نبرةُ صوتِه كتلك التي يتفوّه بها المتحدّثون في بداية المحاضرة، لاختبار الميكروفون.

«أهلًا بك. تفضّل!» أجبتُ، ثمَّ سألتُه: «هل قلتَ منشكي، يا سيّدي؟»

«أجل. «مِنْ» بمعنى «الإفلات»، و« ـشكي» بمعنى «اللّون»».

«منشكي... مِنْشكي»، ردَّدتُ في سرِّي، مدمِجًا الرمزيْن الدالَّيْن على الاسم معًا. إنَّه دمجٌ غريبٌ للكلمات.

«الإفلات من اللَّون» ـ قال الرجل. «اسمٌ نادر. وباستثناء عائلتي، من الصَّعب أن تجد مَن يدعى كذلك».

«لكنَّه سهل الحفظ».

«حقًّا. إنَّه اسم سهلُ الحفظ، بما في ذلك من إيجابيَّات وسلبيَّات» ـ قال الرجل مبتسمًا. كان له لحيةٌ على خدَّيْه وفكِّه نَمَتْ بشكلٍ فوضويّ، إلَّا أنَّه تعمَّد تركها بهذا الشكل على دِقَّة المليمتر. وكانت اللحية قد وَخَطَها الشيب قليلًا، خلافًا لشعره الأبيض كلِّيًا. واستغربتُ من ذلك التناقض ما بين لحيته وشعره!

«تفضَّل بالدخول من هنا»، قلت له.

انحنى المدعوُّ منشكي، ثمَّ خلع حذاءه ودخل البيت. كانت طلَّته ساحرة، لكنَّها توحي بارتباكه إلى حدٍّ ما. مثل قطّ كبير جيء به إلى مكان غريب لأوَّل مرَّة، فتغدو كلُّ حركاته مشوبةً بالحذر واللِّين، ويتفحَّص بعينَيْه المكانَ هنا وهناك.

جلس على الأريكة، وقال: «يبدو البيت مريحًا. في قمَّة الهدوء والسكينة».

«من حيث الهدوء، فهو هادئ جدًّا. لكنَّه غير مريح من حيث التبضُّع مثلًا».

«لكنَّه مكانٌ مثاليٌّ بالتأكيد لمن يعمل مثل عملك».

جلستُ على المقعد المواجه له.

«لقد عرفتُ أنَّك أنت أيضًا يا سيِّد منشكي تسكن بالقرب من هنا».

«أجل، هذا صحيح. لو جئتُ سيرًا على الأقدام لاستغرقتُ وقتًا أطول. لكنَّ بيتي قريبٌ بمسافة الرؤية».

«بمسافة الرؤية»، ردَّدتُ ما قال، بدا لي التَّعبير غريبًا، ولست أدري لماذا! «كم المسافة على وجه الدقَّة؟»

«ما يمكِّنني من رؤيتك لو أشرت لي بيدك عليك».

«هل تقصد أنَّه من الممكن رؤية بيتك من هنا؟»

«بالضبط».

احترتُ في الردّ، فوجدتُه يسألني:

«هل تريد أن ترى بيتي؟»

«إن أمكن».

«هل تمانع إذا خرجنا إلى الشرفة؟»

«قطعًا. تفضَّلْ!»

نهض منشكي من الأريكة، وخرج إلى الشرفة المتَّصلة بغرفة المعيشة. ثمَّ انحنى بجذعه فوق السياج، وأشار بيديْه إلى الجهة المقابلة من الوادي.

«هل ترى ذلك البيت الأبيض المبنيّ بالإسمنت؟ في الأعلى هناك، الذي يعكس زجاجُه ضوء الشمس؟ هو ذاك».

ذُهِلتُ، فلم أنطق ببنت شفة. إنَّه ذلك القصر الأنيق الذي لطالما أطلتُ النَّظر إليه وأنا مستلقٍ على المقعد في الشرفة وقتَ الغروب، وكأس النبيذ في يدي. ذلك البيت الضخم الواقع على يمين الجهة المقابلة من بيتي.

«بعيدٌ بعض الشيء» ـ قال منشكي. «ولكن، إن لوَّح أحدنا للآخر بذراعه لاستطعنا أن نتبادل التحيَّة».

سألتُه وأنا أضع يديَّ على السياج: «حسنٌ، ولكنْ كيف عرفتَ أنّني أسكن في هذا البيت؟»

تلبَّس وجهُه بالارتباك قليلًا. لم يكن مرتبكًا في الحقيقة، لكنَّه بدا كذلك. والحال، أنّني لم أشعر بأنَّه يمثِّل، سوى أنَّه يحرص على كسب الوقت ليس إلَّا.

«يقتضي عليَّ عملي التوصُّل إلى معلومات يصعب الحصول عليها. هذه هي طبيعة عملي» ـ قال.

«تعمل في عالم الإنترنت؟»

«بالضبط. أو للدقَّة، إنَّ الإنترنت جزءٌ ممَّا يتضمَّنه نطاقُ أعمالي».

«ولكنْ، لا أحد تقريبًا يعلم أنَّني أسكن هنا».

ابتسم منشكي، وقال: «حين تقول: «تقريبًا»، فهذا يعني أنَّ هناك واحدًا على الأقل يعلم الأمر».

ألقيتُ نظرةً أخرى على المبنى الأبيض الخرسانيّ الفخم في الجهة المقابلة من الوادي، ثمَّ نظرتُ إلى الرجل المُسمَّى منشكي. لا بدَّ أنَّه هو الذي يظهر على شرفة ذلك البيت كلَّ ليلة تقريبًا. أجل، الجسد والهندام يتطابق تمامًا مع ظلِّ الرجل الذي كنتُ أراه. لا يمكنني تحديد عمره بدقَّة. فبالنَّظر إلى شعره ناصع البياض كالثلج، يبدو لي في نهاية الخمسينيَّات، أو بداية الستينيَّات من العمر؛ لكنَّ بشرة وجهه نضرة تخلو من أيِّ تجاعيد. وفي عينيْه، بريقُ شبابِ رجلٍ في أواسط الثلاثينيَّات. من الصعب التكهُّن بعمره الحقيقيّ، على الرَّغم من تجميع كلّ تلك التفاصيل. ولو قال لي إنَّه بين الخامسة والأربعين والستِّين، فما كان لي إلَّا أن أصدِّقه.

عاد منشكي إلى الأريكة في غرفة المعيشة، فعدتُ وجلستُ قبالته مرَّة أخرى. ثمّ قرَّرتُ أن أفتح الموضوع.

«هل لي بسؤال يا سيِّد منشكي».

«بالطبع، اسألْ ما تريد» ـ قال مبتسمًا.

«هل لسكني بالقرب من بيتك علاقةٌ بطلبك؟ أقصد البورتريه».

ظهرت على وجهه بعض ملامح الانزعاج. كان إذا تعرَّض لموقفٍ حرج، تتشكَّل تجاعيدُ قليلةٌ على أطراف عينَيْه. ولتلك التجاعيد فتنتها. فكلّ التفاصيل في وجهه كانت وسيمة. مقطع عينيْه عريض، جبينه واسع، حاجباه كثيفان وبارزان بوضوح، أنفه دقيقٌ ومستقيم. كلّ تلك التفاصيل على حدة كانت في محلّها بوجهه الصغير. صغيرٌ، لكنَّه عريضٌ أكثر ممَّا ينبغي، لذا، كان ينقصه بعض التناسق من الناحية الجماليَّة. فالعلاقة ما بين الطول والعرض لم تكن متَّزنة جيِّدًا، غير أنَّه من الصَّعب العثور في المجمل على خللٍ في عدم التوازن ذاك. هذه ميزة وجهه، وكانت للمفارقة تمنح شيئًا من الطمأنينة. فلو كانت التفاصيل منسجمةً للغاية، لربَّما أثار في الناس مشاعرَ استياءٍ أو حذر. إلَّا أنَّه على العكس، كان يمنح جليسه شعورًا بالارتياح، لسان حاله يقول: «لا عليك، اطمئنّ. فأنا لستُ شرِّيرًا. ولا أنوي إضرارك بشيء».

كانت أذناه الكبيرتان المدبَّبتان تنتأَن من بين أطراف شعره الأبيض المقصوص بعناية. وكانتا تولِّدان انطباعًا بما يشبه قوَّة الحياة المتجدِّدة. وقد ذكَّرتاني بالفطر الذي ينمو في الغابات، إذ تنتأ رؤوسه من بين الأوراق المتساقطة، في صباحات الخريف، عندما تتوقَّف الأمطار

عن الهطول. وكان فمه الكبير ذا شفتَيْن ناعمتَيْن ومستقيمتَيْن، وعلى استعدادٍ تامّ للابتسام دائمًا.

بالتأكيد، يمكن أن نصفه بالرجل الوسيم. وفي الحقيقة، هو كذلك. لكنَّ وجهه كان فيه ما يرفض ذلك الوصف الشامل، ويجعله بلا فاعليَّة. إذ إنَّه كان باذخ النشاط والحيويَّة، متقن الحركات الدَّقيقة بما لا يناسبه وصف «الوسيم». فتعبيراته تتغيَّر بعفويَّة، بشكلٍ طبيعيّ وتلقائيّ تمامًا. ولو كان يتعمَّد ذلك، فهذا يعني أنَّه ممثِّل بقدراتٍ خارقة. لكنَّ حدْسي أبلغني بأنَّه ليس كذلك.

لقد اعتدتُ أن أراقب الشخص الذي أقابله للمرَّة الأولى، أراقبه كي أستشفّ منه انطباعاتي. وفي معظم الحالات، لا يكون لتلك الانطباعات أساسٌ ملموس، إنَّما هي حدسٌ بسيط، لكنَّها غالبًا ما تكون صائبة، وهو ما يفيد رسَّام البورتريه.

«الإجابة هي نعم ولا، في الوقت نفسه»؛ قال منشكي. فتح كفَّيْه على وسعهما فوق ركبتيْه، بتوجيههما إلى أعلى، ثمّ قَلَبَهُما إلى أسفل.

انتظرتُ أن يُكمل حديثَه من دون أن أقول شيئًا.

فتابع قائلًا: «إنِّي أهتمّ بمن يسكن في جواري. وربَّما كان الفضول أكثر من الاهتمام. خاصَّةً إذا كان يسكن قبالتي، فأراه وجهًا لوجه، من وقت إلى آخر، على الجهة الأخرى من الوادي».

أعتقدُ أنَّ المسافة أبعد من أن يراني وجهًا لوجه، لكنِّي لم أقل شيئًا. خطر في بالي أنَّه قد يمتلك منظارًا عالي الدقَّة، ويستخدمه في المراقبة خلسةً. لم أصرِّح بخاطري في طبيعة الحال؛ فأيُّ سببٍ يجعله يراقب شخصًا مثلي؟

«علمتُ أنَّكَ سكنتَ في هذا البيت، وأنَّك رسَّام محترف في البورتريه. وقد أثار الأمر اهتمامي، فشاهدتُ عددًا من أعمالك. عبر الإنترنت في البداية، ولكنّي لم أكتفِ بذلك، فاستطعتُ التوصُّل إلى ثلاثة أعمالٍ».

تركني ذلك النبأ مشدوهًا. «هل قلتَ أنَّك رأيتَ بورتريهات أصليَّة؟»

«أجل. ذهبتُ إلى أصحاب تلك البورتريهات، أيْ أولئك الذين رسمتَهم، وطلبتُ منهم رؤيتها. فوافقوا بكلِّ سرور. يبدو أنَّك إذا سألتَ أحد الناس: أرني لوحتك الشخصيَّة، فإنَّ هذا يُسعِده كثيرًا. شاهدتُ اللَّوحات عن قرب، ثمّ قارنتُها بوجوه أصحابها، وذُهلتُ قليلًا. فعند مقارنة اللَّوحة بصاحب الوجه، لم أعد قادرًا على معرفة أيِّهما الحقيقيّ. كيف يمكنني تفسير ذلك؟ إنَّ في لوحاتك شيئًا يستفزّ أنظار من يراها. للوهلة الأولى، تحسبها بورتريه عاديًّا؛ لكنَّك إذا أمعنتَ النظر إليها، أدركتَ أنَّ هنالك شيئًا مختفيًا فيها».

«شيءٌ ما؟»

«شيءٌ ما. لا أستطيع التَّعبيرَ عنه جيِّدًا بالكلمات. ولكنْ، يمكننا تسميته «الذات الحقيقيَّة»».

«الذات الحقيقيَّة ـ ردَّدتُ. أتقصد ذاتي أنا؟ أمْ ذات الشخص؟»

«كلاكما ربَّما. من الوارد أن تمتزج الذاتان في اللَّوحة نفسها، وتتشابكان، بحيث يستحيل التَّفريق بينهما. لكنَّه أمرٌ لا يمكن إغفالُه. فلنفترض أنَّ أحدًا يمرّ بجانب اللَّوحة ويلقي عليها نظرة خاطفة، أرجِّح أنَّه سيشعر بأنَّه أغفل شيئًا، وسيعود لملاحظته بشكلٍ أدقّ» لقد سحرني ذلك الشيء.

التزمتُ الصمت.

«وهكذا، اتَّخذتُ قراري. أردتُ أن ترسمني أنت مهما تكلَّف الأمر. وتواصلتُ مع وكيل أعمالك فورًا».

«عن طريق محامٍ؛ لامباشرةً، كما قال الوكيل».

«أجل. لقد اعتدتُ أن أقضي كلَّ أموري عن طريق المحامي. فأنا متعاقد مع مكتب محاماة، ينوب عنِّي. لا لأنَّ لديَّ ما أخفيه، إنَّما أُفضِّل أن أظلّ مجهولًا».

«خصوصًا أنَّ اسمك سهل الحفظ».

«بالضبط» قال؛ وانفتح فمه بابتسامةٍ عريضة، واهتزَّت حافَّتا أذنيْه قليلًا. «أفضِّل ألَّا يُعرف اسمي في حالاتٍ معيَّنة».

«ومع ذلك، فإنَّ الأجر الذي عرضتَه كبيرٌ جدًّا».

«كما تعلم، ثمنُ الأشياء هو أمرٌ نسبيّ. يتحدَّد الثمن من خلال التوازن بين العرض والطلب. هذا هو مبدأ السوق. فإذا أردتُ شراء شيءٍ ما، ورفضتَ بيعه، يرتفع ثمنه. وخلافًا لذلك، ينخفض الثمن».

«أعرفُ مبدأ السوق. ولكنْ، هل أنت مضطرٌّ إلى البورتريه الذي سأرسمه لك؟ فلنقل إنَّك بدون البورتريه لن تتضرَّر في شيء. صحيح؟»

«بالضبط. لن تحدث أزمةٌ بانعدام البورتريه. لكنَّني رجلٌ فضوليٌّ إلى أبعد الحدود. أريد إجابة عن السؤال: تُرى أيُّ صورةٍ لي ستكون إن كنتَ أنت رسَّامها؟ بعبارةٍ أخرى: لقد حدَّدتُ ثمنًا لفضولي».

«فضولك يكلِّفك غاليًا».

ضحك منشكي مستمتعًا، وقال: «إنَّ الفضول كلَّما كان خالصًا بسيطًا، كان قويًّا، ويتطلَّب بعض المال أيضًا».

«ما رأيك في تناول كوبٍ من القهوة؟» سألته.

«بكلّ سرور».

«لقد حضّرتُها منذ قليل بآلة صنع القهوة. ألا تمانع في ذلك؟»

«قطعًا. حبّذا لو كانت بلا سكّر».

ذهبتُ إلى المطبخ، وصببتُ القهوة في كوبيْن وحملتهُما ورجعتُ.

«لديك عددٌ كبيرٌ من أسطوانات الأوبرا ـ قال منشكي، وهو يحتسي القهوة. هل تعشق الأوبرا؟»

«هذه الأسطوانات الموجودة هنا ليست لي، بل لصاحب البيت. منذ أن سكنتُ هنا، استمعتُ إلى الأوبرا كثيرًا».

«تقصد بصاحب البيت السيّد توموهيكو أمادا، أليس كذلك؟»

«تمامًا».

«هل من بينها أوبرا معيَّنة تعجبك؟»

فكّرتُ قليلًا في السؤال. «غالبًا ما أستمع إلى أوبرا دون جوڤاني في الآونة الأخيرة. وهناك سبب معيَّن لذلك».

«ما السّبب؟ هل لي أن أسألك عنه؟»

«أمرٌ شخصيّ. وليس له أهمّيّةٌ تُذكَر».

«أنا أيضًا أحبّ أوبرا دون جوڤاني، وأسمعُها كثيرًا. وحدث أن استمعتُ إليها مرّةً في مسرحٍ أوبراليٍّ صغير بمدينة براغ. كان ذلك بعد سقوط الحكم الشيوعيّ هناك بفترة قصيرة. ولا بدَّ أنّك تعرف، أنَّ براغ هي المدينة التي عُرضتْ فيها أوبرا دون جوڤاني للمرّة الأولى. كان المسرح الذي شاهدتُ فيه العرض صغيرًا، والأوركسترا قليلة العدد، ليس فيها مغنٍّ شهير، ومع ذلك، كان العرض رائعًا. فلم تكن هناك

ضرورة لكي يصدح المغنُّون بأصواتٍ مرتفعة كما يفعلون في المسارح الضخمة. استطاعوا التَّعبير عن المشاعر بحميميَّة شديدة. لكنّ هذا لا يحدث في أوبرا المتروبوليتان أو مسرح لاسكالا؛ حيث يضطرّ المايسترو إلى الاستعانة بمغنِّين ذوي صوتٍ مرتفعٍ يتردَّد كما ينبغي. وقد يصبح غناء الآريا مثل الأكروبات. ألا تعتقد أنَّ الأوبرا التي يؤلِّفها موتسارت لا تتناسب حميميَّتُها إلَّا مع أوركسترا الحُجرة؟ هكذا، أرى أنَّ أوبرا دون جوفاني، التي استمعتُ إليها في المسرح الصغير في براغ، هي الأوبرا المثاليَّة».

رشف منشكي من القهوة. لم أعلِّق بشيء، بل كنت أراقب حركاته فقط. تابع حديثه:

«أُتيحت لي فرصةُ مشاهدة أوبرا دون جوڤاني في أماكن مختلفة من العالم. شاهدتُها في ڤيِنّا وروما وميلانو ولندن وباريس والمتروبوليتان، وطوكيو... بقيادةِ كلٍّ من كلاوديو أبادو، وجيمس لڤاين، وسيجي أوزاوا، ولورين مازيل، ومَن غيرُهم؟... أجل، جورج بريتر. لكنَّ العجيب، أنَّ عرض دون جوڤاني الذي شاهدتُه في براغ هو الذي ظلَّ عالقًا في وجداني، مع أنَّني لم أسمع بأسماء المغنِّين أو المايسترو من قبل. وبعد أن انتهى العرض، وخرجتُ إلى الطريق، كانت براغ غارقةً في ضباب كثيف. كانت المدينة حينذاك تتحوَّل إلى ظلام دامسٍ في اللَّيل، بسبب انعدام الإضاءة. مشيتُ بلا غايةٍ في الطرقات الممهَّدة بالأحجار، وعثرتُ على تمثالٍ قديم من البرونز يقف وحيدًا. لم أعرف تمثالَ مَن، لكنَّه كان بملابس الفرسان من العصور الوسطى. خطر في بالي فجأة أن أدعوه إلى تناول العشاء معي، لكنِّي لم أفعل بالتأكيد».

ضحك منشكي عندئذٍ.

فسألته: «هل تسافر خارج اليابان كثيرًا؟»

«في مهامّ عمل، من وقتٍ لآخر». ثمّ صمت تمامًا، وكأنّه تذكّر شيئًا ما. ففكّرتُ بأنّه يحرص على عدم التلميح بطبيعة عمله.

نظر إلى وجهي مباشرةً، وسألني: «ما رأيك؟ هل نجحتُ في الاختبار؟ هل سترسم لي لوحةَ البورتريه؟»

«أنا لا أختبر أحدًا. كلُّ ما أفعله هو مخاطبة العميل وجهًا لوجه».

«ولكنّي سمعتُ أنّك قبل الشروع بالرسم، تلتقي بالعميل، وتتحدَّث معه وإن لم ينل إعجابك، لا ترسمه».

أشحتُ نظري إلى الشرفة. ثمّة غرابٌ كبيرُ الحجم، يقف على السياج؛ ولكنّه أحسّ بنظراتي، فحلّق على الفور باسطًا جناحيْه الساحريْن.

«قد يحدث ذلك نظريًّا، قلت. لكنّني لحسن الحظّ، لم أقابل عميلًا ولم ينل إعجابي حتّى الآن».

«أتمنّى ألّا أكون الأوّل»، ردَّ ضاحكًا.

«اطمئنّ. إنّي موافقٌ على رسمك بكلّ سرور».

التقط منشكي نفَسًا عميقًا، وهتف: «عظيم. ولكن، لي رجاءٌ عندك، وأتمنّى ألّا يبدو لك غرورًا».

نظرتُ إليه مباشرةً من جديد: «وما هو؟»

«إن أمكن، أرجو ألّا تُلزِم نفسك برسم بورتريه تقليديّ، بل أن ترسمني بحُرِّيَّة. إن كنتَ تفضّل بورتريه بحسب الأصول، فلا مانع عندي. بإمكانك اتّباع أسلوبك الذي اعتدتَ عليه. أمّا إذا أردتَ أن ترسمني بطريقة مختلفة، فهذا سيسعدني كثيرًا».

«طريقة مختلفة؟»

«أقصد الأسلوب الذي تريده. أودّ أن ترسم وجهي بالطريقة التي تراها مناسبة».

«هل تعني أنَّك لا تمانع إذا كانت العينان في جانب واحد من الوجه، مثل لوحات بيكاسو في مرحلته الأولى؟»

«إن كان هذا هو الأسلوب الذي تريده، فلن أعترض. لك مطلق الحرّيّة».

«وهل ستعلّق لوحةً كتلك على جدار مكتبك؟»

«ليس لديَّ مكتبٌ حاليًا. لذا، سأعلّقها على جدار غرفة مكتبي في البيت، إنْ لم يكن لديك اعتراض على ذلك».

بالتأكيد، لا اعتراض لديَّ؛ فلا فرق عندي بين جدار وآخر. فكّرتُ برهةً، ثمّ قلتُ: «إنّني ممتنٌّ كثيرًا يا سيّد منشكي على كلامك. إنّك تشجّعني على الرّسم بالأسلوب الذي أفضّله، بحرّيّة. لكنّني الآن، لا تخطر في بالي أفكارٌ أخرى. فأنا مجرّد رسّام بورتريه. ولطالما رسمتُ الوجوه بأسلوبٍ معيّن. قد تطمئنني بعدم الخضوع لأيِّ قيد، إلّا أنَّ القيد بحدِّ ذاته يتحوّل إلى تقنيّة في أحد أجزاء اللّوحة. وبالتالي، قد أجد نفسي أرسم وجهك بأكثر الأساليب التي اعتدتُها في البورتريه. هل هذا يناسب حضرتك؟»

بسط منشكي يديْه، وقال: «بالتأكيد. ليس مطلوبًا منك سوى أن تفعل ما تريد. لا أطلب منك إلّا أن تكون حرًّا».

«شيءٌ آخر. إذا كنتَ تفضّل أن أرسمك مباشرةً، سيتوجّب عليك المجيء إلى هذا المرسم عدّة مرّات، لتجلس ساعاتٍ طويلة. هل تستطيع؟ أتخيَّل أنّك مشغولٌ في عملك».

«لقد تدبَّرتُ أمري في إفساح الوقت الذي أشاء. لأنَّها كانت رغبتي في أن ترسمني وأنا أمامك بالفعل. سآتي إلى هنا، وأجلس قدر الإمكان لفترة طويلة على المقعد بهدوء. أعتقد أنَّنا يمكننا التحدُّث معًا بهدوء أثناء ذلك. لن تمانع الحوار، أليس كذلك؟»

«لن أمانع طبعًا. بل على العكس إنَّني أرحِّب كثيرًا بالحوار. فأنت تمثِّل لغزًا حقيقيًا بالنِّسبة إليَّ. وربَّما ثمَّة ضرورة للحصول على مزيدٍ من المعلومات عنك لكي أستطيع رسمك».

ضحك منشكي وهزَّ رأسَه بهدوء، فارتجّ شعرُه الأبيض بخفَّةٍ مثل أعشاب المروج إذا هبَّت عليها الرياحُ.

«يبدو أنَّك تبالغ في تقديرك لي. لستُ لغزًا على الإطلاق. لا أفضِّل كثيرًا بالحديث عن نفسي، لأنِّي أجد ذلك مملًّا».

تعمَّقت التجاعيدُ عند أطراف عينيْه من جديد عندما ابتسم. كان وجهه نقيًّا جدًّا، لا يُبطِن شيئًا أثناء الابتسام؛ لكنِّي فكَّرتُ بأنَّ ثمَّة ما يخفيه هذا الرجل. كأنَّه قد أغلق على سرٍّ في علبة صغيرة ودفنها في أعماق الأرض، ولا بدَّ أنَّ الأمر وقع منذ ماضٍ بعيد. فالآن، نمتِ الحشائشُ فوق ذلك السرّ. لكنّ منشكي هو الوحيد الذي يعرف مكانَ الصندوق الصَّغير. ليس من الصعب إدراك ذلك بالنَّظر عميقًا في ابتسامته.

تحادثنا مدَّة عشرين دقيقة تقريبًا، واتَّفقنا على التفاصيل العمليَّة: متى سيأتي إلى البيت لكي أرسمه، وكم هو الوقت الذي باستطاعته إتاحته..؟ قبل أن يغادر، مدَّ يده مرَّة أخرى بطريقة عفويَّة، فصافحتُه بالمثل. يبدو أنَّ السلام المتين باليد، عند المجيء والذهاب، عادةٌ

للسيِّد منشكي. وضع النظَّارة الشمسيَّة على عينيْه، وأخرج مفاتيحَ السيَّارة من جيبه، واستقلَّها (بدت سيّارة الجاغوار الفضّيّة كأنّها حيوانٌ أليفٌ عملاقٌ أُحسن ترويضُه). نظرتُ من النافذة إلى السيَّارة الفارهة وهي تهبط المنحدر، ثمّ خرجتُ إلى الشرفة، ونظرتُ إلى البيت الأبيض الذي سيعود إليه على الأرجح.

يا له من رجلٍ غريب! فكّرتُ. لا يمكن وصفه بالمنفِّر، ولا بالصموت أيضًا. ومع ذلك، أعترف بأنَّه لم يقل شيئًا عن نفسه فعليًا. ولم أحصل منه إلَّا على معلومات قليلة: أنَّه يسكن في ذلك البيت من الجهة الأخرى للوادي، وأنَّ عمله يتعلَّق بالمعلوماتيَّة جزئيًا، وأنَّه يسافر خارج اليابان في رحلات عمل كثيرة، وأنَّه يحبّ الأوبرا حبًّا جمًّا.. هذا كلّ شيء. ألديه عائلة أم لا؟ ما عمره؟ وأين وُلد ونشأ؟ ومنذ متى يسكن في الجبل؟ ثمَّ أدركتُ أنَّه لم يطلعني حتَّى على اسمه الأوَّل.

بل لماذا كان راغبًا في بورتريه من صنعي أنا شخصيًّا؟ كان سيسعدني أن أفكِّر بأنَّ عبقريَّتي في رسم الوجوه هي التي قادته إليَّ، وهي عبقريَّةٌ واضحةٌ لكلّ ذي عينيْن. إلَّا أنَّه ما من شكٍّ بوجود دافعٍ آخر أيضًا. لا بدَّ أنَّه أُعجِب بلوحاتي، لا أعتقدْ أنَّه كذب في ذلك، لكنِّي لستُ ساذجًا حتَّى أصدِّق كلّ تبريراته كلمةً كلمة.

فما الذي يرجوه منِّي شخصٌ مثل منشكي؟ ما هدفُه بالتحديد؟ وما الخطَّة التي أعدَّها من أجلي؟

لم أحصل على أيّ إجابةٍ عن تلك الأسئلة، على الرَّغم من أنَّني التقيتُ به وتحدَّثتُ إليه وجهًا لوجه. لا بل تعمَّقت الألغازُ أكثر. لماذا كان شعرُه بهذا اللَّون الأبيض الصارخ؟ لم يكن لونًا عاديًّا على الإطلاق. كأنَّه الصيَّاد في إحدى قصص إدغار آلان بو القصيرة، الذي ابيضَّ شعرُه

بالكامل في ليلةٍ واحدة بعد وقوع مَرْكبه في دوّامة كبيرة. تُرى، هل خاض منشكي هو الآخر تجربةَ رعبٍ مهولة؟

بعد أن غابت الشمس، أضيئت الأنوارُ في ذلك البيت الإسمنتيّ الأبيض، على الجهة الأخرى من الوادي. كانت المصابيح شديدةَ الإنارة وكثيرة العدد. بدا البيت كأنّه صُمّم بوساطة معماريٍّ جريء، لا يأبه بتكاليف الطاقة الكهربائيّة؛ أو ربّما كان العميل يخشى الظلام كثيرًا، فطلب بنفسه من المعماريّ أن يُضاء البيتُ في كلّ ركن من أركانه. وفي كلّ الأحوال، بدا البيت، من مسافة بعيدة، وكأنّه سفينةُ ركّابٍ فاخرةٌ تمخر عُبابَ البحر ليلًا بهدوء.

استلقيتُ على المقعد الطويل في الشرفة المظلمة، أتأمّل تلك الإضاءة، وأرتشفُ النبيذَ الأبيض. كنتُ أنتظر، آملًا أن يخرج السيّد منشكي إلى شرفته، لكنّه لم يظهر في تلك اللّيلة. وحتّى لو ظهر، ماذا كان سيحدث؟ هل يكفي أن ألقي عليه تحيّةً بتلويحٍ من يدي؟

لم يكن عندي سوى الأمل في فهم كثيرٍ من الأمور، عاجلًا أم آجلًا!

ـ 8 ـ
نِعْمَةٌ مُتَنَكِّرةٌ

بعد أن أنهيتُ حصَّة تعليم الرَّسم للكبار، مساء يوم الأربعاء، والتي استغرقت زهاء ساعة، دخلتُ مقهى إنترنت قرب محطة أوداوارا، وجرَّبت أن أبحث عن اسم «منشكي» على محرِّك البحث «غوغل». لم أعثر على أيِّ شخص يحمل كنية منشكي؛ إنَّما كانت هناك صفحاتٌ لا حصر لها تحتوي على الجزء الأوَّل من الكلمة «منـ» والذي يعني «الهروب»، بمقالات متعلِّقة برخصة القيادة وعمى الألوان. «أفضِّل أن أبقى مجهولًا»، قالها وكان صادقًا بقوله. هذا إذا افترضنا أنَّ منشكي هو اسمه الحقيقيّ. لكنَّ حدْسي أوحى إليَّ بأنَّه لم يكن كاذبًا في ذلك. فلقد أطلعني على مكان سكنه بوضوح، فما من منطقٍ في عدم إخباري باسمه الحقيقيّ. ثمَّ إنَّه لو أراد استخدام اسم مزيَّف حقًّا، لاختار اسمًا شائعًا.

عدتُ إلى البيت، واتَّصلت بماساهيكو أمادا. وبعد أن تبادلنا المجاملات، سألته إن كان يعرف شيئًا عن رجلٍ يُدعى منشكي، يسكن

على الجانب المقابل من الوادي. ووصفتُ له البيت الإسمنتيّ. كان ماساهيكو يحمل ذاكرةً ضبابيّةً عن البيت.

«منشكي؟ - سألني ماساهيكو. تُرى أيُّ اسمٍ هذا؟»

«يُكتَب برموز «الهروب» و«اللّون»».

«كالرسم بالحبر الهنديّ».

«لا تنسَ أنَّ الأبيض والأسود يُعتَبران لونيْن أيضًا» - ذكَّرته.

«هذا من حيث المنطق. ولكنْ، منشكي! لا أعتقد أنّي سمعتُ بهذا الاسم من قبل. ناهيك بأنّي لا أعرف أسماء الساكنين على قمَّة الجبل المقابل. بل لا أعرف حتّى مَنْ يسكن جبلنا نفسه. ما العلاقة التي بينك وبين ذلك الرجل؟»

«إنّني في تواصلٍ معه بشأن أمرٍ ما. فتساءلتُ، لعلّك تعرف عنه شيئًا».

«هل جرَّبتَ البحث في الإنترنت؟»

«بحثتُ في غوغل، بلا جدوى».

«ومواقع التواصل الاجتماعيّ، فيسبوك مثلًا؟»

«لا. لا أُحسن استخدام هذه المواقع».

«بينما أنت في سباتٍ في قصر التنّين تحت البحار، تتقدَّم الحضارة سريعًا. ولكنْ لا عليك.. سأبحث عنه بنفسي. وسأتّصل بك إن توصَّلتُ إلى شيء».

«ممتنٌّ لك».

صمت ماساهيكو فجأة، وأحسستُ بأنَّه على الجانب الآخرِ من الخطّ يفكِّر في أمرٍ ما.

«انتظر قليلًا. هل قلت إنَّ اسمه منشكي؟»

«نعم منشكي، «مِنْ» بمعنى الهروب، «شِكي» بمعنى اللَّون».

«منشكي... منشكي» ـ ردَّد ماساهيكو. «يبدو لي أنَّني سمعتُ بهذا الاسم في السَّابق، ولكنْ قد أكون متوهِّمًا أيضًا».

«إنَّه اسمٌ نادر. عندما تسمعه مرَّةً، لا يمكن أن تنساه».

«حقًّا، إنَّه كذلك. وربَّما هذا ما جعله يَعلق بإحدى زوايا ذاكرتي. ولكنْ، متى كان ذلك؟ وما تفاصيله؟ الإحساس نفسه الذي ينتابك عندما تَعلق حسكةٌ صغيرة في حلقك».

«عمومًا، إذا تذكَّرتَ عنه شيئًا، أخبرني!»

«بالتأكيد».

أنهيتُ المكالمة، وتناولتُ وجبة خفيفة. وأثناء ذلك، اتَّصلت بي المرأة المتزوِّجة، التي أقمتُ معها علاقة. سألتني إن كان في وسعها المجيء إليَّ بعد ظهر الغد. فقلتُ لها لا أمانع. ثمَّ سألتها:

«بالمناسبة، هل تعلمين شيئًا عن شخصٍ يدعى منشكي، يسكن في هذه الأرجاء؟»

«منشكي؟ كيف يُكتَب؟»

شرحتُ ذلك لها أيضًا.

«لم أسمع به من قبل». قالت.

«قبالة منزلي، ثمَّة بيتٌ إسمنتيّ أبيض! هل تذكرينه؟ إنَّه يسكن فيه».

«أذكر البيت بالطبع. البيت الفخم الذي بالإمكان رؤيته من الشرفة. أليس كذلك؟»

«تمامًا».

«السيّد منشكي يسكن هناك؟»

«أجل».

«وماذا فعل هذا الرجل؟»

«لا شيء. أردتُ معرفة إن كنتِ تعرفينه».

«هل للأمر علاقةٌ بي؟» ـ قالت وقد أخفضت صوتها حينذاك.

«إطلاقًا».

تنفَّستِ الصُّعداء مطمئنَّةً.

«جيِّد. سآتي إليك بعد ظهر الغد. في حدود الواحدة والنصف».

«سأكون بانتظاركِ»، قلت لها؛ وأغلقتُ الهاتف، وعدتُ إلى غدائي.

وبعد قليل، اتَّصل ماساهيكو.

«يبدو أنَّ هنالك عددًا لا بأس به من الأشخاص يحملون كنية منشكي، في محافظة كاغاوا. ربَّما تنحدر أصول الرجل من تلك المحافظة. لكنِّي لم أعثر في أيِّ مكان عن معلوماتٍ عن سيِّدٍ بهذا الاسم في منطقة أوداوارا. هل تعلم ما اسمه الأوَّل؟»

«لم يخبرني بذلك بعد. ولا أعرف وظيفته حتَّى. قال إنَّ عمله متعلِّقٌ جزئيًّا بالمعلوماتيَّة. وإذا ما حكمنا على طريقته في الحياة، يبدو أنَّه يحقِّق نجاحًا كبيرًا في عمله. هذا كلّ ما أعرف عنه. ولا أعرف عمره أيضًا».

«حقًّا؟ الحالة ميؤوسٌ منها إذن. فالمعلومات مثل المنتجات التجاريَّة؛ إن سخَّرتَ المال بالطريقة المثلى، فبإمكانك أن تخفي معلوماتك الشخصيَّة. خصوصًا إذا كنتَ تعمل في مجال المعلوماتيَّة سيكون الأمر أسهل».

«هل تقصد أنَّ السيِّد منشكي قادرٌ على إزالة آثاره بشكلٍ أو بآخر؟»

«أجل، ربَّما كان الأمر كذلك. لقد كرَّستُ وقتًا طويلًا للبحث في عدَّة مواقع، ولم أحصل على نتيجة واحدة. وعلى الرَّغم من أنَّ الاسم نادرٌ للغاية ولافتٌ للنظر، فإنَّه لا يظهر على السطح بتاتًا. أمرٌ عجيب! لعلَّ انعزالك عن الحياة يجعلك تجهل أنَّه من الصَّعب، في أيَّامنا هذه، أن يُخفي رجلٌ ذو أعمالٍ بارزة، بياناتِه الشخصيَّة. بل حتَّى بياناتي، وبياناتك.. صدِّقْني. كلُّها متاحةٌ لمن يريد. والحال، أنَّنا أسماكٌ صغيرة ومكشوفة، فما بالك بالحيتان! هذا هو العالم الذي نعيش فيه، شئنا أم أبينا. بالمناسبة، هل عثرتَ مرَّةً على معلوماتٍ تخصُّك؟»

«لا، أبدًا».

«هذا أفضل».

«لم أفكِّر حتَّى بالبحث عن بياناتي».

تذكَّرتُ ما قاله منشكي: «يقتضي عليَّ عملي التوصُّل إلى معلومات يصعب الحصول عليها. هذه هي طبيعة عملي». فإن كان بوسعه التوصُّل إليها متى يشاء، بإمكانه التخلُّص منها متى يشاء أيضًا.

«بالمناسبة، السيِّد منشكي هذا، قال إنَّه شاهد على الإنترنت لوحات البورتريه التي رسمتُها».

«وبعد؟»

«وبعد، قدَّم لي عرضًا بأن أرسم له وجهه، قائلًا إنَّه معجبٌ بالبورتريهات التي أرسمُها».

«لكنَّك رفضتَ، لأنَّك كنتَ قد توقَّفتَ عن رسم اللَّوحات التجاريَّة، أليس كذلك؟»

لم أردّ.

«لا تقل لي إنَّك وافقتَ».

«في الواقع، لم أستطع الرَّفض».

«لماذا؟ ألم يكن قرارك حازمًا؟»

«بلى، لكنَّ الأجر الذي اقترحه مهول. ففكَّرتُ أنْ لا مانع من رسم بورتريه لمرَّة أخيرة».

«من أجل المال؟»

«لا شكَّ أنَّ المال سببٌ مقنع. فقد انقطعتُ من مصادر الدخل منذ فترة، وينبغي أن ألتفت لأعباء الحياة. ففي الوقت الراهن، لا أتكلَّف كثيرًا. لكنَّ النقود تُنفَق هنا وهناك أيضًا».

«حقًّا! تُرى كم كان الأجر؟»

أخبرتُه بالمبلغ، فصفَّرَ ماساهيكو بشفتَيْه طويلًا. ثمَّ قال: «إنَّه مبلغٌ مهول فعلًا. ربَّما كنتَ محقًّا في قبول العرض. حتَّى أنت دُهشِتَ حين سمعتَ الرَّقم، أليس كذلك؟»

«طبعًا. دُهشتُ بالتأكيد».

«المعذرة، ولكنْ من الصَّعبِ التَّصديقُ أنَّ هناك أحدًا في العالم يبذِّر أمواله مقابل لوحةٍ ترسمها أنت»!

«أعرف، أعرف».

«لا تُسئ الفهم. لم أقل إنَّك ترسم بلا موهبة. بل لقد كنتَ رسَّامًا ماهرًا ومحترفًا، وأثبتَّ جدارتك في رسم البورتريه، فذاع صيتك. ومن بين كلِّ زملائنا في الكلِّيَّة تقريبًا، ليس هناك في الوقت الحالي غيرك يحصل على قوته بالرَّسم فقط. لا أعرف إلى أيِّ مدى وصل أجرك،

لكنَّك تستحقّ المديح عمومًا. إلَّا أنَّك، بصراحة، لستَ رامبرانت أو ديلاكروا. بل لستَ حتَّى أندي وارهول».

«هذه حقيقةٌ، وأعرفها جيِّدًا».

«فما دمتَ تعرف ذلك، ألا ترى أنَّ قيمة المبلغ مغالى فيها، من حيث المنطق؟»

«طبعًا».

«ناهيك أنَّ هذا العميل يسكن صدفة في جوارك».

«على ما يبدو».

«إنَّ عبارة «على ما يبدو» ليست بالتَّعبير الأنسب».

التزمتُ الصمت.

«ألا تعتقد أنَّ في الأمر سرًّا مخفيًّا؟»

«فكَّرتُ في هذا الاحتمال أيضًا، ولم أصل إلى شيء».

«وهل قبلتَ العرض على الرَّغم من ذلك؟»

«أجل. وسأباشر العمل بعد غد».

«لأنَّ المبلغ جيِّد؟»

«المبلغ مقنع جدًّا، ولكنْ ثمَّة أسباب أخرى. بكلِّ صدقٍ، أريد أن أعرف ماذا سيحدث. هذا هو السَّبب الأساسيّ. أريد أن أكتشف ما الذي يدفع العميل لمنح كلّ هذا المبلغ الكبير. وإن كان هناك سرّ، فأريد أن أعرفه».

«فهمت ـ قال ماساهيكو متنهِّدًا. أطلِعْني على آخر المستجدَّات فور حدوثها. فأنا أيضًا بتُّ شغوفًا لمعرفة الأمر».

وفي تلك اللَّحظة، خطرتِ البومة القرناء على بالي فجأة، فقلت: «نسيت أن أخبرك، هناك بومةٌ تسكن في سقيفة هذا البيت. بومةٌ قرناء رماديَّة اللَّون، صغيرة الحجم، تنام في النهار فوق إحدى العوارض. وتخرج في اللَّيل من فتحة التهوية بحثًا عمَّا تأكله. لا أعرف منذ متى اتَّخذت السقيفة مسكنًا، ولكنْ يبدو أنَّها عشَّشت هناك».

«في السقيفة؟»

«كنتُ أسمع أصواتًا بعض الأحيان. وعندما صعدتُ لاستطلاع الأمر، وجدتُها».

«حقًّا! لم أكن أعلم أنَّه من الممكن الصعود إلى السقيفة».

«هناك مدخل لها من فوق الخزانة التي في غرفة الضيوف. مساحتها صغيرة، لكنَّها أصغر من أن تكون غرفة فوق السقف. إلَّا أنَّ مساحتها مناسبة لتسكن فيها بارتياح».

«هذا أمر جيِّد. لن تقترب الفئران والثعابين من المكان. هذا ما يعزِّز القول بأنَّ وجود البُوم في البيت فألُ خير».

«ومن يدري! لعلَّها جلبتْ لي الخير عن طريق مبلغٍ خياليّ في بورتريه ذلك الرجل».

فضحك ماساهيكو، وقال: «أتمنَّى ذلك. هل تعرف التَّعبير الإنكليزيّ (Blessing in disguise)؟»

«أنا بليدٌ في اللُّغات الأجنبيَّة».

«يعني النعمة المتنكِّرة. النعمة التي تُغيِّر هيئتها. يقال، عندما ترى في الانطباع الأوَّليّ، سوءًا وشؤمًا في أمرٍ ما، ثمّ تكتشف أنَّه نعمة حقيقيَّة Blessing in disguise. وقد يكون العكس صحيحًا أيضًا. منطقيًّا على الأقلّ».

ردَّدتُ في سرّي: منطقيًا على الأقلّ.

«حاوِلْ أن تكون حذرًا»، قال صديقي.

«حسنٌ. كن مطمئنًا».

في الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي، جاءت عشيقتي على موعدها. وكما يحدث دائمًا، اتَّجهنا مباشرةً إلى السَّرير. وبالكاد، تحادثنا أثناء ذلك. كانت السماء تُمطر بغزارة في تلك الظهيرة، ونادرًا ما حدث ذلك في الخريف. بل كأنَّها أمطار ذروة الصيف. حملتِ الريحُ قطراتٍ كبيرةً تصفع زجاجَ النافذة بعنفٍ مُصدِرةً صوتًا عاليًا، وأعتقد أنَّ السَّماء أرعدت قليلًا. ثمّ توقَّفت الأمطار فجأة، ومرَّت كتلة الغيوم السَّوداء السَّميكة عبر الوادي، فصار لون الجبل داكنًا. وسرعان ما ظهرت الطيور التي كانت تنتظر تلك اللَّحظة، وأخذت تبحث عن الحشرات وهي تغرّد من البهجة. فبالنِّسبة إلى الطيور، تمثِّل الفترة اللَّاحقة لتوقُّف الأمطار فرصةً ذهبيَّة للطعام. تبدَّتِ الشمسُ من بين فراغات الغيوم، فتلألأ الندى فوق أغصان الشجر. وما لبثنا نحن الاثنيْن نمارس الجنس بانهماكٍ حتَّى انقضى ذلك الإعصار. ولم ننتبه إلى الأمر إلَّا بعد أن انتهينا. وكان انتهاؤنا متزامنًا مع توقُّف المطر تقريبًا. كأنَّنا كنَّا ننتظر إشارة!

استلقينا عارييْن على السَّرير، وتلحَّفنا بغطاء خفيف لندردش. وكان أغلب الحديث عن نتائج ابنتيْها في المدرسة. فابنتها الكبرى مجتهدة ونتائجها الدراسيَّة جيِّدة دائمًا، وهي طفلة هادئة لا تسبِّب مشاكل؛ لكنَّ الصغرى كانت تكره الدراسة، ولا تقوى على الجلوس طويلًا إلى المنضدة. إلَّا أنَّها مرحة، وجميلة جدًّا، لا تخشى شيئًا، ويستلطفها الجميع. ومتميِّزة في الألعاب الرِّياضيَّة أيضًا. ربَّما من

الأفضل أن تهمل دراستها وتجرّب أن تصبح ممثّلة. كانت عشيقتي تقرّر أن تسجّلها في مدرسةٍ لتعليم الأداء التمثيليّ للأطفال.

يا للغرابة! قلت لنفسي. لم يمرّ على معرفتي بها إلّا ثلاثة أشهر، وأراها تحدّثني عن ابنتيْها اللّتَيْن لم أقابلهما في حياتي، حتّى إنّها تستشيرني بشأن مستقبلهما الدراسيّ. كلّ هذا ونحن في عريٍ كامل. لكنّي لم أمتعض، فالأمر يشبه التلصّص عن غير قصدٍ على حياةٍ خاصّةٍ لإنسانٍ لا تعرفه أبدًا؛ أو كالتعرُّف إلى جزءٍ من حياة أناسٍ لن تربطك بهم أيّ علاقة في المستقبل. بدا لي أنّني أرى تلك المشاهد بأمّ العيْن، ومع ذلك، أحسّ بها بعيدة عنّي جدًّا. وبينما كانت تتحدّث، كانت تعبث بعضوي المرتخي، حتّى انتصب بين يديْها شيئًا فشيئًا.

سألتني: «هل ترسم شيئًا في الآونة الأخيرة؟»

«لا. مطلقًا»، أجبتُ بصدق.

«هل هذا يعني أنّك لا تجد رغبةً في الإبداع؟»

فأدليتُ بإجابةٍ غامضة: «...في كلّ حال، سأبدأ العمل منذ الغد على لوحةٍ طُلِبتْ منّي».

«هل سترسم لوحة بناءً على طلبيّة؟»

«أجل. لا بدّ أن أحصل على دخل».

«وأيّ نوعٍ من اللّوحات هي؟»

«بورتريه».

«أهو البورتريه للمدعوّ السيّد منشكي، الذي حدّثتني عنه في مكالمة الأمس؟»

«بالضبط.» ياه.. ما أقوى حدس هذه المرأة! كان حدسها يدهشني أحيانًا.

«ألهذا تريد أن تعرف عن السيّد منشكي ذاك؟»

«إنّه يمثّل لغزًا بالنّسبة إليّ حتّى الآن. لقد قابلته مرّة واحدة. تحادثنا، لكنّي لم أفهم أيّ نوعٍ من الرجال هو؟ لديَّ فضول تجاه الشخص الذي سأقوم برسمه. وهذا أمرٌ طبيعيّ لمن يرسم البورتريه».

«أليس من الأفضل أن تطرح عليه السؤال شخصيًّا؟»

«فعلتُ، لكنّه لا يجيب بصدق، وقد لا يجيب إلّا بما يناسب مصلحته».

«بإمكاني أن أبحث عن معلوماتٍ تخصُّه، إن أردت».

«هل لديك وسيلة للبحث؟»

«ربّما لديَّ فكرة».

«لم أجد شيئًا على الإنترنت».

«الإنترنت لا يعمل جيّدًا في الغابة. فللغابة شبكة تواصلٍ خاصّة. مثل قَرع الطبول، أو ربط رسالة برقبة قرد».

«يبدو أنّني لا أعرف شيئًا عن الغابة».

«إن لم يكن ثمّة نفعٌ بالآلات الحضاريّة، فلعلّ تجربة الطبول والقرود تؤتي أُكُلها».

استعاد عضوي الصّلابة الكافية بين أصابعها الناعمة. ثمّ استخدمتْ شفتَيْها ولسانها بحنكة، وطغى علينا صمتٌ عميق. وفي الوقت الذي كانت الطيور منهمكةً تطلب أسباب عيشها، وتصيح مغرّدةً، مارسنا الجنس مرّة أخرى.

غادرنا السرير، بعد ممارسةٍ طويلة تخلّلتْها راحةٌ قصيرة. ارتدى كلٌّ منّا ملابسه بعد أن جمعناها من على الأرض بتكاسل. وخرجنا إلى الشرفة، نتأمّل البيت الأبيض الضّخم الذي يقع على الجهة المقابلة من

الوادي، ونحن نحتسي شراب الأعشاب السَّاخن. استلقينا متجاورَيْن على مقعديْن بهت لونُهما، واستنشقنا هواء الجبل المحمَّل برطوبة منعشة تدخل أعماق الصدر. وهناك قطعةٌ صغيرةٌ من المحيط العملاق تلمع برَّاقَّة بين أشجار الغابة البرِّيَّة جنوب غرب البيت. واكتسى سطح الجبال في المنطقة بألوان الخريف فعلًا. تدرُّجٌ دقيقٌ للَّونيْن الأصفر والأحمر؛ فيما تضع الأشجار دائمة الخضرة لمستها الخضراء. فما كان من هذا التمازج الزَّاهي إلَّا أن جعل من بيت السيِّد منشكي الأبيض أكثر بروزًا وزهوًّا. إذ كان بياضه مزعجًا، وكأنَّه يحمل وسواسًا قهريًّا تجاه النظافة، فيحاول حماية نفسه مستقبلًا من الاتِّساخ أو الاحتقار سواء من الأمطار أو الرِّيح أو حتى من الزمن! الأبيض هو لونٌ في المحصَّلة. خطرت لي تلك الفكرة بلا معنى، ولا يمكن أن يفقد صفته لكونٍ مطلقًا. بقينا صامتيْن طويلًا على المقعدَيْن. كان الصمتُ هناك وحينذاك أمرًا طبيعيًّا جدًّا.

«كان السيِّد منشكي يسكن في بيتٍ أبيض، قالت هي بعد حين. بداية حكاية ممتعة للأطفال».

لكنْ ما كان بانتظاري، ليس بحكاية أطفال ممتعة، ولا بنعمةٍ متنكِّرة. وعندما أدركتُ ذلك، لم يعد بإمكاني التراجع.

- 9 -
تبادلنا شظايا بعضنا بعضًا

جاء منشكي مستقلاً سيّارة الجاغوار نفسها في الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الجمعة. كان هدير المحرّك يزداد تدريجيًّا كلّما صعد بسيّارته على الطريق المنحدر الشديد، حتّى توقّف أمام البيت. سمعتُ باب السيّارة ينغلق مُصدِرًا ذلك الصوت العميق كالمرّة السابقة، ثمّ نزع نظّارته الشمسيّة ووضعها في جيب صدر المعطف. كان يكرّر الحركة نفسها. لكنّه في هذه المرّة، كان يرتدي معطفًا قطنيًّا بلونٍ أزرق ـ رماديّ، على قميص پولو أبيض، وبنطلونًا قماشيًّا رمليّ اللّون، وحذاءً رياضيًّا جلديًّا بُنّيًّا. كان بوسعه أن يظهر في إحدى مجلّات الأزياء على أناقته تلك، وعلى الرّغم من ذلك، لم يكن يوحي «بانعدام الثغرات» الغريب التي تتمتّع به تلك المجلّات. فكلّ ما فيه طبيعيٌّ وتلقائيٌّ ونظيف. وكان شعره الغزير ناصع البياض لا تشوبه شائبة، مثل جدران البيت الذي يسكن فيه تمامًا. كنت أراقب حركاته من بين ستائر النافذة.

دقَّ جرس الباب، ففتحتُ له وأدخلته. لم يمدّ يده للمصافحة هذه المرّة. نظرتُ إلى عينيه، وابتسمتُ ابتسامةً خفيفة، وأومأتُ برأسي قليلًا. فأحسستُ براحة كبيرة بفضل ذلك، لأنّني كنت أرتبك إذا اضطررتُ إلى مصافحةٍ قويّةٍ كلّما تلاقينا. أدخلته غرفة المعيشة، مثل المرّة السّابقة، وجعلته يجلس على الأريكة؛ ثمَّ أتيتُ من المطبخ بكوبيْن من القهوة التي حضّرتُها منذ قليل.

«احترتُ بما يمكنني ارتداؤه. هل هذه الملابس مناسبة؟» قال بنبرةٍ تميل على الاعتذار.

«في المراحل الأولى، لا أهمّيّة للملابس. قد نفكّر في أمرها لاحقًا. أمّا الآن، بإمكانك أن تلبس ما تشاء: بدلة رسميّة، أو بنطلونًا قصيرًا وصندلًا...»

وأضفتُ في سرّي: بإمكانك أن تحمل كوب ستاربكس الورقيّ بيدك أيضًا.

«العمل موديلًا يضايق المرء حقًّا، قال منشكي. حتّى وإن كنتُ متأكّدًا من أنّني لن أخلع ملابسي، لديَّ انطباعٌ بأنّني سأتعرّى».

فقلتُ: «الأمر كذلك تمامًا بمعنًى ما. فالعمل موديلًا يشبه التعرّي دائمًا. بكلّ ما تعنيه الكلمة غالبًا، وبمعناها المجازيّ أحيانًا! يحاول الرسّام أن يتعرّف على جوهر الموديل الماثل أمامه، ولو قليلًا. عليه أن ينزع القشرة الخارجيّة التي يلتحف بها الموديل. لكنَّ هذا بالتأكيد ما يوجب الرسّام، أن يمتلك نظرةً ثاقبة، وحدْسًا نافذًا».

بسط منشكي يديْه فوق ركبتيْه، وتأمّلهما. ثمَّ رفع وجهه، وقال: «ما أعرِفُه أنّك ترسم البورتريه بلا حاجةٍ إلى وجود موديل للعميل».

«بالضبط. أقابل العميل مرّة واحدة على أرض الواقع، وأفتح معه حديثًا صادقًا، ولا أطلب منه القيام بدور الموديل».

«وهل هناك سببٌ لذلك؟»

«ما من سبب محدَّد. لكنّي رأيتُ بالخبرة، أنَّ هذه الطريقة تناسبني لإنجاز العمل. أركّز وعيي قدر الإمكان في اللّقاء الأوّل، وأستوعب شكل العميل، أي ملامحه وحركاته وصفاته، ثمَّ أطبعها في ذاكرتي. ثمَّ أحييها من الذاكرة مجسَّدةً في لوحة».

«مثيرٌ للاهتمام. باختصار: أنت تعيد تصوير ما طبعتَه في عقلك الباطن، على هيئة عمل فنّيّ. أي أنَّ لديك تلك العبقريَّة. ذاكرةٌ بصريَّة خارقة».

«لا أفضّل تسميتها عبقريَّة. هي أقرب إلى قُدرة أو مَلَكة».

«على أيِّ حال، لقد شاهدتُ عددًا من اللّوحات التي رسمتَها، وربَّما كان ذلك هو السَّبب الذي أشعرني بأنَّها تختلف عن غيرها من اللّوحات، تلك التي تُسمَّى بورتريهات تجاريَّة بحتًا. ميزة لوحاتك تكمن في إعادة صياغة الصورة انطلاقًا من الذاكرة...»

ارتشف منشكي من القهوة، وأخرج من جيب المعطف منديلًا من الكتّان بلونٍ رمليٍّ فاتح، ومسح فمه. ثمَّ تابع قائلًا: «لكنَّك هذه المرَّة، بناءً على طلبٍ خاصّ، سترسم البورتريه وصاحبُه قدّامك ـ أي أنا».

«بالضبط. وذلك لأنَّها كانت رغبتك أنت».

أومأ موافقًا، وقال: «أعترف أنّني فضوليّ. أتساءل ما المشاعر التي ستنتابني وصورتي تُرسَم أمام عينيّ؟ كنتُ أريد خوض تلك التجربة. لا تجربة أن أُرسَمَ فحسب، بل أن أجرّب هذا النوع من التواصل الإنسانيّ أيضًا».

«تواصلٌ إنسانيّ؟»

«أجل. تبادُلٌ ما بيني وبينك».

التزمتُ الصمت برهةً. كأنّي لا أفهم ما المقصود، بالتبادل والتواصل الإنسانيّ!

«نتبادل جزءًا من ذوات بعضنا بعضًا ـ فسّر منشكي. أنا أقدّم شيئًا من ذاتي، وأنت تقدّم شيئًا من ذاتك. لا ضرورة أن يكون الشيء هامًّا، بل ربّما كان شيئًا بسيطًا. مجرّد رمز».

«مثلما يتبادل الأطفال القواقع الجميلة؟»

«بالضبط».

فكّرتُ قليلًا، ثمّ قلت: «فكرةٌ مشوّقة جدًّا. ولكنْ، للأسف، قد لا أملك قوقعة جميلة أعطيها لك».

«لا أودّ أن تضايقك الفكرة. هل تفضّل عدم رسم الشخص وجهًا لوجه، لأنّك تتعمّد تجنُّب التواصل الإنسانيّ؟ إن كان كذلك، فأنا...»

«كلّا، بالطبع. لم أكن في حاجة إلى رسم الأشخاص مباشرة. ليس لأنّني أتعمّد تجنُّب التواصل الإنسانيّ. إطلاقًا. لقد أمضيتُ زمنًا طويلًا في تعلُّم الرسم، ولديَّ خبرة طويلة في رسم الموديل. إذا كُنتَ لا تجد حَرَجًا في الجلوس ثابتًا على المقعد لساعة أو لساعتيْن متواصلتَيْن، من دون أدنى حركة، فليس لديَّ اعتراض على أن أرسمك هكذا».

وجّه منشكي كفَّيْه إلى أعلى، ورفعهما قليلًا في الهواء، وقال: «لا مانع مطلقًا. وإن كُنتَ مستعدًّا، فبوسعنا بدء هذا العمل الشاقّ فورًا».

انتقلنا إلى المرسم. أحضرتُ كرسيّ مائدة الطعام، فجلس منشكي عليه. قلتُ له أن يتّخذ الوضعيّة التي تُريحه، وجلستُ قبالته

على المقعد الخشبيّ العالي (أرجّح أنَّ توموهيكو أمادا كان يستخدمه أثناء رسم لوحاته)، وبدأتُ برسم مسوَّدةٍ بقلم رصاص رفيع. ثمّة ضرورة في تحديد استراتيجيّة أساسيّة عامّة، أتّبعها في كيفيّة تشكيل الوجه على سطح اللّوح.

«الجلوس بلا حراك يسبّب الملل، أليس كذلك؟ قلت له: بإمكاننا الاستماع إلى الموسيقى إن أردتَ».

«إن كان ذلك لا يشتّت انتباهك، فلِمَ لا؟»

«اختر ما تشاء من على رفوف الأسطوانات في غرفة المعيشة».

بحث هناك لمدّة خمس دقائق تقريبًا، وعاد حاملًا «فارس الورود» للموسيقار ريتشارد شتراوس بقيادة المايسترو جورج سولتي. مجموعة من أربع أسطوانات LP. أوركسترا فيلهارموني، وتأدية الأصوات لريجين كريسپن وإيڤون مينتون.

سألني: «هل تعجبك أوبرا فارس الورود؟»

«لم أسمعها من قبل».

«إنّها أوبرا عجيبة. الفنّ الأوبراليّ بشكلٍ عامّ يعطي أهمّيّةً كبرى للأحداث، ولكنّك إن تعثّرتَ في متابعتها، فبإمكانك أن تسلّم نفسك للتدفُّق الموسيقيّ فقط، ليقودك إلى عالمٍ آخر، عالم السّعادة المطلقة الذي وصل إليه ريتشارد شتراوس في ذروة مجده. يبدو أنَّ هذه الأوبرا تعرّضت لانتقادات لاذعة في عرضها الأوّل، ووُصِفتْ بأنّها أوبرا رجعيّة ونوستالجيّة، لكنّها في الواقع، كانت موسيقى حداثيّة ومتحرّرة جدًّا. أبدع شتراوس عالمًا موسيقيًّا عجيبًا خاصًّا به، على الرّغم من تأثُّره بفاغنر. فما إن تعتادَ على موسيقاه، حتّى تدمن عليها. أنا أفضّل الاستماع إليها بقيادة المايسترو هيربرت فون كارايان أو المايسترو إريش كلايبر. لم

أسمعها من قبل بقيادة المايسترو سولتي. أودّ انتهاز هذه الفرصة، لو تكرَّمتَ».

«بالتأكيد، لا أمانع. فلنستمع إليها».

وضع الأسطوانة على الدوَّارة، وأسقط الإبرة. ثمَّ ضبط مكبِّر الصوت بعناية، وعاد إلى المقعد. جلس مستقرًّا في وضعيَّةٍ تناسبه، وركَّز إصغاءه على الموسيقى التي تنساب من السمَّاعات. رسمتُ عددًا من المسوَّدات الأوَّليَّة السَّريعة بقلم الرصاص من زوايا متعدِّدة. كان لوجهه ملامح اعتياديَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، له صفات متميِّزة، ولم يكن من الصَّعب التقاطها كلًّا على حدة. أنجزتُ خمس مسوَّدات بقلم الرَّصاص من زوايا مختلفة، خلال ثلاثين دقيقة تقريبًا. ولكنْ، عندما تمعَّنتُ بها، أحسستُ بنوعٍ غريبٍ من العجز. لا لأنَّ المسوَّدات لم تلتقط كلّ مميِّزات وجهه، بل لأنَّها كانت «مرسومةً بمهارة». كانت سطحيَّةً وضحلة إلى درجة مدهشة، وتفتقد العمق المطلوب. لا تختلف كثيرًا عن لوحات الوجوه التي يرسمها رسَّامو الطرقات. حاولتُ أن أرسم مسوَّداتٍ غيرها، لكنَّها جاءت بالنتيجة نفسها تقريبًا.

كان ذلك الإحساس جديدًا بالنِّسبة إليَّ. فلقد تراكمت لديَّ خبرة لا يُستهان بها فيما يتعلَّق بإعادة تشكيل الوجوه على اللَّوحات، وكنت واثقًا من وسائلي: أُمسك بقلم الرَّصاص أو الفرشاة، وأرسم البورتريه تلقائيًّا، من دون بذل أيِّ مجهودٍ يُذكَر. ولم يسبق لي أن عانيتُ في تحديد التَّفصيل، الذي سيصبح جوهريًّا في اللَّوحة، إلَّا أمام هذا الرجل المدعوّ منشكي.

ربَّما كنت أغفل عن شيءٍ مهمّ. ولعلّ منشكي نفسه هو الذي يُخفيه عنِّي. لم أستطع تجنُّب ذلك الشكّ. ربَّما ليس لذلك الشيء وجودٌ في هذا الرجل على الإطلاق!

عندما انتهى الوجه الثاني من الأسطوانة الأولى لمجموعة أوبرا «فارس الورود» المكوَّنة من أربع أسطوانات، استسلمتُ، وأغلقتُ دفتر المسوَّدات، وأودعتُ قلم الرَّصاص على الطاولة. رفعتُ خرطوشة الإبرة، وأخرجتُ الأسطوانة وأرجعتُها إلى الصندوق. ثمَّ نظرتُ إلى ساعة يدي، وتنهَّدتُ.

قلتُ له بصدق: «إنَّ رسم وجهك صعبٌ للغاية».

نظر إليَّ مندهشًا، وقال: «صعب؟ هل تقصد أنَّ في وجهي مشكلةً تعيق رسمه؟»

هززتُ رأسي، وقلت: «لا، لم أقصد ذلك. ليس هناك أيُّ مشكلةٍ في وجهك بالتأكيد».

«فأين الصعوبة إذن؟»

«شخصيًّا، لا أعرف. مجرَّد شعورٍ بالصعوبة. أو ربَّما ذلك «التواصل التبادليّ» بيننا، لا يعمل على أتمّ وجه. لا قواقعَ نتبادلها».

ابتسم منشكي ابتسامةَ مَن وقع في مأزق، ثمّ قال: «هل ثمَّة ما أستطيع فعله؟»

نهضتُ من المقعد العالي، وذهبتُ إلى جوار النافذة.. وتأمَّلتُ الطيور التي تطير بين الأشجار.

«هل تمانع، يا سيِّد منشكي، في مدِّي ببعض المعلومات عنك. فبالمحصّلة أنا لا أعلم عنك أيَّ شيء».

«بالتأكيد. أنا لا أخفيك ما يتعلَّق بي. ولا أحمل أسرارًا تتجاوز المعقول. بوسعي أن أخبرك بما تريد معرفته. ماذا تريد أن تعرف، مثلًا؟»

«مثلًا، فلنبدأ باسمك الكامل».

«صحيح. قال بتعبير مندهش بعض الشيء. معك حقّ. لقد اندمجتُ في الحديث، ونسيتُ أن أعرِّف عن نفسي».

أخرج من جيب بنطلونه القماشيّ محفظة بطاقات جلديَّة سوداء، ثمّ أخرج منها بطاقة بيضاء سميكة. أخذتُها منه وقرأتُ الاسم:

免色　渉

واتارو منشكي

وفي الخلف، عنوان البيت في محافظة كاناغاوا، ورقم الهاتف، وعنوان البريد الإلكترونيّ. هذا كلٌّ شيء. لا اختصاص، لا اسم شركة.

«اسمي واتارو. وهو يعني «عبور النهر». ولا أعلم لماذا سمُّوني بهذا الاسم! لم أعقد أيَّ صلةٍ بالماء في حياتي حتَّى هذه اللَّحظة».

«اسم منشكي أيضًا، ليس شائعًا».

«قيل لي إنَّ عائلتي تنحدر من جزيرة شيكوكو. ولكنِّي شخصيًّا لا علاقة لي بتلك المنطقة أبدًا. لقد وُلدتُ في طوكيو ونشأتُ فيها. مدرستي كانت في طوكيو أيضًا. وأفضّل الأودون[1] على معكرونة السوبا».

«هل لي أن أسألك عن عمرك؟»

«بالتأكيد. أتممتُ الرَّابعة والخمسين عامًا في الشهر الماضي. كم كنتُ أبدو في ناظريْك؟»

---

(1) تشتهر منطقة شيكوكو بمعكرونة الأودون، ولذا يُعتقد أنَّ ساكنيها يفضّلونها على معكرونة السوبا. (المترجم)

هززتُ رأسي، وقلت: «بصدق، لم أفلح في تحديد عمرك مطلقًا. ولذلك سألتك».

فقال مبتسمًا: «هذا بسبب الشعر الأبيض. يُقال لي كثيرًا إنَّه من الصَّعب التكهُّن بعمري بسبب الشعر الأبيض. وقد سمعتُ أنَّ الشَّعر يصبح أبيضَ بليلةٍ واحدة بسبب الهلع المفاجئ! وكثيرًا ما يسألونني إذا ما كنتُ قد تعرَّضتُ لنوبة هلع. لكنّي لم أمرَّ بتجربةٍ مأساويَّة كهذه. بدأ شعري يشيب منذ شبابي. وفي منتصف الأربعينيَّات من عمري، أصبح كلُّه أبيض تقريبًا. أمر عجيب. فجدِّي وأبي وشقيقاي كلُّهم صلعان. وأنا الوحيد في عائلتي كلِّها الذي أصبح شعره أبيض على هذا الشَّكل».

«أودّ أن أعرف ـ إن لم يكن لديك مانع! عن طبيعة عملك بالتَّحديد».

«لا مانع إطلاقًا. ولكنْ، ماذا أقول؟ تحديد طبيعة عملي ليس سهلًا».

«إن كان الأمر يحرجك، فلا داعي...»

«لا، لا. لم أكن أقصد ذلك. كلُّ ما في الأمر أنَّني أخجل. في الواقع، إنَّني الآن لا أعمل. لا أحصل على تأمين العاطلين طبعًا، لكنَّني رسميًّا عاطلٌ من العمل. أمضي بضع ساعات في المتاجرة بالأسهم والعملات عبْر الإنترنت من مكتبي في البيت، لكنَّ الكمّيَّة محدودة. للترفيه، أو لقتل الوقت. أعتبرها تمرينًا على إعمال الدماغ. تمامًا مثلما يتدرَّب عازف البيانو على السلَّم الموسيقيّ يوميًّا».

هنا، أخذ منشكي نَفَسًا عميقًا بهدوء، ووضع قدمًا فوق أخرى، ثمَّ أكمل: «أسّستُ في الماضي شركةً في مجال المعلوماتيَّة وكنتُ أديرها، لكنِّي منذ فترة، آثرتُ بيع كلّ أسهمي في الشركة. وكان المشتري إحدى شركات الاتِّصالات الكبرى. وبفضل ذلك، كوَّنتُ مدَّخرات

تُمكّنني من العيش بلا عمل مدّة لا بأس بها. انتهزتُ الفرصة، فبعتُ بيتي في طوكيو، وانتقلتُ للسكن هنا. باختصار، بدأت حياة التقاعد. وزّعتُ المدّخرات في مؤسّسات مصرفيّة من دولٍ مختلفة، فأحصل على عائدٍ جيّد من خلال نقل الأموال بينها، بناءً على حركة أسعار الصرف».

«مفهوم. وماذا عن الأسرة؟»

«ليس لديَّ أسرة. لم أتزوَّج».

«هل تسكن ذلك البيت الكبير بمفردك؟»

«أجل. وحاليًّا، ليس هناك خدم. لقد أمضيتُ وقتًا طويلًا أعيش وحيدًا، فاعتدتُ على أعمال البيت بنفسي، ولا أشعر بضيق. إلّا أنَّ هذا البيت كبير جدًّا، ومن الصعب تنظيفه بمفردي. تعاقدتُ مع شركة تنظيف متخصّصة مرَّة في الأسبوع. وما تبقّى أتدبّره بنفسي. وأنت؟»

هززتُ رأسي قائلًا: «منذ عامٍ تقريبًا، بدأتُ العيش وحدي. ما أزال مبتدئًا».

أومأ منشكي قليلًا، ولم يسألني عن ذلك، ولم يُبد رأيه أيضًا. لكنّه سألني: «بالمناسبة، هل علاقتك قويّة بالسيّد توموهيكو أمادا؟»

«لا. لم يسبق لي أن التقيته. لكنّي كنت أدرس مع ابنه في كلّيّة الفنون الجميلة. هو الذي عرض عليَّ الإقامة هنا في أثناء غياب صاحب البيت. فلقد تعرّضتُ لظروفٍ معقّدةٍ جعلتني لا أجد مكانًا آوي إليه. فسمح لي باستخدام هذا البيت موقتًا».

هزَّ رأسه مرارًا من جديد. «هذه المنطقة لا تناسب العاملين في الشركات والمكاتب. لكنّها ربّما تكون بيئة رائعة بالنّسبة إلى أناسٍ مثلكم».

ابتسمتُ ابتسامة متكلّفة، وقلتُ: «ثمّة فرقٌ مهول بيني وبين السيّد تومو هيكو أمادا. أشعر بالخجل إذا وُضِعتُ على مستواه».

رفع منشكي رأسه، ونظر إليّ بعينَيْن جادَّتَيْن: «ما زلنا غير متأكّدين. ربّما تصبح رسّامًا شهيرًا في المستقبل».

احترتُ في الردّ، فالتزمتُ الصمت. فتابع:

«الإنسان يُجري تحوُّلاتٍ عميقةً في بعض الأحيان. يدمّر أسلوبه بكلّ جرأة، ويُبعث من جديد من تحت الرماد. تومو هيكو أمادا نفسه فعل ذلك. كان في شبابه يرسم لوحات غربيّة. أعتقد أنّك مطّلعٌ على الأمر! أليس كذلك؟»

«أجل، أعرف ذلك. كان قبل الحرب شابًّا تُعلَّق عليه الآمال في فنّ الرّسم الغربيّ، لكنّه تحوّل إلى المدرسة اليابانيّة التقليديّة بعد عودته من الدراسة في ڤينّا، لسببٍ ما، وحقّق نجاحًا باهرًا بعد الحرب».

«أعتقد أنّ كلّ إنسان تأتيه لحظةٌ في حياته تُحتّم عليه تحوُّلًا جريئًا. ولا يجب إفلات تلك الفرصة أبدًا، بل يجب القبض عليها بصلابة. ففي هذا العالم، ثمّة مَن يستطيع الإمساك بها وثمّة مَن لا يستطيع. أمادا استطاع».

تحوُّلٌ جريء. عندما سمعتُ تلك الكلمة، تذكّرتُ فجأةً لوحة «مقتل الكومنداتور». الفتى الذي يطعن قائد كتيبة الفرسان ويقتله.

سألني منشكي: «بالمناسبة، هل أنت مُلمٌّ جيّدًا بمدرسة الرّسم اليابانيّة التقليديّة، النيهونغا؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلت: «خارج نطاق تخصّصي. درستها في الجامعة ضمن محاضرات تاريخ الفنّ. هذا كلّ ما أعرفه عنها».

«لديَّ سؤال بديهيّ: ما تعريف النيهونغا من الناحية التخصُّصيَّة؟»

«ليس من السَّهل تعريفها. في العموم، النيهونغا طريقةٌ في الرَّسم، تُستخدم فيها موادُّ مثل الغراء والملوّنات وقشر المعادن. لا تُستخدم الفرشاة الغربيَّة، بل قلم الرَّصاص والرِّيشة اليابانيَّة. بمعنى أنَّ النيهونغا تُعرَّف من خلال الموادّ الأساسيَّة المستخدمة فيها. وتُعطى أهمّيَّةٌ بالتأكيد للتقنيّات المتوارثة من قديم الزمان. ولكنْ، هناك لوحاتٌ كثيرة تستخدم أسلوب المدرسة الطليعيَّة، حيث تُستخدَم موادُّ جديدة مثل الألوان المائيَّة. تعريف النيهونغا يكتنفه الالتباس والغموض. أمَّا بشأن اللَّوحات التي رسمها توموهيكو أمادا، فهي تقليديَّة بحت. قد نَصِفُها بالمتشدِّدة، من ناحية التقنيَّة طبعًا، لأنَّ أسلوبه أصيلٌ ومتفرِّد. لا شكَّ في ذلك».

«هل تقصد أنَّنا لا نستطيع تعريفه إلَّا من خلال روحه، طالما أنَّ التَّعريف غامضٌ من حيث التقنيَّة والموادّ؟»

«ربَّما.. ولكنْ بما يخصّ روح النيهونغا، من الصَّعب تعريفها أيضًا. لأنَّنا نتحدَّث عن تيَّارٍ نشأ في أساسه على الوسطيَّة».

«الوسطيَّة؟»

بحثتُ في قاع ذاكرتي عن محتوى محاضرات تاريخ الفنّ.

«نتيجةً لوقائع ثورة ميجي الإصلاحيَّة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دخل فنّ الرَّسم الغربيّ إلى اليابان بكثافة مع الكثير من عناصر الثقافة الغربيَّة الأخرى. وفي ذلك الحين، لم يكن هناك وجودٌ فعليّ لفنّ النيهونغا، بل لم يكن ثمَّة وجود لكلمة «نيهونغا» ذاتها. وحتَّى كلمة «نيهون» لم تكن تُطلَق على دولة «اليابان» في الغالب، آنذاك. وعندما برزت طريقة الرَّسم المستورد من الغرب، المعروفة باسم «يوغا»،

وُلد للمرَّة الأولى مفهوم «النيهونغا/فنّ الرسم اليابانيّ التقليديّ» للتَّفريق بين الطريقتَيْن. ودُمجِت تحت هذا المسمَّى الجديد كلُّ الأساليب التي كانت موجودة، قبل ذلك الوقت، دمجًا متعمَّدًا من أجل تسهيل الأمر. وبالطبع، استُبعِدتْ أساليب أخرى. وكان مصيرها التردّي فالتلاشي. الرَّسم بالفحم المائيّ على سبيل المثال. ثمّ حاولتْ حكومة ميجي الاهتمام بفنّ النيهونغا وتوطيد أركانه باعتباره ممثِّلًا عن الهويَّة الثقافيَّة القوميَّة، وذلك للتصدِّي لهجمة الثقافة الأوروبيَّة. باختصار، النيهونغا يعكس اتِّحاد «الرُّوح اليابانيَّة والتقنيَّة الغربيَّة». وهكذا، باتت التصاميم اليوميّة ـ كتصاميم فواصل الحجرات والأبواب الورقيَّة والملصقات على أدوات الطعام ـ باتت تُعَدُّ أعمالًا فنِّيَّة. وُضِعَتْ في إطار، وعُرِضَت في المتاحف والمعارض الفنِّيَّة. ما يعني أنَّ النيهونغا هو أسلوبٌ في الرَّسم شائعٌ في الحياة اليوميَّة، وقد صار بمنزلة العمل الفنِّيّ، لكي يتوافق مع منظومة الفنون الغربيَّة».

توقَّفتُ عن الكلام عند هذا الحدّ، ونظرتُ إلى وجه منشكي. كان يبدو أنَّه يستمع إلى حديثي بجديَّة بالغة. فاسترسلتُ:

«وكان على محور هذه الحركة اثنان من المفكِّرين: اليابانيّ تنشين أوكاكورا، والأميركيّ إرنست فينولوسا. وتُعتَبر الحركة أنموذجًا عن التَّحديث العظيم للثقافة اليابانيَّة بسرعةٍ خاطفة. وطُبِّقَ الشيء ذاته تقريبًا في الموسيقى والأدب والفكر. وأعتقد أنَّ اليابانيِّين وقتها كانوا في انشغالٍ شديد، هناك أعمالٌ مهمَّةٌ بحجم الجبال على كاهلهم، ويجب إنهاؤها في وقتٍ قصير. ولكنْ، عند التمعُّن في الأمر الآن، لنا أن نقول بأنَّهم نجحوا في ذلك بمهارة وإبداع. فلقد تعايشت الفرقتان ـ تلك المؤيِّدة للتغريب والأخرى المناهضة ـ وانصهرتا بسلاسةٍ عالية. ولعلّ اليابانيِّين

في الأساس مؤهَّلون لمثل هذه الأعمال! أمَّا التسمية، «النيهونغا»، فأعتقد أنَّها تفلت من التَّعريفات في الأصل. يمكن القول إنَّه مفهومٌ يعتمد على إجماع متبادل وغامض. لم يكن ثمَّة خطٌّ فاصلٌ ومحدَّد منذ البداية. لا بل النيهونغا هو نتيجة التماسّ ما بين ضغطٍ خارجيّ وضغطٍ داخليّ».

فكَّر منشكي في كلامي، ثمّ قال: «كان الإجماع غامضًا، لكنَّه كان حتميًّا نوعًا ما. أليس كذلك؟»

«بالضبط. إجماعٌ تولَّدَ من حتميَّة وجوده».

«هل يمكن أن نفسّر الأمر على أنَّ النيهونغا، بعدم امتلاكه إطارًا تقليديًّا محدَّدًا، يُعَدّ نقطة قوّة ونقطة ضعف في الوقت نفسه؟»

«ربَّما كان كذلك بالفعل».

«ولكنَّنا عندما ننظر إلى لوحةٍ ما في أغلب الحالات، نقول حالًا إنَّها تنتمي إلى فنّ النيهونغا. أليس صحيحًا؟»

«بلى. ثمَّة أسلوبٌ متميّزٌ بوضوح. توجُّهٌ أو نزعةٌ. ثمَّة إدراكٌ جَمعيٌّ ضمنيّ. ولكنْ من الصَّعب التَّعبير عنه بالكلمات أحيانًا».

صَمَت منشكي قليلًا، ثمَّ قال: «إن لم تكن اللَّوحة غربية الطراز، أيعني أنَّها من النيهونغا؟»

«ليس بالضرورة. هناك لوحات من تيَّار يوغا ليست على الطراز الغربيّ».

«فهمت». ثمّ ثنى رأسه قليلًا، وتابع كلامه: «ولكنْ، لاعتبار اللَّوحة من النيهونغا، يجب ألّا تحتوي على عناصر غربيَّة. صحيح؟»

فكَّرتُ قليلًا، ثمَّ قلت: «الآن، وقد طرحتَ السؤال، أظنّ أنَّه صحيح. ولكنْ لم يسبق لي أن فكَّرتُ في الأمر من قبل».

«أمرٌ واضحٌ بذاته، ولكنْ يصعب تحويل وضوحه إلى مفهومٍ لغويّ».

أومأتُ برأسي موافقًا على كلامه.

أكمل منشكي بعد أن التقط نَفَسًا: «عند التَّفكير بالأمر، قد نفهمه بتعريف الذات من خلال وجود الآخر. ذاتٌ واضحة، لكنَّنا نعجز عن وصف وضوحها بمفهومٍ لغويّ. ربَّما لا يمكن استيعاب التَّعريف إلَّا من خلال ما قلتَه: النيهونغا هو نتيجة التماسّ ما بين ضغطٍ خارجيّ وضغطٍ داخليّ». قال، وابتسم ابتسامة طفيفة، ثمّ أضاف بصوتٍ خافتٍ كأنَّه يتحدَّث إلى نفسه: «مثيرٌ للاهتمام العميق».

وفجأةً، طرأ في ذهني سؤال: عمَّ نتحدَّث؟ كان النقاش جديرًا بالاهتمام حقًّا، ولكنْ ماذا يعني هذا الحوار بالنِّسبة إليه؟ أهو مجرَّد فضولٌ معرفيّ فقط أم أنَّه يختبر قدراتي المعرفيَّة؟ وإن كان كذلك، فما السَّبب؟

«بالمناسبة، أنا أعسر ـ قال منشكي فجأةً، وكأنَّه لم يتذكَّر الأمر إلَّا حينذاك. لا أعلم إن كان لهذا التَّفصيل فائدة. لكنَّها معلومةٌ تتعلَّق بشخصيَّتي. إذا طُلِبَ منِّي الاختيار بين الذهاب يمينًا أو يسارًا، فمن المؤكَّد أنَّني سأختار الذهاب إلى اليسار. صارت عادةً عندي».

اقتربتِ الساعةُ من الثالثة أخيرًا، واتَّفقنا على موعد الزيارة التالية. فتقرَّر أن يجيء إلى بيتي في الواحدة بعد ظهر الاثنيْن، بعد ثلاثة أيَّام، لنقضي ساعتَيْن معًا في المرسم كما حدث اليوم. وعندها، سأحاول مجدَّدًا رسم مسوَّدات لوجهه بقلم الرَّصاص.

«لا داعي للعجلة، قال منشكي. أخبرتك بذلك مسبقًا. خذ الوقتَ الذي تريده. فلديَّ الكثير من الوقت».

ثمّ خرج عائدًا إلى بيته. نظرتُ إليه من النافذة وهو يغادر راكبًا سيّارته. وبعدها، أمسكتُ بيدي المسوَّدات التي رسمتها وتأمَّلتها لفترة من الوقت، ثمّ ألقيتُ بها بعيدًا وأنا أهزّ رأسي بلا اقتناع.

كان البيت هادئًا إلى درجة مريعة. وكأنَّ الصَّمت قد زاد من ثقله فجأة حين بتُّ وحيدًا. وعندما خرجتُ إلى الشرفة، لم أشعر بوجود الرياح، أحسستُ بالهواء باردًا وكثيفًا، وكأنَّه في حالة هُلاميَّة. وتنبَّأتُ بقرب المطر.

جلستُ على أريكة غرفة المعيشة، وأخذتُ أتذكَّر الحوار الذي دار بيني وبين منشكي بالترتيب. تحدَّثنا عن قراره أن يكون موديلًا للبورتريه، وعن أوبرا «فارس الورود» لشتراوس، وعن تأسيسه شركة معلوماتيَّة، والتقاعد عن العمل بعد أن حصل على ثروة كبيرة من المال، وعن سكنه وحيدًا في ذلك البيت الضَّخم، وأنَّ اسمه الأوَّل واتارو. «واتارو» الذي يعني عبور النهر؛ وعن أنَّه ظلَّ أعزبَ طوال عمره، وأنَّ شعره ابيضَّ منذ كان شابًّا؛ وعن أنَّه أعسر وأنَّ عمره أربعة وخمسون عامًا؛ وعن حياة توموهيكو أمادا، وذلك التَّحوُّل الجريء فيها، واستغلاله الفرصة التي سنحت له ولم يفوِّتها؛ وعن تعريف فنّ النيهونغا؛ ثمَّ أخيرًا، التَّفكير في العلاقة بين الذات والآخر.

تُرى ما الذي يريده منِّي؟

ولماذا أعجز عن رسم مسوَّدة جيِّدة لوجهه بقلم الرَّصاص؟

المسألة بسيطة: لم أفهم جوهر وجوده بعد!

أُصيب قلبي بعد حواري معه بارتباكٍ عجيب. وفي الوقت نفسه، زاد فضولي تجاه ذلك الإنسان المدعوّ منشكي.

بعد ثلاثين دقيقة تقريبًا، بدأت الأمطار تهطل بقطرات كبيرة. واختفت الطيور الصَّغيرة في مكان مجهول.

ـ 10 ـ

نشقّ طريقنا
بين الأعشاب الخضراء واليانعة

توفِّيت شقيقتي وأنا في الخامسة عشرة من عمري. توفِّيت بطريقة فُجائيَّة. كانت في الصفّ الأوَّل المتوسط وفي الثانية عشرة من عمرها. لقد وُلدتْ ومعها مرض في القلب، لكنَّ سببًا ما حال دون ظهور أعراضٍ خلال المرحلة الابتدائيَّة كلّها، الأمر الذي طمأن الأسرة كثيرًا. وأصبحنا نحمل إلى حدٍّ ما أملًا في أنَّها ستمضي عمرها بهذه الحال بلا مشاكل. ولكنْ، في شهر مايو تقريبًا من ذلك العامّ، ازدادت نوبات خفقان القلب غير المنتظم عنفًا. وكان الخفقان يراودها خصوصًا إذا نامت على جنبها. لذا، كثرت اللّيالي التي لم تستطع فيها النوم. أجروا لها فحوصًا دقيقة في المستشفى الجامعيّ، ولم يكتشفوا أيَّ تغيُّرٍ في حالتها قبل ذلك. واحتار الطبيب، لأنَّه افترض أنَّ المشكلة الأساسيَّة عُولجت بالفعل بإجراء جراحة في القلب.

«عليها أن تتجنَّبَ الحركة العنيفة بقدر الإمكان ـ قال الطبيب. أرجو أن تعيش حياة ملتزمة بالقواعد الصحِّيَّة السليمة. ومن المفروض أن يهدأ الخفقان مع الوقت».

وعلى الأرجح، أنَّه لم يجد ما يقوله، فقال تلك الكلمات. ثمَّ وصف لها عدَّة أنواع من الأدوية.

لكنَّ اضطراب النبض لم يخمد. نظرتُ إلى صدر شقيقتي وهي تجلس قبالتي إلى مائدة الطعام، وتخيَّلتُ قلبها المعتلّ. في ذلك الوقت، بدأ صدرها يَنْهَدُ. كان جسمها يتقدَّم على درب النضوج على الرَّغم من مشاكل قلبها. واستغربتُ لبروز صدرها، وهي التي لم تزل طفلة صغيرة حتَّى وقت قريب! جاءها الطمث على حين غرَّة، وبدأ ثدياها يتشكَّلان تدريجيًّا. لكنَّ قليْبها ما يزال مريضًا في عمق صدرها الصَّغير، وقد عجز الطبيب المتخصِّص عن تشخيص المرض بدقَّة. ولطالما حيَّرتني تلك الحقيقة! أشعر بأنَّني أمضيتُ فترة صباي وأنا أحمل في ركنٍ من عقلي فكرةً مفادها أنَّني سأفقد أختي الصَّغيرة في يوم من الأيَّام.

وكان والداي يقولان لي يوميًّا: شقيقتك ضعيفة الجسم، عليك أن تحميها وتهتمّ بها دائمًا. لذا، كنت أركِّز أنظاري عليها دائمًا في المدرسة الابتدائيَّة، عازمًا على حماية قلبها الصَّغير بكلّ طاقتي إن حدث شيء. ولكنْ لم يحدث أيّ شيء في الواقع.

فقدتْ شقيقتي وعيها وهي عائدة من المدرسة المتوسطة، عندما كانت تصعد درجات السُّلَّم في محطَّة قطار خطّ سيبوشينجوكو، فسقطت أرضًا، وحملتها سيَّارة الإسعاف إلى أقرب مستشفى للطوارئ. وعندما عدتُ من المدرسة، ولحقتُ بها إلى المستشفى، كان قلبها قد توقَّف بالفعل. حدث ذلك في لمْح البصر. كنَّا قد تناولنا، في صباح ذلك اليوم،

وجبة الإفطار معًا، إلى المائدة نفسها، وقد ودَّعتها عند مدخل البيت، واتَّجهتُ إلى مدرستي الثانويَّة، بينما ذهبتْ إلى مدرستها المتوسِّطة. وعندما قابلتها في المرَّة التالية، كانت قد توقَّفت عن التنفُّس، وأغمضت عينيْها الواسعتَيْن إلى الأبد؛ وفمها مفتوحٌ قليلًا كأنَّه يريد أن يقول شيئًا. وتوقَّف ثدياها عن النموّ.

وفي المرَّة الثالثة التي رأيتُها فيها، كانت داخل التابوت. ترقد وسط التابوت الصَّغير، وقد ألبسوها الفستان المخمليّ الأسود الذي كانت تحبُّه، وزيَّنوها بمساحيق وجه خفيفة، ومشَّطوا شعرها بعناية، ووضعوا في قدمَيْها حذاء أسود ذا طلاء لامع. كانت ياقة الفستان دائريَّة وبيضاء، بيضاء إلى درجةٍ غير طبيعيَّة.

بدت وهي مستلقية كأنَّها نائمة فحسب، بل كأنَّها ستنهض حالما لمستُها. لكنَّ ذلك كان وهمًا. لن تفتح عينَيْها مرَّة ثانية مهما ناديتُ عليها ومهما هززتُ جسدها.

لم أكن أريد أن يُوضع جسدها الرَّقيق داخل ذلك الصندوق الضيِّق الخانق. كان لذلك الجسد أن ينام في مكان أوسع وأرحب. وسط المراعي مثلًا. لنذهب إلى لقائها ونحن نشقّ طريقنا بين الأعشاب الخضراء واليانعة، بينما تداعب الرِّيحُ الأعشابَ على مهل، وتغرِّد حولها الطيور، وتنزّ الحشرات كما يحلو لها. كان للأزهار البرِّيَّة أن تنشر عطرها الخام مع غبار الطلع في الهواء مِن حولها. وعندما تغرب الشمس، كان للسَّماء أن تترصَّع فوقها بعددٍ لا حصر له من نجومٍ فضِّيَّة. وعندما يبزغ الفجر، كان لقطرات الندى التي على الأغصان أن تتلألأ كالجواهر بفضل شعاع الشمس. غير أنَّها في الحقيقة أودِعَتْ في تابوتٍ بليدٍ صغير، وأحاطت بها أزهارٌ بيضاء مشؤومة، قُطِّعت بالمقصّ، كالتي توضع

في مزهريَّة. ووُضِع التابوت في غرفة ضيِّقة تنيرها أضواء النيون التي تبدو منزوعة الألوان؛ وانسابت ألحانٌ جنائزيَّة من السمَّاعات التي رُكِّبتْ في السقف.

لم أجرؤ على مشاهدة إحراق جثَّتها. وعندما أُغلِقَ التابوت ودُقَّت عليه المسامير بإحكام، لم أعد أستطيع التَّحمُّل، فخرجتُ من غرفة المحرقة. وكذلك لم أجمع عظامها مع الأهل[1]. خرجتُ إلى الحديقة الداخليَّة للمعبد، وذرفتُ دموعي وحيدًا من دون بكاء. وشعرتُ بالحزن من كلِّ قلبي، لأنَّني لم أستطع إنقاذ أختي ولو لمرَّة خلال عمرها القصير.

تغيَّرت حال عائلتي بعد وفاة شقيقتي. أصبح أبي صموتًا أكثر من قبل، وأمِّي حادَّة الطباع أكثر من قبل. أمَّا أنا، فواصلتُ حياتي السَّابقة كما كانت عليه غالبًا. كنتُ أتردَّد إلى نادي تسلُّق الجبال في المدرسة، فشغلتني نشاطاته، وفي وقت الاستراحة، كنت أدرس الرَّسم الزَّيتيّ. لقد أوصاني مدرِّس الفنون في المدرسة المتوسِّطة، قائلًا: من الأفضل لك أن تدرس رسميًّا على يد أستاذ متخصِّص. وهكذا، بدأتُ أولي اهتمامًا جدِّيًّا بالرَّسم في أثناء دروس الرَّسم، وأشعر الآن بأنَّني كنتُ وقتها أحاول أن أشغل وقتي بقدر الإمكان حتى لا أفكِّر في شقيقتي التي ماتت.

كم مرَّ يا ترى من الأعوام. ترك والدايَ غرفتها على حالها، من دون أن يمسَّا فيها أيّ غرض، لفترة طويلة: الكتب الدراسيَّة والمراجع والأقلام والممسحة والدبابيس المتراكمة فوق المكتب، ومفرش

(1) في التقاليد اليابانيّة، أنَّ أهل المتوفّى، بعد إحراق جثّته، يلتقطون بعض عظامه بعصيّ ملائمة ويحفظونها في صندوق، بينما يدفنون بقيّة العظام في حفرة جماعيّة في حديقة المحرقة.

السرير والبطَّانيَّة والوسادة، والمنامة التي غُسلت وطُويت، وزيّ المدرسة في خزانة الملابس. وعلى التَّقويم المعلَّق على الحائط، كُتِبَ جدولُ المواعيد بخطِّها الدَّقيق الجميل. تُرِكَ التقويم على الشهر الذي توفِّيت فيه، وبدا كأنَّ الزمن تجمَّد هناك منذئذٍ. لكأنَّ طيفها سيفتح الباب عمَّا قريب ويدخل الغرفة. وعندما أكون بمفردي في البيت، كنتُ أدخل تلك الغرفة أحيانًا، وأجلسُ على السَّرير المرتَّب بعناية، في هدوء تامّ، لأتأمَّل المنظر من حولي. لكنِّي لم ألمس أيَّ غرضٍ بيدي إطلاقًا، لأنَّني لم أشأ بعثرة البرهان الوحيد على أنَّها عاشت هناك.

وكثيرًا ما كنت أتخيَّل لو أنَّها لم تمت في الثانية عشرة من عمرها، تُرى أيّ حياةٍ كانت ستعيشها؟ لم أكن قادرًا على معرفة ذلك طبعًا، طالما أنِّي كنت أجهل كيف سيكون مستقبلي أنا نفسي، فكيف لي أن أعرف مستقبلها؟ ولكنْ، لو لم يصبها ذلك المرض منذ الولادة، فلا ريب في أنَّها كانت ستصبح امرأة ناضجة جذَّابة، ذات مواهب وقدرات عدَّة. كان سيقع في حبِّها رجالٌ كثيرون، وربَّما كانوا سيحتضنونها بحبّ. لكنِّي لم أستطع تشكيل تلك الصُّوَر في ذهني؛ فهي كانت وستبقى شقيقتي التي تصغرني بثلاثة أعوام، والتي تحتاج إلى رعايتي وحمايتي.

رسمتُ وجهها مرارًا وتكرارًا بعد وفاتها. كي لا أنساه. رسمتُ وجهها ممَّا تجود به ذاكرتي، ومن زوايا مختلفة. لم أكن لأنساه أبدًا، هذا مؤكَّد؛ غير أنَّني أردتُ ألَّا أنسى وجهها المطبوع في ذاكرتي آنذاك. ومن أجل ذلك، اعتمدتُ الرَّسم لأحفظ وجهها واضحًا ومحدَّدًا. كنتُ ما أزال في الخامسة عشرة من عمري، ولا أعرف الكثير حول الذاكرة أو رسم اللَّوحات، أو تتابع الزمن! لكنِّي كنتُ أعي أنَّه يجب عليَّ اتِّخاذ إجراءٍ ما كي أُبقي على ذاكرة اللَّحظة الآنية كما هي. وإلَّا كان وجهها

سيختفي. فمهما كانت تلك الذكرى واضحة، فإنَّ الزمن قادرٌ على محوها. وأعتقدُ أنَّني فهمتُ الأمر فطريًّا.

واصلتُ رسم وجهها في دفتر الرسم وأنا أجلس على سريرها في غرفتها الخالية. أرسم وأعيد تصحيح الرَّسم أكثر من مرَّة. حاولت بشكلٍ ما إحياء صورة شقيقتي المنعكسة داخل قلبي فوق الورقة البيضاء. كانت خبرتي وقتها غير كافية، ولم أكن أمتلك الموهبة اللَّازمة. فكانت المحاولة صعبة بالتأكيد. رسمٌ وتمزيقُ اللَّوحة إلى ما لانهاية. ولكن، عندما أنظر إلى تلك اللَّوحات الآن (أحتفظ بدفتر الرَّسم ذاك بحرصٍ شديد)، أفهم أنَّها مليئة بحزن حقيقيّ لا جدال فيه. لم تكن ريشتي ناضجة، لكنِّي كنت أرسم كما لو أنَّ روحي استدعت روحها بإخلاصٍ نقيّ. عندما أنظر إلى تلك المحاولات، تنهمر دموعي عن غير قصد. رسمتُ بعدها عددًا كبيرًا من اللوحات؛ لكنّ دموعي لم تُذرف على أيٍّ منها.

سبَّبت لي وفاة شقيقتي شيئًا آخرَ: رهاب الاحتجاز في الأماكن المغلقة؛ إلى درجةٍ تصل حدَّ الرُّعب. فبعد أن رأيتُها في تابوتها الضيِّق، وقد وُضِعَ الغطاء عليه وأُحكِمَ إغلاقه، وأُرسِلَ إلى المحرقة، ما عاد بوسعي التواجد في مكانٍ مغلق. وبقيتُ دهرًا أخشى استخدام المصعد. أتخيَّل أنَّه سيتوقَّف من تلقاء نفسه، بسبب زلزال أو سببٍ ما، وأنَّني سأظلّ محبوسًا فيه لا أستطيع الهرب! فأقع في حالة هلعٍ واضطرابٍ شديدة بمجرد تخيُّل ذلك، وتضيق أنفاسي.

لم تنتج تلك الأعراض مباشرةً عقب وفاتها؛ بل استغرق الأمر ثلاث سنوات حتَّى ظهر على السطح. أصبتُ بأوَّل حالة هلع بعد دخولي مباشرة كليَّة الفنون الجميلة. كنتُ أعمل في شركةٍ لنقل الأثاث

والأمتعة بعض الوقت، بصفة حمَّالٍ بعربة شحن مغطَّاة. وفي أحد الأيَّام، بسبب خطأٍ ما، حُبستُ داخل السيَّارة الفارغة. حيث درجت العادة على التفحُّص من أنَّ أحدًا لم ينسَ شيئًا في حاوية البضائع. لكنَّ السَّائق أغلق الباب من الخارج من دون أن يتأكَّد من وجود أحد في الداخل.

واستغرق الأمر ساعتَيْن ونصف الساعة حتَّى فُتِحَ الباب، واستطعتُ الهرب. بقيتُ وحيدًا في ذلك المكان المظلم الضيِّق المحكَم الإغلاق. وللحقيقة، لم تكن حاويةً ثلَّاجة، بل كان فيها فراغات يتسرَّب منها الهواء. ولو فكَّرتُ برويَّة لأدركتُ أنَّه لا داعي للخوف من الاختناق.

لكنَّ عاصفة الهلع والذعر اجتاحتني. وعلى الرَّغم من وجود قدْرٍ كافٍ من الأوكسجين، فإنَّني لم أتمكَّن من استنشاقه بعمق. أو هذا ما بدا لي على الأقلّ. أجهدتُ أنفاسي عبثًا، وأعتقدُ أنَّني سقطتُ في حالةٍ من فرط التنفُّس. أصبتُ بالدوار واختنقت أنفاسي، واستبدّ بي ذعرٌ لا مبرِّر له. ردَّدتُ في سرِّي: «اهدأ، ستجري الأمور على ما يرام. ستخرج منها حالًا. لن تموت اختناقًا». لكنَّ التَّفكير بعقلانيَّة كان أقوى من إمكانيَّاتي. لم تظهر في عقلي إلَّا صورة شقيقتي داخل التابوت الضيِّق وهو يُغلَق ويُحمَل إلى الحرق. استحوذ عليَّ الرُّعب، وأخذتُ أضرب جانبَي العربة بعنفٍ واطِّراد. كانت العربة داخل مرأب سيَّارات الشركة، وقد أنهى جميع العاملين أعمالهم يومها، وعادوا إلى بيوتهم. ولم ينتبه أحد إلى وجودي أغلب الظنّ! وما من أحدٍ كان ليسمع صوتي مهما ضربتُ على الجوانب. وإذ فكَّرتُ في أنَّني قد أقضي اللَّيل محبوسًا حتَّى الصباح، أحسستُ بارتخاء عضلات جسمي كلِّها.

انتبه الحارس اللَّيليّ الذي جاء يتفقَّد المرأب في دوريَّته المعتادة إلى صوت ضرباتي على جوانب العربة، ففتح الباب. وعندما وجدني

منهك القوى، وفي حالة يُرثى لها، جعلني أرقد بعض الوقت على السَّرير في غرفة الحَرَس. وأعدّ لي كوبًا من الشاي الساخن. ولم أعرف أنا نفسي كم من الوقت لبثتُ هناك مستلقيًا. حتَّى إذا انتظمت أنفاسي، وطلع الصبح، شكرتُ الحارس، وعدتُ إلى بيتي في أوَّل قطار. ورقدتُ مباشرة في سريري، وبقيتُ أرتعش فترة طويلة.

ومنذ ذلك الحين، بتُّ عاجزًا عن استخدام المصعد. ربَّما أيقظتْ تلك الحادثةُ الذُّعرَ الكامن في داخلي. ولم يكن عندي أيّ شكٍّ في أنَّ الأمر مردُّه إلى ذكرى وفاة شقيقتي. ليس المصعد فحسب، بل أصبحتُ لا أستطيع وضع قدمي داخل أيّ مكان ضيّق ومغلَق بإحكام. ولا أستطيع رؤية أفلام تظهر فيها غوَّاصات أو دبَّابات. مجرَّد أن أتخيَّل نفسي محبوسًا في أحد تلك الأماكن الضيّقة، مجرَّد تخيُّل، تضيق أنفاسي. وكم من مرَّة غادرتُ صالة السينما في منتصف الفيلم، عندما تظهر إحدى الشخصيَّات حبيسةً في مكانٍ موصد، فأتوقَّف عن متابعة الفيلم. وهذا ما يفسّر أنَّني نادرًا ما رافقتُ أحدًا إلى السينما.

في رحلتي إلى هوكايدو، حدثت ظروف قاهرة جعلتني أنزل لليلة واحدة بفندقٍ، يُعرَف باسم أوتيل الكبسولة، وذلك لضيقِ غُرَفه. كدتُ أختنق ولم أستطع النوم طوال اللَّيل، ولم أجد حيلة إلَّا الخروج من الفندق وقضاء بقيَّة اللَّيلة داخل سيَّارتي. كان الطقس في أوائل الرَّبيع، في هوكايدو، ما جعل اللَّيلة أشبه بالكابوس حقًّا.

ولطالما سَخِرت زوجتي من هذا الرُّهاب. وكم من مرَّة ضحكتْ وهي تراني أصعد بشقّ الأنفس سلالمَ بنايةٍ مكوَّنة من ستة عشر طابقًا خوفًا من المصعد التي تستقلّه لتسبقني إلى أعلى. لكنّي لم أشرح لها سبب ذعري. بل قلتُ لها إنّي وُلدتُ بخوفٍ فطريٍّ من استخدام المصاعد.

«لكنّ هذا مفيد لرشاقة الجسم»، قالت ساخرةً.

كذلك أشعر بما يشبه الحياء من أيّ امرأةٍ لها ثديٌ كبيرٌ جدًّا. غير أنّي لم أفهم على وجه الدقّة ما شأن هذا بوفاة شقيقتي في عمر الثانية عشرة، ولم يبرز ثدياها إلّا قليلًا. سوى أنّني، لسببٍ ما، ومنذ زمنٍ بعيد، لا أنجذب إلّا إلى المرأة ذات الثدي الصّغير نسبيًّا. وأصبحتُ كلّما رأيتُ ثديًا صغيرًا، أو لمستُه بيدي، تذكّرتُ صدر أختي الصّغير وقد بدأ يكبر. ولكنْ، منعًا لسوء الفهم، لم تجذبني شقيقتي جنسيًّا على الإطلاق. من المحتمل أنّني أحاول بناء مشهدٍ وجدانيّ معيّن من جديد. مشهدٌ وجدانيٌّ حصريّ فقدتُه ولن يعود إليّ أبدًا.

في ظهر يوم السبت ذاك، كنتُ واضعًا يديَّ على صدر المرأة المتزوّجة التي أصاحبها. لم يكن ثديها صغيرًا ولا كبيرًا. كان بحجمٍ مناسبٍ تحتويه يداي. والحلمتان ما تزالان صلبتَيْن بين كفَّيّ.

لم تكن تأتي مطلقًا إلى بيتي يوم السبت، لأنّها تقضي نهاية الأسبوع مع أسرتها. إلّا أنّ زوجها، في نهاية ذلك الأسبوع، كان في رحلة عمل إلى مومباي، وابنتاها قد ذهبتا إلى بنات عمّهما في مدينة ناسو للزيارة والمبيت لديهنّ. فاستطاعت الأمّ أن تأتي إلى بيتي. مارسنا الجنس على مهل، كالمعتاد. وبعد ذلك، غرقنا في صمت خامل، كالمعتاد تمامًا.

«هل تريد سماع أخبار وكالة أنباء الغابة؟» ـ قالت.

«وكالة أنباء الغابة»، لم أتذكّر معنى ذلك على الفور.

«هل نسيت؟ بشأن الرجل الغامض الذي يسكن في البيت الأبيض على الجهة المقابلة من الوادي. السيّد منشكي. ألم تقل لي في المرّة السّابقة إنّك تريد أن أجمع عنه بعض المعلومات؟»

«آه، حقًّا، صحيح. بالطبع أتذكّر».

«عرفتُ عنه معلومات وإن قليلة. إحدى صديقاتي تسكن في منطقته نفسها. فاستطعتُ تجميع بعض المعلومات. هل تريد سماعها؟»

«بالتأكيد».

«لقد اشترى منشكي هذا البيت، المطلّ على منظر رائع، منذ نحو ثلاث سنوات. وكانت هناك أسرةٌ أخرى تسكن البيت قبله. وهي الأسرة التي شيّدت البيت أصلًا، لكنَّها لم تسكن به إلّا قرابة السنتَيْن. وفي أحد الأيّام المشمسة، جمعت الأسرة أغراضها فجأة وغادرت البيت، وسكن السيّد منشكي فيه بدلًا منهم. والسّبب أنّه اشترى منهم البيت شبه الجديد، كما هو. ولا أحد يعرف التّفاصيل التي أدّت إلى ذلك».

«هذا يعني أنّه لم يبنِ البيت بنفسه».

«تمامًا. انتقل إلى البيت بعد أن بُنِيَ. مثل سرطان البحر الرَّشيق».

أحسستُ بالدَّهشة عندما سمعتُ ما سمعت. لأنَّني كنتُ قد ظننتُ أنَّه بنى ذلك القصر الأبيض بنفسه، ربَّما ارتبط الأمر عندي بشعره الأبيض المهيب. كان البيت وصاحبه في ناظريّ شيئًا واحدًا.

أكملتْ حديثها: «لا أحد يدري ماذا يعمل السيّد منشكي! سوى أنّه لا يشتغل في عملٍ يوميّ مطلقًا. يظلّ طوال اليوم تقريبًا في بيته، وربَّما يتبادل البيانات عبْر الكمبيوتر. فهناك أجهزةٌ كثيرة في مكتبه المنزليّ. وفي الآونة الأخيرة، بتنا قادرين على تدبير معظم الأشياء عبْر الكمبيوتر. أحد معارفي، طبيبٌ جرّاح، يعمل دائمًا من بيته، لأنّه محبٌّ لرياضة التزلُّج على الأمواج، فلا يريد أن يبتعد عن الشاطئ».

«وكيف لطبيبٍ جرّاحٍ أن يزاول مهنته من دون مغادرة بيته؟»

«تُرسَل إليه كلّ المعلومات عن المريض، فيقوم بتحليلها وإعداد خطَّة العلاج ويُرسلها إلى العميل، ثمّ يتابع الجراحة نفسها من خلال الشاشة، ويقدِّم التَّعليمات الضروريَّة بالإشارة. وأحيانًا، يستخدم ما يسمَّى اليد السحريَّة للكمبيوتر، ويقوم بنفسه بإجراء الجراحة عن بعد».

«إنَّه عصرٌ مذهل. شخصيًّا، لا أفضِّل الخضوع لمثل تلك الجراحة».

«من المؤكَّد أنَّ السيِّد منشكي يعمل عملًا شبيهًا. وبغضّ النظر عن عمله، لديه دخلٌ يكفيه تمامًا. يعيش في ذلك القصر وحده، ويذهب من وقت إلى آخر في رحلات طويلة. خارج البلاد، على الأغلب. وفي داخل البيت، غرفةُ ألعابٍ رياضيَّة تضمّ أجهزةً كاملةً للتدريبات. وكلَّما تفرَّغ قليلًا، تمرَّن بها، ونمَّى عضلاته باعتدال. لا يعاني من دهون زائدة. يحبّ الموسيقى الكلاسيكيَّة على الأرجح. لديه عُدَّة صوتيَّات متكاملة. ألَّا تعتقد أنَّه يعيش حياة فاخرة»؟

«كيف عرفتِ كلّ تلك التَّفاصيل الدَّقيقة؟»

ضحكتْ، وقالت: «يبدو أنَّك تستخفّ بقدرة النساء على جمع المعلومات».

اعترفتُ قائلًا: «ربَّما».

«لديه مجموعة سيَّارات.. إجمالها أربع. سيَّارتا جاغوار وسيَّارة رانج روفر، إضافة إلى ميني كوپر. يبدو مولعًا بالسيَّارات البريطانيَّة!»

«لكنَّ سيَّارة ميني تصنعها شركة BMW حاليًا، وثمَّة شركة هنديَّة اشترت جاغوار على ما أذكر. قد لا يكون من الدقَّة وصفها بسيَّارات بريطانيَّة».

«سيّارة ميني التي يملكها هي من الطراز القديم. وجاغوار تبقى بريطانيّة، أيًّا تكن الشركة التي اشترتها».

«هل عرفتِ أشياء أخرى»؟

«لا أحد تقريبًا يتردَّد إلى بيته. يبدو أنَّ السيِّد منشكي يحبّ الوحدة كثيرًا. يحبّ البقاء وحده. يستمع إلى عدد كبير من أشرطة الموسيقى الكلاسيكيَّة، ويقرأ الكثير من الكتب. ومع أنَّه أعزب، فلديه ثروة من المال، لكنَّه لا يصحب نساءً إلى البيت في الأغلب. والظاهر أنَّه يعيش حياة نظيفة وبسيطة. ربَّما يكون لوطيًّا. لكنَّ عددًا من الدلائل ترجِّح أنَّه ليس كذلك».

«لديكِ مصدرٌ غنيٌّ من المعلومات».

«ما من مصدر الآن، ولكنْ في الماضي، كانت هناك خادمة تتردَّد إلى ذلك البيت أكثر من مرَّة في الأسبوع لتنظيف المنزل، حتى وقت قريب. وكانت، عندما تُخرج القمامة إلى مكان تجميعها، أو عندما تذهب للتبضُّع في المحلَّات القريبة، تتحدَّث تلقائيًّا مع ربَّات البيوت من الجيران».

«مفهوم. وعلى هذا، تتأسَّس وكالة أنباء الغابة».

«أجل. وطبقًا لما قالته الخادمة، هناك في بيت السيِّد منشكي «غرفةٌ ممنوعٌ فتحُها» وأمَرها بعدم دخولها بتاتًا. قالها بحزم وصرامة».

«مثل «قلعة الدوق ذي اللّحية الزرقاء»».

«بالضبط. ألا يُقال إنَّ في كلّ بيت خزانةَ ملابس تحتوي على هيكلٍ عظميّ؟»

وما إن سمعتُ بذلك، حتَّى تذكَّرتُ لوحة «مقتل الكومنداتور» التي كانت مخبَّأة سريًّا في السقيفة. لعلَّها هيكلٌ عظميٌّ في خزانة ملابس!

أكملتُ: «ولم تعرف الخادمة ما الذي في تلك الغرفة الغامضة حتَّى نهاية خدمتها. لأنَّها عندما تأتي إلى البيت، يكون باب الغرفة مقفلًا دائمًا. في كلِّ الأحوال، لم تعد الخادمة تتردَّد إلى بيته الآن. ربَّما طردها من البيت لاعتقاده أنَّها ثرثارة. وبات يتدبَّر شؤون البيت بنفسه».

«لقد قال لي ذلك. على الرَّغم من أنَّه تعاقد مع شركة تنظيف متخصِّصة مرَّة في الأسبوع، فهو يقوم بكلِّ أعمال البيت بنفسه».

«يبدو أنَّه حسَّاس فعلًا فيما يتعلَّق بالخصوصيَّة».

«ولكنْ، ألن ينتشر أمر لقاءاتنا معًا بهذا الشَّكل بين جيرانك من خلال وكالة أنباء الغابة؟»

فقالت بصوت هادئ: «لا. لن يحدث. أوَّلًا لأنَّني أحترس جيِّدًا. وثانيًا لأنَّك مختلف عن السيِّد منشكي».

ترجمتُ كلامها بلغةٍ يابانيَّة أسهل: «بمعنى أنَّه يستحقّ أن تُنشَر الشائعات عنه، وأنا لا؟»

فأجابت ضاحكةً: «عليك أن تكون ممتنًّا لذلك».

بعد وفاة شقيقتي، ساء وضع العديد من الأمور في الوقت نفسه. سيطر كسادٌ مزمنٌ على الورشة التي يديرها والدي لتصنيع المعادن، وبات لا يعود إلى البيت تقريبًا كي يُعالج تلك الأزمة. فصارت الأجواء في البيت باردة. وازداد الصمت ثقلًا، وأصبح يستمرّ طويلًا. وكان ذلك لا يحدث قبل وفاة شقيقتي. فانهمكتُ في الرَّسم أكثر وأكثر، راغبًا في الابتعاد عن تلك الأجواء. ثمّ أصبحتُ أفكِّر في دخول كليَّة الفنون

الجميلة ودراسة الرّسم دراسةً متخصّصة. عارض أبي بعناد قائلًا إنَّ الرسّام لن يستطيع الحصول على دخلٍ يسمح له بمعيشة لائقة، وإنَّه لم يعد قادرًا اقتصاديًّا على إعالة فنَّان في بيته. احتدَّ الجدال بيني وبينه حول الموضوع. تدخَّلتْ أمّي للتهدئة، واستطعتُ بشكلٍ ما دخول كليَّة الفنون الجميلة، لكنَّ علاقتي بوالدي لم تتحسَّن أبدًا.

أفكِّر أحيانًا، لو ظلَّت شقيقتي على قيد الحياة، لكانت أسرتي ستعيش بلا ريب حياة أسعد بكثير من تلك الحياة. افتقدت الأسرة سريعًا التوازنَ الذي كان قائمًا قبل اختفائها المفاجئ، وأصبحنا نجرح بعضنا بعضًا عن غير قصد. كلَّما أفكِّر في الأمر، يجتاحني شعورٌ عميق بالضعف، لأنَّني في النهاية لم أستطع ملء الفراغ الذي خلَّفه غيابها.

وفي أثناء ذلك، لم أعد أرسم بورتريه شقيقتي. فبعد دخولي كلِّيَّة الفنون الجميلة، أردتُ أن أرسم صورًا وهياكلَ لا تحمل معنًى محدَّدًا. أي لوحات تجريديَّة. هنا يتمّ ترميز أشياء متعدِّدة، ومن خلال ارتباط الرُّموز بعضها ببعض، تتولَّد معانٍ جديدة. أحببتُ أن أخوض غمارَ عالمٍ يهدف إلى هذا النوع من الكمال. والسَّبب أنَّني، في مثل ذلك العالم، استطعتُ لأوَّل مرَّة أن أتنفَّس طبيعيًّا بلا قلق.

لكنَّ اللَّوحة التجريديَّة بالتأكيد لا تؤمِّن لي عملًا متواصلًا، مهما رسمتُ منها. وبعد التخرُّج، لم أجد قوت يومي إلَّا في رسم البورتريه. كما تنبَّأ والدي بالضبط. اضطررت إلى رسم البورتريه (لأنَّني كنتُ قد تركتُ بيت والديَّ، وكان عليَّ أن أتدبَّرَ تكاليف الإيجار والطعام). واستطعتُ إطالة عمري الفنِّيّ في الرّسم من خلال تلك البورتريهات، حتى وإن كان منحرفًا قليلًا عن الهدف الأصليّ.

وها أنا ذا الآن، أحاول أن أرسم بورتريه لذلك الرَّجل المدعوّ واتارو منشكي. الذي يسكن في بيته الأبيض الفخم فوق الجبل المقابل. الرجل الغامض ذو الشعر الأبيض الذي تنتشر الشائعات عنه بين جيرانه. ولا بأس إن قلنا إنَّه مثير للفضول جدًّا. لقد طلبني بالاسم شخصيًّا، واتَّفقنا أن أرسم له البورتريه مقابل مبلغ كبير من المال. ولكنْ، عند هذا الحدّ، اكتشفتُ حقيقة أنَّني غير قادر حتى على رسم البورتريه. لوحةٌ تجاريَّة، ولا أستطيع رسمها بالفعل. يبدو أنَّني بشكلٍ ما أصبحتُ فارغًا من أيّ محتوى.

علينا أن نذهب لزيارته ونحن صامتون، نشقّ طريقنا بين الأعشاب الخضراء واليانعة. طرأت في ذهني تلك الفكرة فجأة، ومن دون أيّ سبب. كم سيكون جميلًا لو أنَّني استطعتُ ذلك حقًّا!

- 11 -
كان القمر يُضيء كلَّ شيء في جمال

أيقظ السكون التامّ عينَيَّ من النعاس. في معظم الأحيان، يحدث أن تستيقظ بسبب ضجَّةٍ مفاجئة تقطع السكون المتواصل. وأحيانًا، يحدث العكس، تستيقظ حين يقطع الصمتُ الضجيجَ المتواصلَ.

استيقظتُ فجأة في منتصف اللَّيل، ونظرتُ إلى الساعة بجوار السرير. كانت الساعة الرَّقميَّة تُظهر الرَّقم 01:45. وبعد التَّفكير قليلًا، أدركتُ أنَّني في ليلة السبت، بمعنى أنَّها الواحدة والدَّقيقة الخامسة والأربعون من صباح يوم الأحد. كنتُ أنا وصديقتي المتزوّجة معًا فوق هذا السَّرير ظهر ذلك اليوم. عادت إلى بيتها قبل الغروب، وتناولتُ وجبة عشاء خفيفة، وبعدها تصفَّحتُ كتابًا لفترة، وخلدتُ إلى النوم بعد العاشرة بقليل. ولطالما كان نومي عميقًا. أغفو بسرعة وأنام من دون تقطّع، وأستيقظ تلقائيًا عند شروق الشمس. ونادرًا ما استيقظتُ في منتصف اللَّيل، هكذا!

حاولتُ أن أفكِّر، وأنا مستلقٍ على جنبي تحت الظلام: لماذا استيقظتُ في مثل هذا الوقت؟ كانت ليلة هادئة كالمعتاد. والقمر أشبَه بالبدر في السَّماء على شكل مرآة دائريَّة عملاقة. ومناظر الأرض تميل إلى اللَّون الأبيض كأنَّها غُسلِت بالجير. لا شيء يخالف المعهود. شنَّفتُ أذنيَّ وأنا جالسٌ على السَّرير، حتَّى اكتشفتُ شيئًا يختلف عن المعتاد: الهدوء الشديد. سكونٌ أعمق من اللَّازم. لا يُسمَع طنين الحشرات على الرَّغم من أنَّها ليلة خريفيَّة. فالبيت مبنيٌّ وسط الجبال، ومن الطبيعيّ أن يعلو طنين الحشرات عند المساء إلى درجة تؤلم الآذان. وتستمرّ تلك الجوقة في الصياح حتَّى ما بعد منتصف اللَّيل. اندهشت بشدَّة عندما عرفتُ ذلك! فقبل انتقالي إلى هناك، كنتُ أظنّ أنَّ الحشرات تهمد في هبوط الظلام. إنَّ شدَّة طنين الحشرات تجعلك تظنّ أنَّها تغزو العالم وتحتلُّه. لكنِّي في تلك اللَّيلة، لم أسمع للحشرات طنينًا. غريبٌ فعلًا!

لم يعد بإمكاني العودة إلى النوم مجدَّدًا. فسلَّمتُ أمري وتركتُ الفراش، وارتديتُ معطفًا خفيفًا من الصوف، وذهبتُ إلى المطبخ. صببتُ من الويسكي الاسكتلنديّ في كأس، ووضعتُ فيها قطعًا من الثلج وشربتُها. ثمّ خرجتُ إلى الشرفة، أتأمَّل البيوت ما بين أشجار الغابة. يبدو أنَّ جميع السكَّان قد ناموا وأطفأوا الأضواء داخل بيوتهم، ولم يتبقّ إلَّا بعض الأنوار الخافتة التي تظلّ مضاءة طوال اللَّيل هنا وهناك. غرقت المنطقة المحيطة ببيت السيِّد منشكي في الظلام أيضًا. وظلّ السكون مسيطرًا. تُرى ما الذي حلّ بالحشرات؟

في تلك الأثناء، لقطت أذني صوتًا لم تعتَد عليه، أو ربَّما توهَّمتُ ذلك. كان صوتًا خافتًا للغاية. لم أكن لأسمعه لو أنَّ الحشرات كانت منهمكة في طنينها المعتاد. فالسكون العميق يجعله واضحًا جدًّا. هدَّأتُ

أنفاسي وأصغيتُ. ليس هذا طنين حشرات. لم تكن الطبيعة هي مصدر الصوت. إنَّه صوتٌ صادر من آلة أو جهاز. يشبه الدقَّات. دقُّ جرسٍ أو شيء مشابه.

كان الصوت آتيًا على فترات. صمتٌ ثمَّ صوتٌ يتلوه صمتٌ فصوتٌ مرَّة أخرى.. وهكذا دواليك. لكنَّ التكرار لم يكن منتظمًا. كانت مدَّة الصَّمت تطول أحيانًا وتقصر أحيانًا أخرى. وكذلك عدد دقَّات الجرس (أو ما يشبه الجرس) يختلف في كلِّ مرَّة. ولم أفهم إذا كان الخلل متعمَّدًا أم عشوائيًّا. على أيِّ حال، كان صوتًا خافتًا حقًّا، لدرجة أنَّني لم أركِّز أعصابي وأُصغِ جيِّدًا. ربَّما لا يمكنني سماعه. ولكنْ بعد أن عرفتُ أنَّه موجود، أمسكَ الصوتُ مجهولُ المصدر بتلابيب أعصابي بشدَّة، في سكون منتصف اللَّيل العميق، تحت ضوء القمر غير الطبيعيّ.

احترتُ فيما ينبغي فعله. لكنِّي تشجَّعتُ أخيرًا، وقرَّرتُ الخروج من البيت لتفقُّد الأمر. كنتُ أريد أن أعرف مصدر الصوت الغامض. على الأرجح، أنَّ شخصًا في مكانٍ ما يدقّ شيئًا ما. لستُ شجاعًا على الإطلاق، لكنِّي لم أخَفْ من الخروج تحت ظلام منتصف اللَّيل وقتها. لقد تغلَّب الفضول على الخوف. وربَّما أعطتني شدَّة ضوء القمر العجيبة دفعةً إلى الأمام.

فتحتُ مدخل البيت، وفي يدي مصباحٌ يدويٌّ كبير، ووضعتُ قدميَّ في الخارج. يلقي المصباح الكهربائيّ المُعلَّق على المدخل ضوءًا أصفر في المكان. وقد جذب ذلك الضوء حوله عددًا من الحشرات ذات الأجنحة. وقفتُ هناك أصغي، محاولًا تحديد جهة مصدر الصوت. كان جَرَسًا بالتأكيد. لكنَّه ليس كأيِّ جرسٍ على ما يبدو. فله وقعٌ أكبر وأصداءٌ أكثر حدَّةً وغير متجانسة. ربَّما كان نوعًا نادرًا من الطبول. فما

هو؟ وأيًّا كان، من يقرع على ذلك الشيء في منتصف اللَّيل، ومن أجل ماذا؟ لم يكن ثمَّة بيوتٌ مسكونة، في تلك الأرجاء، إلَّا البيت الذي أعيش فيه. ما يعني أنَّ أحدًا ما كان يعزف على تلك الآلة الغريبة بعد أن تسلَّل إلى أملاك غيره من دون إذن!

نظرتُ حولي أبحث عن شيء يصلح أن يكون سلاحًا. ولا وجود لشيءٍ كهذا هناك طبعًا. ليس هناك إلَّا المصباح اليدويّ الأسطوانيّ الطويل. لكنَّه أفضل من لا شيء. قبضتُ عليه بقوَّة في يدي اليمنى، ومشيتُ في الاتِّجاه الذي يأتي منه الصوت.

ثمَّة عتباتٌ حجريَّةٌ صغيرة على يمين المدخل. وعند صعود العتبة السابعة تقريبًا، ثمَّة طريقٌ تفضي إلى غابةٍ بريَّةٍ موحشة. وبعد الصعود اليسير على تلك الطريق التي تخترق الغابة، وصلتُ إلى مكان مفتوح بمساحة معقولة، فيه ما يشبه مجسَّم صغير لمعبد عتيق. ووفقًا لما سمعته من ماساهيكو أمادا، يبدو أنَّ المجسَّم موجودٌ هناك منذ زمن. لا يُعرَف له أصل، إلَّا أنَّه عندما اشترى والدُه البيتَ والأراضي المحيطة به من أحد معارفه في منتصف الخمسينيَّات من القرن الماضي، كان مجسَّم المعبد موجودًا في المكان عينه. وهو عبارة عن نموذجٍ خشبيّ ـ أو صندوق خشبيّ متواضع ـ ذي سقفٍ مثلَّثٍ مبنيّ على قاعدةٍ صخريَّةٍ مستوية. يبلغ ارتفاعه ستِّين سنتيمترًا، وعرضه أربعين سنتيمترًا تقريبًا. ولا بدَّ أنَّه كان مطليًّا بلونٍ ما، وقد بَهُتَ فيما بعد لدرجةٍ لا تساعد على تخيُّل اللَّون الأصليّ. وفي الواجهة، بابٌ ينفتح على مصراعَيْه. لا أعرف إن كان يحوي شيئًا في الداخل أم لا. لم أتأكَّد بالفعل؛ لكنِّي رجَّحتُ عدم وجود شيءٍ فيه. وبجانب الباب، هناك ما يشبه المزهريَّة الخزفيَّة البيضاء. كانت فارغةً إلَّا ممَّا يدلّ على

تراكم الأمطار، ثمّ تبخُّرها مُخلِّفةً آثار ذلك. لقد ترك توموهيكو أمادا ذلك المجسّم على حاله، ولم يؤدّ تحيّة الإجلال بيدَيْن مضمومتَيْن إذا مرّ بجانبه، ولم ينظّفه، بل تركه مُهمَلًا تحت رحمة الأمطار والرياح. وربّما كان مجسّم المعبد بالنّسبة إليه مجرّد صندوق خشبيّ لا أكثر! فقد قال لي ابنه: «لم يكن لدى والدي أيّ اهتمامٍ بالعقائد أو الصلوات مطلقًا. لا يأبه بالعقاب الإلهيّ ولا باللّعنات. بل كان يسخر منها، قائلًا إنّها خرافات فارغة. لم يكن متغطرسًا، لكنّه كان ذا فكرٍ ماديٍّ متطرّفٍ لا يتزحزح منذ شبابه المبكّر».

وعندما أراني ماساهيكو البيت للمرّة الأولى، صحبني إلى مجسّم المعبد ليدلّني عليه. «أين ستجد بيتًا مزوّدًا بمجسّم معبد؟» قال ضاحكًا، وكان محقًّا برأيي. ثمّ أضاف: «لكنّني في طفولتي، كنت أشعر بالرُّعب من وجود بيتٍ مزوَّدٍ بمجسّم معبد. فكنت أتجنّب الاقتراب من هذا المكان كلّما أتيتُ للمبيت هنا. ولا أخفيك أنّي، حتّى الآن لا أحبّ الاقتراب منه».

شخصيًّا، لا أميل إلى الفكر الماديّ الخالص، لكنّي مثل والد ماساهيكو، لم أعبأ مطلقًا بوجود ذلك المجسّم الصغير. فالناس في الماضي، كان من عاداتهم بناء مثل تلك الهياكل في أماكن عدّة. تمامًا مثل التماثيل الصّغيرة التي تُنصَب في طرقات القرى والأرياف. ناهيك بأنّ ذلك المجسّم متناسقٌ مع طبيعة منظر الغابة، وكنتُ كثيرًا ما أمرّ من هناك أثناء ممارسة الجرْي حول البيت، لكنّي لم أنشغل به. أي لم أقف عنده بكفَّيْن مضمومتَيْن، ولم أقدّم له العطايا؛ ولم أُنسِبْ أيّ معنى خاصّ لوجوده ضمن نطاق المكان الذي أسكنه. كان مجرّد جزء من منظر معتاد، وقد يكون موجودًا في أيّ مكان آخر.

يبدو أنَّ الصَّوت الشَّبيه بالجَرَس كان نابعًا من محيط مجسَّم المعبد. غَرِق المكان في الظلام كلَّما توغَّلتُ مشيًا تحت أغصان الشجر الكثيف الذي يحجب ضوء القمر. تقدَّمتُ بحَذَر وأنا أُنير موضع قدميَّ بنور المصباح اليدويّ. كانت الرياح تهبّ من وقت إلى آخر كما يحلو لها، فتهيج الأوراق الساقطة المتراكمة تحت الأقدام. تختلف الغابة في اللَّيل عنها تمامًا في النهار، حينما كنت أتنزَّه فيها. يسود الآن منطق اللَّيل فقط. منطقٌ لا يشملني. وعلى الرَّغم من هذا، لم أشعر بالخوف. لقد دفعني الفضول للتقدُّم بلا رهبة. أردت الوصول إلى مصدر الصوت الغريب مهما كلَّفني الأمر. كنت أقبض في يدي اليمنى بقوَّة على المصباح اليدويّ الثقيل، فهدَّأ ثقلُه من روعي.

ربَّما كانت البومة القرناء موجودة في مكانٍ ما من تلك الغابة. ربَّما كانت كامنة فوق غصن شجرة تلتحف بالظلام في انتظار الانقضاض على فريستها. فكَّرتُ في أنَّني أُفضِّل وجودها قريبًا منِّي. فتلك البومة صديقتي بمعنًى ما. لكنِّي لم أسمع ما يدلّ على البوم حينها. حتَّى طيور اللَّيل التزمت الصمت مثل الحشرات.

وكلَّما تقدَّمتُ، ارتفع الصوت الشبيه بالجَرَس وازداد وضوحًا. وصار أكثر استمراريّةً ونشازًا. وبدا لي أنَّه آتٍ من خلف مجسَّم المعبد. وعلى الرَّغم من قربه، ظلّ مكتومًا، كأنَّه ينبع من كهفٍ عميق. وتملَّكني انطباعٌ بأنَّ فترات الصمت أصبحت أطول، وعدد الدقَّات أقلّ كثيرًا. وكأنَّ الشخص الذي يدقّ الجَرَس بات منهكًا.

كان القمر يضيء كلّ شيء في جمال، على مدار تلك المنطقة المفتوحة. درتُ خلف مجسَّم المعبد بخطواتٍ حذرة. فوجدتُ أجمةً من أغصان الشجر الباسق. شققتُ طريقي وسط الأجمة منجذبًا إلى

مصدر الصوت، فعثرتُ على جثوةٍ صغيرةٍ مكوَّنةٍ من صخورٍ مربَّعة ومتراكمة بعشوائيَّة. وقد لا تنطبق عليها تسمية الجثوة حرفيًّا، لكنِّي لم أنتبه إليها في السَّابق، ولم يحدث أن وصلتُ حتَّى هناك. ولم أكن لأراها مطلقًا بأيِّ حال؛ فالجثوة مختفية في عمق أجمة الأغصان. ولا يمكن رؤيتها إلَّا لمن يشقّ طريقه في الأجمة للوصول إليها.

جرَّبتُ أن أسلِّط ضوء المصباح اليدويّ على كلِّ صخرة من تلك الجثوة، واحدة بعد أخرى، عن قرب. كانت الصُّخور قديمة للغاية، وما من شكّ بأنَّ تقطيعها على مربَّعات هو من صنع البشر. لم تكن في هيئتها الطبيعيَّة. كانت منتظمة من حيث الشُّكل والحجم. ولعلَّها قد جيء بها خصِّيصًا إلى هناك، ووُضِعَت على ذلك النَّحو خلف نموذج مجسَّم المعبد عمدًا. أحجامها متنوِّعة، وقد نبت العَفَن الأخضر على أغلبها. والظاهر أنَّه ما من نقوشٍ عليها، لا كلمات ولا رسوم. وعددها الإجماليّ اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة صخرة تقريبًا. وربَّما كانت في الماضي البعيد جثوةً حقيقيَّة أكثر ارتفاعًا وعددًا، وما انخفضت إلَّا بسبب زلزالٍ أو ما شابه. ويبدو أنَّ صوت الجَرَس يتسرَّب من الفراغات التي بين الصخور.

وضعتُ قدمي بحرص فوق الصخور للبحث عن مصدر الصوت. لكنَّ ظلام اللَّيل لم يساعدني على ذلك، رغم اتِّهاج ضوء القمر. وحتى لو حدَّدتُ مصدر الصوت، فما الذي بإمكاني فعله؟ لن أستطيع تحريك تلك الصخور بيديّ.

في أيِّ حال، يبدو أنَّ هناك مَن يهزّ الجَرَس تحت الجثوة. لا شكَّ في ذلك. ولكنْ من عساه يكون؟ بدأ الخوف يتغلغل داخلي، خوفٌ هائلٌ غامض الطبيعة. وكانت الفطرة تنصحني بالابتعاد عن مصدر ذلك الصوت.

فابتعدتُ. سلكتُ طريق العودة وسط الغابة بخطواتٍ متعجِّلة، وأنا أسمع صوت الجَرَس يدقّ خلف ظهري. رسم ضوء القمر المتسلِّل بين الأغصان على جسدي نقاطًا بيضاء، كأنّها تقول شيئًا ما. خرجتُ من الغابة، ونزلتُ الدرجات السبع، ووصلتُ إلى البيت، ودخلتُ وأغلقتُ الباب بالمفتاح. ثمّ هُرِعتُ إلى المطبخ وسكبتُ الويسكي في الكأس، وشربتُ جرعةً واحدةً بلا ثلجٍ أو ماء. واستعدتُ أنفاسي أخيرًا. ثمَّ خرجتُ إلى الشرفة والكأس في يدي.

لا يصل ذلك الصوت إلى الشرفة إلَّا خافتًا ضئيلًا، لدرجةِ انعدامه إذا لم تصغِ إليه. لكنّه ما انفكّ يصدر، وصارت فترات الصمت بين الدّقَّة والأخرى تطول أكثر من ذي قبل. أصغيتُ بعض الوقت إلى ذلك التكرار المتخبِّط بين صوتٍ وصمت!

تُرى، ماذا تحت جثوة الصخور؟ فراغٌ أم كائنٌ محبوس، يواصل دقّ الجَرَس؟ لعلّها إشارة إلى طلب النجدة. لم أتوصَّل إلى تفسيرٍ مقنعٍ، على الرَّغم من التَّفكير مطوَّلًا في الأمر.

كم لبثتُ أفكِّر في ذلك على الشرفة؟ ساعات؟ دقائق؟ لا أستطيع الإجابة أنا نفسي. تلاشى إحساسي بالزمن لشدَّة الدَّهشة. استلقيتُ بعمق على المقعد الطويل في الشُّرفة وكأس الويسكي في يدي، ووعيي يتأرجح جيئة وذهابًا في غياهب التيه، حتَّى انتبهت أنَّ الصوت توقَّف. وساد المكانَ صمتٌ عميق.

نهضتُ ودخلت غرفة النوم، ونظرتُ إلى الساعة الرَّقميَّة. كانت الثانية وإحدى وثلاثين دقيقة. لا أعرف متى صدر الصَّوت أوَّل مرَّة بالضبط، لكنَّني عندما استيقظتُ، كانت الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. فعلى حدّ علمي، استمرَّ صوت دقَّات الجَرَس لمدَّةٍ

تزيد على خمس وأربعين دقيقة. وحين توقّف الصوت الغامض، ارتفع طنين الحشرات كأنّه يبحث عن الصمت الجديد الذي تَولّد في المكان ليملأه. بدا لي أنَّ جميع الحشرات في تلك الجبال كانت تنتظر بفارغ الصبر أن يتوقّف الجَرَس عن الرَّنين، وربَّما كانت تراقبه بحذر بالغٍ وأنفاسٍ مكتومة!

دخلتُ المطبخ وغسلت كأس الويسكي، ثمَّ اتَّجهتُ إلى السَّرير. ووقتها، كانت الحشرات تكرّر اللّحن الصاخب المعتاد. وبرغم انفعالي، غفوتُ سريعًا ما إن استلقيتُ على الفراش، ربَّما كان ذلك مردّه إلى الويسكي المركّز. نومٌ طويلٌ وعميق، حتّى إنّه كان بلا أحلام. وعندما استيقظتُ ثانيةً، كانت الشمس قد أشرقت خلف النافذة.

قبل العاشرة من صباح اليوم نفسه، ذهبتُ مرّة أخرى إلى مجسَّم المعبد الصَّغير في الغابة البرّيّة. لم أسمع الصوت الغامض، لكنّني كنتُ أريد رؤية مجسَّم المعبد وجثوة الصخور بوضوح تحت ضوء الشمس. عثرتُ على عكّاز توموهيكو أمادا المصنوع من خشب البلُّوط الصلد في مشجب المظلّات، فأخذته بيدي ودخلتُ الغابة. كان صباحًا صحوًا منعشًا، ترسم فيه شمس الخريف الرَّائعة ظلالًا متراقصة لأوراق الشجر على الأرض. وتطير الطيور ذات المناقير الحادَّة من شجرة إلى أخرى، منشغلة في البحث عن ثمار الأشجار وهي تزقزق عاليًا. وفوقها سربٌ من الغربان السود تطير باستقامة، نحو مكان ما.

بدا نموذج مجسَّم المعبد قديمًا ومتهالكًا أكثر ممَّا كان عليه في اللّيل. لربَّما أناره البدر بضياءٍ لامع، فاكتسب معنًى عميقًا، إضافةً إلى ملامح شؤم، لكنّه آنذاك بدا مجرَّد صندوق خشبيّ بائس وباهت اللّون.

تجاوزتُه لأشقّ طريقي بين أغصان الغابة الكثيفة، ووصلتُ إلى الجثوة. فتغيَّر انطباعي إزاءها أيضًا. إذ لم تكن في النهار سوى صخورٍ مربَّعةٍ نما عليها العفن، وتعرَّضتْ لإهمالٍ منذ زمن طويل. فيما كانت تحت ضوء القمر متحزِّمةً بالرُّوحانيَّة كأنَّها جزء من آثار تاريخيَّة قديمة. وقفتُ فوقها وحاولت التنصُّت، فلم أسمع شيئًا. كان السكون طاغيًا، ما عدا طنين الحشرات وبعض صيْحات الطيور تُسمع من وقتٍ إلى آخر.

سمعتُ صوتًا مكبوتًا لطلقة بندقيَّة في البعيد. ربَّما هناك من يصطاد الطيور البرِّيَّة في عمق الجبل، أو ما هو إلَّا صوت جهاز آلي يطلق صوتًا كهذا، ويستخدمه الفلَّاحون لإبعاد الطيور والقرود والخنازير البرِّيَّة عن حقولهم. على أيّ حال، تردَّد ذلك الصوت في المكان ليضفي عليه حُلةً خريفيَّة. السَّماء عالية، والهواء يمتلئ بنسبة رطوبة مناسبة، والأصوات تُسمَع جيِّدًا من على بُعدٍ كبير. جلستُ فوق تلك الصُّخور أفكِّر في الفراغ الموجود أسفلها. تُرى، هل هناك كائنٌ محبوسٌ يرنّ جرسًا (أو ما شابه) طالبًا النجدة؟ مثلي، عندما كنتُ أضرب بكلِّ قوَّتي جوانب عربة النقل التي حُبستُ فيها في الماضي مستغيثًا؟ لم أكن مرتاحًا من فكرة وجود كائنٍ محبوسٍ في فراغٍ مظلمٍ وضيِّق!

بعد أن تناولتُ وجبة غداء خفيفة، بدَّلتُ ملابسي بملابس العمل (تلك التي لا ضرر إذا اتَّسخت بالألوان)، ودخلتُ المرسم للعمل مرَّة أخرى على بورتريه واتارو منشكي. كان يجب أن أتحرَّك بلا هوادة، في أيِّ شيء، لأقصي صورة الشخص المحبوس والمخنوق في مكان ضيِّق عن ذهني، وما يجلبه ذلك من حالة اختناق مزمن. وليس أمامي إلَّا رسم اللَّوحة. لكنِّي قرَّرت عدم استخدام قلم الرَّصاص ولا دفتر المسوَّدات. ربَّما لأنَّها لن تفيد بشيء. جهَّزتُ الألوان والفرشاة، ووقفتُ قبالة اللَّوح

مباشرة، أحملق في عمق ذلك الفراغ، وأركِّز وعيي في شخصيَّة واتارو منشكي، منتصبًا، ومركِّزًا عليه لا على أيِّ شيء آخر.

رجلٌ أبيض الشعر متَّقد العينَيْن، يسكن في قصرٍ أبيض فوق الجبل. يعيش ملتزمًا بيته أغلب الوقت، حيث لديه (كما يُقال) «الغرفة التي لا تُفتح»، ويمتلك أربع سيَّارات بريطانيَّة. استحضرتُ من الذاكرة كلَّ ما يتعلَّق به: كيف يأتي إلى بيتي وكيف يحرِّك يدَيْه وكيف تتحرَّك عضلات جسده، الملامح التي تظهر على محيَّاه، مواضيع كلامه، نبرة صوته، نظراته إلى الأشياء. استغرق الأمر بعض الوقت، لكنَّ التفاصيل المتنوِّعة أخذت تتَّحد في ذهني شيئًا فشيئًا. وفي هذه الأثناء، أحسستُ بأنَّ شخصيَّة المدعوِّ منشكي تتركَّب في عقلي بتجسيمٍ وانسجام.

نقلتُ صورة منشكي التي نشأت في ذهني، من دون الاعتماد على المسوَّدات، إلى لوح الرَّسم باستخدام فرشاة رفيعة. كان منشكي الذي برز في ذهني وقتها، يميل بوجهه ناحية اليسار قليلًا. وكانت عيناه تتوجَّهان إليَّ قليلًا. ولا أدري ما الذي دفعني لرسمه من تلك الزاوية بعينها! هكذا، كان وجه واتارو منشكي بالنِّسبة إليَّ؛ مائلًا نحو الجهة اليسرى، وعيناه ترنوان إليَّ قليلًا. أي أنَّني أقع في مجاله البصريِّ. لم أستطع رسم وجهٍ إلّا من تلك الزاوية.

ابتعدتُ قليلًا، وتأمَّلت تركيبة تلك اللَّوحة البسيطة التي رسمتها بخطٍّ واحد على اللَّوح تقريبًا. كانت مجرَّد مسوَّدة، لكنَّ ظلالها تضجّ بروحٍ حيَّة. سينمو فيها شيءٌ ما تلقائيًّا. ولكنْ ما طبيعة ذلك الشيء الذي مدَّ يده إلى وجداني، وأضاء شعلةً مخبَّأة فيه؟ تملَّكني شعورٌ غريب بأنَّ الكائن الحيَّ النائم مدَّة طويلة في أعمق أعماقي، أدرك وصول الموسم الصحيح، فأخذ يتجهَّز للاستيقاظ.

أزلتُ الألوان من الفرشاة، وغسلتها بالزيت والصابون في الحوض. ليس هناك ما يدعو إلى العَجَلة. هذا يكفي اليوم! من الأفضل عدم التسرُّع في العمل. كنت سأملأ تلك الظلال بالشكل المناسب عندما يكون منشكي موجودًا شخصيًّا أمامي. ستكون هذه اللّوحة مختلفةً تمامًا عن كلّ البورتريهات التي رَسَمْتُها من قبلُ. شعرتُ بأنَّني في حاجة إلى وجود صاحبها بشحمه ولحمه أمامي لكي أنجزها.

أمرٌ عجيب!

كيف عرف واتارو منشكي ذلك كلّه منذ البداية؟

استيقظتُ جَفِلًا في تلك اللَّيلة أيضًا. كانت الساعة تشير إلى الواحدة وستّ وأربعين دقيقة. التوقيت نفسه الذي استيقظت فيه ليلة أمس تقريبًا. أنهضتُ جذعي وأنا في الفراش، وأصغيتُ تحت الظلام. لا أسمع طنين الحشرات. السكون يملأ الكوْن. وكأنَّني في قاع بحرٍ عميق. كان كلُّ شيء تكرارًا لليلة السَّابقة. الظلام الدامس خلف النافذة؛ هذا هو الفرق الوحيد عن البارحة. إذ غطَّت الغيوم الكثيفة السَّماء، فحجبت بدر الخريف تمامًا.

ساد الهدوء الكامل على المكان. لا، أبدًا. لم يكن الهدوء كاملًا. فعندما كتمتُ أنفاسي وأصغيتُ جيّدًا، تناهى إلى مسامعي رنين الجَرَس الخافت، كأنّه يتسلَّل وسط ذلك الهدوء السَّميك. أحدهم يرنّ ما يشبه الجَرَس في منتصف اللَّيل. رنينٌ متقطّعٌ كما في اللَّيلة السَّابقة، مرَّة بعد مرَّة. كنتُ أعلم مصدر الصوت، آتيًا من تحت جثوة الصخور التي في الغابة. لا ضرورة للتأكُّد. ما لا أعرفه هو: من يرنّ الجرس؟ ولماذا؟ نهضتُ عن الفراش متَّجهًا إلى الشرفة.

انعدمت الريح، وهطل مطر خفيف. كان مطرًا ناعمًا تراه العين بالكاد، ولا صوت له، لكنّه يبلّل الأرض. أنوار بيت منشكي مضاءة. لا يمكن رؤية ما في الداخل من تلك المسافة البعيدة، إلّا أنّه يبدو مستيقظًا هذه اللّيلة. وكان من النادر أن تبقى الأنوار مضاءة حتّى ذلك الوقت المتأخّر من اللّيل. أصغيتُ إلى رنين الجَرَس الخافت وأنا أتأمّل تلك الأنوار، ورذاذ المطر يبلّلني.

ثمّ اشتدّت قوّة الأمطار، فرجعتُ إلى غرفة المعيشة وجلست على أريكة، أقلّب صفحات الكتاب الذي كنت أقرأه كلّما أصابني الأرق. لم يكن الكتاب صعبًا على القراءة، لكنّي لم أستوعب ما جاء فيه رغم كلّ محاولات التّركيز. كنتُ أتتبّع الكلمات من سطر إلى سطر. وإنّ هذا أفضل من عدم فعل شيء والاستماع إلى صوت الجَرَس فقط. كان بوسعي تشغيل الموسيقى بأعلى صوتٍ يطغى على ذلك الرّنين، لكنّي لم أشأ. لا ينبغي تجنُّب ذلك الصوت، لأنّه كان موجّهًا إليّ على وجه الخصوص. كنتُ متأكّدًا. لن يتوقّف أبدًا ما لم أفعل حياله شيئًا ما. سيستمرّ كلّ ليلة في تكدير أنفاسي وسلب النوم الهادئ من عينَيّ.

عليّ أن أفعل شيئًا ما. أن أتّخذ إجراءً يوقِف ذلك الصوت. لذا عليّ إدراك معنى الصوت ـ أي نوع الإشارة المرسلة ـ وهدفه. من يُرسل إليّ كلّ ليلة إشارةً من مكانٍ مجهول؟ ولماذا؟ ما أصعب التّفكير ووضع تسلسلٍ منطقيّ! عقلي مشوّش للغاية. لن أستطيع حلّ المشكلة بمفردي. لا بدّ أن أستشير أحدًا ما. لم يخطر في بالي إلّا شخصٌ واحد.

خرجتُ إلى الشرفة ثانيةً، ونظرتُ في اتّجاه بيت منشكي. كانت الأنوار قد أُطفئت، وظلّت بعض أضواء الحديقة الخافتة حول البيت.

توقَّف صوت الجَرَس في الثانية وتسع وعشرين دقيقة، في توقيت البارحة نفسه تقريبًا. وما لبث أن عاد طنين الحشرات بعد توقُّف الرَّنين المتقطِّع، وامتلأ ليل الخريف ثانيةً بتلك الجوقة الصاخبة، كأنَّ شيئًا لم يقاطعها. حدث كلُّ شيء بالتَّرتيب نفسه.

دخلت الفراش، وغفوتُ وأنا أستمع إلى طنين الحشرات. كنت في حيرة، لكنَّ النُّعاس زارني فورًا، مثل اللَّيلة السَّابقة.. وغرقتُ في نومٍ عميقٍ بلا أحلام.

- 12 -
مثل ساعي البريد المجهول

هطلت الأمطار في ساعة مبكّرة من الصباح، ثمّ توقّفت قبل العاشرة. فأظهرتِ السماء بعدئذٍ وجهها على استحياء. وحملتِ الرّيح الرّطبة القادمة من المحيط الغيومَ نحو الشمال ببطء. وفي الواحدة تمامًا بعد الظهر، جاء منشكي إلى بيتي. طرق الباب في اللّحظة نفسها التي كان فيها الراديو ينطق بالساعة. كثيرٌ من الناس يحترمون المواعيد، لكنَّ القليل منهم يلتزم بالوقت التزامًا دقيقًا. لم يقف خلف الباب متتبّعًا عقرب الثواني في ساعة يده بانتظار قدوم الوقت لرنّ الجرس؛ بل صعد المنحدر ورَكَن السيّارة في المكان المعتاد، ومشى على وقْع خطواته نفسها حتى المدخل، وضغط على الجرس في اللّحظة التي أعلن فيها الرّاديو أنَّ الساعة هي الواحدة بالضبط. تزامنٌ مبهر.

رافقته إلى المرسم، وأجلسته على كرسيّ المائدة مثل المرّة السّابقة. ثمّ وضعت أسطوانة LP «فارس الورود» لريتشارد شتراوس

على الدوَّارة وأسقطتُ الإبرة. كانت تكملة ما كنَّا قد سمعناه في المرَّة السَّابقة. وكانت جميع خطواتنا تكرارًا للمرَّة السَّابقة. الفرق الوحيد أنَّني لم أعرض عليه ما يشربه. وطلبت منه أن يتَّخذ وضعيَّة الموديل: أي أن يبقى جالسًا، بانحناءٍ إلى جهة اليسار، وأن تبقى أنظاره موجَّهة عليَّ.

فَعَلَ ما طلبتُه برحابة صدر، لكنَّنا استغرقنا وقتًا في الثبات على الوضعيَّة المطلوبة. والسَّبب، أنَّ الزاوية والنظرة لم تتوافقا بالضبط مع ما كنتُ أريده. وكذلك موضع سقوط أشعَّة الضوء لم يتوافق تمامًا مع الصُّورة التي تخيَّلتها. فأنا في المعتاد لا أرسم أحدًا بوضعيَّة الموديل، لكنِّي، إذا فعلتُها أكثرتُ من طلباتي. إلَّا أنَّ منشكي تحمَّل طلباتي المزعجة، ولم يُظهِر أيَّ استياءٍ على وجهه، ولم يتبرَّم مرَّة واحدة. وبدا لي أنَّ لديه خبرة طويلة بتحمُّل أنواعٍ متنوِّعة من الممارسات الشاقَّة.

وبعد أن تقرَّر المكان والوضعيَّة أخيرًا، قلتُ له: «أعتذر جدًّا، أرجو منك البقاء كما أنت من دون حركة بقدر الإمكان».

لم يقل منشكي شيئًا، لكنَّه غمز بعينه موافقًا.

«سأحاول الإنجاز بأسرع ما يمكن. ربَّما كان الأمر شاقًّا قليلًا، لذا أرجو منك الصبر».

فوافق منشكي بعينيْه فقط مرَّة أخرى، ثمَّ لم يحرِّكهما بعد ذلك البتَّة. ولم تتحرَّك أيِّ عضلة من عضلاته حرفيًا. كان يطرف جفنه من وقت إلى آخر بطبيعة الحال، لكنَّه لم يعطِ أيَّ إحساس ظاهر على أنَّه حتَّى يتنفَّس. كان ثابتًا في ذلك المكان كأنَّه نحتٌ حقيقيّ. ولا يمكن إلَّا الإعجاب بقدرته تلك؛ فحتى المحترفون في مهنة الموديل، لا يستطيعون الوصول إلى ذلك المستوى.

وبينما كان منشكي صابرًا على وضعيَّته تلك، كنتُ أتقدَّم بالعمل بحركات سريعة وواثقة. كنت آخذ مقاسات وجهه بعينيَّ، بتركيز كبير، ثمَّ أنقلها بالفرشاة إلى اللَّوح بما يقتضيه حدْسي. استخدمتُ اللَّون الأسود لتظليل المسوَّدة، مضيفًا تفاصيل الوجه الضروريَّة بفرشاة رفيعة. إذ لم يكن لديَّ متَّسع من الوقت لتغيير الفرشاة. عليَّ أن أنقل ملامح وجهه الأساسيَّة كما هي في الواقع إلى البورتريه. وفي لحظة معيَّنة، تحوَّلَ عملي إلى ما يشبه عمل الطيَّار الآليّ تقريبًا: الرَّبط بين حركة العينَيْن واليدَيْن مباشرة من خلال تحويلة الوعي. فلم يكن بوسعي أن آخذ بعين الاعتبار كلَّ التفاصيل الماثلة في المجال البصريّ.

كانت تلك الطلبيَّة مختلفة عن جميع اللَّوحات التي طُلِبتْ منِّي حتى ذلك الحين، فتلك كنتُ أرسمها على أنَّها عملٌ تجاريّ، مستندًا إلى وتيرتي الخاصَّة، ومعتمدًا على ذاكرتي وبعض الصُّور الفوتوغرافيَّة. استغرقتُ خمس عشرة دقيقة تقريبًا. رسمتُ هيئته من الصدر فما فوق على اللَّوح. كانت ما تزال مسوَّدة أوَّليَّة بشوائب كثيرة، لكنَّ الحيويَّة كانت تدبُّ فيها. وكان الشكل يوحي بما يشبه الإيقاع الباطنيّ للسيِّد واتارا منشكي؛ وكأنَّه موجودٌ هناك حقيقةً. أمَّا من الناحية التجسيديَّة، فكانت ما تزال هيكلًا عظميًّا وملامح عضليَّة فقط؛ أي أنَّ الجزء الداخليّ للجسم كان مكشوفًا جدًّا، وعليَّ أن أغطِّيه فعليًّا.

«شكرًا. لقد أتعبتك معي. بإمكانك أن تستريح. لقد أنهينا عمل اليوم» ـ قلت له.

ابتسم منشكي واسترخى. ثمّ مطّ ذراعَيْه إلى أعلى، وسحب نفَسًا عميقًا. وبعد ذلك، أخذ يدلِّك بكلتا يديْه عضلات وجهه التي تصلَّبت. أمَّا أنا، فكنتُ ألتقط أنفاسًا عميقة؛ وأخذت وقتًا لإعادة تنظيم التنفُّس.

كنتُ مرهقًا كعدَّاءٍ أنهى سباق المائة متر توًّا، إذ كنت أعمل على اللَّوحة بسرعةٍ وتركيز لا يقبلان حلًّا وسطًا، الأمر الذي أفعله منذ وقت طويل. استوجب ذلك إيقاظ عضلاتٍ نائمة لفترة طويلة، وتحريك كامل طاقتها. تعبتُ إذن، لكنّي كنتُ أشعر بما يشبه المتعة الجسديَّة أيضًا.

«كنتَ محقًّا في القول إنَّ مهنة الموديل شاقَّةٌ جدًّا. لم أكن أتوقَّعها بهذه الصعوبة! لديَّ انطباعٌ بأنَّ جزءًا منّي يؤخذ تدريجيًّا منّي»، قال منشكي.

«لا يؤخذ؛ بل يُنقَل إلى مكان آخر. وهذا تعريفٌ جميلٌ للفنّ برأيي».

«هل ينتقل إلى مكان أكثر ديمومة؟»

«بالتأكيد. إذا كان البورتريه عملًا فنّيًّا».

«مثل ساعي البريد المجهول الذي خلَّده ڤان غوخ داخل لوحته؟»

«بالضَّبط».

«لكنَّه، بالتأكيد، لم يخطر على باله مطلقًا أنَّ الناس، بعد مائة عام وأكثر، سيتوجَّهون من جميع أنحاء العالم إلى متحفٍ، أو سيفتحون كتب لوحات ڤان غوخ، كي يتأمَّلوا رسمته الخالدة».

«لا شكَّ في ذلك. لم يكن ليتخيَّل الأمر إطلاقًا».

«بل كان يرى اللَّوحة على أنَّها غريبة، رُسِمت في ركنٍ من مطبخٍ ريفيّ بائس، على يد رسّامٍ غريب الأطوار».

وافقتُه القول.

«إحساسٌ عجيبٌ نوعًا ما، تابع منشكي. شخصٌ ليس لديه أيّ مؤهِّلٍ للخلود، تقوده الصدفة إلى لقاءٍ، تكون نتيجته أنَّه يحصل على الخلود».

«لكنّ هذا الأمر لا يحدث إلَّا نادرًا جدًّا».

تذكَّرتُ فجأة لوحة «مقتل الكومنداتور». ففيها أيضًا، يحصل الكومنداتور العجوز، بفضل توموهيكو أمادا، على الخلود في تلك اللّوحة. ولكنْ، من هو الكومنداتور هذا؟

عرضتُ على منشكي القهوة، فوافق بسرور. ذهبتُ إلى المطبخ وحضَّرتُ قهوة جديدة. جلس منشكي على الكرسيّ في المرسم يصغي إلى الأوبرا. وعندما انتهى الوجه الثاني من الأسطوانة، كانت القهوة قد جَهُزَتْ، فانتقلنا إلى غرفة المعيشة لنشربها.

سألني وهو يرتشف القهوة بطريقته الراقية: «ما رأيك؟ هل أمور البورتريه على ما يرام؟»

فأجبتُ بصدق: «لا أعلم بعد. لا أستطيع الحكم على الأمر الآن. فقد انتهجتُ في هذا العمل طريقةً مختلفة كليًّا عن طريقتي المعتادة».

«أي أنّك لستَ معتادًا على رسم الشخص حيًّا، أليس كذلك؟»

«هذا أحد الأسباب، لكنَّه ليس الوحيد. يبدو أنَّني لم أعد قادرًا على رسم «بورتريه» بالشّكل التّقليديّ كما كنتُ أفعل دومًا. لذا، أنا بحاجةٍ لاستخدام منهج جديد وخطوات عمل بديلة. وهو منهجٌ لست ضليعًا به كفاية. إنّني كمن يمشي متلمّسًا طريقه تحت الظلام الدامس».

«بمعنى ذلك أنّك الآن في طور التغيير حقًّا، وأنّني أمثّل عنصر التحفيز لذلك التّغيير. هل هذا ما تقصده؟»

«ربّما كان الأمر كذلك بالفعل».

ظلّ منشكي يفكّر. ثمّ قال: «كما أخبرتك في السّابق. لك مطلق الحرّيّة في الرّسم مهما كانت النتيجة. فأنا أبحث عن التّغيير دومًا. لذا، لا أودّ الحصول على لوحة بورتريه مبتذلة. لا أمانع في أيّ طراز أو

مفهوم أو فكرة. كلّ ما أطلبه هو صورتي التي تراها أنت بعينَيْك. أريد أن تضعها كما هي في إطار لوحة فنيّة. ولك مطلق الحرّيّة في اختيار الطريقة والخطوات. لا أرغب في أن يُخلَّدَ اسمي في التاريخ مثل ساعي بريد مدينة آرل. لا أملك طموحًا إلى هذا الحدّ. لديَّ فضولٌ صحّيٌّ فقط، فضولٌ بمعرفة لوحتي إذا خلقتْها ريشةُ كريشتك».

«هذا يُسعدني. لكنّي، والحال هذه، لا أرجو إلّا شيئًا واحدًا: إن لم أقتنع أنا نفسي باللَّوحة، فسنلغي الأمر برمّته مع خالص اعتذاري».

«تقصد أنَّك لن تسلّمني اللَّوحة؟»

أومأتُ بنعم، وقلتُ: «تمامًا، وحينها سأعيد لك العربون بأكمله».

«موافق. سأترك لك القرار في هذا. لكنّي أتوقَّع بقوَّة شديدة أنَّنا لن نصل إلى تلك الحالة أبدًا».

«وأنا أتمنَّى أن يكون توقُّعك في محلّه».

قال وهو ينظر إلى عينَيَّ مباشرة: «اعلمْ أنَّه حتَّى في حال لم تكتمل اللَّوحة، فإنَّني سأكون سعيدًا، لأنّي ساعدتُ في تغييرك. هذا وحده كافٍ لأن أكون مسرورًا. وأنا صادق في هذا».

التزمتُ الصَّمت قليلًا، ثمَّ قلت له: «بالمناسبة، يا سيّد منشكي، أريد أن أستشيرك في أمرٍ ليس له شأن باللَّوحة. أمر شخصيّ».

«كلّي آذان مصغية. إن كان بوسعي مساعدتك، فسأكون سعيدًا جدًّا».

تنهَّدتُ، وقلتُ: «إنَّها حكاية غريبة للغاية. ربَّما لا أستطيع شرحها بالكلمات من البداية للنهاية في ترتيب مُحْكمٍ».

«اروها بتأنٍّ، بالطريقة التي تناسبك. ثمَّ نفكّر في الأمر معًا. ربَّما إذا وحَّدنا قوانا توصَّلنا إلى فكرة صائبة».

رويتُ ما حصل منذ البداية بالتَّرتيب: استيقاظي قبل الثانية ليلًا، وسماعي لذلك الصوت الغريب في الظلام. صوتٌ خافتٌ وبعيد يعقب توقُّف الحشرات عن الطنين؛ كأنَّ شخصًا ما يرنّ ما يشبه الجَرَس. وعندما تتبّعتُ أثر ذلك الصَّوت، عرفتُ أنَّه آتٍ من بين فراغات صخور الجثوة التي في قلب الغابة، خلف البيت. يستمرّ الصوت الغامض مدَّة خمس وأربعين دقيقة مع فترات صمت غير منتظمة، ثمَّ يتوقَّف أخيرًا. تكرَّر الأمر ليلتَيْن متتاليتَيْن، أمس وأوَّل أمس. ربَّما ثمَّة مَن يرسل نداء استغاثة من تحت الصخور بذلك الرَّنين! فهل هذا أمرٌ معقول؟ لم أعد أثق بنفسي، هل أنا بكامل قواي العقليَّة؟ تُرى.. هل ما أسمعه بأذنيَّ مجرَّد صوت وهميّ؟

ظلّ منشكي يصغي من دون أن يقاطعني بكلمة واحدة. وظلّ صامتًا بعدما أنهيتُ الحديث. تبيَّنتُ من ملامح وجهه أنَّه كان يستمع بجدِّيَّة، وكان آنذاك يفكِّر بعمق.

«حكايةٌ تثير الفضول العميق»، قال ثمَّ سعل قليلًا، وأكمل: «حقًّا كما قلت، يبدو الأمر غير طبيعيّ. حسنًا... أريد أن أستمع إلى ذلك الصوت بأذنيّ، إن أمكن. هل تمانع إن أتيتُ إلى هنا هذه اللَّيلة؟»

قلتُ متعجِّبًا: «هل تأتي خصِّيصًا في منتصف اللَّيل من أجل ذلك؟»

«بالتأكيد. إن سمعتُ الصوت أنا أيضًا، فهذا دليل على أنَّه ليس صوتًا وهميًّا خاصًّا بك. هذه أوَّل خطوة. وبعد أن نتأكَّد، سنبحث عن مصدره معًا. ثمَّ نفكِّر بما يجب فعله».

«بالطبع، تقول ولكن...»

«إن كان ذلك لا يزعجك، سآتي اللَّيلة في الثانية عشرة والنصف. هل توافق؟»

«بالتَّأكيد، لا مانع لديَّ. إن تطوَّعتَ من أجلي ربَّما...»

أظهر منشكي على وجهه ابتسامةً بإحساسٍ عذب، وقال: «لا تشغل بالك. إن كان بوسعي مساعدتك فسأكون سعيدًا. أضف إلى ذلك، أنّني ذو فضولٍ قويّ. أودّ حقًّا أن أعرف معنى صوت الجَرَس الذي يرنّ في منتصف اللّيل. ومَن عساه الرجل الذي يرنّ؟ ما رأيك؟»

«بالتّأكيد. أنا لديّ الفضول نفسه أيضًا».

«اتّفقنا. سأتي اللّيلة إلى هنا. لديّ فكرة ما».

«فكرة؟»

«سنتحدّث بها لاحقًا. فثمّة ما يجب أن أتأكّد منه قبل ذلك».

نهض منشكي من على الأريكة، ونصب ظهره باستقامة، وبسط يده اليمنى أمامي، فقبضتُ على تلك اليد. كان سلامًا قويًّا، كما هو متوقَّع. حتّى إنّه بدا سعيدًا أكثر من المعتاد.

بعد أن خرج، أمضيتُ ظهيرة ذلك اليوم واقفًا في المطبخ أُعِدُّ الطعام. فأنا أعدُّ طعام الأسبوع مرّة واحدة، وأحفظ ما أُعِدُّه في الثلّاجة أو مجمّدًا، وأعيش مدّة أسبوع كامل على الطعام الذي أعددته. فكان ذلك اليوم هو يوم إعداد طعام الأسبوع. تناولت في المساء معكرونة مع المقانق المسلوقة والباذنجان. وأكلت سلطة طماطم بالبصل والأفوكادو. وعندما حلّ اللّيل، استلقيتُ على الأريكة كالعادة، أقرأ كتابًا وأستمع إلى الموسيقى. ثمّ توقّفتُ عن القراءة، ورحتُ أفكّر في أمر منشكي.

تُرى لماذا كان سعيدًا إلى تلك الدّرجة؟ هل مساعدته لي تسعده حقًّا؟ ولماذا؟ لم أفهم السّبب. فأنا مجرّد رسّام فقير مجهول. تركتني زوجتي التي عشتُ معها ستّ سنوات، وعلاقتي بوالدَيّ سيّئة، لا أملك مكانًا أسكن فيه، وليس لديّ ما يشبه الثروة، وسمح لي صديقي بالإقامة المؤقّتة في بيت والده لحراسة البيت في غياب ساكنيه. وبالمقارنة (ولا

داعي للمقارنة أصلًا)، منشكي نجح في أعماله أثناء شبابه، لديه ثروة يعيش بها طويلًا بلا معاناة، أو هذا ما قاله بلسانه على الأقلّ. ملامح وجهه حسنة، ويمتلك أربع سيَّارات بريطانيَّة، وتقريبًا لا يعمل، بل يعيش حياته مرفَّهًا في بيتٍ فوق قمَّة جبل. تُرى! لماذا يحمل رجلٌ مثله فضولًا تجاهي؟ لماذا يفسح من أجلي وقته في منتصف اللَّيل؟

هززتُ رأسي وعدتُ إلى القراءة. فلا جدوى من التَّفكير في الأمر، لن أخرج بنتيجة مهما فكَّرت، كأنِّي أحاول حلَّ بازل ناقصة القِطَع من الأصل. ولكنْ، لا أستطيع إلَّا أن أفكِّر. أطلقتُ تنهيدة، ووضعتُ الكتاب مرَّة أخرى فوق الطاولة، وأغمضتُ عينَيّ، وأصغيتُ إلى موسيقى الأسطوانة: الرُّباعيَّة رقم 15 لشوبرت، بأداء بيت الوتريَّات في ڤيِنّا.

منذ أن أقمت هنا، أستمع يوميًّا إلى موسيقى كلاسيكيَّة. وإذ فكَّرت في ذلك، وجدتُ أنَّ غالبيَّة الموسيقى التي أستمعُ إليها موسيقى ألمانيَّة (أو نمساويَّة). لأنَّ الموسيقى الألمانيَّة وروافدها احتلَّت أكثريَّة مختارات تومو هيكو أمادا الموسيقيَّة. وما كانت أعمال تشايكوفسكي ورحمانينوف وفيفالدي وسيبيليوس وديبوسي وراڤل هناك إلَّا على سبيل المجاملة. ولأنَّه مولع بالأوبرا، فهناك أعمال ڤيردي وبوتشيني كاملة بالتَّأكيد. لكنَّك، إذا قارنتَها بمجموعات الأوبرا الألمانيَّة الكاملة، شعرتَ بأنَّها لم تُوضَع هناك بالحماسة الكافية.

يبدو أنَّ ذكريات فترة الدراسة في ڤيِنّا كان لها تأثيرها في تومو هيكو أمادا. وربَّما هذا ما جعله يفتتن بالموسيقى الألمانيَّة. أو العكس: أي أنَّه كان يهوى الموسيقى الألمانيَّة أساسًا، وهذا ما دفعه لاختيار ڤيِنّا للدراسة، لا فرنسا أو غيرها. لا أعلم أيُّهما السَّابق على الآخر! وفي كلتا الحالتَيْن، لستُ في وارد الشكوى من تحوُّلي إلى الشغف بالموسيقى الألمانيَّة في

هذا البيت. فأنا مجرّد حارس، يستخدم الأسطوانات الموجودة هنا من كرم أخلاقهم ليس إلَّا. ثمَّ إنّني أستمتع بموسيقى باخ وشوبرت وبرامس وشومان وبيتهوڤن، ناهيك عن موتسارت. كانت موسيقاهم عظيمة وذات عمق وجمال، ولم تُتح لي فيما مضى فرصة الاستماع إلى هذا النوع من الموسيقى بهدوء وروِيّة. فلطالما كان العمل اليوميّ يشغل وقتي بأكمله، فضلًا عن شحّ قدرتي الاقتصاديَّة. هذا ما جعلني أقرِّر استغلال الفرصة للاستماع إلى كلّ أسطوانات الموسيقى التي كانت هناك.

غفوتُ قليلًا بعد الساعة الحادية عشرة فوق الأريكة؛ مدَّة عشرين دقيقة تقريبًا، في أثناء استماعي إلى الموسيقى. وعندما استيقظتُ، كانت الأسطوانة قد انتهت بالفعل، وعادت ذراعها إلى موضعها الأصليّ، وتوقَّفت الدوَّارة. في غرفة المعيشة، ثمَّة جهازان لتشغيل الأسطوانات، أحدهما آليّ يرفع الإبرة تلقائيًا، والآخر تقليديّ يعمل يدويًا. وكنت غالبًا ما أستعمل الآليّ، من باب الأمان ـ بمعنى أنَّه يمكنني النوم في أيِّ وقت. وضعتُ أسطوانة شوبرت في غلافها، وأعدتُها إلى مكانها على الرفّ المخصَّص. كان طنين الحشرات في الخارج يعلو ويدخل من النافذة التي تركتها مفتوحة طوال الوقت. الحشرات تطنّ: هذا يعني أنَّ رنين الجَرَس لم يصدر بعد.

سخَّنتُ القهوة في المطبخ، وأكلت قليلًا من البسكويت. ثمَّ أصغيتُ إلى جوقة الحشرات الصاخبة التي تغطّي المنطقة حول الجبل. مرَّت على امتداد النافذة الزجاجيَّة الأضواءُ الأماميَّةُ الصَّفراء لسيَّارةٍ تغيِّر اتِّجاهها. انطفأ المحرّك كالمعتاد، وسمعتُ صوت إغلاق باب السيَّارة القاطع الذي سمعته دائمًا. هدأتْ أنفاسي وأنا أشرب القهوة جالسًا على الأريكة، بانتظار أن يُطرَق الباب.

- 13 -
حتَّى الآن، مجرَّد فرَضِيَّة

جلسنا على الأرائك في غرفة المعيشة، نحتسي القهوة ونتجاذب أطراف الحديث في انتظار اللَّحظة الحرجة. كانت الأحاديث معتادةً في البداية، وبعد أن ساد الصمت لفترة، سألني منشكي بنبرة حياء، لكنَّها واضحة وحاسمة.

«هل لديك أطفال؟»

انتابتني الدَّهشة قليلًا عند سماع السُّؤال. لم يكن منشكي يبدو من ذلك النوع من الناس الذين يسألون محدِّثيهم ـ في مرحلة التعارف العامّة ـ أسئلة حميمة كتلك. بل كنتَ لتنتظر من شخصٍ مثله كلامًا متحفِّظًا، مثل: «لن أتدخَّلَ مطلقًا في حياتك الشَّخصيَّة، فأرجو ألَّا تتدخَّل في حياتي»، أو هذا ما فهمتُه على الأقلّ. لكنِّي، إذ رفعتُ وجهي ونظرتُ إلى عينَيْه الجادَّتيْن، أدركتُ أنَّ السُّؤال لم يخطر على باله فجأةً من دون تفكيرٍ مسبق. يبدو أنَّه كان يريد أن يطرحه منذ وقتٍ طويل.

«كنتُ متزوّجًا مدّة ستّ سنوات تقريبًا. ولكنْ لا، ليس لديَّ أطفال» ـ أجبتُ.

«لم تكونا تريدان إنجاب الأطفال؟»

«كان الأمر سيّان بالنّسبة إليّ. لكنّ زوجتي كانت مصمّمة على عدم الإنجاب»، قلت متعمّدًا من دون توضيح السّبب؛ إذ لم أكن واثقًا من أنّه سببٌ حقيقيّ أم لا.

وبدا أنّ منشكي احتار قليلًا، ثمّ حسم أمره، وقال: «اعذرني إن كان السّؤال غير لائق، ولكنْ هل فكّرت مرّةً في احتمال أن تنجب امرأة أخرى طفلًا منك، من دون علمك؟»

نظرتُ إليه مرّة أخرى مستغربًا. يا له من سؤالٍ غريب! فتحتُ عددًا من أدراج الذاكرة، وبحثتُ فيها. للفضول فقط! لكنّي لم أجد أيَّ احتمال لحدوث أمرٍ كذلك إطلاقًا. لم أقم علاقات جنسيَّة بعددٍ كبير من النّساء إلى هذا الحدّ حتّى الآن. ولو حدث الأمر فرضًا لوصلني الخبرُ بطريقةٍ ما بالتأكيد.

«من الوارد نظريًّا طبعًا، ولكنْ في الواقع، إن فكّرنا منطقيًّا، فهذا الاحتمال غير موجود».

«فهمت»، قال.. واحتسى من قهوته بهدوء، وما زال يفكّر بعمق.

فعزمتُ أمري، وسألته: «ولكن لماذا تسألني مثل هذا السّؤال؟»

ظلّ يتأمّل المنظر خارج النافذة صامتًا. كان القمر ظاهرًا هناك. لم يكن بشدّة الإضاءة المذهلة التي كان عليها أوّل أمس، لكنّها كانت كافية. وفي السّماء، تتدفّق غيومٌ أصبحت قطعًا متناثرة ببطء من البحر في اتّجاه الجبل.

وتكلَّم أخيرًا.

«أنا لم أتزوَّج قطّ، كما أخبرتك سابقًا. بقيتُ أعزب حتَّى هذه السنّ. وكان لانشغالي في العمل على الدوام سببٌ في ذلك. لكنَّ السَّبب الرَّئيس هو أنَّ العيش مع شخص آخر لا يتلاءم وطريقة حياتي وشخصيَّتي. ربَّما أبدو وكأنَّني أحاول تجميل المسألة، لكنَّني لا أستطيع إلَّا أن أعيش وحيدًا، بما في الأمر من سلبيَّات وإيجابيَّات. وليس لديَّ أدنى اهتمام بما يُسمَّى صلة الدم. لم أرغب البتَّة في أن يكون لي ذرِّيَّة. فضلًا عن وجود سببٍ شخصيّ جدًّا، يرجع إلى البيئة الأُسريَّة التي نشأتُ فيها طفلًا».

توقَّفَ عند هذا الحدّ، وأخذ نَفَسًا عميقًا، ثمَّ أكمل:

«لكنِّي، منذ عدَّة أعوام، صرت أفكِّر في احتمال أن يكون لي طفل. أو بالأحرى أنَّني وُضعت في ظروفٍ اضطرَّتني إلى هذه الفكرة».

التزمتُ الصمت منتظرًا منه مواصلة الحديث.

فقال، وهو يُبرِز على شفتَيْه ابتسامة ذابلة جدًّا: «إنَّني مستغربٌ جدًّا من فتح موضوعٍ شخصيٍّ كهذا معك، وأنت الذي عرفتُك منذ فترة قصيرة».

«ليس لديَّ أيُّ مانع، إن كنتَ تفضِّل الحديث يا سيِّد منشكي».

لا أدري لماذا! لكنَّني، ومنذ أن كنت صغيرًا، اعتدتُ أن يثق بي أناسٌ أعرفهم للتوّ. ربَّما أمتلك بالفطرة مقدَّراتٍ تجعلهم يبوحون لي بأسرارهم. أو ربَّما لمجرَّد أنَّني أبدو مستمعًا جيِّدًا. بأيِّ حال، لا أذكر أيَّ فائدةٍ جنيتُها من ذلك، فالناس بعد أن يُطلعوني على أسرارهم، يندمون.

«هذه هي المرَّة الأولى التي أتحدَّث فيها بالأمر على مسامع أحد» - قال منشكي.

أومأتُ لكي يتابع. فغالبًا ما يطلعونني على الشيء نفسه تقريبًا.

بدأ منشكي يحكي: «حدث ذلك قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا. كنت على علاقة حميمة بامرأةٍ ما. وكنت وقتها في النصف الثاني من ثلاثينيّات عمري، وكانت هي امرأة جميلة في منتهى الجاذبيّة، في النُّصف الثاني من عشرينيّات عمرها. وكانت ذكيّة جدًّا أيضًا. وكنت متعلِّقًا بها، لكنّني، منذ البداية أبلغتُها صراحةً بانعدام احتمال الزواج. قلت لها إنّني لن أتزوّج من أيّ امرأة أيًّا كانت. لم يكن بودّي أن أجعلها تتأمّل ثمّ أخيّب آمالها. فقلت لها إنْ أحببتِ الزواج برجلٍ آخر، فسأنسحب بلا اعتراض. وقد تفهّمتْ رغبتي تلك. وسارت علاقتنا سيرًا جيّدًا لسنتَيْن ونصف السنة تقريبًا، وكنّا نحبّ بعضنا بعضًا. ولم نتعارك مطلقًا، حتى بالكلام. وذهبنا معًا في رحلات إلى أماكن متنوّعة. وكثيرًا ما كانت تبيت في شقّتي. لذا، كانت الشقّة تغصّ بأمتعتها وملابسها».

صمت طويلًا، ثمّ أكمل حديثه:

«لو كنتُ إنسانًا عاديًّا، أو أقرب ما يكون للإنسان العاديّ، لتزوّجتها من دون تردُّد. ولا أُنكر أنّ الفكرة أغرتني، ولكن...» ـ صمت هنا لحظة وتنهّد تنهيدة خافتة، ثمّ أكمل ـ «ولكنّي اخترتُ حياتي الرتيبة والوحدانيّة التي أعيشها الآن، في حين اختارت نمط الحياة الصحّيّة، أي أنّها قرّرت الزواج من رجلٍ أقرب إلى الإنسان العاديّ منّي أنا».

ولم تصارح المرأة منشكي بزواجها حتّى نهاية النهاية. التقاها للمرّة الأخيرة بعد أسبوع من إتمامها تسعةً وعشرين عامًا (وفي ليلة عيد ميلادها تناولا وجبة العشاء في أحد مطاعم حي غينزا، وأدرك منشكي لاحقًا أنّها كانت في تلك اللّيلة كثيرة الصمت، على غير العادة). تلقّى منها مكالمة وهو في مكتبه، في حيّ أكاساكا آنذاك، وقالت إنّها تريد مقابلته والحديث معه، وتستأذنه في المجيء إلى مكتبه. فلم يمانع، مع

أنَّها لم تزره مسبقًا في مكان عمله من قبل، لكنَّه لم يشعر بغرابة الطلب. كان المكتب صغيرًا، يعمل به مع السكرتيرة التي في أواسط عمرها، وما من إحراج أحد. فهو في الماضي، كان يدير شركةً أكبر، وفيها عدد أكبر من العاملين؛ أمَّا حينذاك، فكان يضع خطَّة لشركة جديدة في مجال الشبكات: يعمل وحيدًا، بهدوء؛ يطوِّر الخطَّة، ويوسِّع المشروع لإدخال أشخاصٍ آخرين فيه. هذا كان منهجه.

جاءت حبيبته قبل الخامسة بعد الظهر. وجلسا يتحادثان جنبًا إلى جنب على الأريكة في مكتبه. وفي الساعة الخامسة، أبلغ السكرتيرة في الغرفة المجاورة بأن تعود إلى بيتها. كان معتادًا على البقاء بمفرده في المكتب لمواصلة العمل بعد مغادرتها. وحدث كثيرًا أن انهمك في العمل حتى الصباح. وكان ينوي أن يذهب مع حبيبته إلى أحد المطاعم القريبة لتناول العشاء معًا. لكنَّها رفضت. وقالت إنَّه ليس لديها الكثير من الوقت يومذاك، فعليها أن تذهب إلى حيّ غينزا لملاقاة شخصٍ ما.

«لكنَّك قلتِ في الهاتف إنَّ هناك أمرًا تريدين التَّحدُّث بشأنه» ـ قال لها.

«لا. ليس هناك شيء. أردتُ أن ألقاك ليس إلَّا».

«وأنا سعيد لمجيئك»، قال مبتسمًا. نادرًا ما تكلَّمتْ بتلك الصراحة بل كانت تفضِّل التلميح لا التصريح، وهي التي تعتمد المراوغة. لكنَّه لم يفهم سبب هذا التبدُّل.

ثمَّ قامت من دون أن تنبس ببنت شفة، وجلست في حضن منشكي. لفَّت رقبته بذراعيْها، وقبَّلتْه عميقًا حتى تشابك اللسانان. وفي أثناء تلك القبلة الطويلة، مدَّت يديْها، وفكَّت حزام بنطلونه، وبحثت عن

قضيبه. ثمَّ أخرجت ذلك الشيء الصَّلب، وقبضت عليه بيدها. وانحنت لتضع قضيبه في فمها. لعقتْه برأس لسانها مطوَّلًا، لسانها الناعم الدافئ.

أدهشته بتلك الحركة. فهي لطالما كانت سلبيَّةً في الأداء الجنسيّ، لاسيَّما فيما يخصّ الجنس الفمويّ ـ سواء أكانت فاعلًا أم مفعولًا بها ـ لكنَّها في ذلك اليوم، لسببٍ ما، كانت تبادر بكلٍّ شيء من تلقائها. ما جعله يشكّ في هذه الإيجابيَّة المفاجئة. ما الذي يحدث يا تُرى؟

بعد ذلك، وقفت فجأة ونزعت حذاءها الجلديّ الأسود الفاخر، وألقت به بعيدًا، ووضعت يديْها تحت الفستان وأنزلت الجورب، ثمَّ نزعت ملابسها الداخليَّة أيضًا. جلست مرَّة أخرى على ركبتَيْه، واستخدمت إحدى يديْها لتُولِج ذَكَرَه في فرجها الرطب زاخر العنفوان. حدث كلّ شيء بسرعة تدعو إلى العجب (على غير عادتها في ذلك أيضًا، إذ كانت تفضِّل التَّحرُّك ببطء وتمهُّل)، حتَّى انتبه منشكي أنَّه يدخل بها، وتغلِّف تلك العضلة اللَّيِّنة قضيبه وتعتصره في هدوء، ولكن من دون تردُّد.

كان في تلك الممارسة شيء مختلف عن المرَّات السَّابقة كثيرًا. إذ شعر منشكي بتزامن الدفء والبرد، الصلابة والرِّقة، القبول والرَّفض. لقد أحسّ بتلك المشاعر المتناقضة. لكنَّه لم يفهم جيِّدًا ماذا يعني ذلك تحديدًا. باعدت ساقيْها وتواثبت على محور قضيبه بعنف، كمن يركب زورقًا صغيرًا تهزُّه الأمواج العاتية. اهتزَّ شعرها الأسود الذي يصل إلى كتفَيْها، وكأنَّه أغصان صفصافةٍ تهزّها الريح لتتطاير في السماء. علت تأوُّهاتُها حتَّى فقدت القدرة على كبتها. لم يكن منشكي واثقًا إن كان قد قفل باب المكتب؛ لديه انطباعٌ بأنَّه فعلها ونسي أن يفعلها في آنٍ معًا. لكنَّه لن ينهض لتفحُّص الباب في لحظةٍ جارفةٍ كتلك.

«ألن نستخدم الواقي؟» ـ سألها، وكان يعرف أنَّها كثيرة القلق تجاه هذه الأمور!

«لا داعي له اليوم، همستْ في أذنه.لا تقلقْ من أيِّ شيء».

كلّ تصرُّفاتها كانت غير اعتياديَّة في ذلك اليوم. وكأنَّ شخصيَّة مختلفة كانت نائمة داخلها، فاستيقظت فجأة، واختطفت جسدها وروحها. تصوَّرَ أنَّه يومٌ استثنائيّ بالنِّسبة إليها، وقال لنفسه: ثمَّة الكثير عن جسد المرأة لا يمكن للرجال أن يفهموه!

أصبحت حركاتها أكثر جرأة وديناميكيَّة مع مرور الوقت. ولم يكن في وسعه فعل شيء ليمنعها عمَّا تريد. ثمَّ حانت اللَّحظة النهائيَّة أخيرًا. فقذف فيها عندما لم يستطع التَّحمُّل أكثر، كما أطلقتْ في الوقت نفسه صرخة قصيرة كصيحة طائر في بلاد غريبة، واستقبل رحمها المنيَّ في أعماقه وكأنَّه في انتظاره، وامتصَّه بشهيَّةِ جائع. تشكَّلتْ في ذهنه صورةً ضبابيَّة يظهر فيها حيوانٌ مجهولٌ ليلتهمه وسط الظلام.

وبعدها بقليل، نهضت المرأة كأنَّها تتخلَّص من جسد منشكي، وعدَّلت طرف فستانها من دون أن تقول كلمة. ووضعت الجورب والملابس الداخليَّة الملقيَّة على الأرض في حقيبتها، وتوجَّهت بها في عجلة إلى المرحاض. وظلَّت فيه زمنًا. وما إن قلق منشكي على صحَّتها حتَّى خرجت أخيرًا. وكانت في مظهرٍ أنيق للغاية، شعرها وملابسها وزينتها وابتسامتها الرَّقيقة، بأحلى صورة.

قبَّلت شفتَيْه بخفَّة، وقالت إنَّها مضطرَّة للذهاب سريعًا، لأنَّها تأخَّرت عن موعدها. وخرجت من المكتب بعجلة، من دون أن تلتفت للخلف. وما زال صوت خطوات حذائها الصاخبة عالقًا في أذنيْه حتى الآن.

كان ذلك لقاءهما الأخير. انقطع من بعده التواصل، ولم يعد يعرف عنها شيئًا. لم تردّ على اتّصالاته الهاتفيّة أو رسائله البريديّة. وبعد شهرين، أقامت حفل زواجها؛ أو بالأحرى، عرف بزواجها من صديق مشترك بينهما. ويبدو أنَّ الأخير دُهِشَ، لأنَّ منشكي لم يكن حاضرًا، بل لم يبلغه الخبر أصلًا. كان يعتقد أنَّ منشكي صديقها الحميم (إذ كانا على حرصٍ شديد بعدم إفشاء سرّ علاقتهما الغراميَّة). لا يعرف منشكي الرجلَ الذي تزوّجته، ولم يسمع باسمه من قبل. لم تخبره مطلقًا بأنَّها تنوي الزواج ولو تلميحًا، سوى أنّها رحلت عنه في صمتٍ تامّ. فأدرك منشكي، وأخيرًا، أنَّ عناقها العارم في مكتبه كان بمنزلة الوداع الأخير. ومن وقتها، لم تغب تلك الذكرى عن باله يومًا. ذكرى حيَّةٌ وواضحةٌ إلى درجة غريبة لا تأبه بمرور الأشهُر والأعوام. كان قادرًا على استحضار كلّ التفاصيل: صرير الأريكة، تطايُر شعرها، وأنفاسها الحارَّة في أذنيْه.

ولكنْ، هل منشكي نادمٌ على فقدانها؟ بالتأكيد لا. فهو ليس من النوع الذي يندم على شيء بعد فواته. إنَّه مدركٌ لحقيقة أنَّ الحياة الأُسريَّة لا تلائمه. مهما كان حبُّه للطرف الآخر، لن يستطيع أن يشاركه الحياة اليوميَّة. إنَّه يحتاج يوميًّا إلى قوَّة تركيز وحرِّيَّة، ولم يكن ليحتمل وجود شخصٍ آخر يزعزع عزلته. ولو شارك حياته مع شخص آخر - والديْن، زوجة، طفل - لانتهى به المطاف إلى كرهه. الأمر الذي كان يخشاه كثيرًا. أو بالأحرى، كان يخشى أن يَكِنَّ الكراهية تجاه أحد.

لا خلاف على أنَّه مازال يحبُّ تلك المرأة بعمق. ولم يسبق أن أحبَّ امرأة أكثر منها في الماضي، ولن يحدث ذلك في المستقبل على الأرجح.

«لها مكانٌ خاصّ في قلبي إلى الآن، قال منشكي. مكانٌ محدَّد. لعلَّنا نستطيع وصفه بمجسَّم معبد».

مجسَّم معبد؟ كان اختياره تلك الكلمة مريبًا بالنِّسبة إليَّ. لكنَّها قد تكون الكلمة الصَّحيحة بالنِّسبة إليه.

توقَّف عن الكلام حينذاك. روى على مسامعي حكايةً شخصيَّةً مفصَّلة ودقيقة إلى أبعد الحدود، من دون أن يضخِّم العنصر الجنسيّ كثيرًا. بل كان كأنَّه يقرأ عليَّ تقريرًا طبيًّا. ومن يدري إن لم تكن القصَّة كذلك فعلًا!

«بعد سبعة أشهر من الزواج، أنجبت طفلةً بشكلٍ طبيعيّ في إحدى مستشفيات طوكيو. وقد مضى على ذلك ثلاث عشرة سنة. وفي الواقع، أخبرني أحد الأصدقاء بذلك النبأ بعد وقتٍ طويل».

تأمَّلَ قاع كوب القهوة الفارغ قليلًا، كأنَّه يحنّ إلى وقتٍ كان فيه الكوب ممتلئًا بالقهوة الساخنة!

«ربَّما تكون تلك الطفلة ابنتي»، قال ـ كمن ينتزع الكلمات انتزاعًا. ثمَّ نظر إلى وجهي، لعلَّه يطلب رأيي الشخصيّ.

ولم أستوعب الأمر إلَّا بعد مرور بعض الوقت، فسألته: «هل توقيت ولادتها يوافق هذه الفرضيَّة؟»

«أجل. التوقيت متوافق تمامًا. لقد ولدت الطفلة بعد تسعة أشهر من لقائي بأمِّها في مكتبي. لا بدَّ أنَّها اختارت أكثر أيَّامها قابليَّةً للحمْل قبل زواجها لتقرِّر فيه المجيء إلى مكتبي عمدًا ـ كيف أصفها؟ لتحصد المَنيَّ منِّي. هذه هي فرضيَّتي. لم تأمل في الزواج منِّي منذ البداية، لكنَّها قرَّرت أن تلد منِّي. أشعر بأنَّ هذه هي حقيقة الأمر».

«ولكنْ ما من دليل مؤكَّد».

«بالطبع، ما من دليل مؤكَّد. حتَّى الآن مجرَّد فرضيَّة. ولكنْ هناك ما يشبه الدَّليل الذي تقوم عليه الفرضيَّة».

«لكنَّ الوالدة خاطرت كثيرًا. فمن الممكن دومًا أن تُفحَص زمرة دم الطفلة، وربَّما يعرف زوجها أنَّه ليس والد الطفلة. هل كانت لتُقدِم فعلًا على مخاطرةٍ كهذه؟»

«زمرة دمي هي A». ومعظم اليابانيِّين هم من هذه الزمرة. زمرتها هي أيضًا. إلَّا إذا حدث طارئ يستوجب الخضوع لفحص الحامض النوويّ. عدا ذلك، سيبقى السرّ سرًّا. أعتقد أنَّها حسبت الأمر بهذا الحساب على الأقلّ».

«حسنٌ، ولكنَّك إذا أردت أن تعرف أنَّك الأب البيولوجيّ لتلك الطفلة، فعليك أن تقارن فحص الحامض النوويّ. أي أنَّك ستضطرّ لطلب ذلك من الأمّ مباشرة. أليس كذلك؟»

هزَّ منشكي رأسه نافيًا: «لم يعد الأمر ممكنًا. لقد توفِّيت منذ سبع سنوات».

قلت متأثرًا: «يا للمسكينة! ما تزال شابَّة...»

«لقد هاجمها سرب من الدبابير في أثناء نزهة جبليَّة، وماتت بسبب ذلك. كانت في الأصل تعاني من الحساسيَّة ولم تتحمَّل. وعندما وصلت إلى المستشفى، كانت قد ماتت بالفعل. ولم يكن أحد على علم بامتلاكها تلك الحساسيَّة. وربَّما هي نفسها لم تكن تعلم. رحلت تاركة زوجها وابنتها. والآن، أتمَّت الابنة عامها الثالث عشر».

تقريبًا.. السنّ نفسها التي توفِّيت فيها شقيقتي. هذا ما طرأ في ذهني.

«وأنت تعتبر أنَّ الفرضيَّة لها أساس. فرضيَّة أنَّ تلك الطفلة هي ابنتك. أليس كذلك؟»، قلت.

فأجاب بصوت هادئ: «بعد وفاتها بقليل، تسلَّمتُ رسالة من عالم الموتى».

في أحد الأيَّام، وصل إلى مكتب منشكي ظرفٌ كبير من مكتب محاماة لم يكن قد سمع به من قبل. وكان بداخله ورقة مُنضَّدَةٌ بالآلة الكاتبة، موجَّهة إلى مكتب المحاماة، وموقَّعة من محام، وظرفٌ بلونٍ ورديٍّ فاتح. «أرسل لكم مرفقًا طيَّه رسالة من السيدة ×××× (اسم حبيبته السَّابقة) أودعتْها لديَّ قبل وفاتها، وكلَّفتني بإرسالها إلى حضرتكم في حال وفاتها. وقد شدَّدتْ على ألَّا يرى الرِّسالة أحدٌ غيرك».

كانت تلك فحوى رسالة المحامي تقريبًا. تليها تفاصيل بسيطة شبه رسميَّة عن ظروف وفاتها. انحبست أنفاس منشكي للوهلة الأولى، لكنَّه تَجَلَّدَ أخيرًا، وفتح الظرف الورديّ باستخدام فَتَّاحة الرسائل. كانت الرِّسالة بخطِّ اليد، مستخدمة حبرًا أزرقَ على ورق مسطَّر وصل إلى أربع صفحات. كتبت ما يلي بخطٍّ في غاية الجمال.

السيِّد المحترم منشكي،

لا أعلم العام أو الشهر الآن، لكنَّك عندما تستلم هذه الرِّسالة، يُفترض أنَّني لن أكون في هذه الدُّنيا. لا أعلم السَّبب، لكنِّي منذ زمن بعيد أشعر بأنَّني سأغادر الدُّنيا في عمر مبكِّر. ولهذا السَّبب، أعددتُ الأمر بمهارة لما بعد موتي. وإن آلت كلّ تلك الإعدادات إلى لا شيء، فبالتأكيد لن أخسر شيئًا... أيًّا كان الأمر، فمعنى أنَّك تقرأ رسالتي، أنَّني قد مُتُّ بالفعل. وعندما أفكِّر في ذلك، أشعر بالوحدة والحنين.

في البداية، دعني أفسّر لك أمرًا (مع أنَّه قد لا يكون ضروريًّا): أعلم أنَّ حياتي كانت بلا قيمة. أفهم ذلك جيِّدًا. لذا، سأتجنَّب المبالغة،

ولن أتحدَّث أكثر ممَّا يلزم. إنَّ الرحيل سرًّا عن هذا العالم يناسب امرأة مثلي. ولكنْ، عليَّ أن أطلعك على شيء مهمّ، وإلَّا فقدتُ الفرصة في أن أكون عادلة تجاهك إلى الأبد. قرَّرت أن أكتب إليك هذه الرِّسالة وأتركها لدى محام أعرفه، وأثق به.

أوَّلًا، أعتذر من أعماق قلبي، لأنَّني هجرتكُ فجأة بالشَّكل الذي حدث، وتزوَّجتُ من شخصٍ آخر، ولأنَّني لم أخبرك بالأمر من قبل. أعتقد أنَّك صُدِمتَ بذلك، وربَّما أضمرتَ لي البغضاء. وربَّما تلقَّيت الخبر بلا صدمة بما أنَّك إنسان رزين عقلانيّ التَّفكير. لن أشرح هنا هذا الأمر بالتَّفصيل، لكنِّي أرجوك أن تتفهَّمني. لم يكن أمامي وقتها أيّ مجال للاختيار.

كان لديَّ خيارٌ واحد. اختُزِلَ في خطوة واحدة. هل تذكر آخر لقاء بيننا؟ مساء ذلك اليوم، أواخر الخريف، عندما زرتُك في المكتب فجأة. ربَّما لم يكن ظاهرًا عليَّ أنَّني مُحاصَرة تمامًا ومُطارَدة بشدَّة حينها. وأشعر بأنَّ ذاتي لم تعد ذاتي. وعلى الرَّغم من الفوضى التي ألمَّت بي، اعتمدتُ خطَّةً من الألف إلى الياء. لست نادمةً، ولا حتَّى قليلًا. ما فعلتُه في ذلك النَّهار، كان له أثرٌ كبيرٌ في حياتي. أثرٌ يمتدّ أبعد من ذاتي.

في النهاية، أرجو أن تتفهَّم مقصدي، وأتأمَّل أن تغفر لي. وأرجو ألَّا تؤدِّي تلك الخطوة إلى إزعاجك بأيِّ شكل. لأنَّني أعلم جيِّدًا كم تكره هذه الظروف أكثر من أيّ شيء آخر.

أتمنَّى لك حياة سعيدة مديدة. وأتمنَّى أن يطول وجودك الرائع وجودًا طويلًا ووفيرًا.

أعاد منشكي قراءة تلك الرِّسالة مرَّات ومرَّات، حتى حفظها عن ظهر قلب (سردها أمامي بالفعل من البداية إلى النهاية من دون أن

يتلجلج أو يتوقَّف). كان فيها مشاعرُ وإشاراتٌ تضيء تارةً، وتستحيل ظلًّا تارةً أخرى، تكون سالبة ثمَّ تصبح موجبة، مرسومةً كلوحةٍ معقَّدة وخفيَّة. ظلّ منشكي مثل فقيه اللُّغات القديمة، يتفحَّص كل الاحتمالات التي يتضمَّنها النصّ خلال سنوات. تناول كلّ كلمة وتلميح، وأعاد تركيبهما مرارًا، ففكّ ونسّق من جديد.. حتى توصَّل إلى نتيجة واحدة، وهي أنَّ الطفلة التي ولدتها تلك المرأة بعد زواجها بسبعة أشهر قد تبرعمت بلا أدنى شكّ إثر الممارسة بينه وبينها على الأريكة الجلديَّة في مكتبه.

«طلبتُ من محامٍ صديق أن يبحث لي عن الطفلة التي تركتها المرأة، قال منشكي. كان الرجل الذي تزوَّجته يكبرها بخمسة عشر عامًا، ويمتلك شركة للعقارات. ما يعني أنَّه ابن أحد كبار ملَّاك الأراضي في هذه المنطقة، وكان محور أعمال الشركة هو إدارة تلك الأراضي والعقارات التي ورثها. وهناك عقاراتٌ أخرى غيرها بالطبع، لكنَّه لم يكن مهتمًّا بتوسيع نطاق أعماله كثيرًا، إذ كان لديه ثروةٌ تمكّنه من العيش في رفاهية حتى من دون عمل. لم يتزوَّج بعد فقدان زوجته منذ سبعة أعوام. لديه شقيقة صغرى، عزباء، تسكن معهما حاليًّا، تقوم بأعمال البيت. الطفلة اسمها مارية، يُكتَب اسمُها بحروف هيراغانا بلا رموزٍ صينيَّة. تتردَّد إلى المدرسة الحكوميَّة في المنطقة نفسها، في المرحلة المتوسّطة».

«وهل التقيتَ مارية؟»

سكت ليختار كلماته بعناية، ثمَّ أجاب: «رأيتُها من بعيد عدَّة مرَّات، لكنّي لم أتحدَّث معها أبدًا».

«ماذا شعرتَ عندما رأيت وجهها؟»

«هل تعني أنَّها تشبهني أم لا؟ لا أستطيع أن أحكم على هذا. إن قلت لنفسي إنَّها تشبهني، فسأجدها تشبهني فعلًا، والعكس صحيح».

«هل لديك صورة لها؟»

هزَّ منكشي رأسه نافيًا، بهدوء: «لا. ليس لديَّ صورة لها. كان بإمكاني أن أحصل على صورة، لكنّي تقصَّدتُ عدم ذلك. ماذا سأجني إن احتفظتُ بصورتها في جيبي؟ إنَّ ما أريده...»

توقَّف عن الكلام حينذاك. وتولّى طنين الحشرات الصاخب مهمَّة دفن الصمت الذي تلا.

«ولكنْ، يا سيِّد منشكي، قلتَ لي منذ قليل إنَّك لا تهتمّ لصلة الدم أبدًا».

«بالتأكيد. لا أهتمّ لما يُسمَّى صلة الدم، بل عشتُ حياتي محاولًا تجنُّبَ صلاتٍ كتلك. ولم يتغيَّر هذا الشعور إلى الآن. من جهة أخرى، لم أعد أستطيع إبعاد عينيَّ عن تلك الفتاة التي تُسمَّى مارية. لم أعد قادرًا على الكفّ عن التَّفكير بها. بلا سبب ولا منطق...»

لم أجدِ الكلمات التي ينبغي أن أردّ بها عليه. فأكمل حديثه:

«تتملَّكني هذه المشاعر لأوَّل مرَّة في حياتي. وكنتُ أسيطر عليها دائمًا وأفتخر بذلك. أمّا الآن، إذا بقيتُ بمفردي، شعرتُ بألمٍ ومعاناة».

تجرَّأتُ، وقلت ما يدور في خَلَدي: «سيِّد منشكي، لديَّ حدْس. هل تريد منّي أن أفعل شيئًا ما تجاه مارية؟ أم أنّي أتخيَّل؟»

أومأ بعد صمتٍ، وقال: «لا أدري كيف أفسّر لك الأمر...»

انتبهتُ في تلك اللَّحظة أنَّ طنين الحشرات، الذي كان صاخبًا لدرجة كبيرة، قد توقَّف فجأة. رفعتُ عينيّ. نظرتُ إلى ساعة الحائط. كانت قد تخطَّت الواحدة والأربعين دقيقة. وضعتُ سبّابتي على شفتيّ، فسكت منشكي فورًا. وأصغينا معًا إلى سكون اللَّيل.

- 14 -
رأيتُ وسمعتُ الكثير من الأشياء المريبة، لكنِّي لم أصادف مثل هذا

توقَّفنا عن الكلام، وعن تحريك جسديْنا وبقينا صامتَيْن نصغي. انقطع طنين الحشرات. تمامًا مثل اللَّيلتَيْن الماضيتَيْن. ثمَّ انبثق صوت الجَرَس الخافت مرَّة أخرى، من أعماق ذلك الصمت العميق. يرنّ مرارًا، ثمَّ يتعرَّض لانقطاعاتٍ غير منتظمة، ثمَّ يعاود الرَّنين. نظرتُ إلى وجه منشكي الجالس قبالتي على الأريكة، وفهمتُ من تعابيره بأنَّ الصوت يتناهى إلى مسمعه أيضًا؛ فقد عقد حاجبيْه حتَّى تجعَّد ما بينهما، ورفع يده عن ركبته، وأخذ يحرِّك أصابعه بالتناغم مع رنين الجرس. لم أكن ضحيَّة إيهامٍ صوتيٍّ إذن.

نهض عن الأريكة ببطء، بعد أن أصغى إلى الصوت بجدِّيَّةٍ مدَّة دقيقتَيْن أو ثلاث. وقال بصوتٍ حادّ: «هيَّا بنا إلى مصدر الصوت».

مسكتُ المصباح اليدويّ. خرج منشكي من الباب، وأخرج من صندوق سيَّارة الجاغوار الخلفيّ مصباحًا يدويًّا كبيرًا، يبدو قد أعدَّه

لتلك المغامرة. ثمَّ صعدنا الدرجات السبع للتوغُّل في الغابة البرِّيَّة. لم يكن ضوء القمر كأمس الأوَّل، لكنَّه أنار موطئ أقدامنا. درنا خلف نموذج مجسَّم المعبد، نشقّ طريقنا وسط الأغصان وصولًا إلى جثوة الصخور. ثمَّ أصخينا السَّمع هناك ثانيةً. ما من أدنى مجالٍ للشكّ في أنَّ الصوت الغامض يتسرَّب من بين فراغات الصخور.

دار منشكي ببطء حولها، وتفحَّص فراغاتها بانتباهٍ بالغٍ مستعينًا بضوء المصباح. لكنَّه لم يجد أيّ شيء خارجٍ عن المألوف. مجرَّدُ عدد من الصخور القديمة التي غطَّاها العفن، متراصَّة بطريقةٍ عشوائيَّة بعضها فوق بعض. التفت إليَّ. بدا لي وجهه تحت ضوء القمر أشبه بالأقنعة العتيقة. فهل بدا وجهي له بالشَّكل نفسه يا تُرى؟

«هل كان الصوت آتيًا من هنا في المرَّات السَّابقة؟» سألني بصوتٍ خفيض.

«أجل. المكان هو نفسه بالضبط»، أجبت.

«يبدو لي أنَّ أحدًا ما، تحت هذه الصخور، يرنّ ما يشبه الجَرَس».

أومأتُ موافقًا. اطمأنَّ قلبي عندما تبيَّنتُ أنَّني لم أكن أهلْوِس، لكنَّني في الوقت ذاته، اعترفتُ بأنَّ كلام منشكي كان يثبت إمكانيَّةً كنتُ قد افترضتُها، الأمر الذي يولِّد خروجًا عن المألوف، وقطيعةً مع الواقع الحقيقيّ.

«ما الذي ينبغي لنا فعله الآن؟» سألته.

سلَّط منشكي ضوء المصباح لفترة على مصدر الصوت، وزمّ شفتَيْه، وظلَّ يفكِّر. شعرتُ وسط سكون اللَّيل بأنَّني أكاد أسمع صوتَ حركة دماغه الذي يعمل بسرعةٍ خارقة.

ثمَّ قال كأنَّه يتحدَّث إلى نفسه: «قد يكون أحدٌ ما، يطلب النجدة».

«ولكنْ! مَن هذا الذي استطاع الدخول تحت كومة الأحجار الثقيلة هذه؟»

نفى بهزَّةٍ من رأسه، فهو أيضًا لا يمتلك إجابة على هذا.

«فلنعُد إلى البيت الآن»، قال. وربَّت على كتفي بخفَّة ـ «لقد عرفنا مصدر الصوت على الأقلّ. بإمكاننا التَّحدُّث في البيت بهدوء».

خرجنا من الغابة، وتوقَّفنا في الباحة التي عند مدخل البيت. فتح منشكي باب سيَّارته، وأعاد المصباح اليدويّ، وأخذ كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا كان على المقعد. ودخلنا إلى البيت.

«هل لي بقليلٍ من الويسكي، إذا كان لديك؟»، قال.

«أجل، لديَّ ويسكي اسكتلنديّ نمطيّ. هل يروق لك؟»

«بالتأكيد. أرجو أن يكون بلا إضافات. وحبَّذا كأس ماء بلا ثلج، من فضلك».

ذهبتُ إلى المطبخ، وأخرجتُ زجاجة من نوع العلامة البيضاء، وصببتُ منها في كأسَيْن، وعدتُ بهما مع قنّينة مياه معدنيَّة إلى غرفة المعيشة. وجلسنا وجهًا لوجه نشرب الويسكي من دون أن نقول شيئًا. وعندما أنهى كأسه، عدتُ إلى المطبخ لأحضر الزجاجة، وصببتُ في كأسه مرَّة أخرى. حمل الكأس بيده، لكنَّه لم يأخذها إلى فمه. استمرَّ رنين الجَرَس في سكون اللّيل، يأتي متقطّعًا. كان صوتًا خافتًا، غير أنَّه ذو ثقلٍ عميق ومكثَّف لا يمكن تجاهله.

قال منشكي: «لقد رأيتُ وسمعتُ الكثير من الأشياء المريبة، في حياتي، لكنّي لم أصادف مثل هذا. عندما حدَّثتني عنه، لم أصدِّقك، فلتعذرني. أليس من الغريب أن يكون مثل هذا الأمر حقيقة واقعة؟»

أليس من الغريب أن يكون مثل هذا الأمر حقيقةً واقعة... مثيرٌ للاهتمام، تعبيرُه هذا.

«ماذا تعني بقولك: حقيقة واقعة؟»

رفع رأسه، وظلّ ينظر في عينيَّ مطوّلًا. ثمّ قال: «لأنّني قرأتُ في روايةٍ ما عن أمرٍ مشابهٍ ذات مرّة».

«أوضِحْ من فضلك. هل كان مكتوبًا أنَّ جَرَسًا يرنّ في قلب اللّيل في مكانٍ ما؟»

«للدقّة، كان صنج الجونج لا جَرَسًا. الجونج المستخدَم في موسيقى البلاط قديمًا. يُنقَرُ بما يشبه الهاون الخشبيّ، في أثناء تلاوة الصلوات البوذيّة. وكان صوته في الرواية يصدر من تحت الأرض».

«هل هي رواية رعب؟»

«رواية غرائبيّة، بالأحرى. هل سبق لك أن قرأتَ «حكايات مطر الربيع» للأديب أكيناري أُوِيدا؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلتُ: «ليس بعد. فأنا لم أقرأ لأكيناري سوى «حكايات شهر المطر»، منذ زمن».

««حكايات مطر الربيع» عبارة عن مجموعة قصص، كتبها أكيناري في أواخر حياته، بعد قرابة الأربعين عامًا على إتمامه «حكايات شهر المطر». مقارنة باهتمامه البالغ بحبكة القصّة في «حكايات شهر المطر»، يهتمّ أكيناري في «حكايات مطر الرّبيع» بالقضايا الفكريّة أكثر. في ذلك الكتاب، ثمّة قصّة عجيبة بعنوان «علاقةٌ تدوم حياتيْن». يقابل البطل في تلك القصّة، واقعةً مثل التي تحدث معك. هو ابن أحد مُلّاك الأراضي الزراعيّة، محبٌّ للعلم، وفي أثناء قراءته للكتب في منتصف الليل، يسمع نقرًا على الجونج، نقرًا متقطّعًا آتيًا من تحت صخرة في ركن

حديقة البيت. يستغرب الأمر، فيستدعي في اليوم التالي عمّالًا للحفر في الحديقة، فيزيح الصَّخرة ليعثر على ما يشبه التابوت. وعندما يفتحه، يجد رجلًا نحيفًا مثل سمكة متيبِّسة، وشعره حتى ركبتَيْه. لا يتحرَّك فيه شيء عدا يده التي تنقر على الجونج بهاونٍ خشبيّ. على ما يبدو أنَّه راهبٌ بوذيّ من قديم الزمان، يسلك درب الموت لبلوغ الاستنارة الأبديَّة، فوُضع في التابوت ودُفن حيًّا. ويُسمَّى هذا التطبيق «زِن جو»، أي الزِن الأبديّ. تعاد الجثَّة التي أصبحت مومياء إلى المعبد البوذيّ، وتُدفَن هناك. ويقال إنَّ مَن يطبّق شعيرة الزِن الأبديّ يدخل الأبديَّة. وعلى الأرجح، أنَّه كان راهبًا عظيمًا. فوصل إلى حدود النيرفانا التي تتوق إليها روحه، ويبدو أنَّ الجسد الذي تركته الرُّوح استمرّ في الحياة. تسكن أسرة بطل القصَّة في تلك الأرض منذ عشرة أجيال، وقد يكون الراهب قد عاش هناك من قبل، من مئات السنين».

توقَّف منشكي عند هذا الحدّ.

فسألته: «أهذا يعني أنَّ أمرًا مشابهًا وقع بجوار هذا البيت؟»

هزَّ منشكي رأسه نافيًا، وقال: «العقل السَّليم يقول لنا إنَّ هذا مستحيلٌ في الواقع. فتلك حكاية غرائبيَّة كُتبت في عصر إيْدو. كان أكيناري يعرف أنَّ ذلك النوع من الحكايات خرافاتٌ شعبيَّة، فاقتبس منها موضوع تلك القصَّة، وعدَّل فيها طبقًا لأفكاره. لكنَّ الحكاية المذكورة في تلك الصَّفحات تماثِلُ التجربة التي نخوضها الآن من حيث الغرابة».

خضَّ منشكي الكأس التي في يده برفق، فارتجّ السَّائل ذو لون الكهرمان.

«وماذا يحدث بعد ذلك في القصَّة، أي بعد خروج الراهب الذي تحوَّل إلى مومياء، من التابوت؟» ـ سألته.

«القصَّة تتطوَّر بطريقة غرائبيَّة، أجاب بنبرةٍ من يصعب عليه الإفصاح. لأنَّ نظرة أكيناري أويدا المتفرِّدة إلى العالم، التي وصل إليها في أواخر حياته، تنعكس بوضوح في تلك النهاية. فلنسمِّها نظرةً ساخرة جدًّا حيال هذا العالم. لأنَّه نشأ في بيئة معقَّدة، مليئة بالمشاكل والقلق. لكنِّي أفضِّل أن تقرأ القصَّة بنفسك بدلًا من أن تسمعها منِّي».

أخرج منشكي من الكيس الصَّغير الذي حمله معه من السيَّارة كتابًا قديمًا، وأعطاه لي. كان أحد كتب المجموعة الكاملة للأدب اليابانيّ القديم، ويحتوي على الأعمال الكاملة لأكيناري أويدا، بما فيها «حكايات أمطار الربيع» و«حكايات شهر المطر».

«عندما حدَّثتني عمَّا يجري هنا البارحة، تذكَّرتُ القصَّة على الفور. ولأنَّها موجودة في مكتبتي، أعدتُ قراءتها. سأعطيك هذا الكتاب، إن شئت قراءتها. فهي قصَّة قصيرة ستنهيها سريعًا».

أخذتُ منه الكتاب، وقلت: «ما يجري هنا غريبٌ فعلًا. مخالفٌ للعقل. سأقرأ الكتاب بالتأكيد. ولكنْ، لندع الأمر، ونفكِّر: ما الذي عليَّ فعله؟ لا يبدو لي أنَّه من المستحسن أن أترك الأمر على عواهنه. فإن كان هناك من يرنّ الجرس تحت الصخور، أو ينقر الجونج، أو أيًّا كان، وإن كان يرسل طلب استغاثة في كلِّ ليلة، فينبغي أن أفعل شيئًا لإخراجه من هناك، أيًّا كانت العواقب».

تجهَّم وجهه، وقال: «لكنَّ تلك الصُّخور ثقيلة جدًّا. لا يمكننا نحن الاثنيْن أن نزيحها أبدًا».

«هل يجب إبلاغ الشرطة؟»

هزَّ رأسه بالنفي أكثر من مرّة: «الشرطة ستكون بلا طائل، هذا مؤكَّد. فإذا أبلغناهم أنَّنا نسمع رنين جرس من تحت الصخور في الغابة في منتصف اللَّيل، فلن يحملوا كلامَنا على محمل الجدّ، بل سيعتبروننا مجانين. وقد تتعقَّد الأمور أكثر. لذا، من الأفضل عدم إبلاغ الشرطة».

«لكنَّ أعصابي لن تحتمل سماع ذلك الصَّوت كلَّ ليلة بلا نهاية. لن أستطيع النوم ولن يبقى أمامي إلَّا مغادرة البيت. هذا الصوت نداء، بتُّ شبه متأكِّد من ذلك».

ظلّ منشكي يفكِّر بعمق، ثم قال: «يجب استدعاء شركة محترفة لإزالة تلك الكمِّيَّة من الصخور. لدى أحد معارفي شركة لإنشاء الحدائق في المنطقة. لقد بدأ العمل منذ مدَّة. وهو معتادٌ على التعامل مع الصخور الثقيلة، نظرًا إلى طبيعة عمله في إنشاء الحدائق. إن سألناه، فقد يؤمِّن لنا حفَّارة صغيرة. وهكذا، نتمكَّن من إزالة الصخور وحفر حفرة بسهولة».

«معك حقّ. ولكنْ ثمَّة مشكلتان. الأولى، هي أنَّه يجب أن نستأذن ابن صاحب تلك الأرض، السيِّد تومو هيكو أمادا. فأنا لا أستطيع أن أفعل ما يحلو لي هنا. والثانية، أنَّني لست قادرًا على دفع تكاليف الشركة».

ابتسم منشكي، وقال: «بخصوص المال، لا تقلق. سأتحمَّل تكاليفها بنفسي. ثمَّ إنَّه مدينٌ لي ببعض المال، وقد لا يطالبنا إلَّا بالتكاليف الفعليَّة. ليست أمرًا مقلقًا. أمَّا من ناحية السيِّد أمادا، فجرِّبْ أن تتَّصل به. أعتقد أنَّه سيأذن لك إن شرحتَ له الظروف. فلو كان هناك شخصٌ محبوسٌ تحت الأحجار فعلًا، قد يموت، وسيتحمَّل المالكُ المسؤوليَّة».

«ولكنْ، إن سمحتَ لي يا سيِّد منشكي، لا أودّ أن أورِّطك بما لا شأن لك فيه...»

رفع يديْه عن ركبتَيْه، كأنَّه يستقبل بهما المطر. ثمَّ قال بصوتٍ هادئ:

«يبدو لي أنَّني أخبرتك مسبقًا بأنِّي ذو فضول شديد. أريد أن أعرف كيف تتطوَّر الحكاية. فلا تقلق بشأن المال على الأقلّ. أتفهَّمُ موقفَك، لكنِّي أرجوك، هذه المرَّة فقط، لا تقلق؛ ودع أمر التكاليف عليَّ».

نظرتُ إلى عينَيْه. كان فيهما إشعاعٌ ثاقبٌ لم أره من قبل. كأنَّهما تقولان: أيًّا كانت العواقب، أريد أن أعرف مآل هذه القصَّة حتى النهاية. لا بدَّ أنَّ مبدأه الجوهريّ في الحياة أن يلاحق ما لا يفهمه حتَّى يتمكَّن منه!

«فهمت. سأحاول الاتِّصال بماساهيكو أمادا غدًا» ـ قلت.

«وأنا من جانبي، سأتَّصل بشركة إنشاء الحدائق غدًا أيضًا». صمت قليلًا، ثمَّ أكمل: «بالمناسبة، لديَّ سؤالٌ أطرحه عليك».

«ما هو؟»

«هل يحدث لك غالبًا ـ كيف نقولها ـ أن تخوض تجربة خارجة عن المألوف، كهذه مثلًا؟»

«لا. هذه أوَّل مرَّة أمرُّ بتجربة مريبة. لقد عشتُ حياةً طبيعيَّة جدًّا، وأنا إنسان عاديّ جدًّا. لذا أنا مرتبك ومحتارٌ تمامًا. ماذا عنك؟»

ابتسم ابتسامةً غامضة، وقال: «أمَّا أنا، فقد حدثت لي تجارب غريبة أكثر من مرَّة. شاهدتُ وسمعت أشياء لا يمكن التَّفكير فيها بمنطق العقل. لكنَّها ليست بغرابة هذا الأمر».

وبقينا نصغي بصمت إلى رنين الجَرَس. وكالعادة، توقَّفَ الصوت تمامًا بعد أن تخطَّت الساعة الثانية والنُّصف بقليل. ثمَّ ملأ طنين الحشرات الجبال من جديد.

فقال منشكي: «اسمح لي بالمغادرة. أشكرك على الويسكي. سأتَّصل بك مرَّة أخرى في القريب العاجل».

غادر بسيَّارته الفضِّيَّة اللَّامعة تحت ضوء القمر. لوَّح لي بيده مودِّعًا من النافذة المفتوحة. وبعد أن اختفى صوت المحرِّك في المنحدر، تذكَّرتُ أنَّه شرب كأسًا من الويسكي (الثانية، لم يلمسها)، لكنَّ لون وجهه لم يتغيَّر مطلقًا، ولا طريقة كلامه أو سلوكه. كأنَّه شرب كأسًا من الماء. لعلَّ بنيته تقاوم الكحول! ثمَّ إنَّه لن يقود السيَّارة لمسافة طويلة. وفي الأصل، لا يسلك هذه الطريق إلَّا سكَّان المنطقة، ويُفترض أنَّه لن يقابل أيّ سيَّارة في الاتِّجاه العكسيّ، أو حتَّى مشاةً في هذا الوقت من اللَّيل.

عدتُ إلى البيت، ودخلت الفراش بعد أن وضعتُ الكوبَيْن في حوض المطبخ. وتخيَّلت منظر مجيء العمَّال وإزاحتهم الصخور وحفر ما تحتها بالمعدَّات الثقيلة. لم يبدُ لي المشهد واقعيًّا. ثمَّ ينبغي، قبل ذلك، أن أقرأ قصَّة «علاقةٌ تدوم حياتيْن» لأكيناري أويدا. أرجأتُ كلَّ شيء إلى الغد. ربَّما تبدو الأشياء مختلفة تحت ضوء النهار. أطفأتُ المصباح الذي على الدُّرْج، واستسلمتُ للنوم وأنا أسمع طنين الحشرات.

اتَّصلتُ بماساهيكو أمادا محلّ عمله في العاشرة صباحًا، وشرحتُ له الوضع. لم أتطرَّق إلى قصّة أكيناري أويدا، لكنِّي قلت إنَّني تأكَّدتُ من أنَّ صوت الجَرَس اللَّيليّ، فقد استدعيتُ صديقًا وسمعنا الرنين معًا، ما يعني أنَّني لستُ متوهِّمًا.

فعلَّق ماساهيكو: «قصَّة غريبة فعلًا. ولكنْ هل تعتقد فعلًا أنَّ هناك أحدًا ما يرنّ الجَرَس تحت تلك الصُّخور؟»

«لا أدري. حقًّا لا أدري؛ ولكنَّني لا أستطيع ترك الأمر هكذا. فالصوت مسموعٌ حقًّا، ويتكرَّر كلّ ليلة».

«وماذا لو اكتشفنا شيئًا خارقًا للطبيعة؟»

«خارقٌ للطبيعة؟ بأيّ معنى؟»

«لا أدري. شيءٌ من طبيعة مختلفة، أليس من الأفضل أن نتركه مدفونًا هناك؟»

«أفضّلُ أن تأتي مرَّة لسماع الصوت في اللَّيل، فأنا متأكّد أنَّك لو سمعتَه، أدركتَ أنَّه لا ينبغي تركه على حاله».

تنهَّد ماساهيكو عبر الهاتف بعمقٍ، وقال: «لا، اعفِني من هذا. فذلك المكان يخيفني منذ الصغر. ولا أحتمل قصص الرُّعب. ولا أريد أن يكون لي شأنٌ بأمر مخيف كهذا. أفوّض لك الأمر كلّه. لن يهتمّ أحد بإزاحة صخور قديمة أو حفر حفرة في الغابة. تصرَّفْ كما يحلو لك. ولكنْ، أرجوك ألا تستخرج لنا شيئًا مرعبًا».

«لا أدري ماذا سيحدث، لكنّي سأتّصل بك حالما أتوصَّل إلى نتيجة».

«لو كنتُ مكانك لاكتفيتُ بوضع سدَّادة في أذنيّ».

بعد أن أنهيتُ المكالمة، جلست على المقعد في غرفة المعيشة أقرأ قصَّة «علاقةٌ تدوم حياتيْن». قرأتُ النصّ الأصليّ، ثمَّ قرأتُ ترجمة له إلى اللُّغة اليابانيَّة المعاصرة. كان منشكي محقًّا: بغضّ النَّظر عن

بعض التفاصيل، كانت القصَّة تتشابه في مجملها مع الظاهرة التي كنت شاهدًا عليها. فالجونج في القصَّة يُسمَع في ساعة الثور (الثانية صباحًا تقريبًا). التوقيت نفسه. لكنَّني كنت أسمع رنين جَرَس لا نقرًا على الجونج. تفصيلٌ مختلف آخر: طنين الحشرات لا يتوقَّف في القصَّة فجأة، فالبطل يسمع نقر الجونج مختلِطًا مع طنين الحشرات. باقي ما تبقَّى متشابهٌ إلى حدٍّ عجيب!

كان الراهب المومياء الذي استخرجوه محنَّطًا تمامًا، لكنَّه يرفع ذراعه بتصميم لنقر الجونج. ثمَّة قوَّةٌ حيويَّة مرعبة تحرِّكه كأنَّه آلة. ويبدو أنَّه بتلاوة الصلوات البوذيَّة، نقر الجونج، يدخل حالة «النيوجو». ألبَسَه البطلُ ثيابًا، وبلَّل شفتَيْه بالماء، وشيئًا فشيئًا، يستطيع الراهب أن يتناول من حساء الأرز، حتَّى عاد بعض اللَّحم إلى جسده تدريجيًّا. وفي النهاية، يصبح مظهره كأيِّ شخص عاديّ. ولكنْ لا شيء فيه يدلّ على أنَّه بلغ الاستنارة عمومًا. لا دلالة على حكمة أو ذكاء، أو حتَّى أثر من رفعة أو نبل. ثمَّ إنَّه فَقَدَ ذاكرة حياته السَّابقة تمامًا. ولا يعرف لماذا ظلَّ مدفونًا تحت الأرض طوال تلك المدَّة الطويلة. بات يأكل اللَّحم، ويتمتَّع بشهوة جنسيَّة لا يُستهان بها. ويتزوَّج، ويحصِّل قوت يومه من العمل في وظيفة حقيرة. أطلقوا عليه اسم جوسكيه بن نيوجو. وعندما رأى أبناء القرية منظره الوضيع هذا، فقدوا احترامهم تجاه الديانة البوذيَّة. والسُّؤال الذي يطرح نفسه: أهذه هي نهاية تعاليم الزُّهد القاسية؟ أهذا مآل الاستنارة؟ النتيجة: يرتدّ الجميع عن إيمانهم الدِّينيّ ويكفُّون عن الذهاب إلى المعابد البوذيَّة. هذا هو مغزى القصَّة. وكما قال منشكي، فالقصَّة تعكس وجهة نظر المؤلِّف السَّاخرة تجاه العالم. لم تكن مجرَّد قصَّة غرائبيَّة.

حقًّا، أليست التعاليم البوذيّة لا نفع لها؟ فلقد ظلّ الرجل تحت الأرض، مواظبًا على نقْر الجونج، أكثر من مائة عام. لكنَّه لم يكن يحمل في وجدانه أيَّ أثرٍ عن المعجزة، ولم يبق منه سوى كومة عظام في حالة مزرية.

أعدتُ قراءة القصَّة عدَّة مرَّات، بلا أيِّ جدوى. فلو استخدمنا الآلات الثقيلة وأزحنا الصُّخور، ثمَّ حفرنا في الأرض فاكتشفنا مومياء استحالت إلى «كومة عظام» في حالة مزرية، فما الذي سأفعله بها؟ أليس من الحكمة أن أسدّ أذنيّ، على رأي ماساهيكو، وأترك الأمر على حاله من دون أن أُقحم نفسي بما لا يعنيني؟

وهل سأكتفي بسدّ أذنيّ حقًّا؟ شعرت بأنّني لن أستطيع الهرب من ذلك الصوت، مهما كنتُ راغبًا في ذلك. وربَّما سيظلّ يلاحقني حتى لو انتقلت إلى مكان آخر، أينما ذهبت. ثم إنِّي فضوليٌّ أنا أيضًا، مثل منشكي. أتوق لمعرفة ما الذي تخفيه تلك الصخور.

اتَّصل منشكي في الظهيرة، ليسألني إن حصلت على إذن من السيِّد أمادا. فلخَّصت له اتِّصالي بماساهيكو أمادا، وأخبرته بأنَّه أعطاني حقّ التَّصرُّف كيفما شئتُ.

«عظيم. وأنا تحدَّثتُ مع صديقي منظِّم الحدائق. لم أخبره عن الصوت الغامض طبعًا. سوى أنّني طلبت منه إزاحة عددٍ من الصخور القديمة في الغابة، وحفْر حفرةٍ أسفلها. نحن محظوظان. فبالعادة، ينبغي أن تطلب منه الأشياء قبل وقت كي يرتِّب أموره. لكنَّه ليس مشغولًا في هذه الأيَّام، وقد يأتي لإلقاء نظرة بعد ظهر اليوم. وقد يباشر العمل في الغد. هل تمانع أن يدخل بمفرده المكان لفحصه قبل العمل؟»

«لا مانع طبعًا».

«سيجهّز هكذا المعدّات اللّازمة. ولا أعتقد أنَّ العمل نفسه سيستغرق أكثر من بضع ساعات. وسأكون موجودًا وقتها في الموقع».

«بالتأكيد، أنا أيضًا سأحضر. أرجو أن تخبرني بموعد بدء العمل عندما يتقرّر». فإذا بي أتذكّر فجأةً أمرًا ما، فأضفتُ: «بخصوص الأمر الذي كنَّا نتحدَّث فيه قبل سماع صوت الجَرَس».

يبدو أنّه لم يفهمني جيّدًا، فقال: «ماذا تعني بالأمر الذي كنَّا نتحدَّث فيه...؟»

«بخصوص الطفلة مارية التي تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، والتي قد تكون ابنتك. كنت تحدِّثني عنها، وتوقَّفتَ عند سماعنا الصوت».

«آه، تلك الحكاية! أجل.. كنت أحدِّثك عنها حقًّا. لقد نسيت أمرها. لكنَّها ليست طارئة. ما إن نحلّ مشكلة الصوت، أكمل لك الحكاية».

بعد المكالمة، لم أستطع التّركيز في أيّ شيء. سواء في قراءة الكتب أو سماع الموسيقى أو إعداد الطعام؛ كنت أهجس دومًا في ذلك الشيء الموجود تحت جثوة الصخور وسط الغابة. وظلَّت صورة المومياء السّوداء المتيبّسة كالسّمك المجفَّف ماثلة في ذهني.

- 15 -
تلك مجرَّد بداية

اتَّصل منشكي في المساء نفسه، قائلًا إنَّ العمل سيبدأ غدًا الأربعاء في العاشرة صباحًا.

هطل المطر، ثمَّ توقَّف في صباح يوم الأربعاء؛ وكان خفيفًا، بحيث لن يؤثِّر في العمل، حتَّى إنَّه لا حاجة إلى المظلَّة، قد تكفي قبَّعةٌ أو معطف للمطر به قبَّعة. اعتمر منشكي قبَّعة واقية من المطر، كإحدى تلك القبَّعات التي يضعها البريطانيُّون عندما يذهبون لاصطياد البطّ. وكان لونها أخضر زيتيًّا، لا تكاد تفرُّقها عن لون الأشجار التي تدرَّجت بألوان الخريف كلَّما تبلَّلت بقطرات المطر.

استخدم العمَّال سيَّارة خاصَّة لنقل حفَّارة صغيرة إلى أعلى الجبل، وكانت الآلة دقيقة الحجم، وصُمِّمت خصوصًا للاستخدام في أماكن ضيِّقة. كان العمَّال أربعة رجال بالمجمل: قائد الحفَّارة، وعاملان، ومدير تنفيذيّ. وقد أتوا بسيَّارة النقل معًا، يرتدي كلٌّ منهم جبَّةً وبنطلونًا

أزرق مضادًّا للمطر، وينتعل جزمةً بكعب سميك تناسب العمل في الوحل. وعلى الرأس، خوذةٌ بلاستيكيَّة صلدة. بدا أنَّ منشكي والمدير التنفيذيّ يعرف أحدهما الآخر منذ زمن، فكانا يتحادثان بمرح إلى جانب مجسَّم المعبد الصغير. لكنَّ الأُلفة بينهما لم تمنعني من ملاحظة الاحترام البالغ الذي يبديه المدير تجاه منشكي.

بالتأكيد، لا بدَّ أنَّه شخصيَّة مؤثِّرة حتَّى استطاع تأمين كلّ هذه المعدَّات الثقيلة والعمَّال في وقتٍ قصير. رحت أتأمَّل سير العمل بمشاعر تتأرجح بين الانبهار حينًا والحيرة حينًا، لكنَّني كنت حانقًا بعض الشيء. كان الأمر يبدو لي كأنَّه قد فلت من بين يديَّ! وبمعنى ما، شعرتُ بأنَّني استسلمت. وتذكَّرتُ شعوري في الطفولة عندما كان يحدث أحيانًا أن ألعب بلعبةٍ ما، فيأتي أولادُ أكبر منِّي سنًّا وينتزعونها من بين يديَّ ليلعبوا بها بمعزلٍ عنِّي.

استخدم العمَّال الجرَّافة وبعض الحصى والألواح لتسوية الأرض، كي تعمل الحفَّارة بأمان، ثمَّ بدأوا بعمليَّة إزاحة الصخور. وبلمح البصر، دهستِ الجنازيرُ الأغصانَ التي كانت قد نمت بكثافة حول جثوة الصخور. تابعنا العمليَّة من مكانٍ بعيد، نشاهد كيف تُرفَع تلك الصخور القديمة المتراكمة فوق بعضها بعضًا، لتُنقَل إلى مكان آخر. عمليَّة حفرٍ اعتياديَّة، يقومون بمثلها كلّ يوم في كلّ أرجاء الأرض. بل وحتَّى سلوك العمَّال كان اعتياديًّا بانتظامه واتِّباعه خطواتٍ مدروسة بطريقة سلسة. يتوقَّف قائد الحفَّارة أحيانًا، ويتحدَّث بصوت عالٍ مع المدير التنفيذيّ، من دون دلالة على وجود مشكلة. حوارٌ قصير، لا يُطفَأ المحرِّك في أثنائه.

ولكنْ، من جهتي، لم أستطع أن أتأمَّل العمل بمشاعر هادئة. كان قلقي يتعمَّق كلَّما أُزيحت صخرةٌ من هناك. وأحسستُ بأنَّ أطراف

الحفَّارة القويَّة وقواطعها الحادَّة تعرّي أسراري الدَّفينة، التي أخفيتها طويلًا عن عيون الناس، سرًّا تلو سرّ. والمشكلة، هي أنَّني أنا نفسي أجهل محتوى ذلك السرّ الدَّفين. وفكَّرت أكثر من مرة أن أوقف ذلك العمل بأيّ شكل. أو على الأقلّ، ألَّا يُكشَف اللُّغز باستخدام آلة ضخمة وجبَّارة كالحفَّارة. على رأي ماساهيكو، ربَّما من الأفضل عدم إزعاج ذلك المخلوق غامض الطبيعة مدفونًا كما هو. وددتُ مرارًا أن أُمسك بذراع منشكي، وأصرخ: «فلنوقف هذا العمل حالًا! فلنُرجعِ الصخور إلى مكانها!»

لم أفعلها بطبيعة الحال. لم أكن قادرًا. فلقد اتَّخذنا القرار، وبدأ العمل بالفعل، بمساهمة من عدَّة أشخاص. وقد دُفِعَ مبلغ كبير من المال من أجل ذلك (لا أعرف القيمة بالضبط، فكان منشكي هو الذي سيتحمَّلها). لا يمكن إيقاف العمل نهائيًّا آنذاك. وها إنَّ الأمور تتقدَّم بخطوات مؤكَّدة، خارجة عن إرادتي.

وكأنَّ منشكي قرأ أفكاري، فاقترب منّي، وربَّت على كتفي برفق.

«لا داعي للقلق. كلّ شيء يسير على ما يرام. وسنحلّ المسألة بسرعة»، قال بصوت هادئ؛ فأومأتُ صامتًا.

أُزيحت الصخور كلُّها تقريبًا عند منتصف الظهر. ولئن كانت متراكمة فوق بعضها بعضًا بشكلٍ عشوائيّ، باتت الآن مرتَّبة على نسقٍ هرميّ، ومنظَّمة أكثر ممَّا ينبغي، بجوار الموقع. وكان المطر الناعم يتساقط عليها بلا صوت. إلَّا أنَّ ما تحتها لم يكشف عن أرضٍ عارية، بل كان هناك أحجار أخرى تحت الجثوة، مصطفَّة بانتظام نسبيًّا، لتشكِّل قاعدة حجريَّة منبسطة، بما يشبه المربّع بمساحة مترَيْن من كلّ ضلع تقريبًا.

جاء المدير التنفيذيّ إلى جانب منشكي، وسأل: «ما العمل؟ كنتُ أظنّ أنَّ الصخور متراكمة فوق أرض طينيَّة، لكنَّها ليست كذلك. ويبدو أنَّ هناك فراغًا تحت تلك القاعدة الحجريَّة. أنزلتُ سيخًا حديديًّا رفيعًا في إحدى الفتحات، فامتدَّ إلى عمقٍ كبير لا أستطيع تحديده».

صعدنا، أنا ومنشكي، بحذرٍ شديد على القاعدة المكتَشفة. كانت عبارة عن أحجار سوداء رطبة وزلِقة في بعض نقاطها. كانت مقسَّمةً بأيدي البشر، لكنَّ حوافَّها تآكلت بفعل الزمن، فأحدث فُتْحاتٍ صغيرة ما بينها. كان رنين الجَرَس في كلّ ليلة يتسرَّب من تلك الفُتحات، ولا بدَّ أنَّ الهواء يدخل منها ويخرج أيضًا. انحنيتُ، وحاولت أن أنظر إلى الأسفل من تلك الفتحات، لكنَّ الظلام كان طاغيًا، فلم أرَ شيئًا.

«لعلَّها بئرٌ قديمة مغلقة بغطاء حجريّ. لكنَّ القُطر واسعٌ جدًّا بالنِّسبة إلى بئر» ـ قال المدير.

«هل تستطيع إزاحة هذا الغطاء الحجريّ؟» ـ سأله منشكي.

فهزَّ الرجل كتفيْه، وقال: «ربَّما! لم نكن مستعدِّين لذلك. سنواجه مصاعب عدَّة، لكنَّه ليس مستحيلًا. لو كان معنا رافعة لكان الوضع أفضل. ولكنْ يصعب الإتيان برافعة إلى هذا المكان. لا تبدو الأحجار ثقيلة كلٌّ على حدة. وهناك فراغات بينها أيضًا. لعلَّنا بالحنكة نتمكَّن من إزاحتها. سنأخذ راحة الغداء الآن، ونفكِّر خلالها بخطَّة محكمة، ونستأنف العمل بعد الظهر».

عدنا، أنا ومنشكي، إلى البيت. وذهبت إلى المطبخ لتحضير الشطائر باللَّحم المقدَّد والخسّ، وتناولناها معًا في الشرفة، نتأمَّل المطر.

«إنَّ انشغالنا في هذه المسألة سيؤخّر رسم البورتريه، وهو الأمر الأهمّ»، قلت له.

فهزَّ رأسه قائلًا: «البورتريه ليس مستعجلًا. علينا أن نحلّ ذلك اللُّغز أوَّلًا. ثمَّ نعود إلى الرسم».

تساءلتُ إن كان هذا الرجل يريد جدِّيًا أن أرسم وجهه! اجتاحني ذلك الشكّ بغتةً، لكنَّه كان يدغدغ رأسي منذ البداية. هل يريد منِّي أن أرسم له البورتريه حقًّا؛ أم أنَّ في طلبه غرضًا مبيَّتًا؟ هل كان البورتريه ذريعة ليقترب منِّي؟

ولكنْ، ما الغرض المبيَّت يا ترى؟ لم أتوصَّل إلى نتيجة على الرَّغم من إصراري على التَّفكير بالأمر. هل كان يريد أن يحفر تحت تلك الصخور، أهذا هو الغرض؟ مستحيل. لم يكن يعرف عن أمرها شيئًا، فلقد طرأ الحدث فجأة بعد أن بدأتُ برسم البورتريه. لكنَّه أبدى حماسةً بالصوت ولغزه، وأنفق من ماله كثيرًا، وهو الذي لا شأن له بالموضوع إطلاقًا!

سألني وأنا غارقٌ في أفكاري تلك: «هل قرأتَ «علاقةٌ تدوم حياتيْن»؟»

فأجبتُ بنعم.

«وما رأيك؟ أليست قصَّة عجيبة جدًّا؟» ـ قال.

«بالتأكيد. إنَّها كذلك».

نظر إليَّ مطوَّلًا، ثم قال: «صدقًا، لقد جذبتني القصَّة كثيرًا، لسببٍ ما، منذ زمن بعيد. وهذا ما أثار فضولي جدًّا بموضوع الجَرَس».

رشفتُ من القهوة، ثمّ مسحت فمي بالمنديل. عَبَر الوادي غرابان كبيران يتناديان بصياحٍ شديد، ولا يأبهان بالأمطار التي اغمقّ لون جناحَيْهما بفعلها.

سألتُه: «ليس لديّ معلومات كثيرة عن البوذيّة، ما حال بيني وبين فهم تفاصيل القصّة جيّدًا. فهل إنَّ اختيار الراهب دخول «النيوجو» يعني أنّه اختار أن يُدفَن حيًّا بملء إرادته ليقابل الموت؟»

«بالضبط. النيوجو في الأصل تعني «بلوغ النيرفانا». ومن أجل التّفريق بين الأمرَيْن، يُستَخدم تعبير «سينيوجو»، أي «بلوغ النيرفانا حيًّا». فتُبنى غرفةٌ من الحجارة تحت الأرض، مزوَّدة بأنبوب من الخيزران يخرج من سطح الأرض لتأمين التهوية. وقبل الدخول فيها، يتّبع الراهب حِميةً تُعرَف بـ«الموكوجيكي»، بحيث إذا مات لا يتفسّخ جسده، بل يتحوّل إلى مومياء محنَّطة بالكامل».

«موكوجيكي؟»

«أجل. وتعني تناول الأعشاب والخضروات والثمار فقط. لا يضع في فمه أيّ طعامٍ يحتاج إلى الطّهي، بداية من البقول. أي أنّه أثناء حياته، يحاول التخلُّص من الدُّهون والسّوائل بأقصى حدّ ممكن. يُغيِّر من تركيبة جسمه كي يتحوّل إلى مومياء محفوظة. وبعد ذلك، يلج إلى باطن الأرض. ثمّ يتلو الكتب البوذيّة المقدَّسة، وهو صائم تحت الظلام، بالتزامن مع النقْر على الجونج، أو رنّ الجَرَس. يصعد الصوت من خلال أنبوب الهواء. ثمّ ينقطع بعد فترة. ما يعني أنّه لفظ أنفاسه الأخيرة. وبمرور أعوام وشهور طويلة، يتحوّل الجسد تدريجيًّا إلى مومياء. وقد تقرَّرَ الطقسُ أن يُخرَج من هناك بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر».

«وما الغاية من كلّ هذا؟»

«كي يصبح سوكوشنبوتسو: بوذا محنَّطًا. يبلغ الإنسان الاستنارة من خلال ذلك، ويصل بنفسه إلى حالة تتخطَّى الموت والحياة. الأمر المرتبط بحدّ ذاته بخلاص البشريَّة، أي بلوغ النيرفانا. وهكذا، توضَع مومياء الراهب في تابوت داخل المعبد، ويحجّ إليه الناس تعبُّدًا واستغاثةً».

«لكنَّه في الواقع أحد أنواع الانتحار، أليس كذلك؟»

أومأ موافقًا، وقال: «بالتأكيد. لقد مُنِعَت طقوس النيوجو في عصر ميجي. وكلُّ مَن يساعد راهبًا على ذلك، يُعتَبر متَّهمًا بالمساعدة على الانتحار. لكنَّ ذلك لم يمنع عددًا من الرهبان من ممارستها سرًّا. فظلُّوا تحت الأرض، ولم يستخرجهم أحد».

«هل تعتقد أنَّ جثوة الصخور تلك كانت مكانًا لممارسة النيوجو سرًّا؟»

هزّ منشكي رأسه نافيًا، وقال: «لا يمكن معرفة ذلك قبل إزالة الأحجار. لكنِّي لا أستبعد. صحيحٌ، أنَّنا لم نجد أنبوب الخيزران، لكنَّ الفتحات ما بين الصخور كانت كثيرة، يمرّ عبْرها الهواء، والصوت أيضًا».

«هل مازال أحدٌ تحت الصخور حيًّا، يرِنُّ الجَرَس كلّ ليلة؟»

أومأ نافيًا مرَّة أخرى، وقال: «لا. العقل ينفي إمكانيَّة ذلك بالطبع».

«بلوغ النيرڤانا[1]... يختلف عن الموت، أليس كذلك؟»

---

(1) مفهوم النيرڤانا في البوذيّة يدلُّ على حصول روح الكائنات الحيَّة على الخلاص، والخلاص هنا يعني العتق من دورة التناسخ وتكرار الموت والحياة بين العوالم الستة التي تنتقل بينها الرُّوح. أيّ أنَّ النيرڤانا تعني الخروج من دائرة الموت والحياة، وهذا معنى تتخطَّى حالة الموت والحياة / المترجم.

«أجل. أمران مختلفان. حتى أنا، لست ملمًّا كفاية بكلّ تعاليم البوذيّة، لكنَّ النيرفانا، في حدود فهمي، تتخطّى حالة الحياة والموت. هي المكان الذي تنتقل إليه الرُّوح بعد أن يفنى الجسد. بمعنى أنَّ الجسد في هذه الدُّنيا مجرَّد وعاء مؤقَّت تسكن فيه الروح».

«إذا استطاع الراهب بلوغ النيرڤانا من خلال النيوجو، فهل يستطيع أن يتجسَّد مرَّة أخرى من هناك؟»

رمقني منشكي طويلًا من دون أن ينبس ببنت شفة. ثم قضم من شطيرته وشرب من القهوة.

«بأيِّ معنى؟» ـ سألني.

«لم أسمع صوت الجرس قبل أربعة أو خمسة أيّام على الأكثر. متأكّدٌ من ذلك. فلو كان مسموعًا من قبل، ولو طفيفًا، كنت سأنتبه إليه. فهو صوت لا يمكن إغفاله مهما كان خافتًا. إلّا أنّني بدأت أسمعه منذ ليالٍ معدودة فقط. وبالتالي، إذا افترضنا وجود أحدهم تحت القاعدة الحجريَّة، فإنَّه لم يبدأ برنّ الجَرَس منذ وقتٍ طويل».

أعاد منشكي كوب القهوة إلى الصحن، وظلّ يتأمَّل الرَّسم، وبدا أنَّه يفكِّر. ثمّ قال: «هل سبق أن رأيتَ بوذا محنَّطًا؟»

هززتُ رأسي نافيًا.

«أمَّا أنا، فقد رأيتُ منه عدَّة مرَّات. عندما كنتُ في رحلة وحيدًا إلى محافظة ياماغاتا في شبابي، شاهدته محفوظًا في عدد من المعابد البوذيَّة. لسببٍ ما، تكثر حالات البوذا المحنَّط في إقليم طوهوكو، وخصوصًا محافظة ياماغاتا. للصدق، منظرهم ليس جميلًا أبدًا. ربَّما بسبب ضعف إيماني. لكنّي عندما رأيته بأمّ العين قبالتي، لم أشعر بأيّ

إجلال أو امتنان. جثثٌ محنَّطة، صغيرة، متيبِّسة، بنِّيَّة اللَّون... ذكَّرتني باللَّحم المقدَّد المجفَّف. بالفعل، إنَّ الجسد مجرَّد وعاء عدميّ مؤقَّت. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي نتعلَّمها من البوذا المحنَّط. فمهما بذلنا من جهود، لن يبقى منَّا سوى لحمٍ مقدَّد ومجفَّف».

أمسك بيده شطيرة اللَّحم المقدَّد، وأخذ يتأمَّلها كأنَّها قطعةً نادرة. بدا كأنَّه يرى لحمًا مقدَّدًا للمرَّة الأولى في حياته. ثمَّ تابع قائلًا:

«بأيّ حال، فلننتظر أن تنتهي راحة الغداء، وتُزاح الحجارة عن موضعها. عندها، ستتَّضح أمورٌ كثيرة، وربَّما لا تكون مُسرَّة».

رجعنا إلى الموقع عند الواحدة والنصف. وكان العمَّال قد أنهوا غداءهم وعادوا إلى عملهم. غرز اثنان منهم ما يشبه الإسفين المعدنيّ في ثغرة بين الحجارة، وربطا الإسفين بحبلٍ ليجرَّه الحفَّار. فتراخت الحجارة، وعُلِّقت بالحبل، فسحبها الحفَّار أيضًا. استغرق العمل بعض الوقت، لكنَّ الحجارة كانت ترتفع واحدة تلو أخرى، وتتراكم في الجوار.

تحدَّث منشكي مع المدير التنفيذيّ على انفراد، ثم جاءا صوبي.

«كما توقَّعت، لم تكن الحجارة سميكة جدًّا ـ فسَّر الرَّجل. ويبدو أنَّ تحتها غطاءً شبكيًّا داعمًا. علينا أن ننزعه أيضًا، حتَّى لو كان الأمر صعبًا. لكنَّني لا أستطيع التكهُّن بما يوجد تحته. حالما ننتهي من الحجارة، أُخبركما. سنستغرق مزيدًا من الوقت نظرًا إلى الوتيرة التي نتقدَّم بها. بإمكانكما العودة إلى البيت إن أردتما. لا داعي للبقاء والانتظار هنا».

سرنا عائديْن إلى البيت. ربَّما كان من الأفضل استغلال ذلك الوقت في إكمال البورتريه، لكنِّي لم أشعر بالقدرة على التَّركيز.

أعصابي متوتّرة بخصوص الحفريّات في الغابة. تحت جثوة الصخور، قاعدة حجريّة مربّعة بمساحة مترَيْن. وتحتها شبكة متينة. وتحتها يوجد مكان فارغ على ما يبدو. لم أستطع محو تلك الصورة من رأسي! أصاب منشكي حين قال إنّنا لن نستطيع التفرُّغ لأيِّ شيء ما لم ننتهِ من هذا اللّغز.

«هلّا استمعنا إلى الموسيقى في هذه الأثناء؟» ـ سألني. فأجبت بنعم. له أن يشغِّل أيّ أسطوانة يشاء، لأنّي سأدخل المطبخ لتحضير العشاء.

اختار أسطوانة «سوناتا للبيانو والكمان» لموتسارت، وشغّلها. لا يمتاز مكبّر الصوت «تانوي» بعلامة تجاريّة شهيرة، لكنّ الصوت الذي يبثّه راسخ وعميق، ولعلّه الأفضل لسماع الموسيقى الكلاسيكيّة، لاسيّما موسيقى الحُجرة. وكان متناسبًا مع مردِّد تفريغ الهواء من الأسطوانة بشكلٍ رائع، ربّما لأنّ كلَيْهما قديم. على البيانو، كان العازف جورج سيل؛ وعلى الكمان، رافائيل درويان. جلس منشكي على الأريكة، وأغمض عينَيْه، وأسلم نفسه لتيّار الموسيقى. وكنت في الجوار أستمع إلى الموسيقى وأحضّر صلصة الطماطم، إذ كنت قد اشتريتُ من الطماطم أكثر ممّا ينبغي، وكان لزامًا عليّ أن أطبخها قبل أن تفسد.

غليتُ الماء في قِدْرٍ كبيرة، ووضعتُ فيها الطماطم لفترة قصيرة. ثمَّ نزعتُ قشورها وقطّعتها بالسكّين، وأزلتُ بذورها، ثمّ عصرتُها. وضعتُ زيت زيتون وثومًا في مقلاة كبيرة على النار، وأضفتُ إليها الطماطم، وتركتها تنضج على نار هادئة وقتًا طويلًا. وكنتُ أزيل الزبَد كلّما ظهر. اعتدتُ على صنع هذه الصلصة خلال حياتي الزوجيّة. تتطلّب الوصفة جهدًا ووقتًا، لكنّها بسيطة من حيث المبدأ. كنتُ أحضّرها وأنا أقف

وحيدًا في المطبخ، أستمع إلى الموسيقى من القرص المدمَّج عندما تكون زوجتي في عملها. يطيب لي الاستماع إلى الجاز بينما أطبخ. ثالونيوس مونك على وجه الخصوص. أَحَبُّ مجموعاتِه إليَّ «مونك ميوزيك»، إذ تحتوي على ارتجالات فرديَّة مذهلة لكلٍّ من كولمان هوكينز وجون كولترين. إلَّا أنَّ إعداد صلصة الطماطم مصحوبًا بسماع موسيقى الحُجرة لموتسارت أمرٌ لا بأس به أيضًا!

لم يمضِ وقت طويل على المرَّة الأخيرة التي طبختُ فيها خلال الظهر كلّه وأنا أستمع إلى موسيقى مونك (لم تنقضِ إلَّا ستَّة أشهر على انفصالي عن زوجتي). وعلى الرَّغم من هذا، بدت لي الذكرى من ماضٍ سحيق؛ كأنَّها حدثٌ تاريخيّ وقع منذ جيل، ولا يتذكَّره إلَّا عدد محدود من الناس! تساءلتُ فجأة: تُرى ماذا تفعل زوجتي الآن؟ هل تعيش مع رجلٍ آخر؟ أم ما تزال تسكن في شقَّة حيّ هيرو بمفردها؟ في كلتا الحالتَيْن، يُفتَرض أنَّها في المكتب تعمل في تلك اللَّحظة. ما الفرق بين حياتها السَّابقة عندما كنَّا معًا، وحياتها الحالية بدوني؟ وما شعورها إزاء هذا الفرق؟ كنتُ أفكِّر في هذا الأمر على مضض. فهل هي تفكِّر مثلي بالأيَّام التي أمضيناها معًا على أنَّها «أحداثٌ وقعت من زمن بعيد جدًّا»؟

انتهت الأسطوانة، وسمعتُ صريرًا، فذهبت إلى غرفة المعيشة. كان منشكي غارقًا في النوم على الأريكة، عاقدًا ذراعَيْه، مستندًا إلى جنبه قليلًا. رفعتُ الإبرة عن الأسطوانة التي ظلَّت تدور حتَّى أوقفتُها. زال الصرير، لكنَّ منشكي لم يستيقظ. لا بدَّ أنَّه متعَب، إذ كان يشخر بخفَّة. تركته نائمًا، وعدتُ إلى المطبخ. أطفأتُ النار تحت المقلاة، وشربتُ كوبًا كبيرة من الماء. وبدأتُ بقلي البصل، طالما أنَّه ما زال هناك وقت.

كان منشكي مستيقظًا عندما رنَّ الهاتف. كان في الحمَّام يغسل وجهه بالصابون ويمضمض فمه. مرَّرتُ إليه السمَّاعة، لأنَّ الاتِّصال آتٍ من المدير التنفيذيّ. تبادل مع الرجل بضع كلمات، ثمَّ قال لي يتوجَّب علينا الذهاب إلى الموقع فورًا. «انتهوا من العمل تقريبًا»، أبلغني وهو يعيد إليَّ السمَّاعة.

كان المطر قد توقَّف في الخارج. ما زالت السُّحُب تغطِّي السَّماء، لكنَّ الضوء كان أقوى من ذي قبل. بدا أنَّ الطقس يتحسَّن. صعدنا العتبات الحجريَّة، واخترقنا الغابة بخطوات سريعة. كان الرجال الأربعة خلف مجسَّم المعبد يحيطون بالحفرة، وينظرون في داخلها. كان محرّك الحفَّارة مطفأً. لا شيء يتحرَّك. الغابة ترزح تحت سكونها المريب.

أُزيحت الحجارة تمامًا، فانفتحت محلَّها حفرة إلى باطن الأرض. ورُفِعَت الشبكة المربَّعة أيضًا، ووُضِعت جانبًا. كانت عبارة عن غطاء خشبيّ سميك يبدو ثقيلًا. بدا عليه القِدَمُ، لكنَّ العفن لم يصبه بعد. وفي الأسفل ما يشبه الغرفة الدائريَّة. قطرها أقلّ من مترَيْن، وعمقها نحو مترَيْن ونصف المتر تقريبًا. مطوَّقة بالأحجار كلِّيًا. ويبدو أنَّ قاعها ليس فيه إلَّا تربة طبيعيَّة؛ خالية من العشب تمامًا. كانت الغرفة خاوية كلِّيًا: لا أثر لشخصٍ يطلب النجدة، لا مومياء تشبه اللَّحم المتيبّس. إلَّا أنَّ في القاع جَرَسًا. لا بل أكثر من كونه جَرَسًا، كان الشيء يشبه آلة موسيقيَّة قديمة مكوَّنة من مجموعة صنوج صغيرة، ومزوَّدة بمقبض خشبيّ بطول خمسة عشر سنتيمترًا تقريبًا. أناره المدير من أعلى بضوءٍ كاشفٍ يدويّ.

«ألم يكن في الحفرة شيء غير هذا؟» ـ سأله منشكي.

«أجل. هذا ما عثرنا عليه فقط. اتَّبعنا توجيهاتك. أزحنا الحجارة والشبكة، ولم نلمس أيّ شيء آخر».

«غريب...» قال منشكي، كأنَّه يُحدِّث نفسه: «هل أنت متأكِّد من عدم وجود أشياء أخرى؟»

«لقد اتَّصلت بك حالما رفعنا الغطاء»، أجابه المدير. «ولم ينزل أحدٌ إلى القاع بعد. وجدناها على هذه الحال التي تراها».

«بالتأكيد!» ـ قال منشكي بصوتٍ حادّ نوعًا ما.

«ربَّما كانت بئرًا في الأصل، تابع المدير. ثمَّ أُغلِقت وحُوِّلت إلى حفرة. لكنَّ القطر أكبر من أن يكون لبئر، والأحجار المحيطة به محكمة الصنع أكثر ممَّا يلزم لبئر. يُفترض أنَّها لم تُشيَّد بسهولة. لعلَّها كانت في غاية الأهمِّيَّة لمن صنعها، وبذل جهدًا ووقتًا كبيرَيْن فيها»!

«هل هناك مانع من النزول إلى القاع؟» ـ سأله منشكي.

احتار المدير قليلًا، ثمَّ قال بوجهٍ متجهِّم: «حسنًا، دعني أنزل أنا أوَّلًا، تحسُّبًا لوجود شيء غير متوقَّع. وفي حال عدم وجود مشكلة، فبإمكانك أن تنزل أنت أيضًا يا سيِّد منشكي. موافق؟»

«بالتأكيد. فليكن ذلك».

جاء أحد العمَّال بسُلَّم معدنيّ قابلٍ للطيّ من السيَّارة، ثمَّ فتحه وأنزله في الغرفة. ارتدى المدير خوذة على رأسه، وتعلَّق على السُّلَّم ونزل إلى أسفل نحو مترَيْن ونصف المتر. وظلَّ فترة يفحص المكان. نظر إلى أعلى أوَّلًا، واستخدم المصباح اليدويّ بعدها لفحص الجدار الحجريّ المحيط بالغرفة بدقَّة. ثمَّ تفحَّصَ القاع حول قدميْه. وتوجَّه بحذر بالغ إلى الشيء الذي يشبه الجرس المرمي أرضًا. لكنَّه لم يلمسه بيده، إنَّما تفحَّصه بالنَّظر فقط. وبعد ذلك، حكَّ التراب بأسفل جزمته غير مرَّة، وضربها بكعبه كذلك. ثمَّ استنشق الهواء بنفَس عميق مرارًا،

ليشمّ رائحة المكان. مكث هناك قرابة خمس أو ستّ دقائق تقريبًا. ثمَّ صعد السُّلَّم ببطء عائدًا إلينا.

«يبدو أنَّ الوضع آمن. ما من حشرات ضارَّة. الأرضيَّة متينة، غير قابلة للانزلاق. لا مانع من أن تنزل بنفسك يا سيِّد منشكي».

خلع منشكي السترة المطريَّة لتخفّ حركته، وظلّ بقميصه الصوفيّ الناعم والبنطلون القماشيّ فقط. علَّق المصباح من شريطه على عنقه، ونزل السُّلَّم. وكنَّا جميعًا نراقبه من أعلى صامتين. سلَّط المدير الضوء الكاشف عند قدميْه لينير له درجات السلَّم. وقف منشكي في قاع الحفرة، ثابتًا في مكانه لفترة وكأنَّه يراقب المكان. ثمَّ لمس الحائط الحجريّ بيده، وانحنى للتأكُّد من ملمس الأرض. أمسك بيده شبيه الجَرَس، وتمعَّن فيه مسلِّطًا عليه ضوء المصباح. ثمَّ هزَّه هزَّات صغيرة عدَّة مرَّات. فصدر «صوت الجَرَس» إيَّاه، بلا أدنى شكّ. الصوت ذاته تحديدًا. كان شخصٌ ما يرنّ الجَرَس من هناك في منتصف اللَّيل. لكنَّ ذلك الشخص اختفى. وتبقَّى الجَرَس فقط. هزَّ منشكي رأسه مرارًا وهو ينظر إلى الجَرَس، كأنَّه يقول: «شيء غريب، عجيب»! تفحَّص الحائط الدائريّ بدقَّة أكبر. بحث عن مخرج أو باب سرِّيّ فيه. لكنَّه لم يعثر له على أثر. ونظر إلينا في النهاية، فبدا لي أنَّه واقع في حيرة شديدة.

وضع قدمه على السُّلَّم، ومدّ الجَرَس بيده تجاهي، فانحنيتُ والتقطته منه. كان المقبض الخشبيّ القديم باردًا ينضح بالرطوبة. فهززته هزَّات خفيفة، مثلما فعل منشكي من قبل، فصدر صوتٌ صاخب غير متوقَّع. لا أدري ماهيَّة المادَّة التي صُنع منها، لكنَّ أجزاءه المعدنيَّة لم تتعرَّض للتلف. أجل، كانت متَّسخة، لكنَّها لم تصدأ بعد. ولم أفهم سرّ

عدم تعرُّضها للصدأ على الرَّغم من وجودها في باطن الأرض الرَّطبة فترة طويلة من الزمن!

«ما هذا؟» ـ سألني المدير. كان قصير القامة، مكتنز الجسد، في منتصف الأربعينيَّات من العمر. أسمر البشرة من لفح الشمس، وقد نبتت له لحية خفيفة بسبب إهماله لحلاقتها.

«لا أدري ـ أجبتُ. لعلَّها آلة بوذيَّة. بأيّ حال، تبدو من حقبةٍ في غاية القِدَم».

فسأل مرَّة أخرى: «أهذا ما تبحثان عنه؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلت: «لا. يختلف قليلًا عمَّا توقَّعناه».

«المكان غريبٌ! لن أستطيع وصفه ببراعة، لكنَّ جوّ الحفرة غامضٌ جدًّا. تُرى من أنشأها؟ ولأيّ غرض؟ لا شكَّ أنَّها من عصرٍ قديم، ولا بدَّ أنَّ نقل كلّ تلك الصخور إلى قمَّة الجبل وتثبيتها بعضًا فوق بعض استلزما جهودًا وطاقات ضخمة».

التزمتُ الصمت؛ فيما خرج منشكي من الحفرة صاعدًا إلينا. سحب معه المدير إلى انفراد، ودار بينهما حوار طويل في أمرٍ ما. وكنت في أثنائها واقفًا بجانب الحفرة والجَرَس في يدي. حدَّثتني نفسي بالنزول، لكنَّني عدلتُ عن ذلك. من الأفضل التروّي عمَّا لا لزوم لفعله، على رأي ماساهيكو أمادا. ومن الذكاء ربَّما، ترك الأشياء الغريبة على عواهنها. وضعتُ الجَرَس أمام مجسَّم المعبد مؤقَّتًا، ومسحتُ كفَّيَّ بالبنطلون أكثر من مرَّة.

جاء منشكي نحوي، وقال لي: «طلبتُ منه أن يتفحَّص الحفرة كلَّها بدقَّة. فللوهلة الأولى، تبدو حفرة عاديَّة، لكنِّي طلبت أن يفحص

كلّ جزء فيها احترازًا. لعلّنا توصّلنا إلى شيءٍ ما، رغم عدم اقتناعي بوجود ذلك الشيء». نظر إلى الجَرَس الذي وضعتُه عند عتبة مجسّم المعبد، وقال: «من الغريب أن نجد الجرس فقط. فلا بدَّ أن يكون هناك شخص يرنّه كلّ ليلة».

«ربَّما يرُنّ الجرس من تلقاء نفسه، من دون أن يلمسه أحد!» ـ قلت.

ضحك منشكي، وقال: «افتراضٌ مثير، لكنَّه غير مقنع. ثمَّة شخص يرسل إشارة من قاع الحفرة، لغايةٍ في نفسه. يرسلها إليك أنت، أو إلينا نحن الاثنيْن، أو إلى عددٍ غير محدَّد من الناس. لكنَّه اختفى تمامًا، وكأنَّه دخان. أو ربَّما خرج من هنا».

«خرج؟»

«متسلِّلًا، تحت أعيننا».

لم أفهم ما قاله جيِّدًا.

«ربَّما يكون شيئًا لا تراه العين. مثل الرُّوح أو ما شابه» ـ قال.

«وهل تؤمن بوجود الأرواح؟»

«وأنت؟»

عجزتُ عن الردّ.

فتابع كلامه: «من جهتي، لا أعتقد أنَّنا لسنا مجبرين على الإيمان بوجود حقيقيّ للرُّوح. لكن إن عكسنا هذا القول أيّ أنَّني أؤمن أيضًا بفكرة أنَّه لا ضرورة لنفي الإيمان بوجود حقيقيّ للرُّوح. إنَّه قولٌ غامض وملتوٍ قليلًا، ولكنْ، هل فهمتَ ما أرمي إليه؟»

«نوعًا ما» ـ أجبت.

أمسك منشكي بالجَرَس، وهزَّه أكثر من مرَّة. وقال: «من المحتمل أنَّ أحد الرهبان لفظ أنفاسه الأخيرة في جوف تلك الحفرة، وهو يرنّ هذا الجرس ويتلو التعاويذ البوذيَّة، مدفونًا في وحدة شديدة تحت ظلام دامس في قاع بئر مغلقة بغطاءٍ ثقيل. وربَّما جرى الأمر بسرِّيَّة تامَّة. لا أعرف من يكون! أكان راهبًا عظيمًا؟ أم مجرَّد متديِّن عاديّ؟ في كلِّ حال، نصب أحدهم فوقه الصخور. لا أعلم ما التَّفاصيل التي حدثت بعدئذٍ، إلَّا أنَّ الناس نسوْا كلِّيًا أنَّ الراهب كان يمارس النيوجو هنا. ثمَّ حدث زلزال ضخم في وقت ما، فانهارت الصخور، وصارت مجرَّد كومة. لقد تضرَّرت منطقة أوداوارا ضررًا كبيرًا بالزلزال الفتَّاك الذي ضرب إقليم الكانتو عام 1923. وربَّما انهارت الجثوة وقتذاك. ليأتي النسيان ويطوي كلّ شيء».

«إن كان كذلك، فأين اختفى البوذا المحنَّط، أو المومياء؟»

هزَّ منشكي رأسه، وقال: «لا أدري. لعلَّ أحدهم فتح الحفرة في مرحلة معيَّنة، وأخرجه منها».

«كان عليه أن يزيح كلّ تلك الصخور، ثمَّ يعيدها كما كانت. فمن الذي كان يرنّ الجرس في ليلة الأمس إذن؟»

هزَّ رأسه ثانيَّة. ثم ابتسم وقال: «يا لخيبة الأمل! بعد أن أتينا بكلّ تلك المعدات إلى الجبل، وأزحنا صخور الجثوة الثقيلة، وفتحنا الغطاء الحجريّ، لتكون النتيجة هي أنَّنا لم نفهم أيّ شيء مطلقًا. ولم نحصل إلَّا على هذا الجَرَس القديم بصعوبة».

خضعتِ الحفرةُ لفحصٍ دقيق، ولم نتحقَّق من وجود أيِّ حيلة. كانت غرفة دائريَّة مطوَّقة بأحجار قديمة، عمقها متران وثمانون سنتيمترًا

وقطرها متر وثمانون سنتيمترًا تقريبًا (قاس العمّال أبعادها بدقّة). رفعوا الحفّارة على سيّارة النقل، وجمعوا المعدّات والأجهزة المتنوّعة، وغادروا الموقع. ولم يبق سوى حفرة مفتوحة، وسلّم معدنيٌّ تركه المدير التنفيذيّ بلفتة طيّبة منه. وضعوا فوق الحُفرة عددًا من الألواح السّميكة لئلّا يقع فيها أحد بالخطأ، وثبّتوها بصخور ثقيلة كي لا تطير إذا هبّت رياح قويّة. فالغطاء الأصليّ المصنوع من شبكة خشبيّة كان أثقل من أن يُحمَل بعيدًا، لذا تركوه على الأرض في الجوار، وغطّوه بستارة بلاستيكيّة.

وفي النهاية، طلب منشكي من المدير أن يتكتّم عن تلك الأشغال، وأقنعه بأنّها ذات غايات أثريّة؛ لذا نريد أن يظلّ الموضوع سرًّا عن الآخرين، ريثما تأتي الفرصة المناسبة للإعلان عنه.

فأجاب المدير بتعبيرٍ جدّيّ: «عُلم ويُنفَّذ. سيبقى الأمر بيننا فقط. وسأشدّد على العمّال أيضًا ألّا ينطقوا بما لا لزوم له».

وعندما غادروا، طغى على المكان صمتُ الجبال المعهود. فبدا المكان، الذي قُلِبَ رأسًا على عقب، حزينًا مؤلمًا كجلد إنسان أُجريت له عمليّة جراحيّة. تحطّمت أغصان الغاب التي كانت تفخر بعلوّها وازدهارها، تحت الوطء حتّى الرمق الأخير؛ وبقيت آثار الجنزير على سطح الأرض الرّطبة. وكانت الأمطار قد توقّفت تمامًا، لكنّ السّماء ما تزال متّشحة بغيوم رماديّة متلبّدة.

وإذ نظرتُ إلى الصخور المتكوّمة على مقربة من البئر، فكّرتُ مجدّدًا في أنّ إقحام أنوفنا كان خطأً. كان ينبغي أن نترك الوضع على حاله. وفي الوقت نفسه، لم يكن أمامنا التصرّف خلافًا لما فعلنا؛ هذه حقيقة أيضًا. لم أكن سأتعايش مع ذلك الصوت اللّيليّ الغامض إلى الأبد. وبغضّ النّظر عن هذا، لو لم أتعرّف على منشكي، لكان من

المستحيل عليَّ أن أفتح تلك الحفرة. كان كلّ ذلك بفضله، وهو الذي تحمَّل التكاليف المادِّيَّة كلَّها.. ومن يدري كم دفع من المال!

حقًّا. أكانت الصدفة هي التي لاقتني به لنتوصَّل إلى ذلك «الاكتشاف» العظيم؟ أكان الأمر برمَّته مجرَّد تتابع للصدف؟ ألم يكن محبوكًا وسريعًا أكثر من اللُّزوم؟ أفيه خطَّةٌ أُعِدَّت مسبقًا؟ كنتُ أتخبَّط بتلك التساؤلات، التي لا تجد بَرًّا ترسو عليه، وأنا عائدٌ معه إلى البيت. كان يحمل الجَرَس الذي استخرجناه من الحُفرة، وظلّ ملازمًا يدْه طوال المسير. كأنَّه يحاول أن يقرأ رسالةً ما من ذلك الملمس.

وعندما وصلنا، سألني: «أين نضع هذا الجرس؟»

لم يكن لديَّ أيّ فكرة عن المكان المناسب في البيت لوضع الجرس فيه. ولم أكن قادرًا على تحمُّل أن أبقى برفقة ذلك الغرض الغامض تحت سقف واحد؛ كما لم يكن واردًا أن أرميه في الخارج. ربَّما كان بالفعل آلة بوذيَّة مهمَّة ومشحونة بالرُّوحانيَّة، لا أستطيع أن أعاملها باحتقار. لذا، قرَّرت أن أتركه موقتًا في المرسم ـ تلك الغرفة التي تمتاز بالاستقلاليَّة، التي من الممكن وصفها بالمنطقة المحايدة. أفسحتُ مكانًا فوق الرفّ الرفيع الطويل الذي تصطفّ عليه أدوات الرَّسم، ووضعته هناك، فبدا كأنَّه أداة خاصَّة تُستَخدم في الرَّسم، إذ كان بجانب كوب خزفيٌّ كبير غُرِسَت فيه الرِّيَش.

«كان يومًا عجيبًا!» ـ قال لي منشكي.

«المعذرة. لقد بدَّدتُ يومك بالكامل».

«لا. لا تقل هذا. بل كان يومًا مثيرًا للاهتمام بالنِّسبة إليَّ. لكنَّ هذا لا يعني أنَّ الأمر قد انتهى».

ظهرت على وجهه ملامح مبهمة، وكأنَّه ينظر إلى الأفق البعيد.

فسألته: «هل تقصد أنَّ شيئًا جديدًا سيحدث؟»

اختار منشكي كلماته بِحِرْص: «لا أعرف كيف أشرح فكرتي. ولكنْ، لديَّ إحساسٌ بأنَّها مجرَّد بداية».

«مجرَّد بداية؟»

رفع يديْه إلى أعلى كعادته، وقال: «بالطبع، هذا لا يعني أنَّني متأكِّد. ربَّما ينتهي الأمر هكذا، بدون حدوث شيء، مختومًا بـ«كان يومًا عجيبًا» ليس إلَّا. وأعتقد أنَّ هذه أفضل النهايات. لكنِّي إذ أفكِّر في الأمر مليًّا، أجد أنَّ كثيرًا من التساؤلات لم تجد إجابة. وإنَّها تساؤلات كبيرة. هذا ما يجعلني أتوقَّع حدوث شيءٍ ما عمَّا قريب».

«وهل توقُّعك متعلِّق بتلك الحفرة الحجريَّة؟»

نظر منشكي إلى ما وراء النافذة، ثمَّ قال: «لا أعلم ما الذي سيحدث. إنَّه حدْسٌ محض».

بَيْد أنَّ حدْسه ـ أو نبوءته ـ كان في محلِّه. فذلك اليوم، على حدّ قوله، كان بالفعل مجرَّد بداية.

ـ 16 ـ
يوم جيِّد نسبيًّا

لم أستطع النوم. كنتُ قلقًا من أن يرنّ الجرس أثناء اللَّيل، بعد أن وضعته على الرفّ في المرسم. تُرى ما الذي كنت سأفعله لو رنّ الجرس حقًّا؟ هل أدفن رأسي تحت الغطاء وأتظاهر بعدم سماعه حتى يطلع الصباح؟ أم أن أحمل المصباح اليدويّ وأذهب إلى المرسم لاستطلاع الأمر؟ وما الذي كنت سأكتشفه لو حدث ذلك؟

بقيتُ في الفراش أقرأ كتابًا من دون التوصُّل إلى قرار نهائيّ لما يجب عليَّ فعله. لكنَّ الجرس لم يرنّ، حتى بعد أن تجاوز الوقتُ الساعةَ الثانية. كان طنين الحشرات وحده هو الذي يتناهى إلى مسمعي. وكنتُ أنظر إلى السَّاعة التي على الدُّرْج بجوار الفراش كلّ خمس دقائق في أثناء القراءة. تنفَّستُ الصُّعداء أخيرًا، وتلاشى قلقي عندما رأيتُ رقم 2.30 يظهر على الشاشة الرقميَّة. لن يرنّ الجرس هذه اللَّيلة على الأرجح. أغلقتُ الكتاب، وأطفأتُ المصباح، ونمت.

وحالما استيقظت صباحًا، قبل السّابعة بقليل، اتّجهت إلى المرسم لرؤية الجرس. كان في مكانه كما وضعتُه في الأمس. أنارت أشعّة الشمس الجبل، وبدأت الغربان تزاول نشاطها الصباحيّ الصاخب المعتاد. لم يبدُ لي الجرس مشؤومًا بالمطلق عندما نظرتُ إليه تحت ضوء النهار. مجرّد آلة بوذيّة بسيطة، تنحدر من عصرٍ تليدٍ، كانت تُستَخدم فيه كثيرًا.

ذهبتُ إلى المطبخ، وأعددتُ القهوة في الماكينة وشربتها، ثمّ سخّنتُ كعكة مدورة قبل أن تيبس وأكلتها. وبعد ذلك، خرجتُ إلى الشرفة واستنشقتُ نسيم الصباح، واستندتُ إلى السّياج أتأمّل بيت منشكي على الجانب المقابل من الوادي. كان زجاج نوافذه الكبيرة الملوّن يتألّق بضياء الصباح. ولا بدّ أنّ خدمة التّنظيف الأسبوعيّة تتضمّن المرور على كلّ النوافذ، فلطالما احتفظ الزُّجاج ببريقه وجماله ونظافته. تأمّلتُه طويلًا، لكنّ منشكي لم يظهر من شرفة بيته. ولم تُتح لنا فرصة التلويح باليدَيْن من على جانبَي الوادي بعد.

ذهبتُ في العاشرة والنصف إلى المتجر بسيّارتي لشراء أطعمة، وعدتُ ورتّبتُ ما اشتريته في الثّلّاجة، وحضّرتُ وجبة غداء خفيفة: سلطة طماطم بمُجمَّد حليب الصويا، مع كرةٍ من الرزّ المسلوق. وشربتُ الشاي الأخضر المكثّف بعد الغداء، ثم استلقيتُ على الأريكة أستمع إلى موسيقى رباعي الوتريّات لشوبرت. موسيقى جميلة. قرأتُ في الشرح المكتوب على غطاء الأسطوانة، أنّ تلك المقطوعة في تأديتها للمرّة الأولى، لاقت اعتراضًا شديدًا من الجمهور، بسبب أنّها «حديثة أكثر من اللّازم». لم أستطع تمييز الحداثة فيها، ويبدو أنّ الرجعيّين لم يألفوها حينذاك.

عندما انتهى الوجه الأوَّل من الأسطوانة، شعرت بالرَّغبة في النوم فجأةً. فوضعتُ لحافًا على جسدي، وغفوتُ على الأريكة بعض الوقت. عشرون دقيقة تقريبًا. أحسستُ بأنَّني رأيت عددًا من الأحلام. لكنَّي نسيتُها تمامًا عندما صحوتُ. يا لهذا النوع من الأحلام: تلك التي تتجلّى كقِطَعٍ متناثرة لا روابط بينها، لكنَّها تتقاطع. ولكلّ قطعة ما يناسبها من الكمّ والكيف. فإذا هي اشتبكت، محتْ كلُّ قطعةٍ الأخرى!

ذهبتُ إلى المطبخ، فتحتُ الثلَّاجة، وشربتُ مياهًا معدنيَّة من الزجاجة مباشرة، وأقصيتُ عنّي بقايا النعاس الذي كان يحوم كأشلاء الغيوم في جسدي. ثمَّ فكَّرتُ بوضعي مجدَّدًا: وحيدًا وسط الجبال، كأنَّ القَدَر جاء بي إلى هذا المكان المنعزل. وتذكَّرتُ لغز الجرس: تُرى مَن كان يرنّه في تلك الغرفة الحجريَّة العجيبة من أعماق الغابة؟ وأين هو ذلك الشخص؟

لبستُ ثياب العمل كي أبدأ الرَّسم، ودخلت المرسم، ووقفتُ أمام بورتريه منشكي، حين كانت الساعة قد تخطَّت الثانية بعد الظهر. لطالما حرصتُ على العمل في فترة الصباح. فالوقت من الثامنة صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا هو أفضل وقتٍ أستطيع فيه التَّركيز في الرَّسم. وهذا التوقيت يعني أنَّني، عندما كنت مرتبطًا، كنت قد ودَّعتُ زوجتي الذاهبة إلى عملها، وبقيتُ وحيدًا في البيت. كنتُ أحبّ ذلك «الهدوء الأُسَريّ». وبعد أن انتقلت للعيش في الجبل، أصبحتُ أحبّ ضوء الشمس الزاهي الصباحيّ مترافقًا مع نسمةٍ نقيَّة لا تشوبها شائبة. الأمر الذي تؤمّنه لي الطبيعة السخيَّة. كان العمل في المكان والزمان نفسهما يوميًّا شيئًا مهمًّا بالنِّسبة إليّ منذ وقت طويل. فالتكرار يولّد إيقاعًا خاصًّا.

لكنّي يومذاك، أمضيتُ فترة الصباح بلا هدف، ربّما لأنّني لم أنم جيّدًا في اللّيلة السابقة. لذا، دخلتُ المرسم بعد الظهر.

جلستُ على المقعد العالي، المخصَّص للرسم. وشبكتُ ذراعيّ، متأمّلًا بتلك اللّوحة التي لم تكتمل بعد، وكانت على بُعد مترَيْن منّي. لقد رسمتُ أطراف وجه منشكي بقلم الرّصاص في المرحلة الأولى. وعندما وقف أمامي كالموديل قرابة خمس عشرة دقيقة، أتممتُ الأطراف باللّون الزّيتيّ الأسود. وفي هذه اللّحظة، كان أمامي مجرَّد هيكل غير دقيق، لكنّه مفعمٌ بتيّارٍ حيويّ. تيّارٌ سينبع منه وجود واتارو منشكي. وهذا ما كنت في أمسّ الحاجة إليه.

وأثناء تركيزي بتلك المسوّدة بالأبيض والأسود، برزت في مخيّلتي طبيعةُ اللّون الذي ينبغي لي إضافته. فكرةٌ تشكّلت فجأةً، بطريقة عفويّة. ينبغي أن أضيف لون أوراق الشجر المبلّلة بالأمطار. مزجتُ عددًا من الألوان على لوحة الألوان، وحاولتُ، ثمّ حاولتُ، حتّى توصّلتُ إلى درجة اللّون المطلوب. ذلك الذي تخيّلته بالضبط. وسرعان ما أضفتُه على الوجه محدَّد المعالم مسبقًا. لم يكن لديَّ أيُّ توقُّع عن كيفيّة تطوُّر تلك اللّوحة، لكنّي كنتُ أعلم بأنَّ ذلك اللّون سيشكّل قاعدة أساسيّة للعمل بأكمله. بدا لي أنَّ اللّوحة تبتعد تدريجيًّا عن الشّكل التّقليديّ للبورتريه. ولكنْ لا يهمّ، ردّدتُ في نفسي مرارًا، ما باليد حيلة أخرى! فإن كان ثمّة تيّارٌ حيويّ، فلا يسعني إلّا أن أسايره. لا خيار لديّ: في هذه اللّحظات على الأقلّ، عليَّ أن أرسم ما أشعر به، أن أرسمه على طريقتي (الأمر الذي كان مطلب منشكي أيضًا). وسأترك التّفكير بالنتيجة النّهائيّة إلى وقتٍ لاحق.

كنت ألاحق الأفكار التي تتزاحم في مخيّلتي، بدون خطّة أو غاية. وكأنّني طفل يلاحق فراشة نادرة تطير في المراعي، من دون أن

ينظر إلى موطئ قدميْه. بعد أن أنهيت التمريرة الأولى من ذلك اللَّون، تركتُ الفرشاة ولوحة الألوان، وجلست مرَّة أخرى على المقعد على مسافة مترَيْن، أتأمَّل اللَّوحة. أجل، اللَّون كان صحيحًا. لون أوراق الشجر الخضراء المبلَّلة بالمطر. أومأتُ برأسي موافقًا. كنت مقتنعًا بذلك (أو أكاد). إحساسٌ لم أجرِّبه إزاء أعمالي منذ فترة طويلة. أجل، هذا جيِّد. هذا هو اللَّون الذي كنتُ أريده، أو ربَّما اللَّون الذي أراده هيكل الوجه بنفسه. ثمَّ رحت أحضِّر عدَّة ألوان قريبة من ذلك اللَّون الأساسيّ، وأضفتها إلى اللَّوحة بما يمنحها عمقًا لونيًّا معيَّنًا.

وبعد انتهاء تلك المرحلة، خطر في ذهني وأنا أتأمَّل الناتج، أن أضيف اللَّون التالي: البرتقاليّ. لا البرتقاليّ المعتاد؛ إنَّما ذاك الذي يشبه لون اللَّهب المشتعل، لإضفاء القوَّة الحيويَّة، ويوحي في الوقت نفسه بالفساد. لعلَّه الفساد الذي يفضي بالثمرة إلى الموت البطيء. كان لونًا صعب التَّحضير. أصعب من تحضير تلك الدرجة من اللَّون الأخضر. لأنَّه ليس مجرَّد لون؛ بل لونٌ مرتبط جذريًّا بشعورٍ معيَّن. شعورٍ خاضعٍ للقدر، ومتماسكٍ في الآن ذاته. لم يكن من البساطة تحضير لونٍ يجسّد كلّ تلك الأفكار؛ لكنِّي تمكَّنتُ من ذلك. أمسكتُ بفرشاة نظيفة، وفرشتُ اللَّون على اللَّوح. استخدمتُ السكِّين استخدامًا جزئيًّا أيضًا. إلَّا أنَّ الأهمّ هو عدم التَّفكير بشيء. أطفأت دائرة التَّفكير في دماغي قدر الإمكان، وأضفتُ ألوانًا داخل تلك التركيبة. اختفى الواقعُ بكلِّ تفاصيله من رأسي أثناء الرَّسم. لم أفكِّر في أيِّ شيءٍ مطلقًا، لا صوت الجرس، ولا الحُفرة الحجريَّة التي اكتشفناها، ولا زوجتي التي انفصلتُ عنها، ولا الرجل الآخر الذي تنام معه، ولا عشيقتي الجديدة، ولا فصول تعليم الرَّسم. لم أفكِّر حتى في منشكي نفسه. كنت أرسم

بورتريه منشكي، هذا صحيح، لكنَّ وجهه لم يبرز في ذهني. كان منشكي مجرَّد انطلاقة. أمَّا حينذاك، فكنت أصوِّر ما يخطر في بالي تلقائيًّا.

لا أذكر كم مضى من وقت. إلى أن انتبهت أنَّ الظلام أغرق الغرفة كلَّها. غربت شمس الخريف منذ فترة، وكنت ما أزال منهمكًا في الرَّسم، ونسيتُ حتى أن أضيء المصباح. وعندما نظرت إلى اللَّوح، اكتشفتُ أنَّني أضفتُ خمسة ألوان مختلفة. لونًا فوق لون، ثمَّ لونًا ثالثًا فوقه. وكانت متمازجةً بانسجام في أجزاء معيَّنة، ومتباينة قليلًا في أجزاء أخرى.

أضأتُ مصباح السقف، وجلستُ ثانية على المقعد، وتأمَّلت اللَّوحة مجدَّدًا. أدركتُ أنَّها لم تكتمل بعد. ثمَّة تدفُّقٌ فائضٌ ما، يشبه الطغيان، وكان هذا أشدَّ ما استثارني. طغيانٌ لم أشهده منذ زمن طويل. لكنَّه غير كافٍ. لا بدّ من إيجاد عنصرٍ مركزيّ يسيطر على ذلك العنف ويقوده إلى السَّكينة. شيءٌ ما كفكرةٍ تحكم المشاعر. عليَّ أن أمرِّر بعض الوقت بغية العثور عليها. ويجب أن يستريح منبع تلك الألوان المتدفِّقة. سأكمل العمل مع شمس يومٍ جديد. سيُبلغني الحدْسُ أنَّ الوقت اللَّازم للراحة قد انقضى. وهكذا، لا يجدر بي سوى الانتظار. كما حين تنتظر رنَّة الهاتف بفارغ الصبر. أمَّا الصبر، فسأستقيه من تولُّد الثقة بالزَّمن. أن يصبح الزمن حليفي.

أغمضت عينيَّ وأنا جالس على المقعد، وملأتُ عمق صدري بالهواء. كنت في ذلك المساء الخريفيّ أشعر بتغيُّرٍ جذريّ في داخلي. وكأنَّ خلايا جسدي تتفكَّك قطعًا متناثرة مرَّة واحدة، ثم يعاد تركيبها من جديد. ولكنْ، لماذا يحدث ذلك لجسدي في تلك الآونة؟ هل وُلد هذا التغيُّر نتيجة ملاقاة هذا الإنسان الغامض المدعوّ منشكي صدفةً، وقد

طلب منّي أن أرسم وجهه؟ أم أنَّ رنّات الجرس في اللَّيل، التي أرشدتني إلى إزاحة الصخور وفتح الغرفة الحجريَّة، هي السَّبب في تلك الحالة النَّفسيَّة المثيرة؟ وربَّما أكون في طور تغيُّرٍ طبيعيّ، تلقائيّ، لا علاقة له بكلّ ما سبق؟ ولكنْ، ليس هناك أدلَّة ترجِّح أيًّا من تلك الاحتمالات.

«لديَّ إحساسٌ بأنَّها مجرَّد بداية»، هذا ما قاله منشكي وهو يودّعني. فإن كان صحيحًا، أهذا يعني أنَّني وضعتُ قدمي بالفعل على تلك البداية؟ أيًّا يكن، فلقد اشتعلت حماستي للرَّسم بعد غياب طويل، واستطعتُ أن أنسى مرور الزمن حرفيًّا، وأن أغرق في رسم اللَّوحة تمامًا. وما لبثتُ أعيد ترتيب أدوات الرَّسم، يراودني ما يشبه الحُمَّى الممتعة.

وفي تلك الأثناء، لمحتُ الجرس الموضوع فوق الرفّ. فأخذتُه بيدي، وحاولت أن أرنّه مرَّتَيْن أو ثلاث. تردَّد ذلك الصوت صاخبًا داخل المرسم. الصوت الذي كان قد أشعرني بالقلق والاضطراب في منتصف اللَّيل. لكنَّه لم يخفني آنذاك، ومن يدري لماذا! سوى أنِّي دُهِشتُ بجرسٍ بالٍ كهذا يُصدِر رنينًا صاخبًا. أرجعتُه إلى مكانه، وأطفأتُ ضوء الغرفة، وأغلقتُ بابها. ذهبتُ إلى المطبخ، وصببتُ كأسًا من نبيذٍ أبيض، شربتُه وأنا أعدّ وجبة العشاء.

اتَّصل منشكي قبل التاسعة ليلًا بقليل.

«كيف كانت ليلة أمس؟ هل سمعت صوت الجرس؟» ـ سألني.

فأجبتُ بأنَّني سهرت حتى الثانية والنصف، ولم أسمع أيّ صوتٍ من الجرس، بل كانت ليلة هادئة تمامًا.

«هذا جيِّد. لم يقع أيّ حادث غريب من حولك، أليس كذلك؟»

«لا. لا شيء. لم يقع أيّ شيء في منتهى الغرابة» ـ قلت.

«لحسن الحظ. أتمنّى أن تستمرّ الحال بدون حوادث». التقط نَفَسًا، وأضاف: «بالمناسبة، هل تمانع إن جئت إلى بيتك صباح الغد؟ أريد أن أشاهد الغرفة الحجريَّة وأفحصها بدقَّة، إن أمكن. فهو مكان يثير الفضول الشديد».

قلت له: «لا مانع، ليس لديَّ أيّ موعدٍ في صباح الغد».

«حسنًا، سآتي في حدود الحادية عشرة».

«سأكون في انتظارك».

«بالمناسبة، هل كان هذا اليوم جيّدًا بالنّسبة إليك؟»

هل كان هذا اليوم جيّدًا بالنّسبة إليك؟! ـ أحسستُ بالعبارة كأنَّها مترجمة من لغة أجنبيَّة بوساطة برنامج المترجم الآليّ في الكمبيوتر.

تحيَّرتُ قليلًا، ثمَّ أجبت: «أعتقد أنَّه كان يومًا جيّدًا نسبيًّا. لم يحدث أيُّ سوء على الأقلّ. والطقس كان صافيًا. كان مزاجي بخير عمومًا. وماذا عنك يا سيّد منشكي؟ هل كان هذا اليوم جيّدًا بالنّسبة إليك؟»

«لا أستطيع تحديد ذلك. وقع لي أمر جيّد، وآخر ليس سيّئًا، لكنَّه ليس بالجيّد. لا أستطيع وزن تأثير أيٍّ منهما. فتارة ترجح كفَّة الجيد، وتارة يرجح السيّئ».

التزمتُ الصمت، لأنَّني لم أعرف بما أردُّ على قوله ذاك. فتابع:

«للأسف، أنا لستُ فنَّانًا مثلك. بل أعيش في عالم المال والأعمال، وبصفة خاصَّة في مجال المعلومات. حيث غالبًا ما تتحوَّل الأشياء إلى أرقام، هي فقط تحمل قيمة تبادليَّة. ما جعل الأمر يصبح عادةً ذهنيَّة عندي: أن أنسب قيمةً رقميَّة للأشياء الجيّدة، ولتلك السيّئة على حدٍّ سواء. فإن كانت الأولى أكثر من الثانية، فهذا يعني أنَّه يوم

جيّد، على الرَّغم من وجود بعض الأشياء السَّيِّئة. ميزان هذا اليوم إيجابيّ بمعنى ما».

لم أفهم إلى ماذا يرمي، فقرَّرتُ البقاء صامتًا.

فأكمل قائلًا: «بخصوص ليلة أمس، يُفترض أنَّنا إذ فتحنا الغرفة الحجريَّة، فقدنا شيئًا وحصلنا بالمقابل على شيء. ما يشغل بالي هو: تُرى ما الذي فقدناه وما الذي حصلنا عليه؟»

كان على ما يبدو ينتظر ردِّي.

فقلتُ بعد تفكيرٍ قصير: «أعتقد أنَّنا لم نحصل على شيء يمكن تحويله إلى قيمة رقميَّة. أقصد حتَّى هذه اللَّحظة طبعًا. لكنَّنا حصلنا على الآلة البوذيَّة القديمة التي تشبه الجرس. لا قيمة لها في الواقع الماديّ، فهي ليست أثرًا تاريخيًا، ولا تحفة عتيقة نادرة. ومن جانب آخر، نستطيع إعطاء قيمة رقميَّة لما فقدناه بشكل واضح نسبيًّا، لأنَّ فاتورة شركة إنشاء الحدائق ستصلك عمًّا قريب».

ضحك منشكي، وقال: «إنَّه مبلغ هيِّن. أرجو ألا تقلق بشأنه أبدًا. لكنْ ما يشغل بالي هو التالي: ألم نغفل عن أخذ ما يجب أن نأخذه؟»

«ما يجب أن نأخذه! ما هو؟»

تنحنح منشكي، وقال: «كما أخبرتك منذ قليل، أنا لستُ فنَّانًا. لديَّ ما يشبه الحدْس، لكنِّي للأسف، لا أمتلك الوسيلة للتَّعبير عنه. أفتقد القدرة على تحويل الحدْس إلى تجسيدٍ شاملٍ كالعمل الفنِّيّ، مهما كان أثره قويًّا في نفسي».

التزمتُ الصمت بانتظار تتمَّة الحديث.

«ولهذا السَّبب، دأبتُ على محاولة تحويل الحدْس إلى قيمة رقميَّة بديلًا عن التَّجسيد الفنِّيّ الشامل. فالإنسان، لكي يعيش حياة طبيعيَّة، يحتاج إلى محور مركزيّ يستند إليه. أجل، في حالتي، حقَّقتُ نجاحًا إلى حدٍّ ما في هذا العالم الدُّنيويّ، من خلال إعطاء قيمة رقميَّة للحدْس، أو ما يشبه الحدْس، تبعًا لنظامٍ يخصُّني. ثمَّ إنَّنا إذا اتَّبعنا حدْسي هذا...»

صمت صمتًا كثيفًا، ثمَّ أكمل: «...إذا اتَّبعنا حدْسي هذا، قد نحصل على شيء من الغرفة الحجريَّة التي اكتشفناها».

«شيء، مثل ماذا؟»

هزَّ رأسه نافيًا. أو فلنقل إنَّني أحسستُ بأنَّه هزّ رأسه على الجانب الآخر من الهاتف. ثمَّ قال: «ما زلت لا أدري. لكنِّي أرى أنَّه ينبغي لنا دراسة الأمر. علينا أن نقارب حدْس كلٍّ منَّا إلى الآخر، لخلق قيمٍ رقميَّة لكلٍّ منه».

لم أفهم مراد كلامه جيِّدًا. عمَّ يتحدَّث هذا الرجل؟

«حسنًا. إلى اللِّقاء غدًا في الحادية عشرة».

وأغلق الهاتف بهدوء.

ثمَّ اتَّصلت عشيقتي المتزوِّجة بعد مكالمة منشكي مباشرة. دُهِشتُ لذلك قليلًا، فمن النادر أن تتَّصل بي في وقت متأخِّر من اللَّيل.

«أريد أن ألتقي بك ظهر غد» ـ قالت.

«آسف. لديَّ موعد غدًا. لقد حدَّدت الموعد منذ لحظات».

«لا تقل لي إنَّ الموعد مع امرأة غيري».

«بالطبع لا. إنَّه مع السيِّد منشكي الذي تعرفينه. الذي أرسم له البورتريه حاليًّا».

فكرَّرتُ كلامي: «الذي ترسم له البورتريه. وماذا عن بعد غد؟»

«بعد الغد متاح تمامًا. ليس لديَّ شيء».

«جيِّد. هل تمانع إن جئتُ قبل الظهر؟»

«لا مانع أبدًا، لكنَّه يوم السبت!»

«سأتدبَّر نفسي بطريقة ما».

«هل حدث شيء؟»

«لِمَ هذا السُّؤال؟»

«لأنَّه لم يسبق لكِ أن اتَّصلتِ بي إلى هاتف البيت في هذا الوقت من اللَّيل».

أطلقت صوتًا خافتًا من أعماق حنجرتها. يبدو أنَّها تنظِّم أنفاسها المتلاحقة. «أنا الآن في السيَّارة وحدي وأتَّصل من هاتفي الجوَّال».

«ماذا تفعلين في السيَّارة وحدكِ؟»

«أردت الانفراد بنفسي في السيَّارة. فأنا الآن في السيَّارة، وحيدة. أمرٌ واردٌ لدى ربَّات البيوت. ألديك مانع؟»

«لا، على الإطلاق».

تنهَّدتْ. كانت التَّنهيدة عميقة ومكثَّفة بمئات التَّنهيدات. ثمَّ قالت: «ليتك كنتَ معي الآن. وأولجتَه فيَّ من الخلف. بلا مداعبات أو مقدِّمات. لا حاجة لذلك. وما كنتَ ستتعذَّب، فهو رطبٌ إلى درجة كبيرة. ما كان عليك إلَّا أن تلجني، تنكحني بكلِّ جرأة».

«يبدو ممتعًا. ولكنْ من الصَّعب أن أنكحكِ بجرأة في سيَّارة ضيِّقة كسيَّارتك».

«هذا كلّ ما يسعني تأمينه».

«علينا إذن أن نبتكر حلًّا».

«أريدك أن تداعب بظري بيدك اليمنى، وتفرك ثدييَّ باليسرى».

«وماذا أفعل بالقدم اليمنى؟ يمكنني ضبط راديو السيَّارة. هل تمانعين أن أضع موسيقى توني بينيت؟»

«أنا لا أمزح. أتكلَّم بجدِّيَّة».

«مفهوم. اعذريني. فلنتكلَّم بجدِّيَّة بالمناسبة ماذا ترتدين الآن؟».

«هل تريد أن تعرف ماذا أرتدي من ملابس الآن؟» ـ قالت المرأة بنبرة إغراء.

«أجل. فهكذا أتخيَّل المشهد جيِّدًا».

عدَّدت لي ملابسها قطعة قطعة بالتَّفصيل. ولطالما ذُهِلتُ بكمِّيَّة الملابس الكثيرة التي قد ترتديها امرأةٌ لم تعد فتاةً صغيرة. نزعت الملابس قطعة وراء قطعة شفويًّا.

«هل انتصب كما يجب؟» ـ سألتني.

«مثل المطرقة» ـ أجبت.

«أيمكنك دقّ مسمار؟»

«بالتَّأكيد».

كان أحدُهم قد قال إنَّ المطارق وُجِدَتْ في هذا العالم لدقّ المسامير، والمسامير وُجِدَتْ لتدقُّها المطارق. من قالها؟ نيتشه؟ شوبنهاور؟ أم لم يقلها أحد مطلقًا؟

تعانق جسدانا حقيقةً عبْر خطوط الهاتف. لم يسبق لي أن فعلتُ ذلك معها، أو مع غيرها، لكنَّ توصيفاتها كانت في غاية الدقَّة والتَّفصيل، والإثارة؛ حتَّى إنِّي شعرتُ بالفعل الجنسيّ الذي يدور في الخيال أكثر

شهوانيَّة في بعض أجزائه من الفعل الجسديّ الواقعيّ. ففي بعض الأحيان، تكون الكلمات مباشَرةً وشهوانيَّةً إلى درجة كبيرة. وصلتُ إلى القذف من دون أن أنتبه لذلك، في نهاية عمليَّة التبادل تلك. وبدا أنَّها وصلت كذلك إلى ذروة اللَّذة.

التزمنا الصمت عبْر الهاتف، كي نعيد تنظيم أنفاسنا.

«حسنًا، لنتقابل ظهر يوم السبت» ـ قالت، بعد أن استعادت أنفاسها الوتيرة الطبيعيَّة ـ «لديَّ ما أخبرك به حول السيِّد منشكي».

«هل حصلتِ على معلومات جديدة؟»

«أجل، عن طريق وكالة أنباء الغابة أيضًا. لكنِّي أفضِّل أن أطلعك عليها عندما نلتقي، ربَّما ونحن نفعل أشياء خليعة».

«هل سترجعين إلى بيتك الآن؟»

«بالتأكيد. يجب عليَّ أن أعود فورًا».

«خذي حذرك وأنتِ تقودين».

«أجل. من الأفضل أن أتوخَّى الحذر. فلا يزال عضوي يرتعش».

دخلتُ إلى الحمَّام، وغسلتُ بالصابون ذكري المتَّسخ بالمنيّ. ارتديتُ ثياب النوم، واتَّشحتُ بمعطف من الصوف. أخذت في يدي كأسًا من النبيذ الأبيض الرَّخيص، وخرجتُ إلى الشرفة. نظرتُ باتِّجاه بيت منشكي. لا تزال أنوار بيته الأبيض الكبير مضاءة على الجهة المقابلة من الوادي. وكأنَّ أنوار البيت من الداخل مضاءةً بشدَّة. لم أكن أعرف ما الذي يفعله هناك وحده (أغلب الظنّ). ربَّما يكون خلف شاشة الكمبيوتر يبحث عن قيمة رقميَّة لحدْسه!

قلتُ لنفسي: «كان يومًا جيِّدًا نسبيًّا».

بَيْد أنَّه كان مريبًا من جهة أخرى. وماذا عن الغد؟ لا يمكنني حتَّى أن أتخيَّله. تذكَّرتُ أمر البومة التي تسكن السقيفة فجأة. تُرى هل كان يومها جيِّدًا؟ ثمَّ فطنتُ إلى أنَّ يوم البوم كان سيبدأ في ذلك الوقت بالضبط. فهي تنام طوال النهار، في مكان مظلم، ثمَّ تخرج في الظلام إلى الغابة لتصطاد فريستها. ربَّما يجب أن أسألها في الصباح الباكر: «هل كان يومكِ جيِّدًا؟»

دخلتُ الفراش، وقرأتُ في كتابٍ بعض الوقت، وأطفأتُ الضوء في العاشرة والنصف، وخلدت إلى النوم. واستيقظتُ في السَّادسة صباحًا، من دون جفلةٍ خلال النوم أبدًا. ما يعني أنَّ الجرس لم يرنَّهُ أحدٌ في اللَّيل.

- 17 -
لماذا غفلتُ عن شيءٍ مهمٍّ كهذا

لم أستطع أن أنسى ما قالته لي زوجتي عندما هجرتُ البيت: «إن وقع الطلاق وانفصلنا، فهلّا سمحتَ بأن نظلّ صديقَيْن؟» لم أفهم حينذاك (وبعدها بفترة طويلة أيضًا)، ما الذي كانت تقصده وتريده. كنت محتارًا، كمَنْ يضع في فمه طعامًا لا نكهة له على الإطلاق. لذا، لم أجد ردًّا مناسبًا إلّا: «حسنًا، من يدري؟» وكانت تلك آخر كلماتي لها. كلمات محبطةٌ لا تليق بكونها الأخيرة.

كنتُ أشعرُ بأنّنا ما نزال متّصليْن، حتّى تلك اللّحظة، بشريانٍ خفيٍّ ما انفكّ ينبض، وتسري فيه دماءٌ حارّة ذهابًا وإيّابًا ما بين روحيْنا. هكذا كنت أشعر، من جانبي على الأقلّ. وقد ينقطع هذا الخطّ الحيويّ الرّقيق بلحظةٍ أو بأخرى، في يومٍ غير بعيد. وإن كان لا بدَّ من قطعه يومًا ما، فعسى أن يتمّ الأمر بأسرع ما يُمكن. فهكذا، يصبح الشريان يابسًا كالمومياء تمامًا، فيتحمَّلَ آلامَ قطعه بسكّينٍ حادَّة. كان عليَّ أن أنسى

يوزو سريعًا، من أجل تلك الغاية تحديدًا. حرصتُ على عدم الاتِّصال بها. سوى مرَّة واحدة، بعد أن رجعتُ من السَّفر، لاستئذانها في نقل أغراضي من البيت، لأنَّني كنتُ في حاجة إلى أدوات الرَّسم التي تركتُها هناك. وكان ذلك هو الحوار الوحيد الذي دار بيني وبينها منذ مغادرتي البيت وحتَّى تلك اللَّحظة. حوارٌ قصيرٌ جدًّا.

لم أفكِّر مطلقًا في أنَّنا نستطيع أن نظلّ صديقيْن بعد الانفصال وإنهاء إجراءات الطلاق رسميًّا. كنَّا قد تشاركنا أشياء عديدة خلال ستّ سنوات من الحياة الزَّوجيَّة: الزمن، والمشاعر، والكلمات، ولحظات الصمت. الحيرة والقرارات، الوعود والتنازلات، الفرح والملل أيضًا. ومن المفترض أنَّ كلًّا منا احتفظ بداخله بأسرار لم يبحها للطرف الآخر. لكنَّنا تشاركنا حتَّى ذلك الشعور الغريب: أن يكون لكلٍّ واحدٍ منَّا أسراره التي لا يطلعها على الآخر. تشكَّل بيننا استقرارٌ ثنائيّ، أشبه بقوَّة الجاذبيَّة التي لا يمكن إلَّا للزمن أن يشكِّلها. وعشنا معًا بفضل تلك القوَّة، وبالحفاظ على التوازن. كان لديْنا قواعدنا الخاصَّة، في المحصّلة. فكيف كان من الممكن تحطيم كلّ الأشياء، بما فيها قوَّة الجاذبيَّة والتوازن والقواعد، لنصبح «صديقَيْن حميمَيْن» ليس إلَّا؟

كنت أعرف أنَّه صعب التحقُّق. فكَّرت فيه خلال وحدتي، في الرِّحلة الطويلة مرارًا وباستمرار، لأصل دومًا إلى الخلاصة نفسها: عليَّ أن أبتعد عن يوزو أبعد ما استطعتُ، وأن أقطع أيَّ تواصلٍ بيننا. كانت تلك الطريقة الطبيعيَّة والمنطقيَّة لرؤية الأشياء. وقد طبَّقتُها بالفعل.

من جهتها، لم تتواصل يوزو معي إطلاقًا. لا مكالمة، لا رسالة. مع أنَّها هي التي أرادت أن نظلّ صديقَيْن. وكان ذلك أشدّ الجراح إيلامًا بالنِّسبة إليَّ، ألمًا فاق كلّ ما توقَّعته. كلَّا، فلنكن دقيقين: كنتُ

أنا مَن جَرَحَ نفسه بنفسه. كان قلبي، في ذلك الصمت المتواصل، مثل البندول الثقيل المصنوع من نصْلِ سكّين حادَّة، يتأرجح من أقصى طرف إلى أقصى طرف، ويرسم بذلك قوسًا من الجروح تنبض على جلدي. ولم يبقَ أمامي من حيلة لنسيان تلك الآلام إلّا واحدة: الرّسم.

تسلَّلتْ أشعّة الشمس إلى داخل المرسم الهادئ. وكانت الستائر البيضاء تهتزّ بفعل الرياح الخافتة من حين لآخر. وفاحت رائحة الصباح الخريفيّ في الغرفة. بتُّ حسّاسًا جدًّا تجاه تغيُّر روائح الفصول، بعد انتقالي إلى الجبل. فعندما كنت في المدينة، لم أكن أعرف عن وجود هذا النوع من الرّوائح.

جلستُ على المقعد، أحدِّق طويلًا في بورتريه منشكي المنصوب على الحامل. طريقتي المعتادة في بدء العمل: أعيد تقييم ما أنجزته في اليوم السّابق بعين اليوم المختلفة، ثمّ أحرّك يديَّ بالرّسم.

ليس سيّئًا؛ قلت لنفسي بعد قليل. ليس سيّئًا. لقد غلَّفتِ الألوانُ العديدة التي صنعتُها هيكلَ الوجه تمامًا. اختفت أطراف المسوَّدة التي رسمتها باللّون الأسود، وراء تلك الألوان. لكنّني مازلت أستطيع أن أرى هيكل الوجه مدفونًا في العمق. عليَّ أن أعيده إلى السّطح. أن أحوّل التلميح إلى تصريح.

هذا لا يعني أنّني أتممتُ اللّوحة. لكنَّها وصلت إلى مرحلة الاحتمالات. ما زال فيها نقص ما. كان ذلك الشيء الناقص يشتكي من ظلم تغييبه. كان يصرخ من الجهة الأخرى الفاصلة بين الموجود والمفقود. وأنا الوحيد الذي بإمكاني سماع صرخاته الصامتة.

أحسست بالعطش بعد تأمُّل اللَّوحة لفترة طويلة، فقطعتُ العمل وذهبت إلى المطبخ، وشربت كوبًا كبيرًا من عصير البرتقال. وبعد ذلك، أرخيت عضلات كتفي، ومددتُ ذراعيّ في الهواء على قدر المستطاع. واستنشقتُ نفَسًا طويلًا ثم زفرتُه. وعدتُ إلى المرسم، لأجلس على المقعد، وأتأمَّل اللَّوحة مرَّة أخرى. تجدَّدت مشاعري، وتركَّز وعيي ثانية على العمل. فإذا بي أنتبه إلى شيء مختلف في اللَّوحة. أو للدقَّة، تغيَّرت زاوية النَّظر التي كنت أنظر منها.

نهضت وفحصت موقع المقعد. لم يكن في الموقع نفسه الذي تركته عليه عندما خرجت من المرسم. لا شكّ في ذلك. أهذا معقول؟ كنت متأكِّدًا أنَّني لم أحرِّكه. بوسعي أن أراهن على ذلك. كنت قد نهضت بحرصٍ شديد على عدم زحزحته، وجلست عليه ثانيةً بالحرص الشديد نفسه. وإن كنت أذكر تلك التَّفاصيل بدقَّة، فذلك لأنَّ زاوية النَّظر إلى اللَّوحة مهمَّة جدًّا بالنِّسبة إليَّ. إذ كنت أحدِّدها بانتباهٍ يضاهي انتباه لاعب البيسبول باختياره الموضع المناسب لتسديد الكرة بالمضرب. فكلّ سنتمتر محسوبٌ بعناية فائقة.

لكنَّ موضع المقعد تزحزح نحو خمسين سنتيمترًا تقريبًا عن ذي قبل، فاختلفت الزاوية بالمقدار نفسه. لا بدَّ أنَّ أحدًا زحزح المقعد، بينما كنت أشرب العصير وأمرِّن أنفاسي في المطبخ. ربَّما تسلَّل إلى المرسم أثناء غيابي، وجلس عليه ليتأمَّل اللَّوحة! وعندما عدتُ، كان قد فرَّ بجلده من دون أن يُصدِر أيَّ صوت. فحرَّك المقعد، عمدًا أو عن غير قصد. لكنِّي لم أغب عن المرسم أكثر من خمس أو ست دقائق. فمَن تجرَّأ على ارتكاب هذه الفعلة، ومن أجل ماذا؟ أم أنَّ المقعد تحرَّك من تلقاء نفسه؟

ذاكرتي مضطربة على الأرجح. لقد حرَّكتُ المقعد بنفسي، ونسيت. هذا هو السَّبب المنطقيّ. وربَّما أطلتُ فترة العيش وحيدًا أكثر ممَّا ينبغي، ما أدَّى إلى نشوء اضطراب في تراتبيَّة الذاكرة!

تركت المقعد حيث هو ـ خمسين سنتيمترًا عن موضعه الأصليّ ـ وجلست عليه، وتأمَّلت بورتريه منشكي من هذه الزاوية. فإذا بي أرى لوحة مختلفة قليلًا عمَّا كانت عليه منذ قليل. اللَّوح نفسه، إنَّما تغيَّر انطباعي عنه. اختلف سقوط الضوء، وتأثير الألوان. حتَّى لقد امتلكت روحًا حيويَّة أخرى. مع أنَّها ما تزال تفتقر إلى ذلك الشيء، الشيء الناقص. ثمَّة عنصرٌ فيها يشكِّل خطأ... ولكنْ، بمعنًى مختلف عمَّا كان عليه قبل دقائق.

تُرى، ما الذي اختلف؟ ركَّزت كامل وعيي في اللَّوحة مجدَّدًا. كان في ذلك الاختلاف ما يقلقني، ويبدو أنَّه يتحدَّث إليَّ. لا بدَّ أن أكتشف ما الذي غفلتُ عنه. لأنَّني كنتُ أشعر بوجوده. أحضرت طباشير بيضاء ورسمت علامة (موضع أ) على الأرضيَّة عند الأرجل الثلاثة للمقعد. ثمَّ أرجعت المقعد إلى موقعه الأصليّ (خمسة سنتيمترات جانبًا)، ورسمت علامة (موضع ب). وأخذتُ أنتقل بين الموقعيْن متأمِّلًا اللَّوحة من تينك الزاويتَيْن المختلفتَيْن.

الموضوع المجسَّد كان منشكي في الحالتَيْن، لكنِّي انتبهت إلى شيء غريب: كان يتغيَّر بحسب زاوية النَّظر إليه. كما لو أنَّ في داخله شخصيَّتَيْن مختلفتَيْن. لا تشتركان إلَّا في نقطة واحدة: الشيء الناقص. النقصان هو القاسم المشترك بين منشكي أ ومنشكي ب. عليَّ أن أفهم ما القاسم المشترك الناقص. كأنْ أقيس المساحة بين ثلاث نقاط: الموضع (أ) والموضع (ب) وموضعي شخصيًّا. ما هو يا تُرى؟ هل له شكل؟ ليس له شكل؟ وفي الحالة الثانية، كيف كنت سأجسِّده؟

«الأمر ليس بهذه الصعوبة!» ـ قال شخص ما.

لقد سمعتُ صوته بوضوح. لم يكن عاليًا، لكنَّه يُسمع بوضوح. لا يشوبه الغموض. ليس مرتفعًا ولا منخفضًا. قريبٌ من أذني.

ابتلعتُ ريقًا، جلستُ على المقعد ونظرتُ حولي ببطء. فلم أجد أحدًا، كما هو متوقَّع. كانت شمس الصباح الصافية ترسم على الأرض كأنَّها تجمع ماء. النافذة مفتوحة على وسعها. وموسيقى عربة القمامة تأتي من البعيد تحملها الريح. أغنية «آني لوري» (تساءلت ما اللُّغز الذي يجعل عربات جمع القمامة في مدينة أوداوارا تستهلّ وصولها بأغنية شعبيَّة أسكتلنديَّة). لم يكن هناك أيّ صوت آخر، عدا ذلك اللَّحن.

لعلَّه إيهامٌ سمعيّ. قد يكون صوتي أنا. صوتٌ صادرٌ عن عقلي الباطن. لكنَّه من حيث النبرة، كان شديد الرِّيبة.

«الأمر ليس بهذه الصعوبة!» أنا لا أتحدَّث بهذه الطريقة، حتَّى بلا وعي.

التقطتُ نفَسًا عميقًا، وعدتُ إلى تأمُّل اللَّوحة من فوق المقعد بتركيز أشدّ. لا ريب في أنَّ ذلك الصَّوت كان وهمًا.

«أليس أمرًا بالغ الوضوح؟» قال الشخص مجدَّدًا. بجوار أذني فعلًا.

فتوجَّهتُ إلى نفسي بالسُّؤال: أمر بالغ الوضوح؟ ما هو هذا الأمر البالغ الوضوح؟

«عليك أن تعثر عمَّا هو موجودٌ في منشكي وناقصٌ عن هذه اللَّوحة» ـ أجاب الصوت. بالوضوح ذاته. لا أثرًا لأصداء، كما لو أنَّه مشغولٌ في استديو تسجيل. الحروف متمايزة واحدها عن الآخر بجلاء. يخلو من التنغيم الطبيعيّ. كأنَّه فكرة مُجسَّدة.

نظرتُ حولي مرَّة أخرى. ونزلتُ عن المقعد، وذهبت إلى غرفة المعيشة للبحث عن صاحب الصوت. تفحَّصت الغرف كلَّها سريعًا. لا أحد في البيت. ما عدا البومة في السقيفة ربَّما. لكنَّ البوم لا يتكلَّم، هذا بديهيّ. وباب البيت مغلق.

المقعد يتحرَّك من تلقاء نفسه في المرسم. والآن، هذا الصوت المريب الذي لا يُعرف له أصل. أهو صوتٌ من السَّماء؟ أم صوتي أنا؟ أم صوتُ شخصٍ حقيقيّ؟ وفي كلِّ الأحوال، لا شيء يمنعني من التَّفكير بأنَّني كنت أهلوس. لم أعد أثق بعقلي، منذ أن سمعت رنَّ الجرس في قلب اللَّيل. لكنَّ صوت الجرس قد سمعه وأكَّد عليه منشكي أيضًا. ما يدلّ على أنَّ صوت الجرس لم يكن وهمًا، من وجهة نظر موضوعيَّة. حاسة السَّمع عندي تعمل بشكل طبيعيّ. فمن أين ينبع هذا الصوت الذي سمعته للتوّ؟

عدت للجلوس على المقعد، قبالة اللَّوحة.

«عليك أن تعثر عمَّا هو موجودٌ في منشكي وناقصٌ عن هذه اللَّوحة». تبدو أحجية. الطائر الحكيم الذي يرشد طفلًا ضلَّ طريقه في عمق الغابة إلى علامات الطريق. فما الشيء الناقص الذي كنت سأعثر عليه في منشكي؟

مرَّ وقت طويل. عقارب الساعة تقطع الزمن بهدوء ودقة، وأشعة الشمس المتسرِّبة من نافذةٍ صغيرةٍ جهة الشرق، تتنقَّل في صمت صانعة تجمُّعًا من الضوء في الأرضية. يحطّ عصفورٌ زاهي الألوان بخفَّةٍ على غصن صفصافة، يبحث عن شيءٍ ما ثمَّ يطير برشاقة وهو يغرِّد. تجتاز غيومٌ بيضاءُ كالدوائر السماء كأنَّها مصفوفة في طابور. تتَّجه طائرةٌ فضِّيَّةُ اللَّون نحو المحيط المتلألئ بأشعة الشمس ـ طائرة مِرْوَحِيَّة رباعيَّة

الأجنحة تابعة لخفر سواحل، قوات الدّفاع الذاتيّ اليابانيّ - والرجال على متنها يقومون بدوريَّة تفقُّديَّة للكشف عن الغوَّاصات. مهمَّتهم اليوميَّة تتكوَّن من إصخاء الأذان، وشحذ العيون، وكشف المكنون. سمعتُ صوت محرَّكاتها يقترب ثمّ يبتعد.

وأخيرًا، فهمت! كانت الحقيقة في غاية الوضوح حرفيًّا. كيف نسيت ذلك التفصيل؟ الشيء الموجود في منشكي وناقصٌ عن بورتريه منشكي. في منتهى الوضوح: شعره الأبيض. شعره الرَّائع ناصع البياض كالثلج المتساقط. لا يمكن القول إنَّ هذا منشكي من دون الإشارة إلى شعره. لماذا غفلتُ عن شيءٍ مهمٍّ كهذا؟

نهضت، وبحثت بعجالة عن الأبيض في صندوق الألوان، وأخذتُ أوَّل فرشاة وقعت عليها يدي، ومددت اللَّون على اللَّوح بدون تفكير، بحرّيَّةٍ واندفاع وجسارة. واستخدمتُ السكّين، ورؤوس أصابعي أيضًا. استمرَّ العمل خمس عشرة دقيقة تقريبًا، ثم ابتعدتُ عن اللَّوح، وجلست على المقعد أتفحَّص الناتج.

كان المدعوّ منشكي موجودًا هناك. داخل تلك اللَّوحة بدون أيِّ شكّ. امتزجت صفاته الشَّخصيَّة - أيًّا كان محتواها - كلّيًّا بلوحتي. أنا لا أفهم ذلك الرجل بطبيعة الحال، أي أنّي أجهل كلَّ شيء عنه. لكنّي تمكَّنت من إعادة تشكيله على اللَّوح بصورة شاملة، في كتلة واحدة لا تتجزَّأ. إنَّه يتنفَّس داخل اللَّوحة. بل حتَّى غموضه كان حاضرًا فيها.

لكنَّ تلك اللَّوحة لم تكن بورتريه، أيًّا كانت الاعتبارات. لقد أبرزتُ حقيقة واتارو منشكي الباطنة في لوحة فنّيَّة (هذا انطباعي على الأقلّ). أمَّا مظهره الخارجيّ، فلم أنجح في تهيئته مطلقًا، لأنّني في الأساس، كنت أرسم تلك اللَّوحة من أجلي أنا.

أكان منشكي سيوافق عليها، وهو الذي طلب منّي رسم بورتريه؟ من الصَّعب التأكُّد من ذلك... ربَّما تكون النتيجة بعيدة سنواتٍ ضوئيَّة عمَّا كان يتوقَّع. لقد أباح لي منذ البداية حرِّيَّة الرَّسم، ولم يتطلَّب بما يخصّ الأسلوب. لعلَّ في اللَّوحة عناصر سلبيَّة، لا يعترف منشكي نفسه بوجودها، ظهرتْ بشكلٍ غير متعمَّد. سواء أعجبته أم لا، لم يَعُد بوسعي فعل شيء. لقد فلتت اللَّوحة من يدي، ولم تَعُد تتبع إرادتي.

تأمَّلتُ البورتريه بإصرار لنصف ساعة تقريبًا من المقعد. شعرتُ أنَّ اللَّوحة، التي رسمتها بنفسي، تخطَّت حدود فهمي ومنطقي. ولم أعد أتذكَّر كيف رسمتُها. وكلَّما نظرتُ إليها مدَّة طويلة، أحسستُ أنَّها تقترب منِّي قربًا هائلًا، وتبتعِد عنِّي بُعْدًا هائلًا. أمَّا من حيث الشَّكل والألوان، فكانت صحيحة. لا شكَّ في هذا.

ربَّما كنتُ على وشك العثور على باب الخروج! ربَّما كنتُ على وشك تخطِّي الحاجز الذي كان عائقًا في سبيلي! لكنَّها مجرَّد بداية. كأنِّي أعثر على طرف الخيط. عليَّ أن أكون في منتهى الحذر. ردَّدت ذلك على نفسي وأنا أنظِّف سكاكين الرَّسم بعناية، مستغرقًا الوقت اللَّازم لإزالة الزيوت والألوان عنها. ثمَّ غسلتُ يديَّ أيضًا بعناية كبيرة، باستخدام الزيوت والصابون. كان حلقي جافًّا جدًّا، فذهبت إلى المطبخ وشربتُ عدَّة أكواب من الماء.

تُرى من الذي حرَّك مقعد المرسم من مكانه؟ (لا بدَّ أنَّه تحرَّك بفعل فاعل). ومَن الذي تحدَّث في أذني بصوت مريب؟ (لقد سمعتُ الصوت بوضوح). ومَن الذي ألمح إليَّ بالشيء الناقص في تلك اللَّوحة؟ (لقد أفادني التلميح حقًّا).

أنا نفسي، على الأرجح. أنا الذي حرَّكت المقعد بلاوعي. وأنا الذي ألمحت إلى نفسي. لقد خلطتُ الوعي واللَّاوعي بطريقة ملتوية وعجيبة... لم يخطر في بالي تفسيرات أخرى. إلَّا أنَّها لا تتوافق والواقع.

بينما أنا جالسٌ على كرسي المائدة في الحادية عشرة صباحًا، ألاحق أفكارًا لا نهاية لها، وأحتسي الشاي الساخن، وصل منشكي بسيَّارة الجاغوار الفضِّيَّة. وكنتُ حتى تلك اللَّحظة قد نسيتُ الموعد الذي اتَّفقتُ عليه في اللَّيلة السَّابقة تمامًا، لأنَّني كنتُ غارقًا حتَّى أذنَيّ في رسم اللَّوحة. ناهيك بالهلوسة السمعيَّة، والأوهام الأخرى!

منشكي؟ ما الذي جاء به في هذا الوقت؟

وفيما كان هدير المحرِّك V8 يخبو، تذكَّرت سبب زيارته، الذي أخبرني به على الهاتف: «أريد أن أشاهد الغرفة الحجريَّة وأفحصها بدقَّة، إن أمكن».

ـ 18 ـ

الفضول لا يقتل القطط فقط

خرجتُ بنفسي لاستقبال منشكي خارج البيت. كانت أوَّل مرَّة أفعلها، مع أنَّه لم يكن عندي سبب معيَّن لفعلها في ذلك اليوم. سوى أنَّني أردت أن أمطّ ساقيّ، وأستنشق هواء منعشًا.

كانت الغيوم البيضاء في السَّماء ما تزال على هيئة دائريَّة. غيومٌ آتيةٌ من جهة البحر، تحملها الرِّياح الجنوبيَّة الغربيَّة باتِّجاه الجبال. وكان اتِّخاذها شكلَ الدَّائرة واحدةً تلو أخرى، بمفردها، من دون تدخُّل من أحد، يُعَدُّ لغزًا محيِّرًا. أو لعلّ أحد العلماء في الأرصاد الجويَّة لم يكن يستغرب تلك الظاهرة. كان اللُّغز محيِّرًا بالنِّسبة إليَّ فقط على الأغلب. فمنذ أن سكنتُ بين الجبال، بتُّ مفتونًا بكلِّ عجائب الطبيعة!

كان منشكي يرتدي معطفًا جميلًا بلون أحمر فاقع، وبنطلونًا من الجينز الأزرق الرَّقيق الباهت حدَّ التلاشي أو يكاد. وكنتُ أراه (وقد أبالغ) يحرص بشدَّة على اختيار ألوانٍ تُبرِزُ شعره الأبيض كثيرًا. فقد كان المعطف

الأحمر لائقًا تمامًا مع بياض شعره. شعره الذي يظلّ محافظًا على الطول نفسه دائمًا. لا أعلم كيف يعتني به، لكنّه لا يطول عن ذلك الحدّ ولا يقصر.

«هل تمانع في الذهاب إلى الحفرة أوّلًا؟ أودّ تفحُّصَها من الداخل، لعلّ بعض التغييرات قد طرأت عليها» ـ قال منشكي.

لم يكن لديَّ أيّ مانع. فأنا أيضًا لم أقرب ذلك المكان منذئذٍ، وأريد أن أرى بأيِّ ظروفٍ أصبحت.

«عذرًا، هلّا أتيتَ بذلك الجرس معك؟» سأل مرّة أخرى.

فدخلتُ البيت، وحملت الجرس القديم من على الرفّ في المرسم، وخرجت.

أخرج من صندوق سيّارته الخلفيّ المصباح اليدويّ الكبير، وعلّقه على عنقه بواسطة حزام؛ ثمّ اتّجه نحو الغابة، وتبعتُه أنا أيضًا. كانت الغابة قد اكتست بألوانٍ أغمق ممّا كانت عليه في المرّة السّابقة. تتغيّر ألوان الجبال في هذا الفصل كلّ يوم عن الذي قبله. فثمّة أشجار يزيد فيها اللّون الأحمر، وأخرى تميل إلى الأصفر، وثالثة يظلّ لونها الأخضر على حاله. تناسقٌ بديع. لكنْ لم يكن منشكي مهتمًّا بذلك.

قال وهو يمشي: «لقد قمتُ ببعض الأبحاث عن هذه الأرض. عن مالكها السّابق، وعن استخداماتها».

«وهل اكتشفتَ شيئًا؟»

هزّ رأسه، وقال: «لا. لم أكتشف شيئًا ذا أهمّيّة. توقّعتُ أن يكون لهذا المكان صلة بجماعة دينيّة في الماضي، لكنّي لم أعثر في حدود أبحاثي على أيّ شيء من هذا. لا أفهم سبب وجود مجسّم معبد صغير وغرفة حجريّة في هذا المكان! يبدو أنّه في الأصل كان مجرّد أرضٍ برّيّة

في الجبل. ثمّ مُهِّدَ جزءٌ منه لبناء البيت الذي تسكن فيه حاليًّا. لقد اشترى السيِّد تومويهيكو أمادا البيت والأراضي المحيطة به عام 1955. وحتَّى ذلك الحين، كان منتجعًا جبليًّا لسياسيٍّ شهير. لعلَّك سمعتَ باسمه، فقد عُيِّن وزيرًا قبل الحرب العالميَّة الثانية. ثمَّ اعتزل السياسة بعد الحرب، وعاش حياته في شبه تقاعد. لم أصل إلى أيِّ معلومة عن صاحب الأرض قبل ذلك السياسيّ».

«غريبٌ أن يمتلك سياسيٌّ بيتًا ثانيًا بين هذه الجبال النائية».

«أبدًا. بل كان كثيرٌ من رجال الدولة يمتلكون قصورًا في هذه المنطقة. حتَّى فوميمارو كونوئه[1] على سبيل المثال، كان لديه بيت في هذه الأرجاء، إن لم أخطئ. نحن هنا على الطريق من هاكونه إلى أتامي. وهو مكانٌ مثاليّ لعقد لقاءات سرِّيَّة بين السياسيِّين. فإنَّ اجتماع قادة مهمِّين في طوكيو، قد يلفت الأنظار».

أزحنا الألواح السَّميكة التي وُضِعَت غطاءً للحفرة.

«سأنزل إلى القاع. أرجو أن تنتظرني هنا» ـ قال منشكي.

فقلت له سأنتظر.

استخدم السلَّم المعدنيّ الذي تركه العمَّال ونزل إلى القاع. أصدر السلَّم صريرًا خفيفًا مع كلّ درجة ينزل عليها منشكي. وكنتُ

(1) فوميمارو كونوئه (1891 ـ 1945): سياسيّ يابانيّ تولَّى رئاسة الوزراء ثلاث مرَّات قبل الحرب العالميَّة الثانية، آخرها في عام 1941. وكان هو رئيس الوزراء الذي وقَّعت اليابان معاهدة التحالف الثلاثيَّة مع ألمانيا وإيطاليا في عهده، انتحر في السادس من ديسمبر 1945 بعد صدور أمر بالقبض عليه كمجرم حرب، ليكون رئيس الوزراء اليابانيّ الوحيد الذي مات منتحرًا، وليكون أيضًا أصغر رئيس وزراء يابانيّ عند موته، حيث مات في الرّابعة والخمسين من عمره / المترجم

أراقب نزوله من أعلى. وعندما وصل إلى قاع الحفرة، أخذ المصباح من عنقه وأضاءه، وتفحَّصَ المكان بدقَّة، مستغرقًا الوقت الكافي. فأخذ يتلمَّس الجدار الحجريّ بكفِّه، ويحاول طرْقه بقبضته.

ثمَّ نظر إلى أعلى، وقال لي: «لقد بُنِيَ هذا الجدار ببراعة كبيرة. ولا أعتقد أنَّه كان بئرًا. فالبئر لا تتطلَّب كلَّ هذا العمل، يكفي أن تضع صخرة فوق أخرى. أمَّا هذه، فقد بُنِيَتْ بفنيَّةٍ عالية».

«هل تقصد أنَّهم بنوه لهدفٍ آخر؟»

هزَّ رأسه من دون أن ينطق بكلمة. أي أنَّه لا يدري. ثمَّ قال: «على كلِّ حال، لقد بُنِيَ هذا الجدار بحيث لا يستطيع أحد تسلُّقه بسهولة. ما من فراغات تُوضع فيها الأقدام. عمق الحفرة لا يصل إلى ثلاثة أمتار، لكنَّه من الصعب تسلُّقها».

ثمَّ أضاف: «لديَّ عندك رجاء».

«تفضَّل!»

«أعتذر مقدّمًا على إرهاقك. أريدك أن ترفع السلّم وتغلق الحفرة بالألواح السَّميكة إغلاقًا محكمًا، بحيث لا يدخلها أيّ شعاع ضوء».

أدهشني طلبه، فالتزمتُ الصمت.

فقال: «لا تقلق، ستجري الأمور على ما يُرام. أريد أن أجرِّب شخصيًّا، وجسديًّا، ما الذي يشعر به المرء إذا أُغلِقَ عليه في أسفل حفرة مظلمة كهذه. لا أنوي أن أتحوَّل إلى مومياء».

«وكم ستبقى؟»

«عندما أريد الخروج، سأرنّ هذا الجرس. وحين تسمعه، أرجو أن تزيح الغطاء وتُنزل إليَّ السلّم. وإذا مرَّت ساعة كاملة من دون أن تسمع

الجرس، فارفعِ الغطاءَ أيضًا. ولكنْ، أرجو ألَّا تنسى وجودي هنا، وإلَّا أصبحتُ مومياء بالفعل».

«صائد المومياوات الذي يصبح مومياء!»

ضحك منشكي، وقال: «بالضبط هذا ما سيحدث».

«بالتأكيد، لن أنسى. ولكنْ هل أنت عازم على ذلك فعلًا؟»

«مجرَّد فضول. أريد أن أجلس في قاع الحفرة بعض الوقت. سأعطيك المصباح. أعطِني الجرس عوضًا عنه».

صعد منشكي حتَّى منتصف السلَّم، وأعطاني المصباح. فأخذته وبادلتُه بالجرس. رجَّهُ بخفَّة، فانبثق رنينٌ نقيّ.

قلتُ، وأنا أنظر إليه في أسفل: «وماذا لو هاجمني سرب دبابير، ففقدتُ الوعي أو متُّ. لن تستطيع الخروج من هنا أبدًا. فنحن لا نعرف ماذا يمكن أن يحدث بين لحظة وأخرى».

«إشباع الفضول يتطلَّب خوض المخاطر. وإن لم توافق على ذلك، لا تحصل على شيء. الفضول لا يقتل القطط فقط».

«سأعود بعد ساعة»، قلت.

«أرجو أن تحترس من الدبابير».

«وأنت أيضًا يا سيِّد منشكي، أرجو أن تحترس من الظلام».

لم يُجِب. اكتفى بالتَّحديق إليَّ، كأنَّه يريد أن يحصل على معنى ما من وجهي المنحني نحوه. لكنَّ نظرته تلك كانت ضبابيَّة، يحاول بها أن يسلِّط الضوء على شيء ما في وجهي، من دون أن يستطيع. نظرة مرتبكة، لا تليق بشخصيَّته. ثمَّ بدا قد حسم أمره، فجلس على الأرض وأسند ظهره إلى الجدار الحجريّ المقوَّس. رفع يده إلى أعلى

في اتّجاهي؛ أي أنّه مستعد. فسحبتُ السلّم، وغطّيت فتحة الحفرة بالألواح عازمًا على عدم ترك أيّ فراغ، ووضعت فوقها عددًا من الصخور الثقيلة. قد ينسلّ شعاع ضوء رفيع من الفراغ الضئيل بين لوحٍ خشبيٍّ وآخر، إلّا أنّه من المفترض أن يطغى الظلام التامّ على الغرفة. فكّرتُ أن أتحدّث إليه بعد أن وضعتُ الغطاء، ثمّ عدلتُ عن الفكرة. فهو الذي طلب الوحدة والصمت بنفسه.

رجعتُ إلى البيت، وسخّنتُ ماءً، وصنعتُ الشاي وشربتُه. جلست على الأريكة أقرأ كتابًا كنتُ بدأت في قراءته. لكنّي لم أستطع التّركيز فيه، لأنّني شدّدتُ سمعي كي لا يفوتني سماع صوت الجرس. وكنتُ أنظر إلى الساعة كلّ خمس دقائق. تخيّلتُ منظر منشكي جالسًا بمفرده في قاع الحفرة المظلمة. وكان رأيي أنّه غريب الأطوار! لقد كلّف نفسه أموالًا، واستدعى شركة إنشاءات خاصّة، مزوّدة بمعدات ثقيلة لإزاحة جثوة الصخور، وكشف عن تلك الحفرة الغامضة. وهو الآن محبوس داخلها وحيدًا؛ بل كان محبوسًا بناءً على رغبته.

فليكُن. إنّه حرّ. فأنا لا أعرف دوافعه وحاجاته إلى فعل ذلك (هذا إذا كان لديه دوافع وحاجات)، فهذه مشكلته عمومًا، وعليه أن يجد حلًّا لها. أمّا أنا، في خطّةٍ وضعها شخصٌ غيري، سأكتفي بأداء الدور المسند إليّ من دون طرح تساؤلات كثيرة. يئستُ من مواصلة القراءة هكذا، فاستلقيتُ على جنبي فوق الأريكة، وأغمضتُ عينَيَّ. لكنّي لم أنم بالطبع. لم تكن اللّحظة مناسبةً لقيلولة.

مرّت ساعةٌ ولم يرنّ الجرس. أو ربّما لم أسمعه لسببٍ ما. حان موعد إزاحة الغطاء على كلّ حال. نهضتُ عن الأريكة، وانتعلت حذائي وخرجت إلى الغابة. وفجأة، شعرتُ بقلق من ظهور دبابير أو خنزير برّيّ،

لكنَّ ذلك لم يحدث. سوى أنَّ طائرًا، ربَّما عصفورًا يابانيًا أبيض، حلَّق بجانبي بسرعة شديدة. تقدَّمتُ في الغابة، ودرتُ خلف مجسَّم المعبد. أبعدتُ الصخور من على الألواح، ثمَّ أزحتُ منها لوحًا واحدًا فقط.

ناديتُ عليه من تلك الفتحة: «سيِّد منشكي!»، فلم يردّ. كانت الحفرة في ظلام دامس، لم تمكّنني من تحديده داخلها.

ناديتُ مرَّة ثانية: «سيِّد منشكي!». لا ردّ. فاعتراني القلق شيئًا فشيئًا. ربَّما يكون قد اختفى. هذا غير معقول، ولكنْ لم يخطر في بالي غير ذلك الاحتمال.

أزحت لوحًا آخر، ثم آخر، حتى انهال الضوء على القاع بأكمله. وعندها، استطاعت عيناي أن ترى ظلّ منشكي جالسًا هناك.

تنفَّستُ الصُّعداء وتحدَّثتُ إليه: «هل أنت بخير يا سيِّد منشكي؟»

رفع وجهه إلى أعلى، وكأنَّ صوتي قد أعاد إليه وعيه. هزَّ رأسه هزَّة خفيفة، ثمَّ غطَّى وجهه بكلتا يدَيْه من هول الضوء المفاجئ.

وأجاب بصوت خافت: «أنا بخير. أرجو أن تسمح لي بالبقاء هكذا قليلًا. سيستغرق الأمر وقتًا حتى تتعوَّد عيناي الضوءَ من جديد».

«لقد مرَّت ساعة بالتَّمام. إن كنتَ تريد البقاء مدَّة أطول، فيمكنني إغلاق الحفرة ثانية».

هزَّ رأسه نافيًا، وقال: «لا. هذا يكفي. لا أستطيع البقاء هنا مدَّة أطول. قد يكون في ذلك خطرٌ كبير».

«خطرٌ كبير؟»

«سأشرح لك فيما بعد» ـ قال، ودعَكَ وجهه بكلتا يدَيْه، وكأنَّه أراد تخليص بشرته من شيءٍ ما.

نهض أخيرًا، بعد مرور قرابة خمس دقائق، وصعد على السُّلَّم الذي أنزلتُه، ثم وقف فوق الأرض مرة أخرى، ونفض عنه التراب الملتصق ببنطلونه. نظر عاليًا إلى السَّماء وهو يضيِّق عينيْه. بدت سماء خريفيَّة زرقاء من بين أغصان الشجر. ظلَّ منشكي يتأمَّل السَّماء بمحبَّة. أعدنا الألواح بعد ذلك حتَّى غطَّينا الحفرة، لئلَّا يقع أحد فيها بالخطأ. ووضعنا الصخور فوق الألواح. نقشتُ وضعيَّة الصخور في ذاكرتي، كي أعرف إذا ما حرَّكها أحد مكانها. أمَّا السُّلَّم، فقد تركناه في الحفرة.

«لم أسمع صوت الجرس» ـ قلت له أثناء سيرنا.

«بالفعل. فأنا لم أرنَّه».

لم يُضِفْ حرفًا آخر، ولم أطرح عليه مزيدًا من الأسئلة.

كان منشكي يسير أمامي وأنا أتبع أثره. وضع المصباح في صندوق سيَّارته الخلفيّ ملتزمًا الصمت. وجلسنا بعد ذلك في غرفة المعيشة، وشربنا قهوة ساخنة بصمت مهيب. لم يفتح فمه بعد. كان يبدو أنَّه يفكِّر بعمق وجدِّيَّة. لم تكن معالم وجهه تشي بالقلق، لكنَّه كان من الواضح أنَّه سارح في مكان بعيد. مكانٍ ليس فيه إلَّاه. فتركته غارقًا في أفكاره، ولم أزعجه. كما كان يفعل الدكتور واتسون مع شرلوك هولمز.

وفي تلك الأثناء، كنت أفكِّر في جدول مواعيدي. كان عليَّ أن أستقلَّ السيَّارة بعد الظهر للذهاب إلى مدرسة الرَّسم في أوداوارا، كي أتفقَّد رسومات التلاميذ، وأعطي كلّ واحدٍ منهم حكمي باعتباري معلِّمَ الرَّسم. كان لديَّ درسان متتاليان: درسٌ للكبار أوَّلًا، ثمَّ للأطفال. وتلك هي الفرصة الوحيدة في حياتي اليوميَّة التي أرى فيها بشرًا من لحم

ودم، وأتبادل معهم الحديث. لولا تلك الدروس، لعشت حياةَ ناسك في الجبال. وإن بقيتُ وحدانيًّا لفترة طويلة، قد يصيبني الجنون ـ كما قال ماساهيكو (وربَّما أُصبتُ بالجنون فعلًا).

كان عليَّ أن أكون ممتنًّا، لأنّي مُنِحْتُ فرصةً للتواصل مع الواقع والحياة الاجتماعيَّة. لكنّي لم أكن أستطيع. فالأشخاص الذين أقابلهم في مدرسة الرَّسم، لا يبدون لي بشرًا حقيقيِّين بقدر ما يبدون مجرَّد ظلال تمرّ أمام عينيّ. كنت أبتسم لكلّ واحدٍ منهم، وأناديه باسمه، وأقيِّم رسمه. بل لا ينبغي تسميته تقييمًا. كنت أمتدحه فقط. أبحث عن جزء جيِّد في كلّ لوحة، وإن تعذَّر ذلك، ابتكرتُ شيئًا من عندي.

وقد بلغني أنّي كنت أحظى بسمعةٍ حسنة كمعلِّم للرَّسم. وفقًا لما قاله لي المدير، فإنَّ عددًا كبيرًا من تلاميذي يحملون انطباعًا جيِّدًا عنّي. ولم أكن لأتوقَّع أمرًا كهذا. إذ لم يسبق لي أن شعرتُ ولو مرّة واحدة بأنّني مؤهَّل لتعليم الآخرين. في كلّ الأحوال، لا يهمّ. سواء أحبَّني الناس أم لا. بالنِّسبة إليَّ، كنتُ أركِّز في تأدية عملي على أكمل وجه قدر المستطاع. وبذلك، أكون قد أدَّيتُ واجبي تجاه ماساهيكو أمادا.

بالتأكيد، لم يكن جميع الأشخاص ظلالًا. فلقد اخترتُ امرأتَيْن من بينهم، وأقمتُ معهما علاقة شخصيَّة. وتوقَّفت كلتاهما عن التردُّد على دروس الرَّسم بعد العلاقة الجنسيَّة. ربَّما كانتا محرجتيْن من متابعة الدروس، وكنت أشعر بأنّي مسؤول إزاء هذا الأمر بمعنى ما.

عشيقتي الثانية (التي تكبرني في العمر) ستأتي بعد ظهر الغد. كنّا سنقضي الوقت على السرير في ممارسة الحبّ. فكيف لي أن أعتبرها مجرّد ظلٍّ عابر؟ كانت امرأة حقيقيَّة فعلًا، بجسدٍ ثلاثيّ الأبعاد. أم أنّها ظلٌّ ثلاثيّ الأبعاد؟ لا أدري.

ناداني منشكي. فعدتُ إلى الواقع. يبدو أنَّني قد غرقتُ وحدي في عمق أفكاري، بلا وعي.

«كنت أسألك عن اللَّوحة» ـ قال.

نظرتُ إليه: عاد صفاؤه المعتاد إلى وجهه الجميل. فبدا وجهه هادئًا، متفكِّرًا ومطمئنًا.

«إن كنتَ بحاجة إلى وجودي لترسمني، فأنا مستعدّ دائمًا» ـ قال.

حدَّقت إليه قليلًا. بحاجة إلى وجوده لأرسمه؟ آه، حقًّا، يتحدَّث عن البورتريه. طأطأتُ رأسي، ورشفتُ من القهوة التي فترت. وبعد أن رتَّبتُ أفكاري، أعدتُ الكوب إلى طبقه، فصدر عنها صوت ارتطام ناعمٍ ومكبوت. ثمَّ رفعتُ رأسي، وقلت له:

«أعتذر. عليَّ الذهاب بعد قليل إلى درس الرَّسم».

«حقًّا، حقًّا» ـ نظر إلى ساعته، وأضاف: «لقد نسيتُ تمامًا. أنت تُعلِّم الرَّسم في المدرسة المجاورة لمحطة أوداوارا. هل ستتحرَّك الآن؟»

«لا، ليس الآن. ما زال هناك بعض الوقت. ثمَّ إنَّ لديَّ ما أقوله لك».

«ما هو؟»

«في الحقيقة، لقد اكتملت اللَّوحة وانتهتْ، بمعنى ما».

تجهَّم وجهه قليلًا، ثمَّ نظر إلى عينيَّ مباشرة، كأنَّه يتحقَّق من شيء ما في أعماقهما!

«هل تقصد البورتريه خاصَّتي؟»

«أجل».

فقال بابتسامةٍ خفيفة على وجهه: «هذا رائع. حقًّا رائع. ولكنْ، ماذا تقصد بقولك: بمعنى ما؟»

«ليس من السَّهل شرحه. فأنا لست بارعًا في الشرح بالكلمات أساسًا».

«خذ ما يلزمك من الوقت. إنَّني معك وأستمع إليك».

عقدتُ يديّ فوق ركبتيّ، جاهدًا في اختيار الكلمات بعناية. وفي أثناء ذلك، تنزَّلَ الصمتُ على المكان. صمتٌ عميقٌ حتَّى تكاد تسمع انسياب الوقت فيه. فالوقت ينساب ببطء شديد فوق الجبال.

«سيِّد منشكي، لقد جلستَ قبالتي ورسمتُك على اللَّوح، مثلما طلبتَ منِّي. لكنِّي، للصدق، لا أعتقد أنَّ اللَّوحة التي أنهيتُها يمكن أن تسمَّى «بورتريه» بالمعنى الحرفيّ للكلمة. أعتقد أنَّنا بوسعنا وصفها بأنَّها «لوحة تتَّخذ منك موضوعًا لها». لا أعرف كيف أثمِّن قيمتها التجاريَّة. الأمر الوحيد الذي بإمكاني تأكيده، هو أنَّه كان عليَّ أن أرسمها على ذلك النحو تحديدًا. أعترف أنَّني واقعٌ في حيرة شديدة. وما لم تتوضَّح عندي أشياءٌ كثيرة، لن أعطيك اللَّوحة. سأبقيها هنا. هكذا أفضل، بحسب اعتقادي على الأقلّ. وبالتالي، سأُرجع لك العربون الذي تسلَّمتُه منك. وأعتذر منك إن كنتُ قد ضيَّعتُ وقتك الثمين».

«ماذا تقصد بأنَّ اللَّوحة في الواقع ليست بورتريه؟» سألني وهو يختار كلماته بحرصٍ بالغ.

«لقد عشتُ حياتي حتَّى هذه اللَّحظة باعتباري رسَّام بورتريه محترفًا. إنَّ البورتريه يعني في الأساس أن نرسم وجه شخص بالشَّكل الذي يرغب فيه. وهذا الشَّخص هو الذي يطلب العمل، وإن لم ترقه النتيجة، بإمكانه أن يرفض دفع الأجر. ولهذا السَّبب، نحرص قدر المستطاع على عدم إبراز مظاهره السلبيَّة، وينبغي الإلحاح على إبراز مزاياه الجميلة وتقديمها أحسن تقديم. لذا، من الصَّعب أن نعتبر البورتريه بحسب الطلب عملًا

فنّيًا، إلّا إذا رسمه فنّانٌ كبير مثل رامبرانت. أمّا بخصوص لوحتك، يا سيّد منشكي... فقد رسمتُها بدون أن أفكّر في أمرك مطلقًا، بل كنتُ أفكّر في أمري أنا فقط. بعبارة أخرى، لقد أعطيتُ أولويّة للـ «ذات» الخاصّة بالرسّام، على الرَّغم من أنَّ الغاية من اللّوحة هي ذات الشخص المرسوم، أي أنت».

فقال، والابتسامة لا تفارق وجهه: «على العكس، هذا يسعدني. لقد أخبرتك بوضوح، منذ البداية، أنّني أريدك أن ترسم كما يحلو لك، بلا التفات لأيّ طلبات خاصّة».

«بالضبط. لقد قلتَ ذلك بالفعل. أذكر جيّدًا. لكنْ ما يُقلقني لا يتعلّق بجودة عملي، بل بالموضوع الذي رسمتُه بالأحرى. ربّما آلت بي الأولوية المطلقة لذاتي إلى رسم ما لا ينبغي رسمه. هذا ما أخشاه».

حدّق إليّ طويلًا، ثمّ قال: «أنت تخشى أن تكون قد أظهرتَ شيئًا غائرًا في أعماقي، وكان من الأفضل تركه هناك. أهذا ما تقصده؟»

«تمامًا. لقد فكّرت في ذاتي فقط. وربّما أكون قد حرّكتُ فيك شيئًا ليس من حقّي تحريكه، يا سيّد منشكي». وكدتُ أضيف أنّني استخرجتُ منه شيئًا قميئًا. لكنّني أعرضتُ عن ذلك، واحتفظت بتلك الكلمات في صدري.

ظلَّ منشكي غارقًا في التّفكير بكلامي وقتًا طويلًا.

«إنّه أمر مشوّق. رأيك هذا مثير للاهتمام فعلًا» ـ قال، وقد بدت عليه أمارات الاستمتاع.

التزمتُ الصمت.

«أنا أعتقد أنّي شخصٌ يمتاز بتوازنٍ داخليٍّ متين، تابع. فلنقل إنَّ لي سيطرةً تامّة على نفسي».

«أعرف».

ابتسم وهو يُدَلِّكُ صدغيْه، قائلًا: «اللَّوحة أُنجِزَتْ إذن؟ «البورتريه» خاصَّتي، فلنسمِّه كذلك».

أومأتُ بنعم، وقلت: «أشعر بأنَّها أُنجِزَتْ».

«رائع. لِمَ لا تريني إيَّاها؟ فنقرِّر بعدئذٍ ما الذي سنفعله بها. هل لديك مانع؟»

«كما تشاء».

اقتدته إلى المرسم. فوقف على بعد مترَيْن تقريبًا من واجهة الحامل، وشبك ذراعيْه، وظلَّ يحدِّق في اللَّوحة. البورتريه الذي رسمته من أجله. بل كتلة الألوان الملطَّخة على سطح اللَّوح. يمكن أن أطلق عليها «صورة تشكيليَّة صمَّاء» لم أستطع تعريفها بكلمات أخرى. أصبح الشعر الأبيض الوفير تدفُّقًا عنيفًا لنصاعةٍ تشبه دوَّامة الثلج. لا يبدو أنَّه وجهٌ من النظرة الأولى. فالملامح التي نتوقَّع وجودها في الوجه، كانت مخبَّأة بالكامل في عمق كتلة الألوان. لكنّ منشكي، شئتُ أم أبيتُ، كان موجودًا في اللَّوحة. كنت مقتنعًا بذلك تمامًا.

ظلَّ يتأمَّلها لفترة طويلة، بثباتٍ خارق. لم يحرِّك أيّ عضلة، حرفيًّا. حتّى كدت أشكّ بأنّه يتنفَّس. وقفت جانبًا، بجوار النافذة، أراقب المشهد. تُرى كم مضى من وقت؟! شعرتُ أنَّ أبديَّة كاملة مضت. اختفت كلُّ التعابير عن وجهه، وهو يركِّز في اللَّوحة. وانعدم العمق من كلتا عينَيْه، وبدا أنَّهما محجوبتان بالضباب. ذكَّرتاني بسماءٍ غائمة تنعكس على مياه بركة راكدة. عينان ترفضان بصراحة أيّ حوار مع الآخر. ما المشاعر التي تتخبَّط في عمق قلبه؟ أخفقتُ في تصوُّرها.

وفي النهاية، عدَّل منشكي قامته، كمن يصحو من التنويم المغناطيسي على صفقة الساحر، اقشعرّ بدنه برعشة خفيَّة، وعاد إلى وجهه تعبيرٌ عن الوعي، ولمعت عيناه بضيائهما المعتاد. اقترب منِّي، وحطَّ يده على كتفي.

«رائعة. قال ـ بل مبهرة حقًّا. لا أجد ما أقوله. إنَّها اللَّوحة التي كنتُ أريدها بالضبط».

نظرتُ إلى وجهه. فأدركتُ أنَّ لمعان عينَيْه إنَّما كان تعبيرًا عن صدق مشاعره. لقد أعجبته لوحتي، وسحرتْ لبَّه.

«هذه اللَّوحة تعبِّر عن حقيقتي، قال. إنَّه «البورتريه» خاصَّتي، بالمعنى العميق والأصيل للكلمة. معك حقّ، لقد أصبتَ بما فعلتَ».

يده ما تزال على كتفي. كانت على خفَّتها تمدُّني بطاقةٍ من نوع خاصّ.

«ولكنْ، كيف استطعتَ أن تكتشف هذه اللَّوحة؟» سألني.

«أكتشف؟»

«بالطبع، أنت مَن رسم اللَّوحة، لا جدال في أنَّك أبدعتَها بموهبتك. لكنَّك، في الوقت نفسه، كأنَّك «اكتشفتها». أي أنَّك حفرتَ في أعماقك بحثًا عن تلك الصُّورة المكنونة، فعثرتَ عليها واستخرجتها. فلنقل إنَّك «أحييتها»، ألا تتَّفق معي على ذلك؟»

عندما نوَّه إليَّ بهذه الفكرة، فكَّرتُ أنَّه قد يكون محقًّا. من البديهيّ أنَّني أنا مَن رسم اللَّوحة، بيديَّ، متَّبعًا وحي اللَّحظة ليس إلَّا. أنا مَن اختار الألوان ونشرها على اللَّوح باستخدام الفرشاة والسكِّين والأصابع. ولكن، من جهة أخرى، في محاولتي التقاط جوهر الذات ـ ذات منشكي ـ اكتشفتُ شيئًا كان مدفونًا في ذاتي وأحييتُه. أجل.

تمامًا، مثلما اكتشفنا أنا وهو تلك الغرفة المريبة خلف مجسّم المعبد، بعد أن أزحنا عنها جثوة الصخور والغطاء الشبكيّ الثقيل، لم أستطع إلّا أن أرى علاقة وطيدة بين الحدثَيْن، اللذيْن وقعا في المكان والزمان نفسهما تقريبًا. فإذا بدأ كلُّ شيء عندما التقيتُ هذا الرجل، منشكي، وسمعتُ رنين الجرس في قلب اللّيل، فلا بدّ أنّ كلّ ما حدث بعد تينك الحَدثَيْن متولّدٌ منهما.

«بإمكاننا تشبيه ما فعلتَه بزلزالٍ يضرب قاع محيط عميق ـ تابع كلامه..زلزالٌ لم يره أحد. في مكانٍ لا يصله ضوء الشمس. لكنّه سبَّبَ جائحةً في عقلك الباطن. فتولَّدَ تحوُّلٌ ظهر على السطح، وحرَّضَ ردّات فعلٍ متتالية. فجاءت النتيجة على الشّكل الماثل أمامنا الآن! أنا لست فنّانًا، لكنّني قادرٌ على فهم منشأ العمليّة الإبداعيّة. ففي عالم الأعمال أيضًا، الخطوط الكبرى تولد بمراحل متشابهة. إنَّ الأفكار الخلّاقة، في معظم الحالات، هي عبارة عن عواطف لا تُخلَق من العدم، إنّما تبرز من قلب الظلمة من دون منطق ولا برهان».

عاد منشكي إلى اللّوحة، واقترب مباشرة إليها. أخذ يتفحّص كلّ جزء وزاوية فيها، بانتباهٍ عميقٍ كمن يقرأ خارطة دقيقة. ثمّ تراجع عنها نحو ثلاثة أمتار، وضيَّقَ عينيْه. وظهر على وجهه ما يشبه تعبير النشوة. ذكّرني بطيرٍ جارح يوشك أن ينقضّ على فريسته. حقًّا، ممَّ تتكوّن الفريسة؟ أهي اللّوحة التي رسمتُها؟ أم أنا نفسي؟ أم شيء آخر؟ هذا ما لم أعرفه. تلاشى تعبير النشوة عن وجهه، كما يتطاير ضباب الفجر فوق سطح النهر. واستعاد وجهه تعابيره الودودة الآمنة.

«لست معتادًا على التفاخر بنفسي، قال منشكي. لكنّني أشعر بالفخر صدقًا، لأنّ عينيّ لا تخطئان التّقدير. لست موهوبًا بالفنّ، وليس

لديَّ أي علاقة بالعمل الإبداعيّ، ولكنْ، لي عينان قادرتان على فهم العمل الفنّيّ. وإنّي على الأقلّ أعتزّ بهذه القدرة».

لقد أربكتني نظرته الجارحة، وهو يتأمَّل اللَّوحة. ولم أشعر بأنَّه صادقٌ في كلامه. لذا، لم يفتنني مديحه كثيرًا.

«أعجبتَك إذن؟ حقًّا؟» ـ سألته كي أتأكّد من الحقيقة.

«بلا جدال. إنَّها حقًّا لوحة قيّمة. أشعر بسعادةٍ فاقت توقُّعاتي، إذ رسمتَني، أو استوحيتَ منّي لترسم لوحة فنِّيَّة بديعة وفاخرة، وذات قوَّة عارمة. وبما أنَّني أنا الذي طلبت منك، فإنَّني أستأذنك لآخذها معي. هل لديك مانع؟»

«إن كان الأمر كذلك، فلا مانع لديَّ إطلاقًا...»

رفع يده على الفور، وقاطع كلامي قائلًا: «كما أنَّني أستأذنك لأدعوك إلى بيتي، احتفالًا بإنجاز هذه اللَّوحة الرَّائعة. ما رأيك؟ لعلَّنا نشرب شيئًا معا. إن كان ذلك لا يسبّب لك إزعاجًا بالطبع».

«لا إزعاج بالطبع. ولكنْ لا داعي لتكليف نفسك بهذا، فقد قمتَ بما يكفي...»

«كلَّا. فأنا أعوِّل على ذلك. أودّ أن نحتفل معًا بإنجاز هذه اللَّوحة. هلَّا تفضَّلتَ لتناول العشاء عندي؟ لا أعِدُك بوجبة عظيمة. سيكون عشاء متواضعًا. أنا وأنت فقط، لا أحد غيرنا. باستثناء الطبَّاخ ونادل البار».

«الطبَّاخ ونادل البار؟»

«هناك مطعم فرنسيّ بالقرب من ميناء هاياكاوا. أعرفه جيّدًا من فترة طويلة. سأستدعي الطبَّاخ ونادل البار في يوم عطلة المطعم إلى

بيتي. الطبّاخ ماهر جدًّا، مختصٌّ بإعداد السمك الطازج. وفي الواقع، كنتُ أنوي دعوتك إلى بيتي أساسًا، بغضّ النّظر عن اللّوحة. وأجريتُ بعض الترتيبات. والآن، إنّها الفرصة المثاليّة!»

تمالكتُ نفسي جيّدًا كيلا أُظهر ملامح الدّهشة على وجهي. لم أكن أستطيع أن أتخيّل المدى الذي قد تصل إليه تكاليف تلك الترتيبات. لكنّها قد تكون فاتورة عاديّة بالنّسبة إلى منشكي؛ أو أنّها لا تتجاوز حدود المعقول على الأقلّ!

«ما رأيك بعد أربعة أيّام؟ اقترح ـ مساء الثلاثاء مثلًا. ما قولك».

«أجل، مساء الثلاثاء، ليس لديَّ إلتزامات».

«فليكن كذلك إذن. والآن، هلّا سمحتَ لي بأخذ اللّوحة؟ أودّ أن أضعها في إطار مناسب، وأزيّن بها جدار البيت قبل مجيئك».

«أجل يا سيّد منشكي، ولكنْ... هل تستطيع أن ترى وجهك في هذه اللّوحة حقًّا؟» سألته ثانيةً.

«بالتأكيد، أجاب. بعينَيْن تنظران إليَّ بدهشة. بالطبع، أرى وجهي فيها، وبوضوح. فماذا سأرى فيها غير وجهي؟»

«جيّد جدًّا. لقد رسمتُها في الأساس بناءً على طلب منك. فإذا أعجبتك، فهي لك. افعل بها ما تشاء. سوى أنَّ الألوان الزيتيّة لم تجفّ بعد. فأرجو منك أن تحملها بحرص. ومن الأفضل، أن تنتظر بعض الوقت بخصوص الإطار، أسبوعَيْن على الأقلّ، ريثما تجفّ تمامًا».

«فهمت. سأعاملها بحرص، وسأؤجّل الإطار إلى يوم آخر».

قبل أن يغادر، بسط منشكي يده وتصافحنا. لم نتصافح منذ مدّة. وبرزت على وجهه ابتسامة رضا.

«حسنًا. إلى اللّقاء في يوم الثلاثاء. سآتي إلى هنا لآخذك في السّادسة مساءً»، قال.

«بالمناسبة، هل ستدعو المومياء أيضًا إلى العشاء؟» سألته.

ولم أفهم، أنا نفسي، لماذا قلت ذلك. لكنَّ المومياء طرأت في ذهني فجأة، ولم أستطع إلّا أن أطرح السّؤال.

نظر منشكي إلى وجهي كأنّه يبحث عن شيء ما، وقال: «مومياء؟ أيُّ مومياء؟»

«أقصد المومياء التي كنّا سنجدها في الغرفة الحجريّة إيّاها. والتي اختفت عندما فتحنا الحُفرة، تاركةً الجرس الذي من المفترض أنّها كانت تدقُّه كلّ ليلة. أو ربّما عليّ أن أسمّيها «البوذا المحنّط»! لعلّه يودّ الحضور إلى بيتك أيضًا. مثل تمثال الكومنداتور في أوبرا دون جوڤاني».

فكّر قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة مشرقة، وقال: «آه. تريدني أن أدعو المومياء إلى العشاء مثلما فعل الدون جوڤاني بتمثال الكومنداتور».

«بالضبط. وربّما تنجم بينهما علاقة ما».

«فليتفضّل. ليس لديَّ مانع إطلاقًا. فهو عشاء للاحتفال بحدث مهمّ. إذا كانت المومياء تودّ الانضمام إلى العشاء، فيسعدني أن أدعوها. يبدو أنّها ستكون ليلة مثيرة للاهتمام. ولكنْ، ما الحلوى التي يجب تقديمها؟» ـ ضحك مسرورًا، وتابع: «المشكلة الوحيدة هي أنَّ المومياء غائبة، فكيف أدعوها؟»

«صحيح. ولكنْ، لا يمكننا تأكيد أنَّ الأشياء المرئيّة وحدها هي الحقيقيّة. أليس كذلك؟»

حمل منشكي اللَّوحة بيديْه بحرصٍ شديد، وأَخَذها إلى السيَّارة. ثمَّ جاء من الصندوق الخلفيّ بغطاء قديم، وألقاه على المقعد المجاور للسَّائق. وضع اللَّوحة عليه بحذر كي لا تتلامس الألوان بالغطاء. وثبَّتها بصندوقَيْن من الكارتون، وربطها بحبل رقيق حتَّى لا تتحرَّك. كان في منتهى البراعة. ويبدو أنَّ صندوق السيَّارة الخلفيّ مزوَّد بأدوات مفيدة على الدوام!

«هذا صحيح. ربَّما كنتَ على حقّ»، قال بصوت خافتٍ وهو يستعدّ للمغادرة. ونظر مباشرة إلى وجهي، ويداه على المقود الجلديّ.

«أنا على حقّ؟»

«أجل، بما يخصّ الحياة. فغالبًا، لا نفهم أين يمرّ الحدّ بين الواقع والخيال. ونظنّ أنَّ الخطَّ الفاصلَ بين الوجود والعدم غيرُ ثابت، كالحدود التي تتحرَّك ملء إرادتها. ينبغي لنا أن نعير انتباهًا شديدًا إلى تلك التحرُّكات. وإلَّا ما عدنا نعرف في أيِّ جهة نكون. فعندما أخبرتك بأنَّ البقاء في الحفرة وقتًا طويلًا يُعَدُّ أمرًا خطيرًا، كنتُ أقصد ذلك بالتَّحديد».

لم أجد ما أردّ به على كلامه هذا. ولا هو أضاف شيئًا آخر. ألقى عليَّ التحيَّة ملوِّحًا بيده من النافذة المفتوحة، وشغَّل المحرّك V8 الذي سرعان ما أصدر دويَّه المحبَّب، واختفى من مجالي البصريّ، آخذًا معه البورتريه الذي لم تجفّ ألوانه بعد.

- 19 -
هل ترى شيئًا ورائي؟

جاءت عشيقتي بسيَّارتها، الميني الحمراء، في الواحدة بعد ظهر يوم السبت. خرجت لاستقبالها. كانت تضع نظَّارة شمسيَّة خضراء، وترتدي فستانًا بسيطًا رمليّ اللَّون، وفوقه معطف رماديّ خفيف.

«هل تفضّلين بالسيَّارة أم على السَّرير؟» سألتها.

فضحكت وقالت: «يا لك من غبيّ!»

«لم تكن فكرة سيِّئة أن نمارس داخل السيَّارة. ففي حيِّزٍ ضيِّقٍ، نكون مجبريْن على ابتكار حِيَل كثيرة».

«فلتكن في مرَّةٍ قادمة».

جلسنا في غرفة المعيشة نشرب الشاي.

«لقد أنجزتُ البورتريه الذي كنت أعمل عليه، قلت لها. بورتريه نظريًّا، لكنَّه مختلف جدًّا عن البورتريهات التِّجاريَّة التي كنتُ أرسمها بحسب الطَّلب».

بدا أنَّها أحسَّت بالفضول تجاه تلك اللَّوحة.

«أيمكنني أن أراه؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلت: «لقد تأخَّرتِ يومًا واحدًا. كنتُ أودُّ معرفة رأيك، لكنَّ السيِّد منشكي أخذ البورتريه إلى بيته بالفعل. حتَّى إنَّه لم ينتظر أن تجفّ الألوان تمامًا. يبدو أنَّه كان يريد الحصول عليه بأسرع ما يُمكن. كأنَّه كان يخشى أن يستولي عليه أحدٌ غيره».

«أي أنَّه أُعجب به».

«أجل، لقد قالها بلسانه، وما من سببٍ يجعلني أشكّ في ذلك».

«أي أنَّك أنجزت اللَّوحة تمامًا وأعجبت العميل. وكلُّ شيء تمَّ على ما يرام، أليس كذلك؟»

«ربَّما. بل أنا نفسي أحسستُ بالرضا حين أنجزتُها. كانت من نوع لم يسبق لي أن رسمته، وقد تفتح آفاقًا جديدة».

«أتعني أسلوبًا جديدًا للبورتريه؟»

«ومن يدري... لعلِّي حصلتُ على هذه النتيجة، لأنِّي رسمت السيِّد منشكي. وربَّما لا، لا شأن للموديل. لعلَّ الصُّدفة هي التي قادتني إلى بلوغ أسلوب جديد من خلال رسم بورتريه اعتياديّ. لست متأكِّدًا من تحقُّق شيء كهذا بعد، حتى لو رسمتُ السيِّد منشكي مرة أخرى. قد تكون صدفة لا تُكرَّر، جمعتْ بين عوامل مختلفة. والحال هذه، الشيء الأهمّ بالنِّسبة إليّ، أنَّ الرَّغبة في الرَّسم عادت تراودني».

«بكلِّ حال، أهنِّئك على إنجاز اللَّوحة».

«شكرًا. وقد حصلتُ على أجر كبير من المال».

«إنَّه سخيٌّ جدًّا، هذا السيِّد منشكي».

«وقد دعاني إلى الاحتفال بإنجاز اللَّوحة في بيته. سنتناول العشاء معًا ليلة الثلاثاء».

حدَّثتها عن الدَّعوة، مستثنيًا الجزء المتعلِّق بالمومياء طبعًا. حدَّثتها عن عشاء لشخصَيْن فقط، رفقة طبَّاخ ونادل البار.

فقالت منبهرة: «أخيرًا، ستطأ قدماك ذلك البيت الطباشيري؛ البيت الغامض الذي يسكنه رجل غامض. لديَّ فضول رهيب. أرجوك أن تشاهد كلّ شيء في المكان».

«سأشاهد كلَّ ما سأتمكَّن من مشاهدته».

«ولا تنسَ أن تحفظ أنواع الطعام المقدَّمة».

«سأحاول. بالمناسبة، لقد قلتِ إنَّك حصلتِ على معلوماتٍ جديدة تخصّ السيِّد منشكي. أليس كذلك؟»

«نعم. من خلال وكالة أنباء الغابة».

«وما نوع هذه المعلومات؟»

برزت على وجهها حيرةٌ خفيفة، ثمَّ رفعت الكوب وأخذت رشفة من الشاي.

«سأحدِّثك فيما بعد. فهناك ما أريد فعله قبل ذلك».

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

«أخجل من قوله بلساني».

انتقلنا من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم، كالمعتاد.

عشتُ لمدَّة ستّ سنوات مع يوزو في الفترة الأولى من الحياة الزوجيَّة. وفي أثناء تلك الفترة، لم أُقم علاقة مع أيِّ امرأة أخرى ولو

مرّة واحدة. هذا لا يعني أنّني لم أجد أيّ فرصة لذلك، إنّما كنت أعوّل على قضاء أوقاتٍ هادئة صحبة زوجتي، لا البحث عن فرص أخرى. وبالنّسبة إلى الجنس أيضًا، كانت علاقتي بيوزو تُشبع شهوتي حقًّا. إلى أن صعقتني، بدون أيِّ مقدِّمات (أو هذا ما بدا لي على الأقلّ)، حين صارحتني بقولها: «يؤسفني جدًّا، لم أعد أستطيع العيش معك. كان قرارًا لا رجعة فيه، لا يترك مجالًا للتفاوض أو التروّي». تشتَّتَ ذهني يومها، فما عرفتُ بما أردّ. فقدتُ القدرة على الكلام، لكنّي أدركتُ أنّه لم يَعُد بإمكاني البقاء معها هناك.

وهكذا، جمعتُ أغراضي البسيطة ووضعتُها في سيّارة البيجو 205 القديمة، وخرجتُ في سفر بلا غاية. وما لبثتُ أتنقّل في إقليم طوهوكو وجزيرة هوكايدو قرابة شهر ونصف الشهر، من بداية الرّبيع، حيث كان الطقس ما يزال باردًا، حتى تعطّلت السيّارة في النهاية ولم تَعُد قادرة على السّير. وكنتُ في أثناء السّفر، أتذكّر جسد يوزو كلّما حلَّ اللّيل. أتذكّر أدقّ تفاصيله. وأتذكّر ردّة فعلها عندما ألمس جزءًا معيّنًا، وأيّ صوت ستُصدِر. كان التذكُّر خارجًا عن إرادتي، ولا أستطيع إيقافه. وأحيانًا، كنتُ أقذف بمفردي من هوج تلك الذكريات في خيالي، رغمًا عنّي.

ولكنْ، ذات مرّة، مرّة واحدة فقط خلال تلك الرّحلة الطويلة، حدث أنّي ضاجعتُ امرأة من لحم ودم. انتهى بي المطاف، بعد أحداث غريبة، مع فتاة لا أعرفها. ولم يكن السّبب أنّني كنتُ راغبًا في ذلك.

وقع الأمر في مدينة ساحليّة صغيرة من محافظة مياغي. أعرف أنّها تقع في منطقة قريبة من الحدود مع محافظة إيواته، لكنّي حينذاك، كنتُ أقطع أميالًا طويلة يوميًّا، عبورًا بمدنٍ كثيرة ومتشابهة، لم أَعُد أذكر

كلّ أسمائها. أذكر أنَّ المدينة تُعتبر ميناء صيدٍ مهمًّا، لكنَّ المدن كلّها هناك تحوي موانئ صيد كبيرة، وتنبعث منها رائحة الديزل والأسماك.

كنتُ أتناول العشاء ـ رزّ بالكاري وسلطة خضراء ـ وحيدًا في مطعمٍ عائليّ يقع على أطراف المدينة بمحاذاة طريق رئيسيَّة. وكانت الساعة الثامنة ليلًا تقريبًا، وعدد الزبائن في المطعم يُعَدُّ على أصابع اليد. كنت جالسًا بجوار النافذة، أتناول الطعام، وأقرأ كتابًا بحجم الجيب. فإذا بفتاة تجلس قبالتي فجأة. لم تكن متردّدة أو حائرة. وبلا أيّ استئذان. جلست بسرعة على المقعد البلاستيكيّ. كأنَّ ذلك من طبيعة الأشياء في هذه الحياة.

رفعتُ وجهي متفاجئًا. لم تكن بيننا معرفة سابقة طبعًا. تلك هي المرَّة الأولى التي أقابلها فعلًا. وبقدر ما كانت المفاجأة، لم أستوعب الموقف. فهناك عدد كبير من الطاولات الفارغة، وما من سببٍ يَدفعها لتشاركني الطاولة نفسها. أم أنَّ أمرًا كهذا سائدٌ ومعتاد في هذه المدينة؟ وضعتُ الشوكة جانبًا، ومسحتُ فمي بالمنديل، وأخذتُ أتأمّل وجه الفتاة.

«تظاهرْ بأنّك تعرفني. وكأنّنا كنّا على موعد هنا»، قالت بلا مقدّمات.

كان صوتها أجشّ، أو ربَّما جعله التوتُّر مبحوحًا في تلك اللَّحظة. وكان لها لكنةٌ خفيفة للإقليم الشماليّ الشَّرقيّ.

وضعتُ المؤشّرة على الصفحة التي كنت أقرأها، وأغلقتُ الكتاب. كانت الفتاة في منتصف العشرينيّات أغلب الظنّ. ترتدي سترة دائريَّة الياقة، وتلبس فوقها معطفًا صوفيًّا كحليّ اللَّون. ولم تكن الثياب من أجود الأنواع، أو على أناقة الموضة. إنَّما ثيابٌ اعتياديَّة كتلك

التي يرتديها المرء بنيَّة الخروج إلى التبضُّع من المتجر المجاور لبيته. كان شعرها قصيرًا أسود اللَّون، والغرَّة تغطِّي جبينها. لا مساحيق تجميل على الوجه تقريبًا. وهناك حقيبة قماشيَّة سوداء على ركبتَيْها.

وجهٌ بلا ملامح متفرِّدة. لم تكن تقاسيمه قبيحة، لكنَّه بلا ميزةٍ تُذكَر. كتلك الوجوه التي تصادفها في الطريق من دون أن تولِّد فيك أيّ انطباع، وتنساها على الفور. كانت شفتاها مطبقتَيْن، وتتنفَّس من أنفها. بدت لي أنَّها هائجة الأنفس نوعًا ما. فالمنخاران يتَّسعان وينكمشان بخفَّة. أنفها صغير، غير متناسق مع فمها الكبير. خطرت في بالي صورة عن نحَّاتٍ يصنع تمثالًا، ينقصه الصلصال فيقتطع قليلًا من الأنف.

ردَّدت الفتاة ما قالته: «أفهمت؟ تظاهر بأنَّك تعرفني. كفّ عن هذا التَّعبير المندهش».

«حسنًا»، أجبتُ من دون أن أفهم أيّ شيء.

«تناول وجبتك بشكل طبيعيّ. وتظاهرْ بأنَّ بيننا أُلفة».

«عمَّ نتحدَّث؟»

«هل أنتَ من طوكيو؟»

أومأتُ بنعم. رفعتُ الشوكة، وأكلت قطعة طماطم صغيرة، ثمَّ ارتشفتُ ماءً من الكوب.

«عرفتُ ذلك من طريقة كلامك، أكملتْ ـ فما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟»

«عابر سبيل...».

جاءت النادلة التي ترتدي بدلةً بلون الزنجبيل، تحمل قائمة طعام سميكة. كان صدرها ضخمًا إلى درجة كبيرة، ما جعل أزرار البدلة تبدو

أنّها على وشك الانفجار. لم تأخذ الفتاة قائمة الطعام، بل لم تنظر حتى إلى وجه النادلة. اكتفت بالنَّظر إلى وجهي قائلة: «قهوة وكعك الجبن»، كأنَّها تطلب منّي أنا. أومأت النادلة من دون أن تلفظ حرفًا، وحملت قائمة الطعام التي جاءت بها، ورحلت.

«هل أنت متورّطة في مأزقٍ ما؟» سألتها.

لم تُجب، بل كانت تحدّق إلى وجهي كأنَّها تُقيّمه. ثمَّ سألتْني: «هل ترى شيئًا ورائي؟ هل ترى أحدًا؟»

نظرتُ إلى ما ورائها. أناسٌ عاديُّون يتناولون وجباتهم. ولم يدخل المطعم زبائنُ جدد.

«لا شيء، ولا أحد هناك»، أجبتُ.

«أرجو أن تستمرّ بالمراقبة. إن رأيتَ شيئًا ما، أخبرني. وتابعْ حديثك كي لا تُلفت الأنظار».

كان مرأب المطعم ظاهرًا لنا من المائدة التي نجلس إليها. رأيت سيّارتي القديمة التي غطّتها الأتربة والغبار هناك. ثمّة سيّارتان غيرها. إحداهما صغيرة وفضّيّة اللّون، والأخرى سوداء طويلة من طراز واغن بوكس. تبدو سيّارة الواغن بوكس جديدة. وكانت كلتاهما هناك قبل مجيئي. لا يبدو أنَّ سيّارة جاءت بعد ذلك. كما أنَّ الفتاة جاءت إلى المطعم على قدمَيْها. أم أنَّ أحدًا أوصلها بسيّارته وغادر؟

«عابر سبيل، بالصدفة»، قالت الفتاة.

«أجل».

«هل أنت في رحلة سفر؟»

«تقريبًا».

«ما الكتاب الذي كنتَ تقرأه؟»

أعطيتها الكتاب. رواية لـ أوغاي موري «عائلة آبه».

«عائلة آبه»، قالت وأرجعته إليَّ. «لماذا تقرأ مثل هذا الكتاب القديم؟»

«كان في قاعة اجتماعات فندق بيت الشباب الذي أقمتُ به منذ عدَّة أيَّام في مدينة أوموري. بدا لي شيِّقًا حين تصفَّحته، فأخذته. وبالمقابل، تركتُ بدلًا عنه عددًا من الكتب التي انتهيتُ من قراءتها».

«لم يسبق لي أن قرأتُ «عائلة آبه». هل هي شيِّقة حقًّا؟»

لقد كنتُ انتهيتُ من قراءتها، وأعيد قراءتها للمرَّة الثانية. والسَّبب أنَّ الحكاية كانت شيِّقة بالطبع، ولكنْ أيضًا لأنَّني لم أفهم لماذا كتب أوغاي موري تلك الرِّواية، أو كان يجب عليه كتابتها. ولكنْ لو بدأت في شرح ذلك لها، فسيطول الحديث. فليس هذا نادي محبِّي القراءة! وعلاوة على ذلك، فتلك الفتاة قالت ذلك فقط كي يكون حديثنا طبيعيًّا (أو على الأقلّ كي يبدو كذلك للمحيطين بنا).

فقلتُ: «أعتقد أنَّها رواية تستحقّ القراءة».

«الوظيفة؟»

«أتقصدين أوغاي موري؟»

«لا طبعًا، تأفَّفتْ. لا شأن لي بأوغاي موري. أقصدك أنت. ماذا تعمل؟»

«أرسم لوحات»، أجبتُ.

«رسّام؟»

«أجل، أعتقد أنَّه يمكن وصفي بذلك».

«وما نوع اللّوحات التي ترسمها؟»

«بورتريهات».

«أتقصد تلك اللَّوحات التي تُعلَّق على جدران مكاتب رؤساء الشركات، ورجالٍ مهمِّين، ينظرون إليك من الأعلى إلى أسفل؟»

«بالضبط».

«أنت متخصِّص برسم هذا النوع من اللَّوحات؟»

أومأتُ موافقًا.

فكفَّت عن التَّحدُّث عن الرَّسم عند ذلك الحدّ. ربَّما لم يَعُد الموضوع يثير فضولها. فلنقل إنَّ معظم الناس ليس لديهم اهتمامٌ بالبورتريه، باستثناء الأشخاص الذين يظهرون فيه بطبيعة الحال.

في تلك اللَّحظة، انفتح الباب الآليّ، ودخل رجلٌ طويل القامة في منتصف العمر. يرتدي معطفًا جلديًّا أسود، وعلى رأسه قبَّعة سوداء رُسِمَ عليها شعارُ مصنع لأدوات لعبة الغولف. وقف عند المدخل، يمسح بعينَيْه أرجاء المطعم، واختار طاولة تَبْعد عنَّا متريْن، وجلس إليها ووجهه تجاهنا. نزع القبَّعة، وعدَّلَ شعره بكفَّيه عدَّة مرَّات، ثمَّ راح يتعمَّق بقائمة الطعام التي أحضرتها له النادلة ذات الصَّدر الضَّخم. كان شعره قصيرًا ويختلط فيه الشيب. نحيف القوام، وبشرته السَّمراء كُيِّتْ بأشعَّة الشمس كلِّيًّا. وثمَّة تجاعيد عميقة على جبينه كأنَّها أمواج.

«لقد دخل رجل»، قلتُ للفتاة.

«ما أوصافه؟»

عدَّدتُ مميِّزات مظهره بإيجاز.

فسألتني: «هل يمكنك أن ترسمه؟»

«أتقصدين وجهه؟»

«أجل. ألم تقل إنَّك رسَّام؟»

أخرجتُ من جيبي دفتر المذكّرات، وسرعان ما رسمتُ وجه الرجل بقلم رصاص. وأضفتُ حتَّى الظلال إلى الرَّسم. ولم تكن هناك ضرورة كي أنظر إلى وجهه مرارًا أثناء الرَّسم. فأنا موهوبٌ باستيعاب مميِّزات الوجه من نظرة واحدة، ومن ثَمَّ، أحفظها في عقلي الباطن. وضعت الرَّسمة على الطاولة ودوَّرتُها باتِّجاه الفتاة. فأمسكتها بيدَيْها، وركَّزت فيها بنظرة متشكِّكة، مثل موظَّفة بنك تتفحَّص توقيع أحدهم على شيك مصرفيّ مشبوه. ثمَّ أعادت الورقة فوق الطاولة.

«أنت بارعٌ جدًّا في الرَّسم»، قالتْ وهي تنظر إليَّ. وبدت منبهرة حقًّا.

«إنَّها مهنتي، أجبتُ. عمومًا، هل تعرفين ذلك الرجل؟»

هزَّت رأسها نافيةً، وزمَّتْ شفتَيْها، من دون أن يتغيَّر تعبير وجهها. طَوَتْ الرَّسمة إلى أربع طيَّات ووضعتها في حقيبتها. ولم أفهم السَّبب وراء احتفاظها برسمةٍ كتلك. كان يكفي أن تكوِّرها وتلقيها في سلَّة المهملات.

«لا. لا أعرفه»، قالت أخيرًا.

«لكنَّه يبحث عنكِ، أليس كذلك؟»

لم تردّ.

جاءت النادلة بالقهوة وكعكة الجبن، فظلَّت الفتاة صامتة حتى انصرفت النادلة. قطعت من كعكة الجبن قطعة بالشَّوْكة، وأخذت تحرِّكها فوق الطبق أكثر من مرَّة، مثل لاعب الهوكي الذي يتدرَّب على الجليد قبل المباراة. ثمَّ وضعت القطعة في فمها أخيرًا، وبدأت تمضغها ببطء، ثمَّ أضافت الحليب إلى القهوة وشربت منها. ودفعت طبق الكعكة إلى ركن الطاولة، كأنَّها اكتفت بتلك القطعة الصَّغيرة.

انضمَّت إلى المرأب سيَّارةٌ رياضيَّةٌ بيضاء، طويلة المتن وعريضة الجانبَيْن. وإطاراتها في غاية المتانة. ولا بدَّ أنَّها للرجل الذي دخل منذ قليل. كانت خلفيَّتها باتِّجاه المطعم. وشعار «SUBARU FOREST-ER» على مصدّ العجلة البديلة المعلَّقة من الخلف. أنهيتُ وجبة الرزّ بالكاري، فجاءت النادلة وأخذت الأطباق، وطلبتُ منها قهوة.

«هل أنت مسافر منذ وقت طويل؟» سألتني الفتاة.

«أجل».

«هل تحبّ السفر؟»

الإجابة الصَّحيحة ستكون: لم أكن مسافرًا حينها بهدف المتعة. لكنّي لو أجبتُ كذا، لطال الحديث وتعقَّد.

فقلت: «نوعًا ما».

نظرت إليَّ مباشرة، وكأنَّها تنظر إلى حيوان نادر، وقالت: «أنت شخص لا يتحدَّث إلَّا بجمل قصيرة».

الإجابة الصَّحيحة ستكون: يتعلَّق الأمر بجليسي. لكنّي، في هذه الحالة أيضًا، لو أجبتُ كذا، لطال الحديث وتعقَّد.

عادت النادلة بالقهوة، فشربتُ منها. كنتُ متأكِّدًا من أنَّها قهوة، لكنَّها لم تكن لذيذة. إنَّما هي ساخنة بما يكفي. أمَّا المطعم، فلم يدخله زبون بعد ذلك الرَّجل ذي المعطف الجلديّ والشَّعر الأشيب. سمعته يطلب الرزّ وشريحة هامبرغر بصوت واضح.

انسابت من سمَّاعات الصالة أغنية «The fool on the Hill» تعزفها فرقة وتريّات. من ألَّف لحن تلك الأغنية؟ جون لينون أم بول

ماكرتني؟ لم أعد أذكر. لينون على الأرجح. كنتُ أفكّر في أمرٍ بلا أهمّيّة كهذا، لأنّني لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أفكّر فيه سواه.

«هل أتيتَ إلى هنا بسيّارة؟»

«أجل».

«أيُّ سيّارة؟»

«بيجو حمراء».

«ما لوحتها؟»

«شيناغاوا».

تجهّم وجهُها بسماع تلك الإجابات، وكأنّها تحمل ذاكرة بشعة تجاه سيّارة بيجو حمراء بلوحة شيناغاوا. وبعد ذلك، عدّلتْ كُمَّيْ معطفها الصوفيّ، وتأكّدت من أنّ أزرار السترة البيضاء مغلقة حتّى أعلاها. ثمّ مسحت شفتَيْها بمنديل المائدة الورقيّ، وقالت فجأة: «هيّا بنا».

شربتْ نصف كوب الماء، ونهضتْ عن مقعدها. وتركتْ قهوتها التي لم تشرب منها سوى رشفة واحدة، وكعكةَ الجبن التي لم تأكل منها إلّا قضمة واحدة، على الطاولة. كما لو أنّها تهرع هربًا من كارثة ألمّتْ بالمكان!

نهضت أنا أيضًا، من دون معرفة إلى أين سنذهب بالضبط. أخذتُ الفاتورة من على الطاولة ودفعتُها عند المحاسبة. حسابي وحسابها، لكنّ الفتاة لم تُظهِر أيّ إشارة إلى أنّها ستدفع ثمن طلبها، كما أنّها لم تدلِ بأيّ شكر حين دفعتُ.

عندما خرجنا من المطعم، كان ذلك الرجل يأكل وجبته على مضض. رفع وجهه ورمانا بنظرة خاطفة، ولا شيء سوى ذلك. ثمّ أعاد

نظره سريعًا إلى الطبق، وتابع تناوله الوجبة بالشّوكة والسكّين، بلا متعة. ولم تنظر الفتاة إليه مطلقًا.

مررنا بجانب السيّارة البيضاء، سوبارو فورستر، فحطّت عيناي على المصدّ الموسوم بشعار سمكة المرلين. أعتقد أنّ السّمكة من نوع المرلين. ولا أعرف بالطبع ما سرّ لصق شعار لسمك المرلين على السيّارة. أهو موظّف في هيئة الثروة السمكيّة، أم من هواة صيد الأسماك؟

لم تقل لي الفتاة وجهتنا. جلستْ في المقعد المجاور للسّائق، وأعطتني إرشادات موجزة خلال الطريق كلّما تطلّب الأمر. يبدو أنّها تعرف طرقات تلك المنطقة جيّدًا. فإمّا أنّها من مواليد هذه المدينة، أو أنّها مقيمة هناك منذ وقت طويل للغاية. قدتُ سيّارة البيجو مسترشدًا بتوجيهاتها. وبعد السّيْر في طريق رئيسة خارج المدينة، كان هناك فندق عُشّاق مزيَّنٌ بأنوار مبهرجة. دخلتُ المرأب بإرشادٍ منها، وأطفأتُ المحرّك.

«سأبيتُ اللّيلة هنا، لأنّني لا أستطيع العودة إلى البيت. تعالَ معي»، قالت وكأنّها تتّخذ قرارًا.

«ولكنّني كنت قد قرّرت المبيت هذه اللّيلة في مكان آخر. لقد دفعت الأجرة، وتركت أغراضي هناك».

«أين؟»

قلت لها اسم فندق تجاريّ صغير بالقرب من محطّة القطار.

«هذا الفندق أفضل بكثير من ذلك الفندق الرّخيص، قالت ـ غُرَفُه بالية بحجم خزانة ملابس بأحسن الأحوال. أليس كذلك؟»

كان الأمر كما قالت فعلًا. غرفة بالية بحجم خزانة ملابس.

«ثمَّ إنَّ مكانًا كهذا لا يستقبل أنثى بمفردها، يَخشون أن تكون محترفة. تعالَ معي. هيًّا».

وعند مكتب الاستقبال، دفعت أجرة المبيت في غرفة (وفي هذه الحالة أيضًا، لم تُدلِ الفتاة بما ينمّ عن الشكر)، واستلمتُ المفتاح. وما إن دخلنا الغرفة، حتّى ملأت الفتاة حوض الاستحمام بالماء السّاخن أوّلًا، وأضاءت التلفاز، وضبطت الإضاءة بدقّة. كان الحوض واسعًا رحبًا. كان المكان كلُّه مريحًا أكثر من الفندق التّجاريّ الرّخيص. بدا أنَّ الفتاة أتت إلى هذا المكان ـ أو إلى مكان يشبهه ـ أكثر من مرّة في السّابق. جلستْ فوق السّرير بعدئذٍ، ونزعت معطف الصوف. ثمَّ نزعت السترة البيضاء، فالتنُّورة. فالجوارب. كانت ملابسها الداخليَّة بيضاء وبسيطة، ويبدو أنَّها ليست بالجديدة. ملابس عاديَّة، كتلك التي ترتديها أيَّة ربَّة منزلٍ إذا خرجت للتسوُّق في متجرٍ قريبٍ من بيتها. نزعت حمّالة الصدر بمهارة من ظهرها، وطوتها ووضعتها بجوار الوسادة. لم يكن ثدياها كبيرَيْن، لكنَّهما ليسا صغيرَيْن.

«تعالَ! لنمارس الجنس معًا. طالما أنَّنا جئنا إلى هذا المكان»، قالت.

فكانت تلك هي تجربة الجنس الوحيدة طوال فترة السفر (أو التّشرد) الطويل. وكانت تجربة جنسيَّة عنيفة، على خلاف المتوقّع. وصلت الفتاة إلى الذروة أربع مرّات متتالية. قد لا يُصدَّق هذا الأمر، ولكنَّها في كلّ مرّة، تصل إلى الذروة حقيقةً. فيما قذفتُ أنا مرَّتَيْن. أمَّا الغريب في الأمر، أنَّني لم أكن مستمتعًا للغاية. ويبدو أنَّني في معانقتها، كنتُ أفكّر في شأن آخر.

فسألتني: «قلْ لي. يبدو أنَّك لا تمارس الجنس منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟»

«منذ عدَّة أشهر»، أجبتها بصدق.

«عرفتُ ذلك. ولكنْ ما السَّبب؟ لا تبدو أنَّك من النوع الفاشل مع النساء».

«عدَّة ظروف».

فقالت، وهي تداعب عنقي: «يا مسكين، يا مسكين!»

تكرَّرت كلماتُها في رأسي مرارًا: يا مسكين، يا مسكين. وشعرتُ أنِّي مسكين حقًّا، عندما سمعتُ ذلك. في مدينة لا أعرفها، ومكان عبثيّ، وظروف لا أفهمها، بجانب امرأة لا أعرف حتَّى اسمها!

شربنا معًا زجاجتَيْن من البيرة خلال الاستراحة من الجنس. ونمنا حوالى الواحدة ليلًا. وعندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي، لم أجد للفتاة أيّ أثر. كنتُ وحيدًا في السَّرير الواسع. وعقارب الساعة تشير إلى السَّابعة والنُّصف، وضوء الشمس وضَّاحٌ خلف النافذة. وإذ فتحتُ الستائر، تمكَّنتُ من رؤية الطريق السَّريع المحاذي للشاطئ، تمضي فيه سيَّارات النقل ذات الثلَّاجات العملاقة التي تنقل منتجات البحر، مُصدِرةً ضجيجها جيئة وذهابًا. هناك كثيرٌ من الأمور العبثيَّة في هذا العالم، لكنَّها لا ترقى إلى الاستيقاظ في غرفةٍ بفندق عشَّاق وحيدًا.

انتابني هاجسٌ مباغت، فهرعت لفحص حافظة النقود التي كانت في جيب البنطلون. فوجدتُ محتوياتها على حالها، من دون أن تُمَسّ. الأموال النقديَّة وبطاقة الائتمان وبطاقة السَّحب المصرفيّ ورخصة القيادة. تنفَّستُ الصُّعداء. فكنتُ على وشكٍ الوقوع في ورطة كبيرة لو سُرقت الحافظة. ولم يكن احتمالًا مستبعدًا. عليَّ الاحتراس جيِّدًا.

غادرت الفتاة الغرفة بمفردها عند شروق الشمس، بينما أنا غارق في النوم. ولكنْ كيف عادت إلى وسط المدينة (أو أيًّا يكن المكان الذي تسكنه)؟ هل سارت على قدمَيْها؟ أم استدعتْ سيَّارة أجرة؟ لكنّ الأمر لا يعنيني في شيء. ولن يوصلني إلى شيء إذا فكّرت فيه.

أعدتُ مفتاح الغرفة إلى الاستقبال، ودفعتُ ثمن البيرة التي شربناها، وعدتُ إلى المدينة مستقلًّا سيَّارة البيجو. كان عليَّ الذهاب إلى الفندق التِّجاريّ المجاور للمحطَّة، لأخذ حقيبتي التي تركتها في غرفتي هناك ودفع أجرة الغرفة. وفي عودتي إلى المدينة، مررتُ بمطعم العائلات الذي دخلته اللَّيلة السَّابقة. وقرَّرتُ تناول وجبة الإفطار فيه. كنتُ جائعًا بشدَّة، وأودُّ شرب قهوة سوداء ساخنة. وعندما حاولت أن أركن سيَّارتي في المرأب، لمحتُ سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء. خلفيَّتها باتِّجاه المطعم، وعلى المصدّ الخلفيّ ملصقُ سمكة مرلين، كما توقَّعتُ. بلا شكّ، هي السيَّارة نفسها التي رأيتها ليلة أمس. لكنَّها كانت في مكانٍ مختلف. وهذا طبيعيّ، فمن غير المنطقيّ أن يمضي أحدهم اللَّيل في مطعم.

دخلتُ. كانت الصالة خالية إلَّا قليلًا، كما توقَّعت. وكما توقَّعت، كان الرجل إيَّاه يتناول وجبته. وربَّما يجلس إلى الطاولة نفسها. ويرتدي المعطف الجلديّ الأسود نفسه، وقد نزع القبَّعة السَّوداء نفسها، عليها شعار YONEX، ووضعها على الزاوية نفسها من الطاولة. الفرق عن اللَّيلة الماضية، أنَّ الجريدة الصباحيَّة مطويَّة وموضوعة فوق الطاولة، وأمامه وجبة إفطار مكوَّنة من شريحة خبز وبيض مقلي. ويبدو أنَّ الوجبة وصلتْه توًّا، فالبخار كان يتصاعد من كوب القهوة. عندما مررت من أمامه، رفع الرجل وجهه ونظر إليَّ. كانت عيناه أكثر حدَّة ممَّا كانت عليه

في الأمس، وأكثرَ برودة، حتَّى إنَّني رأيت فيهما ظلَّ اتِّهام، هذا انطباعي على الأقلّ. لسان حاله يقول: «أعرف جيِّدًا أين كنتَ وماذا فعلتَ!»

كان ذلك جزءًا من التجربة التي مررتُ بها في تلك المدينة الساحليَّة الصَّغيرة في محافظة مياغي. لا أفهم حتَّى الآن ما الذي أرادته منِّي تلك الفتاة ذات الأنف الصَّغير والأسنان الجميلة في تلك اللَّيلة. ولم أتبيَّن ما إذا كان الرجل، متوسِّط العمر، صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء، يلاحقها أم لا. هل كانت تحاول الهروب منه؟ في أيِّ حال، وجدتُني في قصَّتهما صدفةً، وبناءً على تطوُّرات فريدة، دخلتُ فندق عشَّاق مبهرجًا مع فتاة أقابلها للمرَّة الأولى، وأُقيم معها علاقة جنسيَّة لا تدوم إلَّا ليلة واحدة. وكانت تلك أكثر الممارسات الجنسيَّة عنفًا طوال حياتي. وعلى الرَّغم من ذلك، لا أتذكَّر اسم تلك المدينة.

«عذرًا، هل لي بكوب ماء؟» ـ سألتني عشيقتي المتزوِّجة.

كانت قد استيقظتْ للتوّ من قيلولة قصيرة بعد ممارسة الجنس.

كنَّا معًا على السَّرير في وقت العصر. وأثناء نومها، كنتُ أتذكَّر تلك الأحداث العجيبة التي وقعت في تلك المدينة المشهورة بميناء الصيد، وأنا أحملق في سقف الغرفة. بدت لي الأحداث واقعةً في زمن بعيد، بعيد جدًّا، على الرَّغم من مرور ستَّة أشهر عليها فقط.

ذهبتُ إلى المطبخ، وصببتُ مياهًا معدنيَّة في كأس كبيرة، وعدتُ إلى الفراش. شربتْ نصفه بجرعة واحدة.

وضعتِ الكأس فوق الطاولة، وقالت: «بخصوص السيِّد منشكي».

«بخصوص السيِّد منشكي؟»

«أجل. ألم أقل لك منذ قليل أنّنا سنتحدَّث بالمعلومات الجديدة عنه؟»

«وكالة أنباء الغابة؟»

«أجل»، تناولتْ جرعةً أخرى من الماء، وأكملت: «بناءً على تلك المعلومات، يبدو أنَّ صديقك السيِّد منشكي أمضى فترة طويلة جدًّا في سجن طوكيو المركزيّ».

أنهضتُ جذعي ونظرتُ إلى وجهها، وقلت: «سجن طوكيو المركزي؟»

«أجل. السّجن الذي يقع في حيّ كوسغيه».

«وبأيِّ تُهمة؟»

«لا أعرف التّفاصيل، لكنّي أعتقد أنّها متعلّقة بالأموال. تهرُّب ضريبيّ أو غسل أموال، أو تجارة ممنوعة بالأسهم، أو ربّما كلّ ذلك معًا. كان في السّجن منذ ستّ أو سبع سنوات مضت. هل أخبرك السيِّد منشكي عن طبيعة عمله بالتّحديد؟»

«قال إنَّه يعمل في مجال يتعلَّق بالمعلوماتيّة، أو تبادل المعلومات. أنشأ شركة بنفسه، وباع أسهمها منذ عدَّة سنوات بمبلغ ضخم. ويعيش حاليًّا على ما يجنيه من رأس المال هذا».

«معلوماتيّة وتبادل معلومات، تفسيرٌ مبهمٌ. فإن فكَّرتَ مليًّا، لوجدتَ أنَّه ما من عملٍ في العالم حاليًّا إلَّا وكان متعلِّقًا بالمعلوماتيّة».

«من أين حصلتِ على معلومة السّجن المركزيّ تلك؟»

«من صديقة يعمل زوجها في مؤسّسة مصرفيّة. لكنّي لست متأكّدةً من صحّة المعلومة. فهي قيل عن قال. وربّما لا تزيد عن مجرّد شائعة. إلَّا أنّه إذا حكمنا على طبيعة المعلومة، لا بدَّ أن يكون لها أساس».

«إذا كان محبوسًا في سجن طوكيو المركزيّ، فهذا يعني أنَّ النيابة العامّة في طوكيو هي التي تولّت قضيّته».

«خرج بريئًا في النهاية. لكنّه أمضى حبسًا احتياطيًّا لفترة طويلة، وخضع لاستجوابٍ شديد نوعًا ما. وقد مدّدوا فترات الحبس الاحتياطيّ أكثر من مرّة، ولم يوافقوا على الإفراج عنه بكفالة ماديّة».

«لكنّه خرج بريئًا في النهاية».

«أجل. قُدّمت القضيّة إلى المحكمة، لكنّه استطاع أن يتجنّب الحكم. وقيل إنّه خلال الاستجواب، استخدم حقّ الصمت التامّ».

«على حدّ علمي، فإنّ نيابة طوكيو من طبقة النُّخبة في القانون، ولدى قضاتها كبرياء عظيمة. فإذا وضعوا هدفًا ما نُصب أعينهم، ما توانوا عن جمع الأدلّة تلو الأخرى حتّى الوصول إلى المحكمة. ونسبة انتصارهم في القضايا المرفوعة للتقاضي عالية جدًّا. ولا يتهاونون في جلسات الاستجواب إطلاقًا. وأغلب الجُناة ينهارون نفسيًّا ومعنويًّا أثناء التّحقيق، ويصادقون ما يُملى عليهم ويوقّعون عليه. لا يستطيع الشخص العاديّ أن يقاوم كلّ ذلك، ويحافظ على صمته الكامل حتّى النهاية».

«لكنّ السيد منشكي فعلها. بعزيمة جبّارة وذكاء خارق».

هذا صحيح.. السيّد منشكي ليس شخصًا عاديًّا، ولديه عزيمة جبّارة، وذكاء خارق فعلًا.

«ثمّة أمرٌ لا يُقنعني. إن كانت نيابة طوكيو العامّة قد قرّرت القبض على أحدهم، سواءً بتهمة التهرّب الضريبيّ أو غسل الأموال، يُنشَر الخبر في الجرائد. وإذا كان الاسم نادرًا، مثل منشكي، فلا بدّ أن يبقى عالقًا في ذهني، لأنّني كنتُ حتى وقت قريب أقرأ الجرائد باهتمام بالغ».

«حسنًا، لا أعرف. آه، ثمّة أمر آخر. في المرّة السّابقة، أخبرتك أنّه اشترى البيت الفخم فوق الجبل منذ ثلاث سنوات.. هل تذكر؟ حسنًا، لقد اشتراه بالإكراه، على ما يبدو. فالأُسرة التي كانت تَسْكنه، كانت قد شيَّدته للتوّ، ولم تكن تنوي بيعه. لكنّ منشكي استخدم مبلغًا طائلًا من المال، أو ـ بطريقةٍ أخرى أشدّ إقناعًا، فأخرجهم منه ليسكن فيه. إنّه مثل السرطان الناسك».

«السرطان الناسك لا يطرد أحدًا من قوقعته، بل يتّخذ من قوقعة سرطان ميّت مأوًى له، من دون اللُّجوء إلى العنف».

«ولكنْ، ليس من المستبعد وجود أنواع شرّيرة منها. أليس كذلك؟»

«كلّ ما في الأمر يدعو للاستغراب» ـ قلت كي أتجنَّب الجدال بشأن أنواع السرطان ـ «وحتّى لو كان الأمر كذلك، ما الذي يدفع السيّد منشكي لامتلاك ذلك البيت على وجه الخصوص؟ لدرجة أن يطرد الأُسرة التي كانت تسكن فيه غصبًا، لاستملاكه؟ هذا يتطلّب كمّيّة كبيرة من الأموال، والوقت والجهود. ثمّ إنّ ذلك القصر يبدو لي أكثر بهرجةً ولفتًا للانتباه بالنّسبة إلى شخصٍ مثله. قصرٌ فاخرٌ، لا شكّ في هذا، لكنّي لا أراه متناسبًا مع شخصيّته».

«فضلًا عن أنّه واسع أكثر من اللّازم. يعيش فيه وحده من دون أن يوظِّف خادمة، وبالكاد يأتيه ضيوف. يُفترض أنّه لا يحتاج إلى السّكن في بيتٍ بذلك الحجم». شربتْ ما تبقّى من ماء في الكأس، ثمّ قالت: «ربّما هناك سببٌ يدفعه لعدم الاستغناء عن ذاك البيت. ولا أحد يعلم السّبب».

«على كلّ حال، سألبّي دعوته مساء الثلاثاء القادم. ربّما سأتبيَّن بعض الأمور عندما أراه بعينيَّ».

«لا تنسَ أن تتحرَّى عن الغرفة السرِّيَّة، الشبيهة بإحدى غرف قلعة الدوق ذي اللِّحية الزَّرقاء».

«لا عليكِ. سأتذكَّر».

«حتَّى الآن، كلُّ شيء على ما يرام».

«بأيِّ معنى؟»

«اكتملت اللَّوحة بسلام، وأعجبت السيِّد منشكي، وحصلت على أجر معتبر».

«هذا صحيح. من وجهة النَّظر هذه، جرت الأمور على ما يرام. همٌّ وانزاح عن كاهلي...»

«تهانينا أيُّها الرسَّام العبقريّ».

لم أكن أكذب، فهو همٌّ وانزاح عن كاهلي فعلًا. اللَّوحة اكتملت. وأعجبت السيِّد منشكي. وكان حقيقيًّا ما جنيتُه من اللَّوحة، سواء على الجانب المعنويّ خلال الرَّسم، أم على الجانب الماديّ والأجر الكبير الذي كنت سأتلقَّاه. وعلى الرَّغم من كلِّ هذه الأسباب الجيِّدة، لم أكن راضيًا بتلك النتيجة كلِّيًّا. فهنالك كثيرٌ من الأشياء التي أقحمتُ نفسي فيها، ظلّت عالقةً من دون حلول. كلَّما حاولت تبسيط حياتي، تعقَّدت المسألة وتشوَّشت.

مددتُ ذراعي، بحركة لاإراديَّة، واحتضنت بها جسد عشيقتي. كان جسدها طريًّا ودافئًا. رطبًا من العرق بعض الشيء.

«أعرف جيِّدًا أين كنتَ وماذا فعلتَ!» قال الرجل ذو سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء.

ـ 20 ـ
لحظة امتزاج الوجود بالعدم

استيقظتُ تلقائيًا في الخامسة والنُّصف من صباح اليوم التالي. ما يزال المكان في ظلام دامس. ارتديت ملابس العمل بعد أن تناولتُ الفطور في المطبخ، ودخلتُ المرسم. وعندما بدأت الشمس تشرق من جهة الشرق، أطفأتُ الضوء، وفتحت النافذة على وسعها، فدخل هواء الصباح البارد والمنعش إلى الغرفة. أخرجتُ لوحًا جديدًا، ووضعته على الحامل. سمعتُ زقزقة الطيور في الخارج. وقد بلَّلت الأمطار التي ما انفكَّت تهطل في اللَّيل، بلَّلت أغصانَ شجر الغابة. وقد توقَّفتْ منذ قليل، وانفتحت الغيومُ بين هنا وهناك بثقوبٍ متلألئة. جلستُ على المقعد العالي، أتأمَّل اللَّوح الخالي، ممسكًا بيدي كوب قهوة ساخنة، بلا سكَّر أو حليب.

لطالما أحببتُ التأمُّل في اللَّوح، قبل أن أرسم عليه، في الصَّباح الباكر! كنتُ أسمِّي ذلك الطقس «زِن اللَّوح». ما يزال اللَّوح ناصع

البياض، لكنَّه ليس فارغًا بالمطلق. فذلك السَّطح الأبيض يخفي تحته الرسومات التي ستطفو عليه لاحقًا. وكلَّما أمعنتُ فيها النَّظر، اكتشفتُ احتمالاتٍ متعدِّدة، ستتحقَّق عاجلًا أم آجلًا، حين تتجمَّع معًا في خيطٍ واحدٍ فعَّال. كنتُ أعشق تلك اللَّحظة: لحظة امتزاج الوجود بالعدم.

لكنَّني يومذاك، كنتُ أعرف مسبقًا ما الذي سأرسمه على ذلك اللَّوح: بورتريه الرجل متوسِّط العمر، صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء. كأنَّ الرجل ظلَّ ينتظر في داخلي أن أرسمه بصبرٍ لا مثيل له. كنت أشعر بذلك. وكان عليَّ أن أرسم البورتريه لغايةٍ شخصيَّة، لا طلبًا من أحد، ولا من أجل الحصول على قوت اليوم. ومثلما فعلتُ بلوحة منشكي، ينبغي أن أرسم شكل الرجل على طريقتي، كي أُبرِزَ إحساسي بوجود ذلك الرجل في قرارة نفسي. لماذا؟ لا أدري. هذا ما كنت أرغب في صنعه.

أغمضتُ عينيَّ، واستحضرتُ صورة الرجل في ذهني. كنت أذكر ملامح وجهه بكلِّ تفاصيله جيِّدًا: في صباح اليوم التالي، جالسًا إلى طاولة المطعم العائليّ، رفع رأسه وحدَّق مباشرة إلى عينيَّ. جريدته الصباحيَّة مطويَّة على سطح طاولته، والبخار الأبيض يتصاعد من كوب قهوته. وأشعَّة شمس الصباح المبهرة تغزو المكان من زجاج النوافذ، حيث يتردَّد عاليًا صدى تلامس أدوات الطعام الرَّخيصة بالأطباق. بدا لي أنَّ المشهد يُبعَث أمامي من جديد. وكان وجه الرجل في المشهد يتَّخذ تعبيرًا ما.

«أعرف جيِّدًا أين كنتَ وماذا فعلتَ!» قالت عيناه.

بدأتُ في تلك المرَّة برسم مسوَّدة. نهضتُ وأمسكتُ قطعة الفحم بيدي، ووقفتُ أمام اللَّوح. حدَّدتُ مكان وجه الرَّجل في ذلك الفراغ.

رسمت خطًّا عموديًّا واحدًا، بلا خطّة مسبقة أو فكرة عامّة. يُعَدُّ هذا الخطّ مركز اللّوحة، ويُفترض أن يبدأ منه كلّ شيء. سأرسم منه وجه الرجل النحيف، الذي اسمرّ بفعل الشمس. عدد من التّجاعيد العميقة تتماوج على جبينه. كانت عيناه غائرتَيْن وثاقبتَيْن. عينان معتادتان على النظر إلى انحناء أفق البحر في البعيد. فتغلغلت ألوان البحر والسّماء فيهما. وتناثر الشّيب في أرجاء شعره القصير. ولا بدَّ أنّه رجلٌ صموتٌ وشديد البأس على الصعاب.

أضفتُ حول الخطّ المركزيّ بضعة خطوط جانبيّة، بالفحم الطبيعيّ، لتحديد معالم الوجه. تراجعتُ عدّة خطوات وتأمّلتُ النتيجة. أجريتُ عليها بعض التّعديلات، وأضفتُ أشياء أخرى. كان أكثر شيءٍ يهمُّني هو أنّني واثقٌ من نفسي، وواثقٌ من قوّة الخطوط والفراغات الناشئة عنها. ينبغي أن أتركها تعبّر عن نفسها. فإنْ بدأتِ الخطوط والفراغات تتحاور، انضمّت الألوان إلى الحوار لاحقًا. وهكذا دواليك.. حتّى يتحوّل الشّكل المسطّح إلى صورةٍ مجسّمة بأبعادٍ ثلاثة. ووظيفتي تنحصر في تشجيع هذه العناصر، ومؤازرتها من بُعد. والأهمّ من ذلك، ألّا أقف عائقًا أمام تطوّرها.

انكفأتُ في هذا العمل حتّى العاشرة والنصف. ارتفعت الشمس تدريجيًّا إلى كبد السّماء، وتفرّقت الغيوم الرّماديّة، فاستحالت قطعًا دقيقة، ودُفعت واحدةً تلو أخرى إلى الجهة الأخرى من الجبل. فلم تَعُد أطراف الأغصان تقطر النّدى. تأمّلتُ المسوّدة المُنجَزة من زوايا متنوّعة وأماكن أبعد. أجل، كان الوجه الذي في ذاكرتي موجودًا على اللّوح. أو هيكله على الأقلّ. لكنّني أحسستُ بأنَّ الخطوط كثيرة نسبيًّا. لا بدَّ من إنقاصها. سأؤجّل الأمر إلى الغد. فمن الأفضل التوقُّف اليوم عند هذا الحدّ.

تركتُ قطعة الفحم المستهلَكة، وغسلتُ يديّ اللّتيْن اسودّتا، في الحوض. وعندما كنتُ أمسحهما بالمنشفة، لمحتُ الجرس القديم على الرفّ قبالتي، فأمسكته. وإذ جرَّبتُ أن أرنّه، أصدرَ صوتًا خافتًا وضعيفًا، مختلفًا عن رنينه الأصيل الذي سمعتُه في تلك اللّيالي. لم يَعُد يبدو آلةً موسيقيّة لمعبدٍ بوذيّ غامضةً مضى عليها الدّهر تحت التراب. من الوارد أنَّ سكون الحفرة، المغمور بظلامٍ أشبَه بالقطران، جعل ذلك الصوت يتردَّد بصدًى أعمق وأشدّ كثافةً، محمولًا على مسافة بعيدة!

والسُّؤال الذي ما يزال مطروحًا: مَن كان يرنّ الجرس تحت الأرض في منتصف اللّيل؟ هذا هو اللُّغز العصيّ على الحلّ. لا بدَّ أنَّ أحدًا ما كان يرنّ الجرس كلَّ ليلة من قاع الحفرة (ولا بدَّ أنّها رسالة منه)، لكنَّ الشخص اختفى. فعندما فتحنا الحُفرة، لم نجد سوى الجرس. أحجية غامضة حقًّا! أعدت الجرس إلى مكانه على الرفّ.

بعد الغداء، خرجتُ متَّجهًا إلى الغابة. ارتديتُ معطفًا رماديًّا ثقيلًا من الفراء، وبنطلونًا رياضيًّا مخصَّصًا للعمل وملطَّخًا ببقع الزيت والألوان هنا وهناك. مشيتُ في الطريق المبلَّلة حتَّى مجسَّم المعبد الصَّغير، واجتزتُه. تراكمت عدَّة أنواع من أوراق الشجر المتساقطة، بألوان مختلفة، على الألواح السَّميكة التي تغطِّي الحُفرة. أوراق مبلَّلة تمامًا، من أمطار ليلة أمس. لم يلمس أحدٌ الغطاءَ على ما يبدو، بعد زيارتنا أنا ومنشكي في الأمس. كنتُ أريد التأكُّد من ذلك. جلستُ فوق الأحجار الرَّطبة، أتأمَّل منظر تلك الحُفرة، وأسمع تغاريد الطيور فوق رأسي.

وسط سكون الغابة، كدتُ أسمع حركة الزمن وانتقال الحياة من طورٍ إلى طور. يرحل إنسانٌ ويأتي آخر؛ ترحل مشاعر وتأتي أخرى؛ ترحل صور وتأتي غيرها. حتَّى أنا نفسي! أنهارُ شيئًا فشيئًا وسط تراكم

الأيَّام، ثمَّ أُبْعَثُ من جديد. لا شيء يثبت في المكان نفسه. والزمن يواصل انعدامه. ينسحق الزمن خلف ظهري ليغدو رمالًا ثمَّ يتلاشى. جلستُ أمام الحُفرة، أركِّز سمعي إلى صوت الزمن وهو يموت.

تساءلتُ فجأةً: ما كان شعور مَن يجلس وحيدًا في قاع الحُفرة؟ محبوسًا بمفرده تمامًا في مكان ضيِّق شديد الظلمة، لزمن طويل؟ بل إنَّ منشكي، علاوة على ذلك، تخلَّى طواعيةً عن المصباح والسُّلَّم. كان من المستحيل أن يخرج من تلك الحفرة ما لم يساعده أحد ـ أنا تحديدًا ـ وينزل السلَّم إليه ما الذي اضطرَّه إلى أن يضع نفسه بنفسه في تلك المحنة؟ تُرى، هل كان يقارن بين حياته وحيدًا في الحبس الانفراديّ في سجن طوكيو المركزيّ بوجوده في هذه الحُفرة المظلمة؟ لا يمكنني معرفة ذلك يقينًا، لأنَّ منشكي يعيش في عالمٍ خاصٍّ به تمامًا.

لم أكن متأكِّدًا إلَّا من شيء واحد، وهو: عدم استطاعتي على فعل ذلك مهما كانت الظروف، فأنا أخاف من الأماكن الضيِّقة المظلمة. وإن وُضعتُ في مكانٍ كهذا، فقد أُصاب بالاختناق وانقطاع التَّنفُّس من شدَّة الرُّعب. وعلى الرَّغم من هذا، كنتُ منجذبًا إلى الحُفرة، بمعنًى ما. بل كنتُ منجذبًا بشدَّة، لدرجةٍ شعرتُ فيها أنَّ الحُفرة تناديني.

جلستُ نصف ساعة تقريبًا هناك، ثمَّ قمتُ ومشيت تحت أشعَّة الشمس المتسرِّبة من بين الأشجار عائدًا إلى البيت.

اتَّصل بي ماساهيكو أمادا بعد الساعة الثانية بقليل. قال إنَّه جاء في مهمَّة بالقرب من أوداوارا، وسألني إن كان بوسعه المرور إليَّ. فرحَّبتُ به. لقد التقينا آخر مرَّة منذ فترة لا بأس بها. فجاء بالسيَّارة حوالى الثالثة. وقد حمل معه هديةً زجاجة ويسكي من نوع سينغل مولت. فأخذتها وشكرتُه؛ إذ كاد الويسكي الذي في البيت على وشك

الانتهاء. وكان كعادته أنيقًا في اللِّباس، وشعره محلوقٌ بعناية، بالنظَّارة ذات الإطار الصَّدَفي التي تعوَّدتُ رؤيتها. لم يتغيَّر كثيرًا في مظهره، سوى أنَّ منبت شعره كان يتراجع إلى الوراء قليلًا.

جلسنا في غرفة المعيشة، وتبادلنا آخر أخبارنا. حدَّثته عن قدوم شركة الإنشاءات التي أزاحت جثوة الصخور في الغابة، لنكتشف حفرة في باطن الأرض، قطرها متران وعمقها متران وثمانون سنتيمترًا، محاطة بالحجارة، يعلوها غطاءٌ مشبَّكٌ من الخشب الثقيل. لكنَّنا لم نجد تحته سوى آلة بوذيَّة قديمة لها شكل الجرس. كان ماساهيكو يُصغي باهتمام. لكنَّه لم يلمِّح إلى رغبةٍ في رؤية الحفرة، ولا الجرس.

ثمَّ سألني: «ومنذ ذلك الحين، لم تعد تسمع صوت الجرس في اللَّيل؟»

فأومأتُ بنعم.

«هذا هو المهمّ، قال بنبرةٍ مطمئنَّة بعض الشيء. فأنا أكره هذا النَّوع من القصص المريبة، وأفعل ما بوسعي لعدم الاقتراب من أيِّ شأنٍ له صلةٌ بالغموض».

«البعد عن الإله يبعد عقابه![1]»

«بالضبط. في كلِّ حال، سأترك لك أمر الحُفرة. افعل ما يروقك».

وبعدها، حدَّثتُه عن كيف عاودتُ الرسم برغبةٍ وسرور، بعد انقطاع طويل. وأنَّني بعد إنجاز البورتريه الذي طلبه منشكي، أحسستُ بأنَّ عبئًا كبيرًا كان يعيق مشاعري، وانزاح عنها. وأنَّني قد أكون أقرب إلى تطوير أسلوبٍ جديدٍ أصيل خاصٍّ بي: فأبدأ من فكرة رسم بورتريه، فأراني

(1) مثل يابانيّ بمعنى لا تقترب من الشرّ، أو دع الفتنة نائمة. (المترجم)

أسرح في موضوع مختلف تمامًا؛ إلَّا أنَّه يظلّ بورتريه دومًا من حيث الجوهر.

طلب أمادا أن يرى لوحة منشكي، وحزن عندما أبلغته بأنَّ صاحبها استلمها فعلًا.

«كيف والألوان الزيتيَّة لم تجفَّ بعد؟»

«قال إنَّه سيجفِّفها بنفسه. كان يريد أن يستأثر بها بأسرع وقت ممكن. ربَّما خَشِيَ أن أغيِّر رأيي، وأرفض إعطاء اللَّوحة له».

«حقًّا! ـ قال منبهرًا. وهل هناك أخبارٌ غيرها؟»

«بدأت برسم لوحة جديدة هذا الصَّباح. لكنَّها ما تزال في مرحلة المسوَّدة بخطوط الفحم. لن تفهم منها شيئًا حتى لو رأيتها».

«لا يهمّ. أرجو أن تُريها لي عمومًا».

ذهبنا إلى المرسم، وأريته مسوَّدة لوحة «رجل سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء» التي لم تكتمل بعد. مجرَّد هيكل وجهٍ بدئيّ، مرسومٍ بخطوط فحم أسود. وقف أمادا أمام حامل اللَّوحة مكتوف اليديْن، يتأمَّل اللَّوحة طويلًا بوجه متجهِّم.

قال بعد فترة، بنبرة مَن يطحن صوته بين أسنانه: «لوحة شيِّقة».

التزمتُ الصمت. فتابع: «لا أستطيع تنبؤ تطوُّراتها، لكنَّها بالتأكيد تبدو أنَّها بورتريه لشخصٍ ما؛ أو جذر بورتريه، إن صحّ القول. جذرٌ مدفون في مكانٍ عميقٍ من باطن الأرض».

ثمَّ صمتَ ثانيةً. فتابع قائلًا: «مكانٌ عميق جدًّا ومظلمٌ جدًّا. ولماذا يبدو الرجل غاضبًا؟ إنَّه رجل أليس كذلك؟ يبدو غاضبًا وحاقدًا».

«هذا ما لا أعرفه أنا أيضًا».

فقال بصوت رتيب: «أنت لا تعرف. لكنَّ اللَّوحة تُضمِر غضبًا وحقدًا عميقيْن. حتَّى لو كان لا يستطيع إظهارهما. الغضب يلتهمه».

كان أمادا قد درس في قسم الرَّسم الزيتيّ أثناء الجامعة، لكنَّه بصراحة، لم يكن بارعًا فيه كثيرًا. إنَّما كان ماهرًا في استخدام يديْه، وينقصه العمق. وكان هو نفسه يعترف بذلك النقص إلى حدٍّ ما. أمَّا موهبته، فتركَّزتْ في التَّفريق بين الجيِّد والرديء من أعمال الآخرين بلحظة واحدة. لذا، كنتُ أطلب منه دومًا أن يدلي برأيه حين أقع في حيرة تجاه أيّ عمل من أعمالي أثناء الرَّسم. وكانت نصائحه دائمًا دقيقة وصحيحة ومحايدة، وأفادتني في الواقع كثيرًا. وأشدّ ما نال تقديري في شخصه أنَّه لا يكِنُّ غيرةً أو ميلًا إلى التنافس. وربَّما لا تشتمل طباعه على تلك الصفات! ما جعلني أثق برأيه دائمًا، وأتقبَّله كما هو. إذ لم يكن منافقًا أو متحسّبًا لكلامه، فكنت لا أشعر بالغضب من نقده مهما كان لاذعًا. وهذا أمرٌ غريب.

سألني من دون أن تحيد نظراتُه عن اللَّوحة: «هلَّا أريتني اللَّوحة عندما تكتمل، وقبل أن تعرضها على أحد؟»

«بالتأكيد. فهذه المرَّة، لا أرسم بناءً على طلب من أحد، إنَّما أرسم كما يروقني. ولا أفكِّر أن أعطيها لأحد. هذا ليس ضمن الخطَّة».

«لقد أصبحتَ راغبًا في رسم لوحات من إبداعك، أليس كذلك؟»

«على ما يبدو».

«إنَّه وجهُ تشكيليّ، لكنَّها ليست بورتريه».

أومأتُ موافقًا، وقلتُ: «أعتقد أنَّه بوسعنا أن نعرِّفها كذلك».

«وقد تكون في طريقك إلى اكتشاف هدفٍ جديدٍ... طريقٍ خاصٍّ بك».

«أنا أيضًا أعتقد ذلك»، قلت.

«قابلتُ يوزو منذ فترة، قال وهو على عتبة البيت. التقيتها صدفة. وتحادثنا قرابة الثلاثين دقيقة».

أومأتُ برأسي من دون أن أقول شيئًا، لأنَّني لم أعرف ماذا أقول وكيف!

«كانت تبدو بصحَّة جيِّدة. لم نتحدَّث عنك مطلقًا. وربَّما كنتُ وإيَّاها نتجنَّب الانزلاق إلى هذا الموضوع. لا بدَّ أنَّك تعي الحالة. إلَّا أنَّها، في لحظة الوداع، أرادت أن تعرف شيئًا عنك. ماذا تفعل، كيف تتدبَّر أمورك... فأجبتُ بأنَّك ترسم، وأنَّك تعيش وحيدًا في الجبل، لا تلتقي أحدًا. وأضفتُ أنَّني لا أعلم ما نوع رسوماتك.. أي لوحة».

«إنَّني على قيد الحياة بشكل من الأشكال».

بدا لي أنَّه كاد يضيف شيئًا ما، بخصوص يوزو، لكنَّه لجم لسانه ولم يقل شيئًا. لطالما حملت يوزو مودَّة تجاه ماساهيكو، وكانت تستشيره في أمورٍ عدَّة. ومن المرجَّح أنَّها استشارته عن كيفيَّة التعامل معي. تمامًا، مثلما كنتُ أستشيره فيما يخصّ لوحاتي. إلَّا أنَّه لم يطلعني البتَّة عن مواضيع أحاديثهما. كان من نوع الرجال الذين يُستشارون في مختلف الأمور، من دون أن يفشي المضمون لأحد. مثل خزَّان يحتفظ بمياه الأمطار، التي تتجمَّع عبْر الميازيب، فلا تخرج منه ولا تفيض عن حدِّه. ولعلّ منسوب المياه يخضع لضبطٍ مدروس بآليَّةٍ ما!

ومن الوارد أنَّه لا يستشير أحدًا عمَّا يعانيه. ولكنْ يُفترض أنَّه يعاني من كونه ابن رسّامٍ ذائع الصيت، إلَّا أنَّه كان بلا موهبة فنِّيَّة، حتَّى

بعد تخرّجه من كليّة الفنون الجميلة. من المؤكّد أنّ لديه ما يريد البوح به. ولكنْ، في حدود ما أتذكّر، لم أسمعه مرّة واحدة يشتكي أو يتبرّم من شيء أثناء علاقتي الطويلة معه. لقد خُلِق من هذا النوع من الرجال.

تجرّأتُ، وقلت: «أعتقد أنّ يوزو لديها عشيق. كان عليَّ أن أفهم ذلك مبكّرًا. ففي الأشهر الأخيرة قبل انفصالنا، لم يعد بيننا أيّ علاقة جنسيّة».

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أبوح فيها بهذا الأمر لأحد. كان سرًّا تكتّمتُ عليه في قلبي.

«آه، حقًّا؟» ـ اكتفى ماساهيكو بهذا القول.

«لكنّك على علمٍ مسبق بالأمر، أليس كذلك؟»

لم يجب عن سؤالي. فألححتُ: «أليس كذلك؟»

«في بعض الأحيان، ثمّة أشياء من الأفضل للمرء ألّا يعرفها. ألا تتّفق معي؟»

«لكنّ النتيجة واحدة، سواءٌ عرفتَ أم لم تعرف. لا فرق، إن جاء مبكّرًا أم متأخّرًا، مفاجئًا أم متوقّعًا، بطرْقٍ عنيفٍ على الباب أم برؤوس الأصابع»!

تنهّد ماساهيكو، وقال: «لعلّك على حقّ. لا يغيّر في الأمر شيئًا إن كنتَ تعرفه مسبقًا أم لا. في كلّ حال، أرجو أن تدرك أنّني لا أستطيع أن أفشي ما باح به إليّ الآخرون».

لم أردّ. فاستطرد: «بصرف النّظر عن النتيجة، لكلّ شيء جانب إيجابيّ وجانب سلبيّ. وأعتقد أنّ تجربة انفصالك عن يوزو كانت قاسية فعلًا. يؤسفني حقًّا. لكنّك، بالتالي، بدأتَ ترسم أخيرًا شيئًا من إبداعك. اكتشفتَ أسلوبك الخاصّ. ألا يُعَدُّ ذلك جانبًا إيجابيًّا؟»

أجل، هذا صحيح. كنت أرى الأمر كذلك أنا أيضًا. لو لم أنفصل عن يوزو ـ الأصحّ: لو لم تتركني يوزو ـ لكنتُ سأواصل رسم بورتريهات عاديَّة، بلا قيمة فنيَّة، بناءً على أسلوب العميل، للحصول على قوت يومي. لكنَّ ذلك لم يكن اختياري أنا. وهذا نقطة في غاية الأهمِّيَّة.

قال ماساهيكو في لحظة الرحيل: «تعوَّدْ على النظر إلى الجانب الإيجابيّ. ربَّما هي نصيحة غبيَّة. ولكنْ، إذا كنتَ مجبرًا على السَّير في طريقٍ ما، فامشِ في الجانب المشمس منها على الأقلّ».

«حتَّى إنَّ الكوب ما تزال فيه نسبة واحد على ستَّة عشر من الماء».

ضحك بصوت عالٍ، وقال: «كم تعجبني فيك روح الفكاهة».

لم أكن أقصد الفكاهة بكلامي، لكنِّي لم أعلِّق. وحتَّى ماساهيكو ظلَّ صامتًا لفترة. ثمَّ سألني: «أما زلتَ تحبُّها؟»

«أعرف أنَّني يجب أن أنساها، لكنِّي لا أستطيع. فهي في قلبي دومًا، لا تبارحه. لا أستطيع فعل شيء حيال هذه الحقيقة».

«ألا تنام مع نساء أخريات؟»

«أجل. لكنَّ يوزو تكون دائمًا بيني وبين أيِّ امرأةٍ منهنّ».

«مشكلة حقيقيَّة» ـ قال، ومسح جبينه بأنامله. وبدا كأنَّه في مشكلة حقًّا!

ركب سيَّارته في نهاية هذه المحادثة لينصرف.

شكرتُه على الويسكي. لم تكن الساعةُ الخامسةَ بعد، لكنَّ السَّماء كانت مظلمة للغاية. إنَّه الموسم الذي يطول فيه اللَّيل مع الأيَّام.

«في الحقيقة، تمنَّيتُ أن نشربه معًا، قال. وفي أيِّ حال، عليَّ أن أقود السيَّارة. سنلتقي قريبًا للشرب على راحتنا».

قلتُ له: قريبًا.

«في بعض الأحيان، ثمَّة أشياء من الأفضل للمرء ألَّا يعرفها»، قال لي. وربَّما كان محقًّا. هناك بعض الحقائق من الأفضل تجاهلها. لكنَّك لن تستطيع تجاهلها إلى الأبد. فعاجلًا أم آجلًا، ستحين اللَّحظة المناسبة ليصل إليك صوتُ الحقيقة كي ينهش قلبك، مهما أحكمتَ إغلاق أذنيْك عنه. لن تستطيع إيقافه. وإن كان ذلك لا يناسب، فليس أمامك سوى اللُّجوء إلى عالمٍ مفرَّغ من كلّ شيء.

استيقظتُ في قلب اللَّيل. أنرتُ المصباح الذي بجوار الفراش، بعد أن بحثتُ عن الزرّ متحسِّسًا بيدي. ونظرتُ إلى الساعة. فرأيتُ على الشاشة الرقميَّة 01.35. لقد سمعتُ رنَّات جرسٍ ما. بل إنَّه الجرس نفسه. لا شكَّ في ذلك. أنهضتُ جذعي، وأصختُ السمع.

أجل، عاد الجرس يرنّ مرَّة أخرى. أحدُهم يرنُّ الجرس. في تلك السَّاعة من اللَّيل، كان الصوت أعلى من ذي قبل، وأقرب كثيرًا.

- 21 -
صغيرٌ، لكنَّه إذا طعنَ أراقَ الدِّماء

جلستُ على السَّرير، أصغي إلى الصوت وأحبس أنفاسي. تُرى من أين يأتي هذا الرَّنين؟ هو نفسه، مع أنَّه بات أقوى وأوضح. لكنَّه، خلافًا لما سبق، كان آتيًا من جهة مغايرة تمامًا: من داخل البيت هذه المرَّة.

لم يكن هناك تفسير آخر. منذ متى وضعتُ تلك الآلة على الرفّ في المرسم؟ لم أعد أذكر. كانت ذاكرتي مشتَّتة إلى حدٍّ كبير. لقد وضعتُه بيديَّ هاتَيْن، أجل، بعد أن عثرنا عليه في الحُفرة التي فتحناها. كنت متأكِّدًا من ذلك.

وماذا عليَّ أن أفعل؟ لقد اضطرب عقلي اضطرابًا شديدًا. وكنت خائفًا بالتأكيد. أشياء في منتهى الغرابة والغموض تقع تحت سقف هذا البيت. كنتُ وحيدًا، في قلب اللَّيل، في مكان منعزل بين الجبال.. لا عجب إن كنت فزعًا حينها. لكنَّني في تلك اللَّحظة، إن فكَّرتُ في الأمر جيِّدًا، وجدتُني مضطربًا أكثر من كوني خائفًا. لا بدَّ أنَّ العقل البشريّ

خُلِقَ بحيث يحشد كلّ مشاعر المرء وعواطفه لاقتلاع جذور الفزع والألم، أو للتّقليل من حدّتهما على الأقلّ. تمامًا، مثلما يُهرَع الناس لإخراج كلّ الأدوات التي يمكن ملؤها بالماء كي يطفئوا الحريق.

رتّبتُ أفكاري قدر الإمكان، وعدّدتُ الاحتمالات الواردة. أوّلها يفيد بأن أضع الوسادة فوق رأسي وأواصل النوم. وهذا منهج ماساهيكو أمادا، الذي أوصاني بتجنّب الخوض في الأمور الغامضة والمبهمة. أطفئ دماغي، وأغمض عينيّ، وأسدّ أذنيّ. إلّا أنّ المشكلة ستظلّ قائمة: لن أستطيع النوم بأيّ حال. من المستحيل تجاهل الجرس المسموع بهذه الدّرجة من الوضوح، مهما كانت الوسيلة المتّبعة، لأنّه يرنّ داخل البيت.

كان الجرس كالعادة يُصدِرُ رنّاتٍ متقطّعة. رنين، صمت، فرَنين. ولم تكن فترات الصمت متجانسة، بل كانت تطول أو تقصر بمقدارٍ ما في كلّ مرّة. وكان عدم التجانس هذا يوحي بوجود كائنٍ بشريّ وراءه. لم يكن الجرس سيرنّ من تلقاء نفسه. ولم يكن مُعيّرًا بآليّةٍ محدّدة. ثمّة من يمسك بيده ويرنّه. بغية إرسال إشارةٍ ما.

كفى.. لم يعد بإمكاني التظاهر بأنّي لا أسمع شيئًا. كان عليّ أن أكتشف حقيقة الأمر. فإذا استمرّ ذلك كلّ ليلة، انهار نظام نومي، وتخبّط إيقاع حياتي الهادئة. سأذهب بنفسي إلى المرسم لرؤية ما يحدث هناك. كان قراري مشحونًا بغضبٍ عارم (لماذا أتعرّض لكلّ هذا العذاب؟) وكان مقرونًا بالفضول أيضًا. أريدُ أن أرى ما الذي يحدث بأمّ عيني؟

قفزتُ عن الفراش، وارتديتُ المعطف الصوفيّ فوق لباس النَّوْم. وذهبتُ إلى مدخل البيت حاملًا المصباح اليدويّ. هناك، حيث أمسكت بيميني العكّازَ الخشبيّ المصنوع من خشب البلّوط غامق اللّون، الذي كان توموهيكو أمادا يستخدمه. عكّازٌ متينٌ وثقيل. لم أعتقد

أنَّ شيئًا كهذا سيكون مفيدًا على أرض الواقع، لكنَّ قلبي اطمأنَّ بإمساك شيءٍ ما عمًّا لو كنتُ خالي اليدَيْن. فلا أحد يعلم ماذا سيحدث!

وكان من الطبيعيّ أن أشعر بالخوف. كنتُ أسير حافي القدمَيْن، لكنَّ قدميَّ كانتا لا تشعران بأيِّ إحساس؛ وكان جسدي متخشِّبًا، وأكاد أسمع صرير كلّ عظمة من عظامي مع كلِّ خطوة. لقد تسلَّل شخص ما إلى البيت، أغلب الظنّ، وها هو يرنّ الجرس الآن. ومن الوارد أن يكون الشَّخص نفسه الذي كان يرنّه من قاع الحفرة. ولكنْ، من تُراه يكون؟ أو ماذا يكون؟ أهو مومياء؟ تُرى إن دخلتُ المرسم، فعثرتُ على مومياء رجلٍ تيبَّس جلده كاللَّحم المقدَّد، يرنّ الجرس، تُرى كيف سأتصرَّف معه؟ هل أرمي عليه عكّاز توموهيكو أمادا بكلِّ قوّتي؟

مستحيل. لن أستطيع فعلها. فلا بدَّ أنَّها مومياء بوذا محنَّط، وليست زومبي. ما الذي عليَّ فعله إذن؟ إن لم أتَّخذ إجراءً فعَّالًا، فهل سأضطرّ إلى التعايش مع تلك المومياء داخل البيت من الآن فصاعدًا؟ هل سأضطرّ إلى سماع رنين الجرس في التَّوقيت نفسه من كلّ ليلة؟

فجأةً، تذكَّرتُ منشكي. ألم يكن هو الذي أوقعني في تلك الورطة، بسبب أفعاله الغريبة؟ لقد استجلب رافعةَ، دفعة واحدة، لإزاحة الصخور وفتح تلك الحُفرة المليئة بالألغاز والغموض. وها هي النتيجة: فضلًا عن الجرس، ثمَّة كائن من طبيعة مبهمة تسلَّل إلى البيت. فكَّرتُ بالاتِّصال به. لا بدَّ أنَّه كان سيأتي على جناح سيَّارته الجاغوار السريعة، غير آبهٍ بتأخُّر الوقت. لكنِّي عدلت عن ذلك. فليس لديَّ متَّسع من الوقت لانتظار مجيئه لحلِّ المسألة. عليَّ أن أتدبَّرَ أمري بنفسي. عليَّ أن أتحمَّلَ المسؤوليَّة بنفسي.

استجمعتُ شجاعتي، ودخلتُ غرفة المعيشة بحزم، وأضأتُ النُّور. لكنَّ ذلك لم يكفِ لإيقاف الصوت. كان آتيًا من الجانب الآخر

للباب المؤدّي إلى المرسم، لا شكّ في ذلك. أحكمتُ قبضتي على العكّاز، وعبرتُ غرفة المعيشة بخطواتٍ واثقة، حتى وصلتُ إلى الباب، فوضعتُ كلتا يديّ على مقبضه. سحبتُ نَفَسًا عميقًا، وحسمتُ أمري وأدرتُ المقبض. وعندما دفعتُ الباب، توقَّفَ صوت الجرس تمامًا، وكأنّه لم يكن ينتظر سوى هذا! وهبط الصمت الثقيل.

كان المرسم غارقًا في ظلامٍ تامّ. لم أرَ أيّ شيء. مددتُ يدي وتحسَّست بها الحائط الأيسر، وضغطتُ على زرّ الإضاءة. أُضيئت ثُريّا السقف، فأنارت الغرفة كلّها سريعًا. وقفتُ عند الباب متأهّبًا، مفرج الساقَيْن، والعكّاز بيدي، ألقيتُ نظرة خاطفة في أرجاء الغرفة. كاد حلقي يتمزَّق من شدَّة الجفاف بسبب الخوف، حتّى إنّني استصعبتُ ابتلاع لعابي. لا أحد في المرسم. لا أثر لمومياء محنَّطة تهزّ الجرس. لا وجود لأيّ شيء مطلقًا عدا حامل اللّوحات وسط الغرفة ولوح الرَّسم عليه. وهناك المقعد الخشبيّ القديم ذو الأرجل الثلاث أمام الحامل. أمّا عن البشر، فلا وجود حتّى لظلّهم. لا صوت على وجه الخصوص. لا أزيز حشرة، لا صرير رياح. كانت الستائر البيضاء تتدلّى على النافذة بسلام، والمكان في سكونٍ مريب. أحسستُ بأنّ العكّاز في يميني يرتعش، لكثرة ما كنت متوتّرًا. وكان الارتعاش ينتقل إلى الأرض، فيُصدِرُ صوت اهتزازٍ مكتوم.

الجرس على الرفّ كما هو. ذهبتُ إلى هناك، ونظرتُ إليه متفحّصًا. لم أمسكه بيدي، لكنّي لم ألحظ عليه أيّ تغيير. كان في المكان نفسه الذي أرجعته إليه بعد ظهر ذلك اليوم، بدون أيّ أثر لأحدٍ حرّكه عن موضعه.

جلستُ على المقعد العالي أمام الحامل، أدرتُ بصري في المكان مرّة أخرى بدرجة 360 درجة، وبدقّة وانتباه شديدَيْن من ركنٍ إلى ركن. ما من أحد. لم يكن هناك إلّا المرسم الذي تعوّدت رؤيته

يوميًا؛ واللَّوحة التي في اللَّوح، كانت في منتصف العمل كما تركتها. مسوَّدة لوحة «صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء».

نظرتُ إلى منبِّه السَّاعة فوق الرفّ. كانت الثانية صباحًا بالتمام. مرَّت خمس وعشرون دقيقة منذ استيقظت على رنين الجرس، في الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة. غير أنّي لم أشعر بمرور كلّ هذا الوقت. بل شعرتُ بأنَّها خمس أو ستّ دقائق. فإمَّا أنَّ حاسَّة الشعور بالزمن اختلَّت لديَّ، وإمَّا أنَّ الزمن في مروره هو الذي اختلّ.

نزلت من على المقعد، بعد أن يئستُ من اكتشاف أيّ شيء، وأطفأتُ الأنوار، وخرجت من المرسم وأغلقتُ الباب. وقفتُ بجوار الباب المغلق، وأصختُ السمع، فلم أسمع صوت الجرس. لم أسمع أيّ صوت مطلقًا. لا صوت سوى الصمت. كنت أسمع الصمت فقط! هذه ليست لعبة بالكلمات. للصمت صوتٌ فوق الجبل المنعزل. أصغيتُ طويلًا عند الباب المؤدّي إلى المرسم!

وعندئذٍ، رأيتُ على أريكة غرفة المعيشة شيئًا لم تكن عيناي قد اعتادتا رؤيته. شيءٌ بحجم وسادة أو دُمية. لكنَّني لا أذكر أنَّني تركتُ شيئًا كهذا على الأريكة! ركَّزتُ عليه نظري. لم يكن وسادة ولا دُمية. كان إنسانًا حيًّا بحجم صغير. ربَّما كان لا يزيد طوله على ستّين سنتيمترًا. يرتدي ملابس بيضاء غريبة، ويحرِّك جسمه بطريقة عصابيَّة وبطيئة. يبدو أنَّه مرتبكٌ، وكأنَّ جسده لم يعتَدْ تلك الملابس بعد. لقد سبق لي رؤية تلك الملابس. زيٌّ تقليديٌّ، عائدٌ إلى الطبقة العليا في التاريخ اليابانيّ القديم. ليس الملابس فقط، بل سبق لي رؤية وجهه أيضًا.

إنَّه الكومنداتور.

تجمّدتُ حتّى النخاع؛ وكأنَّ قطعة ثلجٍ بحجم قبضة اليد تزحف على ظهري ببطء. الكومنداتور الذي رسمه تومو هيكو أمادا في لوحة «مقتل الكومنداتور»، كان جالسًا على أريكة غرفة المعيشة في بيتي ـ بل بيت تومو هيكو أمادا ـ وينظر مباشرة إلى وجهي. كان لذلك الرجل الصَّغير الهيئة نفسها التي ظهر فيها داخل اللَّوحة، بل كان يبدو أنَّه قفز من اللَّوحة إلى الخارج.

تُرى أين اللَّوحة الآن؟ حاولتُ أن أتذكَّر. آه.. كانت في غرفة الضيوف. لقد أخفيتها هناك بعيدًا عن الأعين، كي أتجنَّب التَّعقيدات في حال زارني أحد، وقد غلَّفتها مرَّة أخرى بالورق البنِّيّ. ولكنْ، إن كان الرجل قد خرج حقًّا من اللَّوحة، فبأيّ حالٍ كانت اللَّوحة حينها؟ هل اختفى الكومنداتور من على سطحها؟

هل من المعقول أن تخرج شخصيَّةٌ رُسِمتْ في إحدى اللَّوحات خارجها؟ هذا مُحال. غير معقول. والأمر بديهيٌّ، يعلمه الجميع. لم يكن أحدٌ ليفكِّر فيه حتّى...

ظللتُ واقفًا هناك أحملق في الكومنداتور الجالس على الأريكة، أعصر دماغي بلا جدوى، بعد أن فقدتُ منطقيَّة التَّفكير. وكأنَّ الزمن قد توقَّفَ موقتًا. بل بدا أنَّ الزمن يتأرجح في المكان نفسه منتظرًا أن تخفّ درجة اضطرابي. لم أستطع أن أحيد عينَيَّ عن ذلك الرجل الغريب ـ القادم من عالمٍ خرافيّ ـ وكان الكومنداتور كذلك ينظر إليَّ بثبات من فوق الأريكة، غرقتُ في صمتٍ تامّ، عاجزًا عن النطق. ربَّما بسبب الصدمة الكبرى. لم يكن بإمكاني فعل شيء إلَّا التَّحديق إليه، والتنفُّس بهدوء، بفمٍ موارب.

وكان الكومنداتور يرمقني بنظرة ثابتة من محلّ جلوسه، من دون أن ينطق بكلمة، مزموم الشفتَيْن. وساقاه القصيرتان تتدلَّيان من

الأريكة، مستلقٍ بظهره إلى مسندها، لكنَّ رأسه لا يعلو حدّ المسند الأعلى. ينتعل حذاءً صغيرًا غريب الشكل، مصنوعًا من مادّة سوداء، يبدو أنّها جلديّة. ورأس الحذاء مسنون ومنتصبٌ إلى أعلى. وكان على خصره سيفٌ طويل بمقبضٍ مُزيَّن. طويلٌ بالنِّسبة إلى حجمه، لأنَّه في الواقع كان أقرب إلى الخنجر. أداةٌ قاتلة، في كلّ الأحوال.

«أجل. إنَّه سيفٌ حقيقيّ»، قال الكومنداتور، كأنَّه قرأ أفكاري، بصوتٍ قويٍّ وواضح لا يتلاءم وقامته القصيرة. «سيفٌ صغيرٌ، لكنَّه إذا طعنَ أراقَ الدماء».

آثرتُ الصمت عاجزًا عن إيجاد ردٍّ مناسب. إنَّه يتحدَّث، هذا أوّل ما خطر في ذهني. ثمَّ فكَّرتُ بأنَّ طريقة تعبيره غريبة حقًّا. فالإنسان الطبيعيّ لم يكن ليعبِّر بذلك الشكل. إلّا أنَّ الكومنداتور، ذا الستِّين سنتيمترًا، والخارج من لوحة فنِّيّة، من غير المعقول أن يكون إنسانًا طبيعيًّا. لا يُفترض بي التعجُّب من أسلوبه في الكلام إذن!

وقال حينذاك: «في لوحة توموهيكو أمادا، أُطْعَنُ بالسيف في صدري، وأُوشِكُ على مِيْتةٍ بائسة، كما تعلمون حضرتكم. لكنَّني الآن بلا جروح. انظروا حضرتكم! ما من جرح، أليس كذلك؟ يعزُّ عليَّ السَّير نازفًا، وقد أسبِّبُ لكم إزعاجًا كبيرًا، إذا تلطَّخ السجّاد والأثاث بدمائي. وهكذا، استغنيتُ عن الواقع حاليًّا، وأتيتُ بلا جروح، بعد أن محوتُ كلمة «مقتل» من العنوان «مقتل الكومنداتور». فإن اضطررتم لمناداتي باسمٍ ما، فبوسعكم أن تسمُّوني «كومنداتور» بكلّ بساطة».

كان يتحدَّث بنبرةٍ أصيلة حقًّا، ولم يكن ينقصه الكلام. لا بل كان ثرثارًا بالأحرى. في حين، كنت لا أزال عاجزًا عن النطق بكلمة واحدة. فلطالما كانت الحدود بين الواقع والخيال هشَّةً بالنِّسبة إليَّ.

«هلّا وضعتم العكّاز جانبًا يا سيّدي؟ فما من سبب يدعونا، حضرتك وأنا، إلى المبارزة هنا والآن»، قال.

نظرتُ إلى يدي. كانت عكّاز توموهيكو أمادا، المصنوعة من خشب البلّوط، ما تزال في يميني بحزمٍ بالغ. تركتُها تسقط، فتدحرجت على السجّادة مُصدِرةً ضجّة مكتومة.

قال الكومنداتور، وهو يقرأ أفكاري للمرّة الثانية: «أنا لم أخرج من اللّوحة كما تعتقدون حضرتكم. فاللّوحة (الفريدة من نوعها حقًّا) ما تزال على حالها. ومازال الكومنداتور فيها يُقتَلُ بالمشهد ذاته. ودماؤه تتدفّق من قلبه سيّالة. لقد استعرتُ مظهره فقط، لأنّي احتجتُ إلى شكلٍ يتجلّى على مرآكم، كي يتسنّى لي مقابلتكم والتحدّث إليكم، يا سيّدي. لذا، سمحتُ لنفسي بالتجسّد بالكومنداتور لتسهيل الأمر».

التزمتُ الصمت.

«من جهة أخرى، ما أهمّيّة ذلك؟ فالمعلّم أمادا بات يعيش في عالمه الضبابيّ والمسالم، ولم يُسجّل لوحته بعلامة تجاريّة. فلو اتّخذتُ شكل ميكي ماوس أو بوكاهنتس، لطالبتني شركة والت ديزني بمبلغ ضخم. لكنّ هذا الاحتمال منفيٌّ في حالة الكومنداتور».

وإذ قال ما قال، ضحك مستمتعًا حتّى ارتجّت كتفاه.

«بالنّسبة إليّ، لم أكن لأمانع استعارة شكل مومياء، لكنّي أعتقد أنّكم ستصابون بالرّعب لو تراءت لكم مومياء في منتصف اللّيل! لو رأى إنسانٌ بعينَيْه كتلة من اللّحم المقدّد الجافّ ترنّ الجرس وسط الظلام الدّامس، فقد يصاب بسكتة قلبيّة. أليس كذلك؟»

أومأت بنعم تلقائيًّا. بالتَّأكيد، كوُمنداتور أفضل من مومياء بألف مرَّة! كنت سأصاب بسكتةٍ قلبيةٍ فعلًا لو حدَّثتْني إحدى المومياءات. والأسوأ أن ترى ميكي ماوس أو بوكاهنتس يرنَّان الجرس في الظلام. ربَّما كان خيار الكومنداتور المرتدي زيّ عصر أسُكا هو الأفضل.

تجرَّأتُ وسألته: «هل أنت شيء يشبه الرُّوح؟»، صَدَر صوتي مبحوحًا جافًّا كالصَّوْت الصادر ممَّن شُفي من المرض توًّا.

«سؤال جيّد» ـ قال ورفع سبَّابته البيضاء الصَّغيرة متابعًا: «بل إنَّه سؤال رائع يا سيّدي العزيز. من أنا؟ حتى هذه اللَّحظة، أنا الكومنداتور. لا أحد إلَّا الكومنداتور. لكنَّه مظهرٌ مؤقَّت بالتَّأكيد، ولا أدري بأيّ حالٍ سأعود في المرَّة القادمة! حسنًا، إذن، من أنا في الأصل؟ أو فلنقل: من أنتم؟ إن طُرِح هذا السُّؤال على حضرتكم فجأة، فلا بدَّ أنَّكم ستقعون في حيرة شديدة، وهذا ما يحدث لي أيضًا».

«أجل، ولكنْ هل أنت قادر على اتِّخاذ أيّ شكل تريد؟» سألته.

«لا، الأمر ليس بهذه السهولة. ثمَّة حدود للشكل الذي بوسعي اتِّخاذه. أي أنَّني لا أستطيع اختيار أيّ شيء. بمعنى آخر، الملابس في خزانتي قليلة. أستطيع اتِّخاذ المظهر المناسب للظرف ليس إلَّا. وفي هذه المناسبة، لم يكن أمامي سوى مظهر هذا الكومنداتور الدميم. فأبعاد اللَّوحة لا تسمح لي إلَّا بهذه القامة القصيرة. ثمَّ إنَّ هذا اللِّباس متعِبٌ حقًّا»، قال محرِّكًا جسده داخل الزيّ ببطء وعصبيَّة «عمومًا، بالعودة إلى سؤالكم السَّابق: هل أنا روح؟ كلَّا، كلَّا، لست كذلك يا سيّدي. أنا لستُ روحًا، إنَّما مجرَّد «فكرة». فالرُّوح جوهريًّا خارقةٌ للعادة، مستقلَّة، وحرَّة. أمَّا أنا، فلستُ كذلك. هناك قيود متعدِّدة مفروضةٌ عليّ».

كان لديَّ أسئلة كثيرة، أو من المفترض أنَّه لديَّ قدرٌ كبير من الأسئلة. لكنَّ أيًّا منها لم يخطر في ذهني على الإطلاق. أوَّلًا، لماذا كان يخاطبني بصيغة الجمع «أنتم» رغم أنَّني فردٌ واحد؟ هذا أتفه الأسئلة. ولا يستحقّ حتَّى أن يُطرَح. لعلَّها الصيغة المعتمَدة في عالم «الأفكار».

«أجل، قيودٌ متعدِّدة» ـ تابع الكومنداتور. «فأنا، مثلًا، لا أستطيع التجسُّد إلَّا في ساعات محدودة من اليوم. ولأنَّني أفضِّل ساعات اللَّيل المريبة، فأتجسَّد في العادة بين الواحدة والنصف والثانية والنصف بعد منتصف اللَّيل. ولو فعلتُها تحت ضوء النهار، لأنهكني الأمر. أمَّا في الأوقات التي لا أتجسَّد فيها، أظلّ فكرةً بلا شكل وأستريح. كالبومة القرناء التي في السقيفة. ثمّ إنَّ طبعي يمنعني من الذهاب إلى مكانٍ لا أُدعى إليه. بفضلكم يا سيِّدي، إذ فتحتم الحُفرة وحملتم هذا الجرس إلى هنا، استطعتُ دخول هذا البيت».

«هل كنتَ محبوسًا طوال الوقت في قاع تلك الحفرة؟» سألته وقد تحسَّن صوتي كثيرًا، لكنَّ نبرتي ما زال فيها بُحَّة.

«لا أدري. فأنا في الأصل لا أملك ذاكرة بالمعنى الدَّقيق للكلمة. في أيِّ حال، كنت حبيس تلك الحفرة، هذه حقيقة. ولم أكن أستطيع الخروج منها لسببٍ ما. لكنَّ هذا لا يعني أنَّني كنت مسلوب الإرادة. فلقد خُلِقتُ بحيث لا تتغلَّب عليَّ مشاعرُ الحبس والآلام، حتَّى لو بقيتُ في قاع حفرةٍ مظلمة آلاف السنوات. ومع ذلك، أشكركم على إخراجي من هناك. من نافل القول إنَّ الحرِّيَّة أمتع من عدمها. وإنِّي ممتنٌّ للرجل المدعو منشكي. فلا بدَّ أنَّ الحُفرة ما كان بالمستطاع فتحها لولا جهوده الحثيثة.

«إنَّها الحقيقة»، أومأتُ موافقًا.

«شعرتُ بأولى الإشارات بكثافةٍ شديدة. أحسستُ بإمكانيَّة الخروج من الحُفرة. فعقدتُ النِّيَّة: «هذا هو الوقت المناسب»».

«هذا ما جعلك ترنّ الجرس ليلًا منذ فترة».

«تمامًا. ثمَّ فُتِحَ غطاءُ الحُفرة. وكان السيِّد منشكي لطيفًا جدًّا إذ وجَّه إليَّ دعوة للعشاء».

أومأتُ موافقًا مرة أخرى. صحيح، لقد وجَّه منشكي دعوة إلى الكومنداتور ـ مستخدمًا كلمة مومياء وقتها ـ للعشاء ليلة الثلاثاء. مثلما فعل الدون جوڤاني بتمثال الكومنداتور في الأوبرا. وربَّما كان منشكي يقصد المزاح، لكنَّني كنت متأكِّدًا من أنَّها تعدَّت حدود المزحة.

قال الكومنداتور: «لكنّي لن آكل، ولن أشرب الخمر. ليس لديَّ جهازٌ هضميّ أساسًا. كان جميلًا لو أنَّني شاركتُ في تلك المأدبة الخياليَّة. لكنَّني قبلتُ الدعوة بكلّ احترام عمومًا، فربَّما ما من فرصة أخرى أن يدعو أحدٌ «فكرةً» إلى حفل عشاء».

كانت تلك هي آخر كلمات الكومنداتور في تلك اللَّيلة. فبعد أن انتهى من كلامه، سقط في صمتٍ مفاجئ، وأغمض عينيْه بهدوء، كأنَّه يدخل عالم التأمُّل الرُّوحيّ تدريجيًّا. بدت ملامح وجهه متبصِّرة للغاية عندما أغمض عينيْه. لم يتحرَّك جسده قيد أُنملة، حتَّى أصبح باهتًا بسرعةٍ كبيرة، ثمَّ استحال ظلالًا ضبابيَّة بوتيرةٍ متسارعة. ثمَّ اختفى تمامًا بعد ثوانٍ. نظرتُ لاإراديًّا إلى الساعة: الثانية والرُّبع صباحًا. لا بدَّ أنَّ الوقت المتاح للتجسُّد قد انتهى!

اقتربتُ من الأريكة، وتلمَّستُ الموضع الذي كان يجلس عليه الكومنداتور. فلم تشعر يدي بأيِّ شيء. لا وجود لدفءٍ أو أثرٍ لتجويفٍ

في مكان جلوسه. ليس هناك ما يشير إلى أنَّ أحدًا ما جلس في هذا المكان. ربَّما ليس للفكرة حرارة جسد أو ثقله! وقد يكون ذلك المظهر ليس إلَّا تجسُّدًا في لحظة عابرة. جلست بجوار مكانه، وتنفَّستُ بعمق. ثمَّ دعكتُ وجهي بكلتا يديَّ بقوَّة.

بدا لي الأمر كلّه قد حدث في حلم من الأحلام. لقد رأيتُ حلمًا طويلًا حيًّا يشبه الواقع. كلَّا، بل إنَّ هذا العالم صار امتدادًا للحلم. إنَّني محبوس داخل الحلم. هذا هو إحساسي. لكنَّي كنتُ أعرف جيِّدًا أنَّه ليس حلمًا. قد لا يكون واقعًا، لكنَّه ليس حلمًا. لقد حرَّرنا، أنا ومنشكي، الكومنداتور ـ أو حرَّرنا فكرةً تجلَّت بهيئة الكومنداتور ـ من قاع تلك الحُفرة المريبة. ثمَّ سكن الكومنداتور هذا البيت واستقرَّ فيه، تمامًا كالبومة القرناء التي في السقيفة. لا أفهم معنى ذلك كلّه. ولا أدري إلى أين ستؤول الأمور.

وقفتُ والتقطتُ عكَّاز توموهيكو أمادا الملقى على الأرض، وأطفأتُ أنوار غرفة المعيشة، وعدتُ إلى غرفة النوم. كان المكان غارقًا في الهدوء. خلعتُ المعطف الصوفيّ الخفيف، ودخلتُ الفراش بثياب النوم، وفكَّرتُ فيما ينبغي لي فعله من الآن فصاعدًا. ينوي الكومنداتور الذهاب إلى بيت منشكي يوم الثلاثاء، لأنَّ الأخير وجَّه إليه الدَّعوة إلى العشاء. فما الذي سيحدث هناك؟ كلَّما أمعنتُ في التَّفكير، اختلَّ توازن عقلي، مثل طاولة بساقٍ أقصر من الثلاث الأخرى.

ثمَّ جاءني نعاسٌ ثقيل. فبدت قواي العقليَّة تنهار وكأنَّها تخضع للنَّوْم، كي تنتشلني بالحُسنى من قاع ذلك الاضطراب. وسرعان ما غفوتُ. وقبل أن أغطّ في النوم، فكَّرتُ في أمر البومة. تُرى ما الذي تفعله؟

«عليكم بالنوم يا سيِّدي»، غمغم الكومنداتور في أذني.

لكنَّني ربَّما كنتُ أحلم حينها.

- 22 -

الدَّعوة ما تزال سارية المفعول

كان اليوم التالي هو يوم الاثنيْن. عندما استيقظتُ، كانت الساعة الرَّقميَّة تشير إلى 06.35. أنهضتُ جذعي عن الفراش، واستحضرتُ ما حدث منذ ساعات قليلة، في قلب اللَّيل، في المرسم: الجرس الذي كان يرنّ هناك؛ والحديث المريب الذي دار بيني وبين الكومنداتور المصغَّر. وددتُ أن أعتقد يقينًا بأنَّه مجرَّد حلم. حلمٌ طويلٌ وواقعيٌّ جدًّا. وهذا كلّ ما في الأمر. فعندما بزغت أولى خيوط شمس الصباح، لم يكن هناك من تفسير آخر. كنتُ أتذكَّر تفاصيل ما حدث بوضوح شديد، لكنَّني كلَّما تفحَّصتُها، تفصيلًا تلو تفصيل، بدت لي أحداثًا بعيدة عنِّي مسافة سنوات ضوئيَّة. وعلى الرَّغم من كلِّ الجهود التي بذلتُها لأقتنع بأنَّ العكس صحيح، كنت متيقِّنًا من أنَّني لم أكن أحلم. قد لا يكون حدثًا واقعيًّا، لكنَّه لم يكن حلمًا أيضًا. ربَّما كان شيئًا مختلفًا كليًّا.

نهضتُ عن الفراش، واتَّجهتُ إلى لوحة توموهيكو أمادا «مقتل الكومنداتور». نزعتُ عنها الغلاف الورقيّ، وحملتُها وذهبتُ بها إلى

المرسم. علّقتها على الحائط هناك، وجلست على المقعد العالي أحملق فيها مباشرة لفترة طويلة. كان الرجل الصّغير محقًّا في كلامه ليلة أمس: لا تغيير في اللّوحة. لم يخرج الكومنداتور منها ليتجلّى في هذا العالم. كان ما يزال هناك في رمقه الأخير، مطعونًا بالسّيف في قلبه الذي تسيل منه الدّماء غزيرةً، موجّهًا نظراته إلى السماء، معوجَّ الفم، منفرجَ الشفتَيْن قليلًا. ربّما كان يطلق صرخة ألمٍ مدوِّية. كان شعره، وملابسه، والسّيف الطويل في يده، وحذاؤه الأسود الغريب، كان متطابقًا مع مظهر الكومنداتور الذي ظهر في البيت ليلة أمس. لا بل من الأدقّ أن نقول إنَّ الكومنداتور الثاني، الذي تجسَّد أمام عينيّ، هو المطابق للكومنداتور الذي في اللّوحة!

إنَّ الشخصيَّة الخياليَّة التي ابتدعها توموهيكو أمادا بأسلوب النيهونغا وألوانها، تجسَّدت في الواقع (أو فيما يشبه الواقع)، وتحرَّكت ملء إراداتها الحرَّة في المكان: أليس هذا عجيبًا؟ لكنّني كلّما تأمّلتُ اللّوحة مليًّا، ازددتُ يقينًا بأنَّ الأمر ليس على هذه الدرجة من الاستحالة. ومن المرجَّح أنَّ مردّ السَّبب يكمن في الحيويَّة الباهرة التي تتفرَّد بها ريشة توموهيكو أمادا. فكلَّما أمعنتُ النَّظر في المشهد، استشرتِ الضبابيَّةُ على الفرق ما بين الواقع والخيال، وبين السَّطح ذي البعدَيْن والعمق ثلاثيّ الأبعاد، وبين الجسد الماديّ وتشكيله. تمامًا، كساعي البريد الذي رسمه فان غوخ، الذي لم يكن واقعيًّا بالتأكيد، إلّا أنّنا من شدَّة النَّظر إليه، يتولَّدَ لدينا انطباعٌ بأنّه حيّ يتنفَّس. ومثل الغربان التي رسمها، والتي كانت مجرَّد خطوط سوداء فظّة، تبدو لنا أنّها تحلّق في السماء فعلًا. ففي تأمُّلي للوحة «مقتل الكومنداتور»، لم يكن أمامي إلّا إظهار مزيد من الإعجاب بالمعلّم توموهيكو أمادا ومقدرته كفنّان عبقريّ.

ومن الوارد أنَّ الكومنداتور (أو الفكرة المتجسِّدة فيه) قرَّر «استعارة» هيئة تلك الشخصيَّة، لأنَّه قدَّر جماليَّة اللَّوحة وفرادتها. مثلما يختار سرطان البحر الناسك قوقعة جميلة ليسكن فيها.

بعد مرور عشر دقائق في النَّظر إلى اللَّوحة، ذهبتُ إلى المطبخ وأعددتُ القهوة. وتناولتُ فطورًا بسيطًا، وأنا أستمع إلى نشرة الأخبار التي تبثُّها الإذاعة على رأس الساعة. لم يكن هناك أيّ خبر ذا معنى، أو أنَّ كلّ الأخبار باتت بلا معنى بالنِّسبة إليَّ. لكنَّني في راهن ذلك الوقت، جعلتُ نشرة أخبار السَّابعة صباحًا جزءًا من طقوسي اليوميَّة. لا أريد أن توشك الكرة الأرضيَّة على الدَّمار، وأنا الوحيد الذي ليس له عِلمٌ بالأمر. سيكون مأزقًا حقيقيًّا!

أنهيتُ الفطور. وإذ تأكَّدتُ من أنَّ الكرة الأرضيَّة كانت تواصل دورانها المعتاد، على الرَّغم من المشاكل العويصة على سطحها، حملتُ كوب القهوة وعدتُ إلى المرسم. أزحتُ الستائر، وأدخلتُ هواءً جديدًا منعشًا إلى الغرفة. ثمَّ وقفتُ أمام اللَّوح، وبدأتُ العمل على لوحتي أنا. فليس أمامي سوى التقدُّم فيما يجب عليَّ فعله، سواءٌ أكان ظهور الكومنداتور واقعًا أم لا، وسواءٌ أَحَضَرَ عشاء منشكي أم لم يحضر!

ركَّزتُ وعيي، واستحضرتُ صورة الرجل متوسِّط العمر صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء. مفتاح السيَّارة بعلامة سوبارو على طاولة المطعم العائليّ، وشرائح الخبز والبيض المقليّ والمقانق في الطَّبَق. وعاء كاتشاب (أحمر)، ووعاء خردل (أصفر) بجوار الطَّبَق. وشوكة وسكِّين مصفوفتان. لم يمسس الطعام بعدُ. شمس الصَّباح تشعّ على كلّ شيء. وأنا، أمرّ بجانب طاولته، وهو يرفع وجهه الأسمر ليحدِّق بي.

ثمَّ تقول لي نظرته: «أعرف تمامًا أين كنتَ وماذا فعلتَ». نظرةٌ اتِّهاميَّة يتلألأ فيها نورٌ باردٌ رأيتُه من قبل. ربَّما في بريق عيون أخرى، لرجلٍ آخر، في مناسبة أخرى. لكنِّي لا أذكر أين ومتى!

بدأتُ بإتمام شكله وتعبيره الصامت على اللَّوح. وأخذتُ أمحو كلّ الخطوط الزائدة من الهيكل الذي رسمته أمس بالفحم، باستخدام حافَّة شريحة الخبز بديلًا عن الممحاة. وبعد أن مسحتُ كلّ ما ينبغي مسحه، أضفتُ خطوطًا سوداء أخرى إلى تلك المتبقِّية. واستغرق العمل ساعةً ونصف الساعة تقريبًا. فكانت النتيجةُ أنْ ظهر على السطح حقًّا محيًا الرجل متوسِّط العمر، صاحب السيَّارة البيضاء، وقد تحوَّل إلى (ما يمكن وصفه) مومياء. استحال شكلًا بلا عضلات أو لحم، وتيبَّسَ الجلدُ كلحمٍ بقريّ مقدَّد. هذا ما نجم عن تلك الخطوط الفحميَّة الغليظة. ما تزال مجرَّد مسوَّدة بطبيعة الحال. لكنَّ اللَّوحة التي في ذهني بدأت تتمظهر فيها بالفعل.

«رائعة»، قال الكومنداتور.

التفتُّ. كان هناك، جالسًا على أحد الرفوف بجانب النافذة، وينظر نحوي. أبرزتْ شمسُ الصَّباح المتسلِّلة من ورائه أطرافَ جسده بوضوح. كان يرتدي الزيّ التاريخيّ الأبيض نفسه، والسَّيف الطويل المتناسب مع قِصْرِ قامته، كان على خصره. لم أكن أحلم إذنًا. هذا مؤكَّد.

وكالعادة، قرأ الكومنداتور أفكاري، وقال: «بالتأكيد، أنا لستُ حلمًا. فلنقل إنَّني أشبَه بصحوة الوعي».

التزمتُ الصمت، مكتفيًا بتأمُّل حوافّ ظلّه من مقعدي العالي.

فتابع قائلًا: «لقد أخبرتكم بالأمس، يا سيِّدي، أنَّ التجسُّد في مثل هذه الساعة من النهار يرهقني. لكنِّي أردتُ أن أراكم منغمسين في

الرَّسم، ولو لمرَّة واحدة. اعذروني على التطفُّل، فإنَّني منذ مدَّة أتابعكم عن كثبٍ بينما ترسمون. آمل ألَّا أسبِّب لكم أيّ إزعاج».

لم يكن في نيَّتي الردّ على كلماته هذه أيضًا. فسواء شعرتُ بالإزعاج أم لا، كيف يمكن للمرء الحيّ أن يجادل فكرة؟

استأنف حديثه مرَّة أخرى، من دون انتظار إجابتي (أو لعلَّه اكتفى بما جال في ذهني آنذاك): «إنَّكم ترسمون بمهارة رفيعة. وكأنَّ جوهر ذلك الرجل يبرز على اللَّوحة شيئًا فشيئًا».

«هل تعرفه؟» سألته مشدوهًا.

«طبعًا»، أجاب الكومنداتور. «أعرفه بالتَّأكيد».

«هلَّا أخبرتني شيئًا عنه؟ أيّ نوعٍ من الرجال هو؟ وماذا يعمل؟ وأين هو الآن؟»

«ومن يدري!» ـ لوى الكومنداتور رأسه، وظهرت على وجهه ملامح التَّجهُّم. كان يبدو مثل شيطان صغير بذلك العُبوس، أو مثل إدوارد ج. روبنسون الذي أدَّى أفلام العصابات القديمة الهوليوديَّة. ربَّما استعار التَّعبير من الممثِّل نفسه. لم يكن أمرًا مستبعدًا.

«هنالك أشياء في هذا العالم، من الأفضل ألَّا تعرفوها»، تابع بملامح إدوارد ج. روبنسون نفسها.

الكلمات نفسها التي قالها ماساهيكو أمادا منذ بضعة أيَّام: «في بعض الأحيان، ثمَّة أشياء من الأفضل للمرء ألَّا يعرفها».

فقلتُ له: «تقصد أنَّك لن تخبرني عن الأشياء التي من الأفضل أن أظلَّ جاهلًا بها؟»

«السَّبب أنَّه حتَّى إن لم أخبركم بها، فأنتم في الصَّميم تعرفونها».

التزمتُ الصمت.

«لعلَّكم، من خلال رسمكم تلك اللَّوحة، تسعون إلى تجسيد ما تعرفونه معرفة جيِّدة بالفعل. خذ ثالونيوس مونك مثلًا. لم يكن يفكِّر في تلك الموسيقى الهارمونيَّة العجيبة من خلال المنطق أو العقل، إنَّما فتح عينَيْه على وسعهما، واغترف الألحان بيدَيْه من ظلام وعيه الدامس. لا يهمّ أن تخلقوا شيئًا من العدم. إنَّما يجدر بكم استخراج الشيء الصَّحيح ممَّا هو موجودٌ أساسًا».

هذا الكائن يعرف ثالونيوس مونك!

فقال الكومنداتور، متتبِّعًا أفكاري: «أجل، أعرفه. وأعرف إدوارد أيضًا». ثمَّ أردف: «حسنًا، على أيِّ حال. ثمَّة مشكلة تتعلَّق بالأخلاقيَّات، أشعر أنَّه من الواجب عليّ إحاطتكم بها علمًا. بخصوص عشيقتكم الفاتنة... أي تلك المرأة المتزوِّجة التي تأتي إلى هنا بسيَّارة ميني حمراء. أعتذر، فإنَّني أشاهد كلّ ما تفعلانه هنا؛ أقصد همَّتكما في التَّعرِّي وأشياء أخرى على السَّرير».

نظرتُ إليه صامتًا. همَّتنا في التَّعرِّي وأشياء أخرى على السَّرير؟ الأشياء التي لا نتحدَّث بشأنها إلَّا واعترانا الحياء، على حدِّ وصفها.

«آمل ألَّا تهتمُّوا بهذا، يا سيِّدي. أعرف أنَّه فعلٌ غير لائق من جانبي، لكنَّ الفكرة من طبيعتها أن ترى كلّ شيء. لا تستطيع اختيار ما تراه. لا تهتمُّوا بذلك عمومًا. فالأمور تستوي عندي، ممارسة الجنس والتمرينات الرياضيَّة وتنظيف المدخنة. لا أشعر بأيِّ متعة خاصَّة من المشاهدة. أرى ما يحدث وكفى».

«أهذا يعني أنَّه في عالم الأفكار لا وجود لمفهوم الخصوصيَّة؟»

فأجاب بما يشبه الافتخار: «بالطبع. لا وجود لأيِّ ذرَّةٍ من ذلك المفهوم. وبالتالي، إن كان الأمر يزعجكم، أغلقنا الموضوع. ما رأيكم؟ هل تستطيعون عدم المبالاة بشأن رؤيتي لكم؟»

هززتُ رأسي بخفَّة. تُرى كيف يكون الأمر؟ هل سأستطيع أن أركِّز في الفعل الجنسيّ، رغم أنّي أعرف بأنَّ أحدًا ما يرى كلّ ما أفعله من البداية حتى النهاية؟

«لديَّ سؤال»، قلت.

«إن كان بوسعي الإجابة عليه....»

«إنَّني مدعوٌّ إلى العشاء غدًا الثلاثاء في بيت السيِّد منشكي. ستكون حاضرًا أنت أيضًا. لقد قال السيِّد منشكي إنَّه كان سيدعو المومياء. لكنَّه كان يقصدك أنت في الواقع. ولم تكن في حينها قد تجسَّدتَ على هيئة الكومنداتور بعدُ».

«لا مشكلة. يمكنني أن أتحوَّل إلى مومياء، إن أردتم».

«كلَّا. كلَّا. أرجوك أن تظلّ كما أنت»، سارعتُ إلى الردّ. «سأكون ممتنًّا لك إن بقيتَ هكذا».

«سأذهب معكم إلى بيت السيِّد منشكي. لكنَّ أحدًا لن يستطيع رؤيتي، باستثنائكم. لن تراني عينا منشكي. لذا، إن كنتُ مومياءً أو كومنداتورًا، فالأمر سيَّان. بالمقابل، هناك ما أودّ أن تفعلوه من أجلي».

«ما هو؟»

«أن تتَّصلوا الآن بالسيِّد منشكي، وتتأكَّدوا من أنَّ دعوة ليلة الثلاثاء ما تزال سارية المفعول. ثمَّ تقولون له: «لن أصحب معي المومياء، بل

الكومنداتور، هل لديك مانع؟» فكما تعرفون، لا أستطيع دخول مكانٍ لم أُدعَ إليه. لكنّي ما إن أتلقَّ الدَّعوة، بصرف النَّظر عن الطريقة، استطعتُ دخول المكان متى أردتُ. في حالة هذا البيت، كان الجرس هو الذي دعاني».

«مفهوم»، قلت. كلّ شيءٍ يهون على أن يتحوَّل إلى مومياء. «سأتَّصل بالسيِّد منشكي، وأتأكَّد إن كانت الدَّعوة ما تزال قائمة، وسأخبره بتغيير اسم الضيف، من المومياء إلى الكومنداتور».

«سأمتنُّ لكم كثيرًا على ذلك. دعوةٌ إلى العشاء! هذا رائع! شيءٌ يفوق توقُّعاتي».

«لديَّ سؤال آخر: ألم تكن في الأصل سوكوشنبستو؟ بمعنى: ألم تكن راهبًا بوذيًا دُفِنَ في حُفرةٍ تحت الأرض بملء إرادته، وصام عن الطعام والشراب، ودخل حالة النيوجو بتلاوة تعاويذ بوذيَّة، ولفظ أنفاسه في الحُفرة إيَّاها، لكنَّه استمرَّ في رنّ الجرس رغم تحوُّله إلى ما يشبه المومياء؟»

«آه»، لوى رأسه قليلًا، وقال: «لا أعرف شيئًا عن هذا. لقد أصبحت فكرة خالصة في إحدى اللَّحظات. ليس لديَّ ذاكرة عمَّا كنت عليه من قبل وما الذي كنت أفعله».

صَمَتَ قليلًا يحملق في السقف. ثمَّ أضاف بصوت خفيض ومبحوح نوعًا ما: «في أيِّ حال، عليَّ أن أختفي الآن. فوقت التجسُّد شارف على الانتهاء، وساعات الصَّباح لا تناسبني. اللَّيل صديقي الصَّدوق. والفراغ أنفاسي. فاسمح لي بالرحيل. ولا تنسَ أن تتَّصل بالسيِّد منشكي».

أغمض عينَيْه، لكأنَّه سيغرق في العالم الآخر، وزمَّ شفتيْه، وشبك أصابع يديْه. ثمَّ نحلت هيئته تدريجيًا حتى اختفى. مثلما حدث ليلة

أمس تمامًا. اختفى جسده، بلا صوت، في الهواء مثل الدخان الزائل. صرتُ وحيدًا وسط أشعَّة شمس الصباح المضيئة مع اللَّوح الذي لم يكتمل بعد. وكان هيكل الوجه الأسود لصاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء، ينظر إليَّ شزرًا من داخل اللَّوح. وقال: «أعرف تمامًا أين كنتَ وماذا فعلتَ».

اتَّصلتُ بمنشكي بعد الظهر. اكتشفت أنَّها المرَّة الأولى التي أتَّصل فيها إلى بيته، إذ درجت العادة أن يتَّصل بي هو. رفع منشكي السَّماعة بعد الرنَّة السادسة، قائلًا: «ممتاز. كنتُ على وشك الاتِّصال بك، لكنِّي لم أشأ إزعاجك أثناء العمل، فانتظرت حتَّى بعد الظهيرة، لأنَّك تُخصِّص الصَّباح للعمل».

قلتُ له إنَّني أنهيتُ عملي منذ قليل.

«وهل الأمور على ما يرام؟» سألني.

«أجل. لقد بدأتُ برسم لوحة جديدة. للتوّ فقط».

«خبر رائع. هذا أفضل شيء.. بالمناسبة، لقد علَّقتُ البورتريه كما هو، بلا إطار، على حائط غرفة المكتب، حيث أقوم بتجفيف الألوانَ الزيتيَّة. إنَّها لوحة رائعة حتَّى في مرحلتها الحالية».

«بخصوص عشاء الغد...»

«سأرسل إليك غدًا، في السَّادسة مساءً، سيَّارة لتأتي بك. وستعود بك السيَّارةُ نفسُها. لا تهتمَّ بالملابس ولا تكلِّفْ نفسك بهديَّة. فليس هناك أحد غيرنا نحن الاثنيْن. أرجو أن تأتي خالي اليدَيْن، مسترخي الأعصاب».

«هناك أمرٌ أودّ التأكُّد منه».

«تفضَّل».

«لقد قلتَ يومذاك أنّك لا تمانع إن اصطحبتُ معي المومياء إلى العشاء. صحيح؟»

«صحيح. لقد قلتُ ذلك. أذكر جيدًا».

«ألا تزال الدَّعوة سارية المفعول؟»

فكَّر منشكي لحظاتٍ، ثمّ ضحك ضحكة خفيفة، وقال: «بالتَّأكيد. لم أرجع في قولي. الدَّعوة سارية المفعول بالطبع».

«تغيَّرت الظروف، ويبدو أنَّ المومياء لن تستطيع الحضور. لكنّ الكومنداتور أبدى رغبته في الحضور بديلًا عنها. فهلّا وافقتَ على دعوته أيضًا؟»

«بالتأكيد ـ قال منشكي بلا تردُّد ـ يُسعدني أن أدعوه إلى العشاء في بيتي المتواضع، مثلما دعا الدون جوڤاني تمثال الكومنداتور. لكنّني، بخلاف الدون جوڤاني في الأوبرا إيَّاها، لم أفعل شرًّا يُسقِطُني في الجحيم. فلنقل إنَّني أظنّ أنّي لم أفعل. لن أُقاد بعد العشاء إلى الجحيم، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنَّ ذلك لن يحدث»، لكنّي بصراحة لم أكن واثقًا، فأنا لا أستطيع التنبّؤ بما سيحدث!

«حسنًا، هذا جيِّد. لأنّني لم أستعدّ للسقوط في الجحيم بعد» ـ قال ساخرًا. كان يأخذ الموضوع بأكمله على أنّه مزحة، وهذا طبيعيّ. أردف قائلًا: «بالمناسبة، لديَّ سؤال. في أوبرا الدون جوڤاني، لا يستطيع الكومنداتور تناول طعام هذه الدُّنيا، لأنّه بات في عِداد الموتى. ماذا عن الكومنداتور الذي ستصحبه؟ هل أعدُّ له الطعام، أم أنّه لن يستطيع تناوله؟»

«لا ضرورة لإعداد الطعام من أجله. فهو لا يأكل الطعام ولا يشرب الخمر مطلقًا. ولكنْ، لا بأس في إعداد مقعد لشخصٍ آخر».

«مجرَّد وجود روحيّ إذن؟»

«أعتقد ذلك». شعرت بوجود اختلاف بين الفكرة والرُّوح، لكنِّي لم أشأ إطالة أمد المكالمة، لذا لم أُبدِ أيّ اعتراض.

«مفهوم. سأعدّ مقعدًا من أجل الكومنداتور. إنَّه لمن دواعي سروري أن أدعو الكومنداتور الشهير إلى العشاء في بيتي المتواضع. وإنَّه ليحزنني ألَّا يستطيع تناول الطعام، سيكون هناك نبيذٌ لذيذٌ».

شكرتُه. فقال إلى اللِّقاء غدًا، وأغلق السمَّاعة.

لم يرنّ الجرس في تلك اللَّيلة. لا بدَّ أنَّ الكومنداتور أصيب بالإرهاق بسبب التجسُّد في فترة النهار (وقد أجابني على أكثر من سؤال)، أو ربَّما لأنَّه لم يرَ ضرورة في استدعائي إلى المرسم مرَّة ثانية. في أيِّ حال، نمتُ حتَّى الصباح نومًا عميقًا بلا أحلام.

وفي صباح اليوم التالي، دخلتُ المرسم. لم يظهر الكومنداتور أثناء عملي على اللَّوحة مطلقًا. لذا، تمكَّنتُ من التَّركيز في اللَّوح مدَّة ساعتَيْن من دون أن تقاطعني أيُّ فكرة، ومن دون أن أتذكَّر أيَّ شيء. صبغتُ سطح اللَّوحة بالألوان الزيتيَّة يومئذٍ، مثلما تُدهَنُ شريحة الخبز بطبقة سميكة من الزبدة.

استخدمتُ في البداية اللَّونَ الأحمر الفاقع، والأخضرَ ذا الكثافة الحادّة، والأسود الذي يميل إلى الرَّماديّ. كانتِ تلك هي الألوان التي يتطلَّبها شكل ذلك الرجل. استغرق الوصول إلى اللَّون الصَّحيح وقتًا طويلًا جدًّا. وقد وضعتُ أثناء ذلك أسطوانة أوبرا «دون جوڤاني»

لموتسارت. وشعرتُ وأنا أستمع إليها بأنَّ الكومنداتور سيظهر خلفي على جناح الشُّرعة، لكنَّه لم يفعل.

ومنذ صباح ذلك اليوم (الثلاثاء)، ظلَّ الكومنداتور ملتزمًا عميقَ صمته كالبومة القرناء في السقيفة. لكنِّي لم أشغلِ بالًا. فلا نفع في أن يقلق إنسانٌ من لحم ودم بشأن فكرة. للفكرة طُرُقها الخاصَّة، ولي حياتي الخاصَّة. إنَّما كنت مركِّزًا على إنجاز بورتريه «الرَّجل صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء». لم تغادر صورة تلك اللَّوحة من عقلي الباطن مطلقًا، حتَّى إن كنت لا أدخل المرسم، ولا أقف أمام اللَّوح.

كان الرَّاديو يرجِّح هطول أمطار غزيرة على إقليميْ كانتو وتوكاي في وقتٍ متأخِّرٍ من اللَّيل، وفقًا لنشرة الأرصاد الجويَّة. وها إنَّ الطقس المعتدل أخذ يتكدَّر تدريجيًّا من جهة الغرب. كما أنَّ السيول أدَّت إلى فيضان الأنهار في كيوشو، فاضطرَّ السكَّان في المناطق المنخفضة إلى إجلاء بيوتهم مرغمين. وقد حُذِّر السكَّان في المناطق المرتفعة من خطر الانهيارات الجبليَّة.

ففكَّرتُ: أهو عشاء في ليلةٍ شديدة الأمطار؟!

ثمَّ تذكَّرتُ أمر الحُفرة المظلمة، تلك الغرفة الحجريَّة المريبة التي أزحنا منشكي وأنا عنها الأحجار الثقيلة وكشفناها تحت نور الشمس. تخيَّلتُني جالسًا في قاعها حالِكِ الظلام، أستمع إلى قطرات المطر على غطائها. محبوسًا في الحُفرة، لا أستطيع منها هروبًا. أُبْعِدَ السلَّمُ من هناك، وأُقْفِلَ الغطاءُ الثقيل بإحكامٍ فوق رأسي. بدا أنَّ الناس جميعهم في هذا العالم قد نسوْا أنِّي هناك وحيد. وربَّما ظنُّوا أنَّني مُتُّ منذ زمن بعيد. لكنِّي كنتُ على قيد الحياة. ما أزال أتنفَّس على الرَّغم من وحدتي الشديدة. وصوت قطرات المطر يتناهى إلى مسمعي من فوق الغطاء.

لا أرى بصيص ضوء، ولا تتسرَّب أشعَّة الشمس إلى الداخل. ازداد الجدار الحجريّ الذي أسندتُ إليه ظهري رطوبةً وبردًا. والوقتُ منتصفُ اللَّيل. قد تغزوني أعدادٌ هائلة من الحشرات عمَّا قريب!

عندما ظهر ذلك المشهد في ذهني، بدأت أفقد القدرة على التَّنفُّس بشكل منتظم. فخرجتُ إلى الشرفة، واستندتُ إلى السياج، واستنشقتُ هواءً نقيًّا منعشًا ببطء من الأنف، ثمَّ زفرتُه ببطء أيضًا من الفم. وكرَّرت العمليَّة غير مرَّة، إلى أن استعدتُ التنفُّس الطبيعيّ. وحينها، كانت الغيومُ الثقيلةُ ذاتُ اللَّون الرصاصيّ تغطِّي السَّماء إبَّان الغروب. الأمطار في طريقها إلينا.

برز بيت منشكي الأبيض باهتًا على الجهة المقابلة من الوادي، فتذكَّرتُ أنَّني على موعدٍ لتناول العشاء تلك اللَّيلة هناك. على مائدةٍ يحيط بها ثلاثة أشخاص: أنا ومنشكي، والكومنداتور «الشهير».

همس الكومنداتور في أذني: «حذارِ، إنَّها دماءٌ حقيقيَّة»!

- 23 -
كلُّهم موجودون حقًّا في هذا العالم

ذات مرَّة، عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، وشقيقتي في ربيعها العاشر، انطلقنا خلال عطلة الصيف في رحلة إلى محافظة ياماناشي. كنَّا في زيارة لبيت خالي الذي يعمل هناك في مركز أبحاثٍ جامعيّ. وتلك هي الرِّحلة الأولى التي قمنا بها في طفولتنا بلا مرافقة من راشدين. كانت شقيقتي وقتذاك تنعم بصحَّة جيِّدة نسبيًّا، ما جعل والدانا يسمحان لنا بالسَّفر بمفردنا.

وكان خالي حينها شابًّا (أتمَّ عامه الثلاثين، حسبما أذكر) وأعزب (لم يتزوَّج حتَّى الآن). كان يجري أبحاثه في الجينات الوراثيَّة (وما يزال يدرسها). كان صموتًا، ومنعزلًا بعض الشيء عن العالم، لكنَّه يتمتَّع بشخصيَّة صريحة وواضحة. كان يقرأ بنهم، ولديْه معلومات واسعة عن جميع الأحياء. يحبّ التنزُّه في الجبال أكثر من أيِّ شيء آخر. لذا، بحث عن عملٍ في إحدى جامعات ياماناشي حتَّى عثر عليه. وكنتُ وشقيقتي متعلِّقيْن بخالنا هذا أيَّما تعلُّق.

ركبنا القطار السَّريع من محطَّة شينجوكو، متوجِّهًا إلى محطَّة ماتسوموتو، يحمل كلٌّ منَّا حقيبته خلف ظهره. نزلنا في محطَّة كوفو، وجاء الخال لاستقبالنا. كان طويل القامة، ما ساعدنا في العثور عليه بسهولة وسط الزِّحام. كان يستأجر بيتًا مستقلًّا صغيرًا وسط مدينة كوفو، مشارَكةً مع أحد أصدقائه، الذي كان حينذاك في رحلة خارج البلاد، فحصلنا على غرفة خاصَّة بنا. أمضينا في ذلك البيت أسبوعًا كاملًا. وكنَّا نتنزه كلَّ يوم تقريبًا مع خالي في الجبال القريبة. علَّمنا أسماء العديد من الأزهار والنباتات والحشرات. فبقيتْ ذكرى ذلك الصيف الرَّائع عالقةً في أذهاننا.

في أحد الأيَّام، توغَّلنا في النزهة قليلًا حتَّى بلغنا كهفًا في جبل فوجي. كهفٌ متوسِّط الحجم، وهو واحدٌ من كهوف كثيرة في ذاك الجبل. علَّمنا خالي كيف تنشأ تلك الكهوف في الجبال البركانيَّة. فكان الكهف مكوَّنًا من صخور البازلت، التي تمنع ارتداد الصَّدى في داخله. وبما أنَّ حرارته لا ترتفع كثيرًا، حتَّى في فصل الصيف، كان الناس في الماضي يحفظون الثلوج المقتطعة خلال الشتاء في الكهوف. حدَّثنا عن الفرق في التسمية بين أحجام الكهوف: فالجُحر، هو الذي لا يمكن للإنسان دخوله. باختصار، كان خالي يعرف كلَّ شيء.

أمَّا ذلك الكهف، فكان كهفًا حقيقيًّا، لكنَّ خالي لم يدخل معنا. قال إنَّه دخله مرَّات كثيرة، ناهيك بأنَّ سقف الكهف منخفضٌ جدًّا بالنِّسبة إلى قامته الطويلة، الأمر الذي يؤلم خصره من شدَّة الانحناء. «ادخلا وحدكما، ما من خطورة إطلاقًا. سأنتظركما في الخارج وأقرأ»، قال لنا. أعطى المراقب كلاً منَّا مصباحًا يدويًّا، وألبسنا خوذتَيْن بلاستيكيَّتَيْن صفراوَيْن. ورغم وجود مصابيح معلَّقة في سقف الكهف،

فإنَّها كانت خافتة. وكان السقف ينخفض كلَّما تعمَّقنا. ما جعلني أفهم إعراض خالي عن الدُّخول.

تقدَّمنا أنا وشقيقتي في العمق، والمصباح بيد كلٍّ منَّا. كان الكهف باردًا قليلًا، مع أنَّنا في ذروة الصيف، والحرارة في الخارج قد بلغت اثنتَيْن وثلاثين درجة، لكنَّها في الداخل لم تجتز العشر درجات. لبس كلٌّ منَّا معطفًا مضادًّا للبرد، أحضرناهما معنا بناء على نصيحة خالي. كانت شقيقتي تُمسك يدي بحزم. ولم أدرِ أكانت تطلب الحماية أم تحاول حمايتي (ربَّما كانت لا تريد الابتعاد عنِّي ليس إلَّا). ظلَّت يدها الصَّغيرة الدَّافئة في يدي طوال فترة وجودنا في الكهف. لم يكن هناك زوَّارٌ غيرنا سوى اثنين من كبار السنّ. لكنَّهما خرجا على الفور، فأصبحنا بمفردنا.

شقيقتي اسمها كوميتشي، لكنَّ أفراد العائلة ينادونها «كومي». أمَّا أصدقاؤها، فكان منهم مَن يدعوها «ميتشي» وآخرون «ميتشان». لم يكن أحد يناديها باسمها الرسميّ «كوميتشي» على حدّ علمي. كانت صغيرة الجسم نحيفة القوام. وشعرها أسود، تقصُّه من فوق رقبتها. عيناها كبيرتان (والمقلتان أيضًا) مقارنةً بحجم وجهها، وربَّما بسبب هذا، كانت تبدو كأنَّها جنِّيَّة صغيرة. وفي ذلك اليوم، كانت ترتدي قميصًا أبيض قصير الكمَّيْن، وبنطلون جينز أزرق بلونٍ باهت، وتنتعل حذاءً رياضيًّا ورديّ اللَّون.

بعد أن تقدَّمنا في الداخل، اكتشفتْ أختي جُحْرًا جانبيًّا صغيرًا في موقعٍ بعيدٍ نسبيًّا عن مسار الزيارة. له مدخلٌ مستترٌ وراء ظلّ الصخور، كأنَّه مدخلٌ سرِّيّ. ويبدو أنَّ موقعه جذب اهتمامها، فقالت لي: «ألا ترى أنَّه يشبه جُحْر أليس؟». كانت تحبّ رواية لويس كارول «أليس في بلاد

العجائب» حبًّا شديدًا. ولا أدري كم من مرَّة اضطررتُ إلى قراءة تلك الرواية من أجلها. مائة مرَّة على الأقلّ. ورغم أنَّها كانت تجيد القراءة منذ صغرها، فإنَّها لطالما فضَّلت أن أقرأ الكتاب على مسامعها بصوتٍ عالٍ. وكانت في كلِّ مرَّة تُذهَل بالقصَّة مع أنَّها حفظتها. لاسيَّما الجزء الأحبّ إلى قلبها «شارع الإستاكوزا»، والذي ما زلت أحفظه حتَّى الآن.

«ولكن، ليس هناك أرنب»، قلت لها.

«سألقي نظرة»، ردَّت.

«كوني حذرة!»

كان الجُحر صغيرًا ضيِّقًا (كما عرَّفه خالنا تقريبًا)، لكنَّها استطاعت بجسدها الصَّغير أن تنسلّ فيه بلا مشقَّة. أدخلتْ جذعَها، وتبقَّت ركبتاها في الخارج. وبدا أنَّها تضيء الجُحر بمصباحها. ثمَّ زحفت ببطء نحو الخلف، وخرجت منه.

أبلغتني في الحال قائلة: «إنَّه جُحر عميقٌ جدًّا. وينحدر بشدَّة إلى أسفل. مثل جُحر أرانب أليس. أريد أن أرى نهايته».

«كلَّا. لا تفعلي. إنَّه خطيرٌ جدًّا».

«لا تقلق. فأنا صغيرة الحجم وسأمرّ فيه بسهولة».

وبقولها هذا، نزعت المعطف والخوذة عنها وأعطتهما لي، وبقيتْ بالقميص فقط. وقبل أن أنطق بكلمة اعتراض، انسلَّت في الجُحر الجانبيّ بسلاسة والمصباح في يدها. واختفت بلمح البصر.

مرَّ الوقت، ولمَّا تخرَّج شقيقتي، ولم يأتني منها أيُّ صوت.

«كومي! كومي! هل أنتِ بخير؟» ـ ناديتُها متوجِّهًا إلى الفتحة.

لم تردّ. ابتلعت العتمة صوتي، فما سمعتُ صدى. بدأ القلق ينهشني، شيئًا فشيئًا. لعلّها علقت في الداخل وما عادت تستطيع التقدُّم ولا التراجع. أو ربّما تعرّضت لنوبةٍ أفقدتها الوعي. لن أتمكّن من إنقاذها والحال هذه. صدّعت الاحتمالاتُ المأسويّة رأسي، واشتدّ الظلام حولي.

ماذا أقول لوالديَّ إن اختفت شقيقتي هناك ولم تَعُدْ إلى عالمنا؟ هل عليَّ استدعاء خالي الذي ينتظر في الخارج؟ أم أنّه لن يكون بوسعه سوى الانتظار مثلي؟ انحنيتُ وألقيتُ نظرة إلى ذلك الجُحر. لكنَّ ضوء مصباحي لم يصل حتّى العمق. فالفتحة ضيّقة والظلام دامس.

ناديتُ عليها ثانية: «كومي!»، فلم يأتني ردّ. رفعتُ صوتي: «كومي!» بلا جدوى. أحسستُ برعدة برد في النّخاع وكأنَّ جسمي تجمّد مثل الثلج. ربّما فقدتُ شقيقتي هنا إلى الأبد، في عالمٍ تعيش فيه السلحفاة البحريّة المزيّفة والقطّ شيشاير وملكة الكوتشينة. عالمٌ لا يسير وفق منطقنا. ما كان ينبغي لنا المجيء إلى هذا المكان!

ثمّ خرجت في النهاية. لم تزحف بالوضعيّة التي دخلت بها، إنّما خرجت برأسها، فبان شعرها الأسود أوّلًا، ثمّ كتفاها وذراعاها، فخصرها، فحذاؤها الورديّ. نهضتْ بقامةٍ منتصبة، من دون أن تقول شيئًا. وبعد أن استنشقت الهواء ببطء، نفضت بيدَيْها الغبار العالق على بنطلونها الجينز.

كاد قلبي ينفطر. رفعتُ يدي وأصلحتُ شعرها المشعّث. لم أكن أرى جيّدًا تحت إضاءة الكهف الخافتة، لكنَّ قميصها الأبيض تلطّخ بالطّين وأشياء أخرى. ألبستها المعطف وسلّمتُها الخوذة. وقلتُ لها وأنا أربّت على ظهرها: «ظننت أنّك لن تعودي».

«هل قلقتَ بشأني؟»

«جدًّا».

شدَّت على يدي ثانيةً، وقالت بصوت هائج: «كلَّما كنت أتقدَّم في الجُحر الضيِّق، انخفض السقف حتَّى أنزلني إلى ما يُشبه غرفة صغيرة. غرفة دائريَّة تمامًا مثل الكرة. السقف مقوَّس والجدران والأرضيَّة كلُّها مقوَّسة. مكانٌ هادئ لدرجة أنَّك لن تجد ما يضاهي هدوءه في أيِّ مكان من هذا العالم. تشعر أنَّك في قاعِ بحرٍ عميق للغاية. عندما أطفأتُ المصباح، غرقتُ في ظلام شديد. لَكنِّي لم أشعر بخوفٍ أو وحدة. ثمَّ إنَّها غرفة خاصَّة بي وحدي، لا تسمح لغيري بالدخول. غرفة من أجلي أنا. حتَّى أنت يا أخي لا تستطيع الدخول».

«هل لأنَّ حجمي كبير؟»

أومأتْ، وقالتْ: «أجل. فحجمُك لا يساعدك على الدخول. إلَّا أنَّ الشيء المميَّز فيها هو الظلام الشديد. ظلامٌ غليظٌ تكاد تمسكه بيديْك. وفي البقاء وحيدًا، تشعر أنَّ جسدك يتفكَّك تدريجيًّا حتَّى يتلاشى. لكنَّك لا تستطيع أن ترى ذلك من فرط الظلام. ولا تدري إن كنتَ ما تزال موجودًا أم لا. أمَّا أنا، فحتَّى لو تلاشى جسدي كلِّيًّا، سأبقى هناك، مثل ضحكة القطِّ شيشاير التي تبقى بعد اختفائه. أليس غريبًا؟ لكنَّك، في الداخل، لا تشعر بتلك الغرابة. وددتُ البقاء هناك إلى الأبد، لكنِّي فكَّرت أنَّك ستقلق بشأني، فخرجتُ».

«فلنخرج من هنا»، قلت. إذ كانت ستظل تتكلَّم إلى ما لا نهاية من شدَّة الإثارة، وعليَّ أن أوقفها عند حدٍّ ما ـ «أشعر أنَّني سأختنق إذا بقيت هنا وقتًا أطول».

«هل أنت بخير؟» سألتني بنبرة قلق.

«بخير. لكنّي أريد الخروج من هنا».

توجّهنا إلى البوّابة، ويدي في يدها.

قالت وهي تمشي بصوت خفيض، كأنّها لا تريد أن يسمعها أحد، وفي الواقع لم يكن ثمّة أحد غيرنا: «أتعرف يا أخي أنّ أليس موجودة في الحقيقة؟ ليس كذبًا، إنّها تعيش في الواقع. هي والأرنب مارس وحيوان الفظّ، والقطّ شيشاير، وعساكر الكوتشينة، جميعهم موجودون في هذا العالم حقًّا».

«ربّما»، قلت.

خرجنا من الكهف، وعُدنا إلى العالم الحقيقيّ المضاء. كان وقت الظهيرة، وفي السماء غيوم خفيفة، لكنّي أذكر أنّ الشمس كانت ساطعة وبرّاقة. اشتدّ صرير الجنادب في الأجواء، كأنّه زَعيق حادّ. وكان خالي بمفرده جالسًا على مقعدٍ قرب البوّابة، يقرأ بنهم. فابتسم ابتسامة واسعة إذ رآنا، ونهض واقفًا.

توفّيت شقيقتي بعد عامين من ذلك اليوم. وُضِعَتْ في تابوتٍ صغير، وأُحْرِقَتْ جثّتها. كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، وهي في الثانية عشرة. وفي أثناء حرق الجثّة، ابتعدتُ عن الآخرين لأجلس وحيدًا على مقعدٍ في الداخليّة لمحرقة الجثث. تذكّرتُ ما حدث في ذلك الكهف. وتذكّرتُ نفاد صبري وقلقي بانتظار خروجها من غور الجُحر الجانبيّ، وإحساس البرد الذي نخر عظامي، والظلام الثقيل الذي أحاط بي. تذكّرتُ كيف ظهر شعرها الأسود في البدء، ثمّ كتفاها. تذكّرتُ الأشياء المجهولة التي عَلِقت على قميصها الأبيض.

وقلت لنفسي، آنذاك، إنَّ كومي قد رحلت حقًّا في الجُحْر قبل عامَيْن من إعلان طبيب المستشفى وفاتها رسميًّا. كنت متأكِّدًا من ذلك. لقد عدتُ إلى طوكيو بالقطار مصطحبًا شقيقتي، ممسكًا يدها بقوَّة، ولم أنتبه إلى أنَّها لم تَعُد تنتمي إلى هذا العالم. ثمَّ أمضينا عامَيْن جنبًا إلى جنب، إنَّما مجرَّد فترة قصيرة سرعان ما انقضت. حتَّى إذا خرج الموت زاحفًا من الجُحر بعدئذٍ، واستردّ روحها. وكأنَّ له الحقّ في روحها، مثلما يستردّ أحدُهم غرضًا من ملكيَّاته بعد أن انقضت مهلة الإعارة المحدَّدة.

في أيِّ حال، صحيحٌ ما أسمعتني إيَّاه كومي همسًا في الكهف، كما لو أنَّها تسرد رؤية عجيبة. وما زلت أصدِّق كلامها وأنا في السادسة والثلاثين. أليس، وأرنب مارس، وحيوان الفظّ، والقطّ شيشاير، كلُّهم موجودون في هذا العالم حقًّا. والكومنداتور بطبيعة الحال.

خابت توقُّعات الأرصاد الجويَّة، ولم تهطل أمطارٌ غزيرة. بدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا يكاد لا يُرى، منذ الخامسة وحتَّى صباح اليوم التالي. وفي تمام السادسة، صعدتْ سيَّارة صالون سوداء فخمة بهدوء على المنحدر. خُيِّلَتْ إليَّ عربة جنازات، لكنَّها كانت السيَّارة التي أرسلها منشكي لتحملني إليه. من طِراز نيسان إنفينيتي. نزل منها السَّائق الذي يرتدي بدلةً رسميَّة وقبَّعة، ويحمل مظلَّة بيده، وتقدَّم ليقرع الجرس. وعندما فتحت له، نزع قبَّعته وتأكَّد من اسمي. فخرجتُ، وركبتُ السيَّارة. ورفضتُ استخدام المظلَّة، لم يكن المطر يستحقّ استخدام مظلَّة. فتح لي السَّائق البابَ الخلفيّ، ثمَّ أغلقه بعد أن ركبتُ. فصدر صوتٌ ثقيلٌ عميق (يختلف صداه قليلًا عن سيَّارة الجاغوار التي يملكها منشكي). كنتُ أرتدي معطفًا رماديًّا بخطوط متعرِّجة، فوق سترة

سوداء خفيفة برقبة دائريَّة، وبنطلونًا من الصوف الرّماديّ الغامق، وحذاءً مصنوعًا من جلد سَوِيد الناعم. ملابسُ هي الأقرب إلى الرسميّ من بين كلِّ ثيابي. لم تكن متَّسخةً بالألوان الزيتيَّة على الأقلّ.

لم يظهر الكومنداتور عند وصول السيَّارة. ولم أسمع صوته. لذا، لم أتأكَّد إن كان ما زال يذكر أنَّه مدعوٌّ عند منشكي أم لا. يُفترَض أنَّه يذكر ذلك وما من احتمال لأن ينسى، إذ كان يتوق شوقًا إلى تلك الدَّعوة.

لكنَّني انشغلتُ بشأنه عبثًا! فما إن انطلقت السيَّارة، حتَّى انتبهتُ أنَّه جالسٌ بجواري على المقعد. مزاجه رائق، بزيِّه الأبيض المعتاد (لا يحتوي على أيِّ بقعة، كأنَّه عاد من التَّنظيف للتوّ)، والسَّيف إيَّاه ذي الغمد المرصَّع بالجواهر. وما زالت قامته على حالها، قرابة الستّين سنتيمترًا كالعادة. كانت ثيابه البيضاء تتلألأ بشدَّة على المقعد الجلديّ الأسود لسيَّارة إنفينيتي. عاقد الذراعَيْن، ينظر أمامه بتركيز.

حذَّرني قائلًا: «لا تتحدَّثوا إليَّ بتاتًا. فلا أحد غيركم يستطيع أن يراني. أنتم تسمعون صوتي دونًا عن سواكم. فإذا تحدَّثتم مع شيءٍ خفيّ، سيظنُّون أنَّكم مجانين. كلامي واضح؟ إن فهمتموه، فيكفي أن تومئوا إيماءةً صغيرة».

فأومأتُ إيماءة صغيرةً، ردَّ بمثلها الكومنداتور. وظلَّ عاقدًا ذراعَيْه، ولم ينطق بعدها بكلمة.

كان الظلام قد هبط على المكان المحيط بالبيت. وعادت الغربان منذ وقت طويل إلى أوكارها في الجبال. نزلت سيَّارة الإنفينيتي ببطء على المنحدر في الطريق إلى الوادي، ثمَّ باشرت صعود طريق منتصبٍ

جدًّا. لم تكن المسافة بعيدة (فالبيت على الجهة المقابلة من الوادي)، لكنَّ الطرقات ضيّقة نسبيًّا، كما أنَّها كثيرة الانحناءات. لم تكن لتسعد سائق سيَّارة صالون، بقدر ما كانت تناسب سيَّارة دفعٍ رباعيّ. إلَّا أنَّ السَّائق حافظ على تعبير وجهه، وما فَتِئَ يحرِّك المقود بأعصابٍ باردة، حتَّى وصلنا إلى بيت منشكي بسلامة.

كان القصر مطوَّقًا بجدارٍ أبيض ضخم، وعلى المدخل الرَّئيس بوَّابةٌ تبدو في غاية المتانة، صُنعت من مصراعَيْن خشبيَّيْن كبيرَيْن مطليَّيْن بلون بنِّيّ غامق. حتَّى تخالها بوَّابةَ قلعةٍ من العصور الوسطى، كالتي تظهر في أفلام أكيرا كوروساوا. وربَّما يليق بها لو غُرِزَتْ بعددٍ من السِّهام! لا يُرى شيءٌ ممَّا وراءها من الخارج. ثمَّة لوحةٌ بجوارها كُتِبَ عليها رقمُ البيت، وما من لوحة تُبرِز اسم مالكه. لا ضرورة لذلك. فمَن يصعد الجبل إلى هذا المكان بالتَّحديد يعلم مسبقًا أنَّ هذا هو بيت منشكي. هنالك عددٌ من مصابيح الزئبق تضيء مدار البوَّابة إضاءة ساطعة. نزل السَّائق وضغط على الجرس، وتحدَّث قليلًا مع أحدهم عبر الهاتف الداخليّ؛ ثمَّ عاد إلى مقعد القيادة، وانتظر أن تُفتَح البوَّابة عن طريق جهاز التَّحكُّم عن بعد. هناك كاميرتان متحرِّكتان على جانبَي البوَّابة للمراقبة.

بعد أن فُتِحَ المصراعان ببطء نحو الداخل، اجتزنا البوَّابة، وظلَّ السَّائق يقودها عبر دربٍ متعرِّج ومنحدر بعض الشيء. سمعتُ خلفي صوت إغلاق البوَّابة. كان صوتًا ثقيلًا كئيبًا، كأنَّه يقول: لم يَعُد بإمكانك العودة إلى عالمك! رأيتُ أشجار صنوبر مصطفَّة على الجانبَيْن، ومرتَّبة

بعناية فائقة. أغصانها مهذَّبة على طريقة البونساي[1]، ومُعَالَجة كي لا تسفك بها الأوبئة. وهناك على الجانبَيْن سياجٌ من شجر الأزالية المتناسقة، وخلفها شجر الكرياء اليابانيَّة. كما خُصِّصَ جزءٌ من السيَّاج بالكامل لأزهار الكاميليا. وعلى الرَّغم من أنَّ القصر شُيِّدَ حديثًا، إلَّا أنَّ الأشجار المحيطة به بدت كأنَّها موجودة من قبل. وكانت جميعها مضاءة بمصابيح جميلة.

انتهى الدرب عند باحةٍ ممهَّدة بالأسفلت. أوقف السَّائق السيَّارة فيها، ونزل مسرعًا ليفتح لي الباب. وعندما نظرتُ إلى جواري، كان الكومنداتور قد اختفى، لكنَّني لم أندهش ولم أقلق. بتُّ أفهم سلوكه المتفرِّد جيِّدًا.

ابتعدت أضواء الإنفينيتي الخلفيَّة في الظلام، وبقيتُ وحيدًا. نظرتُ إلى واجهة البيت من مسافة قريبة، فبدا لي أصغر حجمًا ممَّا توقَّعت. إذ إنَّه كان يبدو مبنى رهيبًا عند تأمُّله من الجهة الأخرى من الوادي. اختلف الانطباع باختلاف زاوية الرؤية. فالبوَّابة تقع في أعلى نقطة من الجبل، ثمَّ تميل الأرض من بعدها إلى أسفل بمستوًى شُيِّدَ عليه البيت ببراعة عالية.

على الجانبَيْن من مدخل البيت تمثالان حجريَّان قديمان، على قاعدتَيْن حجريَّتَيْن، يشبهان تماثيل أسُود الكومainو المتمركزة على جوانب بوَّابات معابد الشِنتو. وقد يكونان من تماثيل الكومainو الحقيقيَّة، وجِيء بهما من معبدٍ ما. ثمَّة مساحة مزروعة بأشجار الأزالية

---

(1) البونساي: فنّ تشجير يابانيّ، يعمد إلى زراعة شجيرات داخل الأصيص بحيث تكون صغيرة الحجم جدًا، ولكنَّها لها صفات الشجرة الكبيرة نفسها وشكلها في منظر رائع خلَّاب. المترجم

أمام المدخل أيضًا. لا بدَّ أنَّ تلك الحديقة تزدهر بألوان الورود في شهر مايو.

مشيتُ ببطء نحو المدخل، فانفتح الباب من الداخل، وظهر وجه منشكي. كان يرتدي قميصًا أبيضَ بأزرار أسفل الياقة، وسترة صوفيَّة خفيفة بالأخضر الفاتح، وبنطلونًا من القماش رمليّ اللَّون. كان شعره الوفير ناصع البياض مُمشَّطًا بعنايةٍ وتنسيقٍ طبيعيٍّ كالعادة. انتابني شعورٌ غريب وأنا أرى منشكي يستقبلني في بيته! فحتى آنذاك، كنتُ دائمًا أراه يزورني في بيتي بسيَّارته الجاغوار هائلة الصدى.

دعاني إلى الدخول، ثمَّ أغلق الباب. كان المدخل عبارة عن مساحة مربَّعة وواسعة وعالية السقف. قد تتَّسع لملعب إسكواش بالكامل. مضاءةٌ بالمصابيح الجداريَّة غير المباشرة، بإنارة مناسبة بلا زيادة أو نقصان. وفي الوسط، طاولةٌ خشبيَّةٌ كبيرةٌ ثُمانيَّةُ الأضلاع، تعتليها مزهريَّةٌ عملاقة، تعطي انطباعًا بأنَّها من عصر أمبراطوريَّة مينغ في الصين، تفيض بأزهار يانعة ومنتفخة ذات ثلاثة ألوان (لا أعرف أسماءها، لستُ على اطِّلاع بأنواع الأزهار). لعلَّه أعدَّها لعشاء اللَّيلة خصوصًا. تخيَّلتُ أنَّ المبلغ الذي دفعه لبائع الأزهار قد يكفي طالبًا جامعيًّا متواضعًا للعيش مدَّة شهر كامل، أو سيكفيني شهرًا كاملًا لو كنت ما أزال طالبًا جامعيًّا. لم يكن للمدخل نوافذ، سوى نافذة عُلْويَّة في السَّقف لإنارة المكان فقط. والأرضيَّة مصنوعة من الرّخام المصقول جيِّدًا.

ثلاث عتبات عريضة تفضي نزولًا إلى غرفة المعيشة. غرفة واسعة للغاية. قد لا تكفي لملعب كرة قدم، لكنَّها كافية لملعب تنس. كان الحائط من جهة جنوب شرق مصنوعًا كلّه من الزجاج الملوّن، وخارجه شرفة فسيحة جدًّا. وفي تلك الساعة من اللَّيل، لم أفهم إن كان بالإمكان رؤية

المحيط من هناك، لكنَّني أرجِّح ذلك. وعند الحائط المقابل، مدفأةٌ كبيرة، بلا نارٍ موقَدة، فالطقس ليس باردًا بعد. وكان الحطب مرتَّبًا إلى جانبها، بحيث يمكن إشعال النار في أيِّ وقت. لا أعلم من الذي رتَّبه على ذلك النَّسق الراقي الذي يرتقي إلى وصفه بالعمل الفنِّيّ. وعلى رفّ المدفأة، يصطفّ عددٌ من التماثيل الصَّغيرة المصنوعة من خزف المايسن.

الأرضيَّة من الرخام، لكنَّها مغطَّاة بالسجَّاد الفارسيّ العتيق، في منتهى دقَّة التفاصيل وتوزيع الألوان، كأنَّها أعمالٌ فنِّيَّة أكثر من كونها للاستخدام، حتَّى إنَّني تردَّدتُ بالدَّوْس عليها. هناك عدد من الطاولات المنخفضة، كما أنَّ المكان يمتلئ بالمزهريَّات التي تحتوي على أزهار يانعة وحيَّة. وكلّ مزهريَّة بدت تُحفة فنِّيَّة عريقة وراقية، وقد كلَّفت أموالًا طائلة. كنت آمل حقًّا ألَّا يقع زلزال كبير!

السقف عالٍ والإضاءة معتدلة. عدد من مصابيح السقف، ومصابيح عموديَّة، ومصباح للقراءة على إحدى الطاولات، هذا كلّ شيء. وفي آخر الغرفة، ثمَّة بيانو كبير أسود. تلك هي المرَّة الأولى التي أرى غرفة يبدو فيها بيانو شتاينواي، المخصَّص للحفلات الموسيقيَّة، صغيرًا. وفوق البيانو، رزمةٌ من المدوَّنات الموسيقيَّة مع الميترونوم. ربَّما كان منشكي هو الذي يعزف عليه. أو لعلَّه كان يدعو ماوريتسيو پوليني إلى العشاء من وقت لآخر.

إلَّا أنَّ نظرة شاملة على الأثاث توحي بأنَّه خضع لتحجيمٍ معيَّن، الأمر الذي أراحني نسبيًّا. لم أعثر على شيءٍ زائدٍ عن الحاجة. ومع ذلك، لا تبدو الصالة خالية. كانت مطمْئنة رغم اتِّساعها. لها دفئُها الخاصّ. عُلِّقَتْ على الجدران قرابة ستّ لوحات صغيرة بذوقٍ رفيع. بدت إحداها لوحة أصليَّة من أعمال فرناند ليجيه. وقد أكون مخطئًا أيضًا.

دعاني منشكي إلى الجلوس على أريكة كبيرة من الجلد البنّيّ، وجلس على الكرسيّ المقابل. كانت الأريكة مريحة جدًّا، لا صلبة ولا ليّنة. صُمّمتْ بحيث تحتوي الجسدَ الجالس عليها بتلقائيّة، أيًّا كان شكله وحجمه. لا داعي للاستغراب؛ منشكي، والحال هذه، لم يكن ليضع في بيته أريكةً غير مريحة على الإطلاق.

وما إن جلسنا، ظهر رجلٌ كأنّه كان بانتظار تلك اللّحظة. شابٌّ وسيمٌ لدرجة تدعو إلى الدّهشة. لم يكن فارع الطول، إنّما نحيفٌ وأنيق. أسمر البشرة، وشعره الكثيف مربوطٌ كذيل الحصان. يليق به بنطلون ركوب الأمواج، كان يناسبه أن يتأبّط لوح امتطاء الأمواج، ويمشي به على شاطئ البحر. لكنّه يومها، كان بقميصٍ أبيض نظيف، وربطة عنق فراشة سوداء. وكان قادمًا بابتسامةٍ تريح القلب.

«هل ترغب بكوكتيل يا سيّدي؟ سألني الشاب.

«تفضّلْ، اطلب ما تشاء»، قال لي منشكي.

فكّرتُ برهةً، ثمّ قلت: «أرغب بمشروب البلالايكا».

لم أكن أريد ذلك المشروب حقًّا، لكنّي أردت أن أتأكّد من أنّ الشابّ قادرٌ حقًّا على تحضير أيّ نوع من الكوكتيل أم لا.

«وكأسٌ لي أيضًا»، قال منشكي.

انصرف الشابّ صامتًا بابتسامته المريحة نفسها.

نظرتُ بجواري، فلم أجد الكومنداتور. يُفترض أنّه في مكانٍ ما داخل هذا البيت. فقد كان يجلس بجواري في السيّارة حتّى وصلنا.

«أهناك شيء؟» سألني منشكي. ويبدو أنّه لاحظ تحرُّك عينيّ، فتابعهما.

«لا، لا شيء على الإطلاق. مجرَّد انبهار بهذا البيت الفخم».

فقال، وعلى وجهه ابتسامة: «ألا تعتقد أنَّه فخمٌ إلى حدٍّ مبالغ فيه؟»

«بل على العكس. أراه معتدلًا جدًّا، أكثر ممَّا كنتُ أتوقَّع. لأنَّه من البعيد يبدو شديد البذخ، إن سمحتَ لي بهذه الملاحظة. مثل سفينة ضخمة تعبر المحيطات. لكنِّي عندما دخلته، فوجئتُ بأنَّه هادئٌ لدرجة تدعو إلى الدَّهشة. اختلف الانطباع تمامًا».

أومأ منشكي مستحسنًا رأيي، وقال: «لا شيء يسعدني أكثر من سماع هذا. فالوصول إلى هذه النتيجة لم يكن سهلًا البتَّة. شاءت الظروف أن أشتري هذا البيت بعد أن تمَّ تشييده، وكان في الواقع فخمًا للغاية. لا بل فخمٌ إلى حدٍّ شنيع. بناه صاحب سلسلة متاجر ضخمة، فكان ذوقه ذوقَ من شبعٍ بعد جوع، لا يتوافق مع ذوقي إطلاقًا. لذا، قرَّرت بعد شرائه أن أُجري عليه تعديلات، رغم كلّ ما كلَّفني من مال ووقت».

تنهَّد بعمق وأغمض عينَيْه كأنَّه يتذكَّر ما حدث وقتها. ويبدو أنَّ ذوق صاحب البيت سابقًا لم يكن يروقه فعلًا.

«ألم يكن من الأجدى أن تبني بيتًا على ذوقك؟ منذ البداية؟» ـ سألته.

فضحك، مبرزًا أسنانًا بيضاء من فُتحة شفتَيْه الصَّغيرة، وقال: «معك حقّ. كان ذلك أجدى وأذكى بكثير. ولكنْ، لديَّ ظروف معيَّنة، تجعلني لا أستغني عن هذا البيت».

انتظرتُ تتمَّة الحديث. ولم يكن للحديث تتمَّة.

ثمَّ سألني: «ألم يأتِ الكومنداتور معك اللَّيلة؟»

«أعتقد أنَّه سيأتي فيما بعد. كان معي حتَّى مدخل البيت، ثمَّ اختفى فجأة. لا بدَّ أنَّه يتجوَّل في البيت متعجِّبًا من جمال أثاثه. آمل ألّا يزعجك ذلك؟»

بسط يدَيْه الاثنتَيْن، وقال: «لا، بالطبع. لا إزعاج إطلاقًا. فليرَ ما يشاء!»

عاد الشاب، حاملًا آنية فضِّيَّة فيها كأسان من الكوكتيل. كانت الكأسان من بلّور مقطوع بدقَّة متناهية. ماركة باكارا على الأرجح. تلمعان برَّاقتَيْن من تأثير إضاءة المصابيح العموديَّة. وبجوارهما، أطباقٌ خزفيَّة من ماركة كويماري مُلئت بالكاجو وأنواع من الأجبان المقطَّعة. كما فيها مجموعة من السكاكين والشوكات ومناشف صغيرة من الكتَّان، نُقِشَتْ عليها الأحرف الأولى. كانت العناية الفائقة واضحة.

أخذنا أنا ومنشكي الكأسَيْن، وتبادلنا النخب. هنَّأني باكتمال البورتريه، وشكرته. ثمَّ وضعتُ حافَّة الكأس على فمي بهدوء. يُصنَع كوكتيل البالالايكا باستخدام ثلاثة مقادير متساوية من كلٍّ من الڤودكا والكوينترو وعصير اللَّيمون. تركيبته في منتهى البساطة، لكنَّه لا يكون لذيذًا ما لم يكن حادّ البرودة كالقطب الشماليّ. فإذا حضَّره شخصٌ مبتدئ، أصبح فاترًا مثل الماء. لكنَّ البلالايكا التي كنتُ أشربه كان لذيذًا إلى حدِّ الدَّهشة. أقرب إلى الكمال.

«كوكتيل لذيذ»، قلتُ منبهرًا.

«الشابّ ماهرٌ حقًّا»، أقرَّ منشكي.

وكان رأيي كذلك أيضًا. لم يكن منشكي ليوظِّف ساقيًا غير ماهر، يجهل إعداد الكوينترو وتجميع كؤوس البلّوْر الفاخر وأطباق كويماري الخزفيَّة.

تبادلنا الحديث ونحن نشرب الكوكتيل ونأكل الكاجو. تحدَّثتُ أكثر منه، عن الرَّسم. سألني عن اللَّوحة التي كنتُ أرسمها. فقلتُ له إنَّني أرسم بورتريهًا لرجل لا أعرف اسمه ولا صفته، سوى أنَّني قابلته صدفةً في الماضي في مدينة بعيدة.

«بورتريه؟» قال متعجِّبًا.

«بورتريه، ليس بالمعنى التِّجاريّ، بل إنَّني أُعْمِلُ خيالي بحُرِّيَّة. من الممكن وصفه بالبورتريه التَّجريديّ. بأيِّ حال، البورتريه هو الفكرة الرَّئيسيَّة للّوحة؛ أو القاعدة الأساسيَّة لها، إن صحَّ التَّعبير».

«مثلما رسمتَ البورتريه الخاصّ بي؟»

«بالضبط. ولكنْ، هذه المرَّة، ليس بناءً على طلبٍ من أحد. بل إنَّني أُبدع عملًا فنّيًّا ملء إرادتي».

ظلَّ يفكِّر طويلًا في كلامي، ثمَّ قال: «هل تقصد أنَّ رسمك للوحتي الشَّخصيَّة حفَّز لديك إلهامًا إبداعيًّا؟»

«هذا ما حدث على الأرجح. ما زال الأمر مجرَّد نارٍ على وشك الاشتعال».

رشف منشكي من الكوكتيل من دون أن يصدر صوتًا. فرأيتُ بريقًا يشبه الرضا في أعماق عينَيْه.

«يُسعدني جدًّا أنَّني كنتُ مفيدًا لك بشكلٍ من الأشكال. هلَّا أريتني اللَّوحة عند اكتمالها لو سمحت؟»

«إن حازت اللَّوحة اقتناعي، فسأريك إيَّاها طبعًا».

نظرتُ إلى البيانو القابع في آخر الغرفة، وقلتُ: «أتعزف البيانو يا سيِّد منشكي؟ يبدو بيانو عظيمًا للغاية».

أومأ قائلًا: «لست ماهرًا، لكنّي أستطيع العزف على نحوٍ ما. لقد تعلّمتُ البيانو في طفولتي على يد معلّم محترف، أثناء المرحلة الابتدائيّة، مدّة خمس أو ستّ سنوات. ثمّ أقلعتُ بسبب الانشغال في الدراسة. كان ينبغي ألّا أنقطع، لكنّ دروس البيانو أتعبتني قليلًا. لا أستطيع تحريك أصابعي كما يحلو لي، لكنّي أقرأ المدوّنة الموسيقيّة جيّدًا. أعزف بعض المقطوعات لنفسي فقط كي أعدّل مزاجي. ليست بمستوى يمكن إسماعها للآخرين عمومًا، ثمّ إنّي لا ألمس لوحة المفاتيح إذا كان هناك أحدٌ معي في البيت».

سألتُ السؤال الذي خطر ببالي منذ فترة طويلة: «ألم تشعر بأنّ البيت كبير جدًّا على مَن يسكنه وحيدًا؟»

فأجاب فورًا: «الأمر ليس كذلك مطلقًا. فأنا في الأصل أفضّل البقاء وحيدًا. فكِّرْ مثلًا في أمر قشرة المخّ، لقد أُعطي البشر قشرة مخّيّة ذات قدرات عالية ودقيقة جدًّا. لكنّنا في الواقع لا نستخدم منها في حياتنا اليوميّة أكثر من عشرة في المائة. فمع أنّ السّماء أعطتنا ذلك العضو الرّائع ذا القدرات العالية جدًّا، فإنّنا، للأسف، لا نستخدمه استخدامًا كاملًا. وبناء عليه، فإنّ عائلة مكوّنة من أربعة أفراد، تُعطَى بيتًا فاخرًا مهول الحجم، لكنّها لا تستخدم منه إلّا غرفة واحدة بمساحة سبعة أمتار مربّعة، وتترك بقيّة الغرف بلا استخدام. وإذا قارنّا ذلك بمعيشتي وحيدًا، فلن يكون الأمر غريبًا مطلقًا».

«الآن وقد لفتَّ انتباهي إلى هذا، فربّما أجدك محقًّا»، اعترفتُ بأهمّيّة المقارنة.

دحرج منشكي حبّة الكاجو في كفه، وقال: «ولكنْ، إن فُقِدَتْ قدرات المخّ التي تبدو للوهلة الأولى زائدة عن الحاجة، لما استطعنا

التَّفكير بطريقة تجريديَّة، وما استطعنا دخول عالم الميتافيزيقا. حتَّى إذا اقتصرنا على استخدام جزءٍ واحدٍ، فإنَّ للقشرة المخِّيَّة مقدرةً على ذلك. تُرى، ماذا لو استخدمنا الأجزاء المتبقِّية كلَّها؟ ألا يجذب التساؤل فضولك؟»

«صحيح، ولكن، بمقابل الحصول على المخّ وقدراته العالية، أو البيت الكبير إذا استخدمنا تشبيهك، كان على البشريَّة أن تتخلَّى عن العديد من القدرات الأساسيَّة. أليس كذلك؟»

«بالضَّبط. فحتَّى لو لم يستطع البشر التَّفكير بتجريديَّة، أو التَّفكير في الميتافيزيقا، فإنَّهم بالسَّير على قدمَيْن، وباستخدام الهراوات فقط، قادرون على تحقيق انتصارٍ كافٍ في سباق الحياة على هذه الأرض. فهي قدرات إن عُدِمَتْ، لن يكون لها تأثير في الحياة اليوميَّة. للحصول على المخّ ذي الجودة الفائقة عن الحاجة، تخلَّينا عن العديد من القدرات الجسمانيَّة الأخرى. للكلاب مثلًا حاسَّة شمّ تفوق البشر بآلاف المرَّات، وحاسَّة سمع تفوق البشر بعشرات المرَّات. لكنَّنا نستطيع أن نُراكِمَ فرضيَّات معقَّدة بعضها فوق بعض؛ ونستطيع أن نقارن بين الكون الكبير والكون الصَّغير؛ ونستطيع الاستمتاع بفنون فان غوخ وموتسارت. ونقرأ بروست ـ بحسب قدرتنا ـ ونستطيع اقتناء كويماري والسجَّاد الفارسيّ. وهي أمور لا يقدر عليها الكلاب».

«لقد كتب مارسيل بروست رواية طويلة باستخدام حاسَّة شمّ تضاهي بفاعليَّتها حاسَّة الشمّ عند الكلاب».

ضحك منشكي، وقال: «كلامك صحيح. ما أقوله في النهاية مجرَّد نظريات عامَّة».

«السؤال الحقيقيّ هو إن كان من الممكن التعامل مع الفكرة المجرَّدة باعتبارها كائنًا مستقلًّا بحدٍّ بذاته. أليس كذلك؟»

«بالضبط».

همس الكومنداتور في أذني سرًّا: «بالضَّبط». لكنّني، اتّباعًا لنصيحته المخلصة، لم ألتفت حولي بحثًا عنه.

بعد ذلك، اقتادني منشكي إلى غرفة المكتب. نزلنا عتبات عريضة للخروج من غرفة المعيشة. يبدو أنَّ هذا الطابق يمثِّل غرف الإقامة. بمحاذاة الممرّ، هناك عدد من غرف النوم (لم أحصِها، لكنّ إحداها قد تكون «غرفة الدوق ذي اللّحية الزرقاء السرّيّة»، على حدّ تعبير عشيقتي). وكانت غرفة المكتب في نهاية الممرّ. لم تكن واسعة جدًّا، إنّما بالمساحة المناسبة تمامًا. نوافذها قليلة، مُعدَّةٌ بشكلٍ طولانيّ ومتراصّةٌ بالعرض، أعلى أحد الجدران قريبًا من السقف بغية إنارة الغرفة في النهار فقط. تتراءى من خلفها أغصانُ الصنوبر والسَّماء من بين الأغصان (يبدو أن لا حاجة للغرفة إلى أشعَّة الشمس أو التهوية). بالمقابل، كان للجدران مساحة أكبر، كي تتَّسع للرفوف من الأرض وحتَّى السقف. رفوفٌ تحتوي على كتبٍ وأقراص مدمجة. كتبٌ مصطفّةٌ من جميع الأحجام، لا فراغات بينها. وهناك مسندُ قدمٍ خشبيٌّ لتناول الكتب من الرفوف العليا. وثمّة ما يشير إلى أنَّ الكتبَ كلَّها أُخْرِجَتْ من مكانها فعلًا. ومن الجليّ أنّها لشخصٍ يهوى القراءة، لا لهدف الزينة فحسب!

كان المكتب أمام الحائط، وعليه حاسوبان. أحدهما ثابت والآخر متنقِّل. وثمّة عدد من الأكواب التي تحوي أقلام الحبر الجافّ وأقلام الرّصاص، وأوراقٌ مرتَّبة فوق المكتب بعناية. وفي أحد الجدران، هناك

مجموعة أجهزة صوتيَّة تبدو أنَّها باهظة الثمن؛ أمَّا الجدار المعاكس، قبالة المكتب، فثمَّة سمَّاعتان طولانيَّتان رفيعتان: بطول قامتي تقريبًا (173 سنتمترًا)، وصندوقهما مصنوع من خشب الماهوجني الفاخر. وفي منتصف الغرفة تمامًا، كرسيٌّ حديث الطراز بتصميمٍ عصريّ يُستخدَم للقراءة وسماع الموسيقى. وبجواره، مصباح أرضيّ للقراءة، مصنوع من الحديد الصَّلب المقاوم للصدأ. وخمَّنتُ أنَّ منشكي يمضي جلّ أوقات يومه وحيدًا في تلك الغرفة.

كانت لوحة البورتريه التي رسمتُها له معلَّقة على الجدار بين السمَّاعتين: في منتصف المسافة بينهما تمامًا، وعلى مستوى العينَيْن تقريبًا. كانت على حالها، بلا زينة أو إطار، لكنَّها تبدو طبيعيَّة للغاية، وفي مكانها الطبيعيّ، كما لو أنَّها معلَّقة هناك منذ قديم الزمان. لقد رسمتُها بسرعةٍ هائلة، بجلسةٍ واحدة تقريبًا، بلا هوادة، ما جعل فرادتها تضفي على المكتب هالةً من الرقيّ الرَّفيع، وبالمقابل، يُهدِّئ جوّ الغرفة المتميّز من جموح اندفاعها. كما أنَّها تخفي في أعماقها وجه منشكي، بلا أيّ شكّ. وكأنَّ منشكي قد دخل فيها حقًّا، بالنِّسبة إليَّ على الأقلّ.

بالطبع، أنا مَن رسم اللَّوحة. غير أنَّها خرجت من عندي، وباتت مُلكًا لمنشكي، وعُلِّقتْ في غرفة مكتبه، فتغيَّرتْ عنِّي، وصارت بعيدة المنال. وإن حاولتُ أخذها، فستنفلت من بين يديّ مثل سمكةٍ رشيقة. تمامًا مثل المرأة التي كانت لي، وأمست مُلكًا لرجل آخر...

«ما رأيك؟ ألا تعتقد أنَّها تُناسب هذه الغرفة؟» ـ كان يقصد لوحة البورتريه بالطبع. فأومأتُ بنعم. وتابع قائلًا: «حاولتُ تعليقها على كلّ جدران الغرف واحدًا واحدًا. وفي النهاية، أدركتُ أنَّ تزيين هذا الجدار بها، في هذه الغرفة، هو الأفضل على الإطلاق. من حيث الفراغ وطريقة

الإضاءة. المكان يناسبها تمامًا، لاسيَّما إذا جلستُ على كرسيّ القراءة وتأمَّلتُها. هذا أجمل شيء أفعله حاليًّا».

أشرتُ إلى ذلك الكرسيّ، وقلتُ: «هلَّا سمحتَ لي بتجريب ذلك؟»

«بالتَّأكيد. تفضَّل بالجلوس قدر ما تشاء».

جلستُ على الكرسيّ الجلديّ، واستندتُ إلى مسند الظهر الذي أخذ شكل المنحنى الهادئ، ووضعتُ قدمَيَّ على مسند القدم. وعقدتُ ذراعيَّ على صدري. ثمَّ تأمَّلت اللَّوحة بإمعان ثانيةً. صدق منشكي، فذلك الموقع كان مثاليًا لتأمُّل اللَّوحة. وعند النَّظرِ من على الكرسيّ (المريح بشكلٍ لا يُوصَف)، كانت لوحتي على الجدار المواجه هادئةً ومستقرَّة، تكتنز قوَّةَ إقناعٍ لم أكن أتوقَّعها أنا. بدت عملًا فنّيًا مختلفًا عمَّا كانت عليه في مرسمي. وإن صحّ وصفي، فقد حصلت على حياتها الحقيقيَّة عندما جاءت إلى هذا المكان. وكانت كأنَّها لا تسمح لي بالاقتراب منها، على الرَّغم من أنَّني خالقها!

استخدم منشكي جهاز تحكُّم عن بعد، فانسابت الموسيقى بصوتٍ خفيض يناسب دفء المكان. موسيقى شوبَرت، رباعيَّة الوتريّات، «D804»، اعتادت عليها أذناي. وكان الصوت، الخارج من السمَّاعات، راقيًا مصقولًا نقيًا. وبدت لي الأنغام مختلفة عمَّا كانت تصدرها السمَّاعات البسيطة والفظَّة في بيت توموهيكو أمادا.

انتبهتُ فجأة إلى وجود الكومنداتور في الغرفة. كان جالسًا على مسند القدم الخشبيّ بجانب رفوف الكتب، يحدِّق إلى لوحتي عاقدًا ذراعَيْه على صدره. وعندما نظرتُ إليه، هزَّ رأسه بخفَّة، ملمِّحًا إلى عدم التَّركيز إليه. فأرجعتُ عينيّ سريعًا إلى اللَّوحة.

«شكرًا جزيلًا لك. اللَّوحة في مكانها المناسب. معك حقّ»، قلت وأنا أنهض.

فهزَّ منشكي رأسه مبتسمًا، وقال: «بل أنا مَن عليه أن يشكرك. باستقرار اللَّوحة هنا، ازداد إعجابي بها أكثر وأكثر. وكلَّما رنوتُ إليها، شعرتُ أنَّني أقف أمام مرآة من طبيعة خاصَّة. وإذا أمعنتُ فيها التأمُّل، راودني إحساس غريب بأنَّني موجود داخلها. ولكنْ ليس ذاتي أنا. إنَّما ذاتي المختلفة عنِّي قليلًا».

تأمَّل اللَّوحة، مرَّة أخرى، صامتًا يصغي إلى موسيقى شوبّرت. وكان الكومنداتور أيضًا جالسًا على المسند يتأمَّل اللَّوحة بتركيزٍ مثله. وكأنَّه يقلِّده ساخرًا منه (وقد أكون مخطئًا).

نظر منشكي إلى ساعة الحائط، وقال:

«فلننتقل إلى غرفة الطعام. لا بدَّ أنَّ العشاء بات جاهزًا. آمل أن يحضر الكومنداتور، قائد كتيبة الفرسان».

نظرتُ إلى المسند عند المكتبة، فلم أجده.

«أعتقد أنَّه وصل»، قلتُ.

«هذا جيِّد!» أجاب بنبرة مَن يتنفَّس.

أوقف الموسيقى باستخدام جهاز التَّحكُّم، وقال: «لقد أعددتُ له مقعدًا خاصًّا. وأكرِّر أسفي الشديد على عدم تناوله العشاء».

شرح لي منشكي أنَّ الطابق الذي في الأسفل، يُستخدَم للتَّخزين والغسيل، وفيه صالةٌ للتَّدريب البدنيّ مُزوَّدةٌ بكلِّ أنواع الأجهزة الرياضيَّة، ومُعَدَّةٌ بحيث يمكن التَّدريب فيها مع سماع الموسيقى. يأتيه مُدرِّب متخصِّص مرَّة في الأسبوع لإعطائه الإرشادات. وهناك أيضًا غرفة مستقلَّة من أجل مبيت الخادمة، مُلحَقٌ بها مطبخٌ بسيطٌ وحمَّام،

لكنَّ أحدًا لا يستخدمها آنذاك. وكان هناك مسبحٌ داخليٌّ صغير، لكنَّه لم يكن يُستخدم عمليًّا، فضلًا عن المشقَّة في صيانته، لذا حوَّله إلى غرفة سونا. وقد ينشئ مسبحًا جديدًا بطول خمسة وعشرين مترًا على مسارين ذهابًا وإيابًا. وحالما يتمّ الأمر، سيدعوني للسباحة فيه. فرحَّبتُ بالفكرة.

وانتقلنا بعد ذلك إلى غرفة الطعام.

- 24 -
كان بكلِّ بساطة يجمع معلومات أوَّليَّة

كانت غرفة الطعام في طابق المكتب نفسه، ويقع المطبخ في نهايتها. غرفة مستطيلة وعريضة جدًّا، وفي منتصفها، طاولةٌ مستطيلة وعريضة أيضًا، مصنوعة من خشب البلُّوط بسُمك عشرة سنتمترات تقريبًا، تتَّسع لعشرة جلساء معًا. تليق تمامًا بمائدة روبن هود ورفاقه. إلَّا أنَّ مَن سيجلس عليها حينذاك، ليسوا من المجرمين المَرِحين، بل اثنان فقط: منشكي وأنا. هناك مقعدٌ مخصَّص للكومنداتور، الذي لم ينضمّ إلينا بعد، بمنديل وأدوات طعام فضِّيَّة وكأس فارغة؛ لكنَّها كانت أشبه برموزٍ تُبيِّن أنَّ المقعد خُصِّص له.

ثمَّة حائط، مثل الذي في غرفة المعيشة، مصنوعٌ كلِّيًّا من الزجاج. من الممكن عبْره رؤية الجبال على الناحية المقابلة من الوادي. ومثلما يُرى بيت منشكي من شرفة بيتي، يُفترض أنَّ بيتي يُرى من هناك. لكنِّي لم أكن أسكن في بيتٍ كبير كبيت منشكي، لاسيَّما أنَّه مبنيٌّ

من الخشب ولا يلفت لونه الانتباه. لذا، لم أستطع تحديد مكانه وسط الظلام. ولم تكن البيوت كثيرة على ذلك السفح، وكانت تبدو مثل نقاط ضوء متناثرة. لا بدَّ أنَّ الناس قد جلسوا مع أُسَرهم حول المائدة لتناول العشاء. فأحسستُ بالدفء العائليّ البسيط وأنا أرى تلك الأضواء.

أمَّا من هذه الجهة، جلسنا منشكي وأنا والكومنداتور حول المائدة الضخمة، وكنَّا سنبدأ بحفل عشاء مختلف إجمالًا، لا يُمكن وصفه بالعشاء الأُسَري. ما تزال السَّماء تُمطر أمطارًا خفيفة، في ليلة خريفيَّة هادئة ليس فيها رياح. فكَّرتُ مرَّة أخرى بتلك الحُفرة وأنا أنظر إلى الخارج. الغرفة الحجريَّة الموحشة خلف مجسَّم المعبد. لا شكَّ أنَّها الآن باردة ومظلمة. فحملت ذكرى ذلك المكان إحساسًا بالبرد إلى صدري.

أبديتُ إعجابي بالطاولة، فقال منشكي: «لقد وجدتُها أثناء سفري إلى إيطاليا، فاشتريتها على الفور»، لم يكن في صوته صدى للمباهاة، إنَّما كان يذكر الحقائق ببساطة ـ «عثرتُ عليها في محلّ للأثاث بمدينةٍ تُدعى لوكّا، فاشتريتها، وشحنتها عن طريق البحر. لم يكن من السَّهل الإتيان بها حتَّى هنا، فهي ثقيلة جدًّا».

«هل تسافر خارج البلاد كثيرًا؟»

زمَّ شفتَيْه قليلًا، ثمَّ قال: «كنت أسافر كثيرًا في الماضي. من أجل العمل تارةً ومن أجل التمتُّع تارةً أخرى. لكنّي مؤخَّرًا، لا أجد مناسبة لمغادرة البلد. وقد اختلفت نوعيَّة عملي أيضًا. إضافة إلى أنَّني لم أعد أفضِّل السَّفر. أظلّ هنا أغلب الأوقات».

أشار بيدَيْه إلى البيت كي يوضِّح ما معنى «هنا». ظننتُ أنَّه سيحدِّثني عن مضمون التَّغيير الذي طرأ على عمله، لكنَّه أنهى الحديث

عند هذا الحدّ. كان مثل المرَّة الأولى، لا يودّ التعمُّق في الحديث عن عمله، ولا أنا ألححتُ عليه.

«أرغب في البداية بكأس شامبانيا مثلَّجة، ما رأيك؟ هل تمانع؟»

«لا طبعًا»، قلت وفوَّضتُ له الأمر.

صفَّق منشكي بخفَّة، فظهر الشابّ ذو ذيل الحصان، وصبّ شامبانيا مبرَّدة في كؤوس طويلة ورفيعة، كأنَّها صُنِعت من الورق. ارتفعت الفقاعات المرحة في الكأس. شربنا النَّخب، ثمَّ رفع منشكي كأسه بإجلال تجاه مقعد الكومنداتور قائلًا: «شرَّفتنا بحضورك يا قائد كتيبة الفرسان».

ولم يحصل على ردٍّ منه بطبيعة الحال.

تحدَّث منشكي عن الأوبرا وهو يشرب الشامبانيا؛ عن روعة أوبرا «إرناني» التي ألَّفها فيردي، وقد شاهدها في مدينة كاتانيا إبَّان زيارته جزيرة صقلية. وقال إنَّ المشاهدين الجالسين بجانبه كانوا يغنُّون مع المطربين وهم يأكلون اليوسفيّ. وقد احتسى شامبانيا لذيذة جدًّا هناك.

وأخيرًا، ظهر الكومنداتور في غرفة الطعام، لكنَّه لم يجلس في المقعد المخصَّص له. فلو جلس عليه لاختفى وجهه حتَّى الأنف خلف الطاولة. لذا، اتَّخذ مكانًا له على رفّ الزينة خلف منشكي. كان على ارتفاع متر ونصف المتر تقريبًا من الأرضيَّة بسبب حجمه الصَّغير، يؤرجح قدمَيْه بحذائه الأسود الغريب. رفعتُ الكأس لأحيِّيه، بحيث لا ينتبه منشكي. فتظاهر الكومنداتور بأنَّه لا يراني.

ثمَّ جيء بالطعام، من خلال فتحة بين غرفة الطعام والمطبخ لإخراج الأواني. حمل الشابّ الأطباق التي تخرج من الفتحة واحدًا

بعد آخر إلى طاولتنا. وكانت المقبّلات في غاية الجودة، خضرواتٌ عضويّة وسمك الأسمور الطازج. وفتح قنينة نبيذ أبيض تناسب المقبّلات. نزع السدّادة بحرصٍ شديد كأنّه خبير ألغامٍ خطيرة. لم يكن هناك شرحٌ عن نوع النبيذ ومكان إنتاجه، لكنّه كان لذيذًا. وهذا بديهيّ. لن يشرب منشكي نبيذًا رديئًا!

ثمّ سَلَطة جذور اللوتس والسبيط والفاصوليا البيضاء، وحساء سلحفاة البحر. أمّا الطبق الرئيس، فكان سمك أبو الشص.

«لا يزال الموسم مبكّرًا، لكنّ بعض أسماك أبو الشص ظهرت على غير العادة في ميناء الصيد»، قال منشكي. وكان السّمك طازجًا جدًّا وطعمه لذيذ، لا يخلّف رائحة كريهة بعد الأكل. فبعد طبخه سريعًا بالبخار، أُضِيفَتْ إليه صلصة الطرخون (على ما أعتقد).

وبعد السّمك، تناولنا شريحة من لحم الغزلان. شرح لنا الشابّ عن نوع الصلصة الفريدة، لكنّي لم أحفظها، لكثرة المصطلحات المتخصّصة. في أيّ حال، كانت الصلصة رائعة ورائحتها زكيّة.

صبّ الشابّ نبيذًا أحمر في كأسي؛ وقال منشكي: إنّهم فتحوا القنينة منذ ساعة تقريبًا، ونقلوا النبيذ إلى دَوْرَق.

«امتزج الهواء بالنبيذ جيّدًا، فلا بدّ أنّه الآن صالحٌ للشرب».

لم أفهم ما علاقة الهواء، لكنّ النبيذ كان عميق المذاق. تختلف نكهته كلّما سرى من الشفتَيْن إلى اللّسان فالبلعوم؛ وكأنّه امرأة ساحرة، يتغيّر شكل جمالها بتغيير زاوية النّظر والإضاءة. ويترك في الفم طعمًا مريحًا.

«نبيذ بوردو»، قال منشكي. «سأختصر عليك التّفاصيل. نبيذ بوردو، هكذا فقط».

«أتخيَّل أنَّك إن قمتَ بتعداد تفاصيل هذا النبيذ، لاستغرقتَ وقتًا طويلًا».

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ أبرزت تجاعيدَ ناعمة على جوانب عينَيْه، وقال: «كما تفضَّلتَ. سنستغرق وقتًا طويلًا. فضلًا عن أنَّ كلماتٍ متضخِّمة مثل تعداد وتصنيف لا تروقني كثيرًا. أيًّا كان المجال. المهمّ أنَّه نبيذٌ جيِّد ألا يكفي هذه!».

لم يكن لديَّ اعتراض.

كان الكومنداتور ينظر إلينا طوال الوقت من على رفّ الزينة ونحن نشرب ونأكل. يراقب المشهد بدقَّة، كلّ شيء وكلّ تفصيل، لكنَّه لم يكن يبدو مذهولًا ممَّا يرى! فكان مثلما قال لي بنفسه، لا يُصدر حكمًا، ولا يُكِنُّ محبَّةً أو يُضمِر حقدًا، إنَّما بكلّ بساطة يجمع معلومات أوَّليَّة.

ولعلَّه كان، على النَّحو ذاته، يراقبني حين أمارس الحبّ مع عشيقتي في المساء. شعرتُ بالامتعاض إذ تخيَّلتُ المشهد. لقد قال إنَّ مشهد الجنس لا يختلف عنده من رؤية البشر وهم يمارسون الرياضة صباحًا مع أنغام المذياع أو ينظِّفون المداخن. ربَّما كان صادقًا، لكنَّني أتوتَّر إذا عرفتُ أنَّ أحدًا يراقبني.

امتدَّ العشاء قرابة ساعة ونصف الساعة، حتَّى وصلنا أخيرًا إلى حلوى السوفليه وقهوة الإسبريسّو. تسلسلٌ طويلٌ، لكنَّه متكاملٌ على أتمّ وجه. وعندها، خرج الطبَّاخ للمرَّة الأولى من المطبخ، وأطلَّ علينا عند مائدة الطعام. كان طويل القامة ببدلة الطبخ البيضاء، ويبدو أنَّه في منتصف الثلاثينيَّات، له لحيةٌ سوداء خفيفة تغطِّي الجزء السفليّ من وجهه. ألقى عليَّ تحية مؤدَّبة.

«كان عشاءً رائعًا. لم أتناول طعامًا شهيًّا لذيذًا كهذا في حياتي كلّها»، نقلتُ إليه انطباعي الصادق. ولم أكن مقتنعًا بأنَّ طبّاخًا ماهرًا مثله يعمل في مطعمٍ فرنسيّ صغير يتردَّد إليه قلَّة من الناس بالقرب من ميناء أوداوارا!

«شكرًا جزيلًا. للسيِّد منشكي أفضال كثيرة عليَّ»، قال مبتسمًا. ثمَّ انحنى مستأذنًا، وعاد إلى المطبخ.

«تُرى هل استمتع الكومنداتور أيضًا؟» سألني جليسي بوجهٍ بادٍ عليه القلق. لم ألمح في تعبيره أثرًا للادِّعاء أو التَّمثيل. كان قلقًا فعلًا.

فأجبتُ بملامح جادَّة أنا أيضًا: «أعتقد ذلك. لسوء حظّه أنّه لم يستطع تذوُّق هذا الطعام الشهيّ. لعلَّه استمتع بالأجواء عمومًا».

«آمل ذلك».

همس الكومنداتور في أذني: «إنِّي سعيدٌ بالتَّأكيد».

اقترح منشكي خمرًا حادًّا، فرفضتُ، إذ شربتُ كثيرًا أثناء الطعام. فجلب لنفسه كأس براندي.

ثمَّ قال، وهو يهزّ الكأس ببطء: «ثمّة أمرٌ أودّ أن أسألك عنه. سؤالٌ مريبٌ نوعًا ما، وقد يسبِّب لك استياءً».

«تفضَّلْ اسأل بلا حَرَج».

ارتشف من الكأس، ثمَّ وضعها على الطاولة بحرص، وقال: «بخصوص الحُفرة الحجريَّة التي في الغابة. لقد أمضيتُ فيها حوالى السَّاعة يومذاك. جلستُ في قاعها وحيدًا بلا مصباح، بعدما أغلقتَها وركنتَ فوق الغطاء أثقالًا من الصخور. وطلبتُ منك أن تعود بعد ساعة لتخرجني منها. هل تذكر؟»

«طبعًا».

«لماذا فعلتُ ذلك في رأيك؟»

«ليس لديَّ فكرة»، أجبتُ بصدق.

«والحال، أنّني كنت في حاجة إلى فعل ذلك. لا أعرف كيف أشرحها، لكنّي أحتاج أحيانًا أن أُترَكَ وحيدًا في مكانٍ ضيّق مظلم وسط صمت تامّ».

انتظرتُ أن يُكمل حديثه، فتابع: «إذن. سؤالي هو ما يلي: خلال تلك الساعة، ألم تتملّكك رغبةٌ في أن تتركني محبوسًا داخل الحُفرة؟ ألم تغوِك الفكرة؟»

لم أفهم إلى أين كان يريد الوصول بهذا السؤال. فسألتُ مستغربًا: «أن أتركك محبوسًا؟»

وضع منشكي يده على صدغه الأيمن، وحكّه بهدوء، كأنّه يتأكّد من آثار نَدبةٍ ما. وقال: «بمعنى: لقد كنتُ داخل تلك الحُفرة التي يبلغ عمقها ثلاثة أمتار، وقطرها متريْن تقريبًا. وقد سحبتَ السلّم. والحيطان الحجريّة صُمّمتْ بحيث لا يمكن لأحدٍ تسلُّقها. الغطاء مغلَق بإحكام وفوقه صخور كبيرة. كما أنَّ الموقع وسط الجبال، فمهما صرختُ مستنجدًا، ومهما رننتُ الجرس، لن يسمعني أحد، سواك بطبيعة الحال. لم أكن لأتمكّن من الرُّجوع إلى سطح الأرض بقواي وحدها. ولو لم تعد إليَّ، لاضطررتُ إلى البقاء في قاع الحُفرة إلى الأبد. أليس صحيحًا؟»

«أجل، هذا صحيح».

كان ما يزال يحكّ صدغه بأصابع يده اليمنى. توقّف عن ذلك، وقال: «ما أودُّ معرفته هو التالي: أثناء تلك السّاعة، ألم يخطر في بالك،

ولو سريعًا أن تبقيني حبيسًا في الحُفرة إلى الأبد بلا نجدة. أريدك أن تجيب بكلِّ صدق، ولن أستاء منك أو أحقد عليك».

أبعد أصابعه عن صدغه، واستعاد كأس البراندي، وأدارها ببطء في الهواء. لكنَّه لم يضعها على فمه هذه المرَّة. أغمض عينَيْه، وراح يشمّ المشروب. ثمَّ أعادها إلى الطاولة.

أجبتُ بصدق: «لا. لم تطرأ هذه الفكرة في ذهني مطلقًا. لم أكن أهجس إلَّا في الإسراع إلى الحُفرة وإزاحة الغطاء لإخراجك منها، بعد مرور الساعة».

«حقًّا؟!»

«حقًّا، بنسبة مئة في المئة».

فقال بصوت هادئ، كأنَّه يبوح بسرّ: «أمَّا أنا، لو كنتُ في مكانك... فمن المؤكَّد أنَّني كنتُ سأفكِّر في الأمر. لا شكّ في أنَّني لن أنجرّ إلى إغراء الفكرة، لكنِّي كنت سأقول لنفسي: «هذه فرصة نادرة لا تتكرَّر»!»

لم أجد ما أقول، فالتزمتُ الصمت.

«عندما كنت في الأسفل، ما فتئتُ أفكِّر إلَّا في هذا: أنَّني لو كنت في مكانك، كنت سأفكِّر بالأمر. غريب، أليس كذلك؟ أنت كنتَ على سطح الأرض وأنا في الحفرة، لكنِّي طوال الوقت، كنتُ أتخيَّل العكس: أنت في الحُفرة وأنا فوق الأرض».

«لكنَّك لو تركتني محبوسًا، فمن المحتمل أن أموت جوعًا. وقد أرنّ الجرس حتَّى أتحوَّل إلى مومياء فعلًا. هل كنتَ تريد لي ذلك حقًّا؟»

«إنَّها مجرد تخيُّلات، بل أوهام. ما كنتُ لأريد لك ذلك طبعًا. سوى أنَّني أُعْمِلُ الخيال في رأسي، وألاعب فكرة الموت في مخيِّلتي. أرجوك لا تقلق. لا يمكنني استيعاب أنَّ فكرةً كهذه لم تخطر في بالك، هذا كلّ ما أردتُ قوله».

«ألم يراودك الخوف وأنت وحيدٌ في قاعٍ مظلم، يا سيِّد منشكي؟ إذا افترضنا احتمال أنَّ فكرة حبسك هناك استهوتني ونفَّذتُها؟»

هزَّ رأسه نافيًا: «قطعًا. لم أكن خائفًا. في الحقيقة، كنتُ في أعماق قلبي آمل أن تنفِّذها».

«كنتَ تأمَل؟» قلتُ مندهشًا! «كنتَ تأمَل أن أتركك محبوسًا في قاع الحفرة؟»

«أجل».

«هل تقصد أنَّك لم تكن تمانع أن تموت مقتولًا بتلك الطريقة؟»

«لا، لم أصل بعد إلى التَّفكير بأنَّ الموت يناسبني. ما زلت متعلِّقًا بالحياة. علاوة على أنَّ الموت جوعًا وعطشًا ليست هي الطريقة المفضَّلة عندي. وددتُ أن أقترب من الموت قليلًا ليس إلَّا. أعرف جيِّدًا أنَّ الخطَّ الفاصل بين العالَمَيْن رقيقٌ إلى درجة مريبة».

تمعَّنتُ في كلامه. لم أفهم ما قاله جيِّدًا. ألقيت نظرة إلى الكومنداتور. كان ما يزال جالسًا على الرفّ، ولم يتولَّد على وجهه أيّ انطباع.

واصل منشكي حديثه: «ليس الموت أقسى ما كنت أخشاه وأنا حبيس مكانٍ مغلق ومظلم. لا. لقد راودني الخوف عندما فكَّرتُ بأنَّني أخاطر في البقاء حيًّا هكذا إلى الأبد. تملَّكني الخوف حينها فعلًا. خوفٌ يقطع الأنفاس. دهمتني الهلوسات، رأيتُ الحيطان تتراصّ

لتطحنني. ومن الضروريّ أن يتجاوز المرء هذا الخوف إذا أراد الصمود حيًّا هناك. ينبغي أن ينتصر على نفسه. وهذه فائدة تجربة الاقتراب من الموت».

«لكنَّها تجربة خطيرة».

«مثلما اقترب إيكاروس من الشمس. ليس من السَّهل معرفةُ أقصى حدود الخطّ الفاصل. إنَّها خطيرة جدًّا».

«ولكنْ، ما لم نقترب من ذلك الحدّ، لا يُمكننا أن نهزم الخوف».

«تمامًا. وإن لم ينجح الإنسان في هذه التجربة، فلن يستطيع التقدُّم إلى درجة أعلى». ثمَّ سكت وكأنَّه يفكِّر في أمرٍ ما. فإذ به ينهض ـ بحركةٍ بدت لي مباغتة ـ ويتَّجه نحو النافذة لينظر إلى الخارج. لفترة من الوقت.

«ما تزال تمطر مطرًا خفيفًا. هلَّا خرجنا إلى الشرفة؟ هناك ما أريد أن أُريك إيَّاه».

انتقلنا من غرفة الطعام إلى غرفة المعيشة، ومنها خرجنا إلى الشرفة الواسعة والمصمَّمة على الطِّراز المتوسِّطيّ. استندنا إلى السِّياج الخشبيّ، نتأمَّل الوادي الذي تعانقه أنظارنا كأنَّنا نعتلي برج مراقبة في منطقة سياحيَّة. ما يزال المطر الخفيف يتساقط، حتَّى بدا أقرب إلى الضباب. وما تزال البيوت على الجانب الآخر مضاءة. كان المنظر، من هذا الجانب، يولِّد شعورًا مختلفًا.

ثمَّة إفريزٌ يغطِّي جزءًا من الشرفة. تحته، أريكة استلقاء من أجل القراءة أو حمَّام الشمس، وبجوارها، طاولة منخفضة لتوضع عليها الكتب أو المشروبات. وهناك أصيص زرع فيه نباتات زينة بأوراقها الخضراء،

وثمَّة ما يشبه آلة طويلة مغطَّاة بغطاء بلاستيكيّ، وبجانبها، مصباح جداريّ مطفأ. بعض الضوء كان آتيًا من أنوار غرفة المعيشة.

«أين يقع بيتي بالضبط؟» سألتُه.

«في ذلك الاتِّجاه»، قال مشيرًا نحو اليمين.

بحثتُ عنه بعينيَّ، لكنَّني قبل أن أخرج، كنتُ قد أطفأتُ جميع الأضواء، فلم أتمكَّن من تحديد موقعه وسط تلك الأمطار الضبابيَّة.

«انتظر»، قال. ومشى ناحية الأريكة. نزع الغطاء البلاستيكيّ عن الآلة الغامضة، وحملها وجاء بها. منظارٌ مثبَّتٌ على ثلاث أرجل. لم يكن ضخمًا، لكنَّه غريبٌ ومختلفٌ عن المناظير العاديَّة. لونه أخضر زيتونيّ غامق، بدا مثل آلة قياس خاصَّة بالأشعَّة من حيث الشَّكل. نَصَبه على السّياج، وضَبَط بؤرة العدسة على الوجهة بعنايةٍ وحرص. ثمَّ قال: «انظر من هنا. ذاك هو البيت الذي تسكن فيه».

نظرتُ من خلال المنظار. كان منظارًا عظيمًا، عالي الدقَّة، رفيع الجودة والوضوح. ليس من النوع الذي يُباع في المتاجر العاديَّة. استطعتُ رؤية المنظر البعيد بشكلٍ تامٍّ، إذ اخترق المنظارُ الحجابَ الخافتَ المكوَّنَ من الأمطار. ذاك هو البيت الذي أسكن فيه بالتَّأكيد. رأيتُ الشرفة ومقعد الاستلقاء الذي لطالما استرخيتُ عليه، وغرفة المعيشة من خلفه. والمرسم الذي أعمل فيه. لكنَّ الأضواء المطفأة حالت دون رؤية داخل البيت. ولا بدَّ أنَّه في النهار، يُرَى بشكلٍ أوضح. غمرني إحساسٌ غريبٌ بمشاهدة (أو التجسُّس على) البيت الذي أسكن فيه!

تحدَّث منشكي إليّ من الخلف، وكأنَّه قرأ أفكاري: «اطمئنّ. فأنا لا أنتهك خصوصيَّتك مطلقًا. أو بمعنى أدقّ: لم يسبق لي أن نظرتُ

إلى بيتك بهذا المنظار من قبل. ثق بكلامي، فأنا أرغب دومًا في النَّظر إلى جهة أخرى».

«ترغب في النَّظر إلى جهة أخرى؟» قلتُ وأبعدتُ عينيَّ عن المنظار، والتفتُّ إليه. كان وجهه باردًا كالعادة، لا يُفصح عن شيء. وشعره الأبيض، في تلك اللَّيلة، على الشرفة، بدا أكثر بياضًا من المعتاد.

«سأريك»، قال وحرَّك اتِّجاه المنظار إلى الشِّمال قليلًا، بحركاتٍ تبدي تعوُّده عليها. وسرعان ما ضبط بؤرة العدسة، وتراجع خطوة إلى الخلف، وقال: «انظر».

نظرتُ في المنظار، فرأيتُ بيتًا خشبيًّا أنيقًا مبنيًّا وسط السَّفح، مكوَّنًا من طابقَيْن تماشيًا مع مستوى الانحدار، وشرفةٍ نحو الوادي. كان البيت من الناحية الجغرافيَّة يقع بجوار بيتي، لكنَّ التضاريس تحول دون وجود طريق عريضة تتَّسع للذهاب والإيَّاب، ما يجعلنا نستخدم طريقًا مستقلًّة للصعود إلى كلٍّ من البيتَيْن. أنواره مضاءة. أمَّا الستائر، فمغلقة ما يَحْجب النَّظر إلى الداخل. ولكنْ، في حال انزياح الستائر وتوافر الضوء فيه، من الممكن رؤية الداخل بوضوح من خلال منظارٍ بقدراتٍ عجيبة كهذا.

«إنَّه منظار عسكريّ تستخدمه قوَّات الناتو. لا يُباع في المتاجر العاديَّة. عانيتُ كثيرًا للحصول عليه. درجة وضوحه عالية بأقصى درجة، وبإمكانه اختراق الداخل بوضوح تحت الظلام أيضًا».

أبعدتُ عينيَّ عن المنظار والتفتُّ إليه ثانيةً.

«أهذا هو البيت الذي ترغب في رؤيته؟»

«أجل. ولكنْ، لا تسئ الفهم. فأنا لا أتجسَّس على أحد».

ألقى منشكي نظرة أخيرة من خلال المنظار، ثمَّ عاد به إلى مكانه، وغطَّاه بالغطاء البلاستيكيّ.

«دعنا ندخل. أخشى أن يصيبنا البرد» ـ قال، وعدنا إلى غرفة المعيشة. جلسنا على الأريكة والمقعد المريح. وظهر الساقي ليسألنا إن كنَّا نودّ أن نشرب شيئًا، فرفض كلانا. وقال له منشكي: «أشكركما على هذه اللَّيلة. لقد أتعبناكما. بوسعكما الانصراف»، فانحنى الشابّ، وانسحب.

كان الكومنداتور يجلس على البيانو، شتاينواي الأسود. لا بدَّ أنَّه مريحٌ أكثر من الرفّ. وكانت جواهر غمد السَّيف تتلألأ تحت الضوء.

بادر منشكي إلى الكلام، قائلًا: «إنَّ البيت الذي رأيتَه الآن، تسكن فيه الطفلة التي قد تكون ابنتي. أريد أن أراها وإنْ من مسافة بعيدة».

لم أقل شيئًا.

«هل تذكرْ عندما حدَّثتك عن طفلةٍ وُلدت من حبيبتي السَّابقة بعد زواجها برجل آخر؟ الطفلة التي قد تكون من دمي؟»

«أذكر بالتَّأكيد. تلك المرأة التي ماتت بعد أن لسعتها الدبابير، وابنتها التي في الثالثة عشرة من عمرها الآن. أليس كذلك؟»

أومأ منشكي بنعم، وقال: «إنَّها تسكن مع أبيها في ذلك البيت. في الجانب المقابل من الوادي».

استغرقتُ بعض الوقت لترتيب الأسئلة التي انفجرت في رأسي، فيما التزم منشكي الصمتَ، منتظرًا بفارغ الصبر أن أُبلغه انطباعاتي.

فقلتُ: «بمعنى أنَّك اشتريتَ هذا البيت، لأنَّه يقع في الجهة المقابلة من الوادي تمامًا، ودفعتَ أموالًا طائلة في إعادة تصميمه، لا

لشيء سوى لمشاهدة تلك الطفلة، التي قد تكون ابنتك، بالمنظار كلّ يوم. أهكذا هو الأمر؟»

أومأ بنعم، وقال: «أجل، هكذا هو الأمر. فهذا هو المكان المثاليّ لمراقبة بيتها. وكان عليّ الحصول على هذا البيت مهما كلّفني الثمن. لا يمكن استصدار ترخيص بناء جديد في هذه المنطقة. وما إن حصلتُ عليه، ما فتئتُ أستخدم المنظار بحثًا عن بيتها في الجهة الأخرى. لكنّ الأيّام التي لا أستطيع رؤيتها فيها أكثر من تلك التي يتسنّى لي أن أراها بكثير».

«وهذا ما يدفعك لعدم مقابلة أحد، أو استقبال أحد. لا تريد أن يساكنك أحد كي لا يصبح عائقًا عليك».

أومأ منشكي بنعم من جديد، وقال: «تمامًا. لا أريد أن يزعجني أحد في الأمر؛ ويجعل المكان فوضى. هذا كلّ ما أريده: أن أبقى وحيدًا، في هذا البيت، بلا نهاية. ثمّ إنّه لا أحد في العالم كلّه يعرف هذا السرّ، ما عداك أنت. لا أستطيع أن أتهوّر وأبوح بهذا السرّ لأيّ أحد».

فكّرتُ أنّه على حقّ. فخطر في بالي السّؤال تلقائيًا، وطرحتُه عليه: «فما الذي يجعلك تحيطني علمًا بالأمر الآن؟ هل من سبب؟»

عقد ساقيْه بعكس ما كانتا عليه، ونظر إلى عينيّ مباشرة، وقال بصوتٍ في منتهى الهدوء: «طبعًا هناك سبب... لديَّ رجاءٌ أودّ منك أن تلبّيه من أجلي».

- 25 -

أيُّ عزلةٍ عميقةٍ تحملها الحقيقةُ للإنسان...

عندما سمعتُ النبرة التي تفوّه بها بتلك الكلمات ـ « لديَّ رجاءٌ أودّ منك أن تلبّيه من أجلي». تكهّنتُ أنّه كان ينتظر اللَّحظة المناسبة ليحدِّثني عن أكثر الأمور التي تُتعِب قلبه. ولا بدَّ أنّه دعاني إلى العشاء (والكومنداتور أيضًا) ليبوح بسرِّه ذاك، ويُتْبِعُه برجاء.

«إن كان بمستطاعي...» ـ قلتُ.

غاص منشكي في أعماق عينيّ، ثمّ قال: «ليس بمستطاعك فحسب، بل لا أحد غيرك يقدر على تلبيته».

لا أدري لماذا اجتاحتني رغبة بتدخين سيجارة. لقد أقلعتُ عن التدخين عندما تزوّجت، ولم أدخّن سيجارة واحدة منذ أكثر من سبع سنوات. وبما أنّي كنتُ في الماضي مدخّنًا شرِهًا، عانيتُ كثيرًا في

تجاهل التَّدخين حتَّى انعدمت عندي الرَّغبة. لكنِّي، في تلك اللَّحظة فقط، استبدَّت بي الرَّغبة بوضع السيجارة بين شفتيَّ، بعد غياب طويل، وإشعالها بالنار، لدرجة أنِّي كدتُ أسمع كشط أعواد الثقاب.

سألته: «تُرى ما الرجاء؟» لم أكن أريد معرفة الطلب، بل وددتُ إنهاء الأمر قبل أن أعرفه إن استطعت. لكنَّ مجرى الحديث أجبرني على طرح السُّؤال.

«باختصارٍ شديد، أريدك أن ترسم بورتريه لتلك الطفلة».

توجَّبَ عليَّ تفكيك ما قاله في رأسي، ومن ثَمَّ إعادة تركيبه على الرَّغم من بساطة الجملة.

«تطلب منِّي أن أرسم البورتريه لتلك الطفلة التي قد تكون ابنتك؟»

أومأ بنعم، وقال: «بالضبط. هذا هو رجائي. لا من خلال صور، بل أن ترسمها رسمًا حيًا مثلما فعلتَ معي. تأتي إلى مرسمك وترسمها. هذا هو شرطي الوحيد. وأنت حرٌّ في اختيار طريقة الرَّسم التي تشاء، بالطبع. فأنا أثق بك. وليس لديَّ طلباتٌ أخرى».

فقدتُ النطق بعض الوقت. كان لديَّ أسئلة كثيرة.. فطرحتُ أوَّل سؤالٍ عمليٍّ طرأ على ذهني: «ولكنْ، كيف سنُقنع الطفلة؟ صحيحٌ أنَّني جارها بشكلٍ من الأشكال، لكنَّ ذلك لا يكفي لأطلب من طفلةٍ أن تأتي إلى بيتي لأرسم وجهها».

«بالتَّأكيد. وإلَّا ارتابتْ منك وحذرتْ».

«حسنًا، هل لديك خطة جيِّدة؟»

ظلّ منشكي ينظر إلى وجهي من دون أن يتكلّم، ثمّ فتح فمه ببطء، كأنّه يفتح بابًا على مهل، ويطأ بقدمه غرفةً صغيرة.

«في الواقع، أنت تعرفها أساسًا. وهي تعرفك أيضًا».

«أنا أعرفها؟»

«أجل. اسمها مارية أكيكاوا. أكيكاوا تُكتَبُ مثل: نهر وخريف، ومارية تُكتَبُ بحروف هيراغانا. تعرف من تكون. أليس كذلك؟»

مارية أكيكاوا. بلا شكّ، تذكّرتُ الاسم. لكنّي لم أستطع ربطه بصاحبته. كان رأسي غارقًا في الضباب. وإذ بالشخص يعود إلى ذهني.

فقلتُ: «تقصد مارية أكيكاوا، الطفلة التي تتردَّد على دروس تعلُّم الرَّسم في أوداوارا؟»

أومأ قائلًا: «بالضَّبط. إنَّها هي. وأنت تُعلّمها الرَّسم في إحدى الحصص».

كانت مارية أكيكاوا طفلة صغيرة الحجم، قليلة الكلام، في الثالثة عشرة من عمرها، تتردَّد على فصل الأطفال الذي أتابعه. الفصل مخصَّصٌ في الأساس لتلاميذ المرحلة الابتدائيَّة، وكانت مارية أكبرهم سنًّا لأنَّها في المرحلة المتوسّطة. ولكنْ، بسبب هدوئها، اندمجت في الصفّ بلا أيِّ مشكلة. كانت تجلس دائمًا في إحدى الزوايا، كأنَّها تودّ أن تختفي. أمَّا لماذا تذكَّرتها، فهذا لأنَّها تشبه شقيقتي، ولأنَّها في سنِّها عندما رحلت.

لم تكنْ تنبس ببنتِ شفة أثناء الدرس. وإذا توجَّهتُ إليها بالحديث، أومأتْ بصمت، أو أجابت بصوت خفيض جدًّا، وغالبًا ما طالبتُها بإعادة ما تقول. وكان يبدو أنَّها شديدة التوتُّر، لم تكن تنظر إلى

وجهي مباشرة. لكنّها تهوى الرّسم، وعندما تمسك الفرشاة وتواجه اللّوحة، تتغيَّر نظرة عينَيْها. تتّصل عيناها باللّوحة، فتلمعان بكثافة. وكانت رسوماتها تثير الاهتمام، وتجذب الانتباه. لم تكن ترسم بمهارة عالية، غير أنّها تستخدم الألوان بطريقة جيّدة. كان فيها شيءٌ مميَّز، وملغَّز...

شعرها الأسود اللّامع ينساب طويلًا؛ وملامح الأنف والعينَيْن منسَّقة وحسنة كأنّها دُمية، لدرجة أنّها تولّد لدى الناظر إليها انطباعًا بالانفصال عن الواقع نوعًا ما. لم أكن أستطيع إلّا اعتبار وجهها منسجمًا من وجهة نظر موضوعيَّة، لكنّي لا أجرؤ على وصفه بالجميل. لا أحد كان سيجرؤ على ذلك. ثمَّة شيءٌ ما ـ كالقسوة التي تظهر على وجوه بعض الفتيات في طور النضوج ـ يعرقل انسياب الجمال الذي لا بدَّ أنَّها تمتلكه. فإذا انزاحت تلك العَثَرة يومًا ما، قد تصبح فتاةً جميلة حقًّا. وقد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. خطر في ذهني أنَّ وجه شقيقتي أيضًا كان يتّسم بذلك النقص. وغالبًا ما قلت إنّها من الممكن أن تكون أجمل.

«فلنرتِّب المعطيات إذن. حضرتك تطلب منّي أن أرسم بورتريه لمارية أكيكاوا، التي قد تكون من صُلبك؛ والتي تسكن في الجانب المقابل من هذا الوادي، وأن أرسمها وهي ماثلة أمامي! صحيح؟»

«صحيح. لكنّي لا أتقدَّم إليك بطلبٍ من أجل رسم تلك اللّوحة. بل أرجوه منك. سأشتريها حالما تنجزها، إن وافقتَ على ذلك بطبيعة الحال. وسأزيِّن بها جدار هذا البيت كي يتسنّى لي النَّظر إليها كلَّما أردت. هذا ما أريده؛ أو ما أرجوه».

غير أنَّ حديثه لم يقنعني مائة بالمائة. انتابني قلقٌ طفيفٌ بأنَّ الأمور لن تؤول إلى تلك النهاية البسيطة.

«أهذا كلّ ما تطلبه منّي؟» سألته.

التقط منشكي نفَسًا ببطء ثمّ زفره ببطء، وقال: «سأكون صادقًا معك. هناك طلب آخر».

«ما هو؟»

«طلب بسيط»، أجاب بنبرةٍ تشي بتوتُّر طفيف: «أريدك أن تسمح لي بزيارة بيتك في أثناء رسمك لها. كأنّي صديقٌ مرَّ بالبيت صدفةً، فطرق الباب زائرًا. تكفي مرّة واحدة فقط، لوقتٍ محدود إن أردتَ. أريدك أن تسمح لي بأن أكون معها في الغرفة نفسها. وبالتّأكيد، لن أُقدِم على ما قد يسبّب الإزعاج».

فكّرتُ في الطلب. وكلّما فكّرتُ ازددتُ قلقًا! فلطالما كنتُ فاشلًا في تعريف الناس بعضهم على بعض. لا أحبّ الانزلاق في تيّار عواطف الآخرين، أيًّا كان نوعها. لم يكن الدور مناسبًا لطِباعي الشّخصيّة. هذا على الرّغم من أنّني كنت أودّ أن أفعل شيئًا من أجله. عليّ أن أفكّر جيّدًا، بعنايةٍ وحرصٍ، قبل الردّ.

فقلتُ: «سنفكّر في ذلك لاحقًا. مشكلتنا الآن إذا كانت مارية أكيكاوا ستوافق أصلًا على أن أرسمها وهي أمامي. يجب حلّ هذه المشكلة أوّلًا. فهي طفلة هادئة جدًّا، تخجل من الغرباء مثل القطّ. وقد ترفض العرض. أو قد يرفض والدها إعطاءنا الإذن بذلك. فهو لا يعرفني، ومن الطبيعيّ أن يحترس منّي».

«أعرف مدير مدرسة الرّسم شخصيًّا، السيّد ماتسوشيما»، ردَّ بنبرةٍ لامبالية. «وإنّني لحسن الحظّ أحد المموّلين الداعمين لفصول تعليم الرّسم. لا داعي للقلق إذا توسط السيّد ماتسوشيما بيننا. فإن

قال لهم إنَّك إنسانٌ صالح ورسَّامٌ ضليع، وإنَّه يضمنك بنفسه، فسيطمئنّ الأب بالتَّأكيد».

منشكي هذا قد رتَّب الأمر برمَّته مسبقًا، وكان يمضي قُدُمًا في خطَّته. لقد توقَّع كلّ نقلة، فكان يحرّك البيادق بخطواتٍ محسوبةٍ، ولا يدع مجالًا للصُّدفة.

تابع كلامه: «أعتقد أنَّني أخبرتك بأنَّ الطفلة ترعاها عمَّةٌ عزباء، شقيقة أبيها الصغرى. انتقلت العمَّة للعيش معهما بعد وفاة الأم، فأدَّت دور الأمّ البديلة لمارية، لأنَّ الأب مشغولٌ بعمله لدرجةٍ لا تسمح له برعايتها يوميًا. لذا، إن أقنعنا العمَّة، سيُنجَز الأمر بسهولة. وعندما توافق مارية أكيكاوا على المجيء إلى بيتك، لا بدَّ أنَّ وليّ أمرها سيرافقها. فمن غير المعقول إرسال صغيرة بمفردها إلى بيت رجلٍ يسكن وحيدًا».

«ولكنْ هل ستقبل مارية أكيكاوا بهذه السُّهولة؟»

«دع هذا الأمر لي. بمجرَّد أن توافق أنت على رسم البورتريه، سأقوم بحلّ المشاكل العمليَّة».

غرقتُ مرَّة أخرى في تفكير عميق. كنتُ على يقين من قدرته على حلّ أيّ مشكلة عمليَّة، فهو بارعٌ في ذلك. ولكنْ، هل يناسبني أن أورّط نفسي في تلك المسألة، المتكوّنة من علاقات إنسانيَّة متشابكة ومعقَّدة، أليس في نيَّة الرجل أكثر ممَّا باح به حتى الآن؟

قلتُ: «هل لي أن أعبّر عن رأيي بصراحة؟ قد أقول ترّهات، لكنَّ الواجب يدفعني إلى التَّصريح بها».

«تفضَّل. قلْ ما تشاء».

«أليس من الأفضل، قبل تنفيذ خطّة رسم البورتريه، أن تجري فحصًا للتّأكّد من أنّها ابنتك حقًّا؟ فإن جاءت النتيجة سلبيّة، فما من ضرورة لكلّ تلك الأشياء المتعبة. قد لا يكون إجراء الفحص هيّنًا، لكنّك، يا سيّد منشكي، ستجد وسيلةً لإجرائه. فحتّى لو رسمتُ لها البورتريه، وعلّقتَه بجوار لوحتك، فهذا لن يحلّ المشكلة».

أجاب منشكي بعد صمت: «قد يكون هناك عقبات. وقد أستطيع إجراء فحص طبّيّ دقيق لمعرفة إن كانت أكيكاوا ابنتي فعلًا أم لا. لكنّي لا أريد».

«وما السّبب؟»

«أن تكون مارية أكيكاوا ابنتي من عدمه، هو عنصرٌ بلا أهمّيّة».

نظرتُ إلى وجهه حابسًا أنفاسي. هزّ رأسه، فاهتزّ على إثره شعره الأبيض الوفير، كأنّه يتراقص مع الرّياح. ثمّ تحدّث بنبرةٍ رزينة، بنبرة مَن يُعلّم كلبًا ضخمًا كيف يجيب على أوامر بسيطة: «لستُ أقول إنّه لا فرق عندي. فليكن واضحًا. لا أريد أن أعرف الحقيقة، بأيّ ثمن. قد تكون دمائي تسري في عروقها، وقد لا تكون! فلنفترض أنّني توصّلتُ إلى إثبات أبوّتي لها. ما الذي سأفعله حينذاك؟ هل أذهب إليها لأقول لها أنا أبوكِ الحقيقيّ؟ هل أطلب حقّ تربيتها ورعايتها؟ فهذا أمر من المستحيل تحقيقه!»

هزّ رأسه مرّة أخرى، وفرك يدَيْه كأنّه يدفّئهما في ليلة باردة بجوار مدفأة حطب، وأكمل حديثه: «مارية تعيش حاليًا في ذلك البيت مع أبيها وعمّتها بسلام. لقد فقدتْ والدتها. ورغم هذا، ما زالت محاطة بجوٍّ أُسَريّ، بصرف النّظر عن مشاكل أبيها. أقلّه أنّها تطمئنّ لوجود عمّتها.

لديها حياة خاصّة. فماذا لو ظهرتُ أنا فجأةً، لأخبرها بأنّني والدها؟ وحتّى بوجود الإثبات العلميّ والطبّيّ، هل ستسير الأمور على قدم وساق؟ على العكس، لن يجلب الكشف إلّا الفوضى. وربّما يسبّب تعاسةً للجميع، وأنا على رأسهم».

«هل تفضّل أن يبقى الوضع كما هو، على أن تكتشف الحقيقة؟»

بسط منشكي يدَيْه على ركبتَيْه، وقال: «باختصار، أجل. لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا للوصول إلى هذا الحكم النهائيّ. وبتُّ مقتنعًا بجدوى ذلك. قرّرتُ قضاء ما تبقّى من عمري بهذا الإحساس في قلبي، باحتماليّةٰ أن أكون والد مارية أكيكاوا. سأراقب نشأتها من على بُعد. سأكتفي بذلك. ثمّ إنّني لن أمتلك مفاتيح السّعادة إن عرفتُ أنّني والدها الحقيقيّ فعلًا، بل سيُصبح الفقدان مؤلمًا أكثر. وفي حال تأكّدت أنّي لست والدها، سيعمّق الأمر خيبة أملي؛ وقد ينكسر قلبي. في كلا الحالتَيْن، لسنا واثقيْن من نتائج مفرحة. هل فهمتَ قصدي؟»

«أعتقد أنّي فهمت، نظريًّا. لكنّي لو كنتُ في موقفك، سأسعى لمعرفة الحقيقة. شعورٌ طبيعيّ لدى الإنسان أن يعرف الحقيقة بغض النّظر عن أيِّ اعتبارٍ نظريّ».

ابتسم منشكي، وقال: «هذا لأنّك ما تزال شابًّا. حين تصل إلى عمري، لا بدّ أنّك ستتفهّم قصدي. ستفهم أيَّ عزلةٍ عميقة تحملها الحقيقة للإنسان...»

«تعني أنّك لا ترغب سوى في تعليق لوحتها على الحائط، ليتسنّى لك رؤيتها كلّ يوم، وتفكّر بالاحتمالات التي قد تنطوي عليها. هذا فقط»

أومأ قائلًا: «أجل. أفضّل إفساح المجال للشكّ على الحقيقة الرّاسخة. سأختار الوثوق بالحيرة. هل ترى في الأمر غرابة؟»

طبعًا، كنت أرى فيه غرابة. أو غير طبيعيّ على الأقلّ.. وربّما خيارٌ مؤذٍ. لكنَّ المشكلة في النهاية مشكلته لا مشكلتي.

نظرتُ إلى الكومنداتور الجالس على البيانو. تلاقت عيناي بعينَيْه. رفع كلتا سبّابتيْه ودوّرهما. بدا أنَّه يقترح عليَّ تأجيل البتّ بالمسألة، ثمَّ أشار بسبّابته اليمنى إلى ساعده الأيسر. لم يكن لديه ساعة يد بطبيعة الحال. لكنَّه كان يلمّح إلى وشوك ساعة الانصراف. كانت نصيحةً وتحذيرًا في آنٍ معًا. وقرّرتُ الاستجابة له.

«هلَّا انتظرتَ ردّي خلال بضعة أيّام؟ لا أستطيع اتّخاذ قرار سريع بمشكلة حسّاسة كهذه. أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت للتّفكير برويّة».

رفع يدَيْه من على ركبتَيْه عاليًا، وقال: «بالتّأكيد. بالتّأكيد، أرجو أن تفكّر مليًّا. لا أنوي استعجالك أبدًا. ربّما أثقلتُ عليك بالطلبات».

نهضتُ، وشكرته على العشاء.

فإذا هو يقول وكأنّه تذكّر فجأةً: «انتظر! ثمّة شيءٌ أردتُ أن أخبرك عنه، ونسيْته تمامًا، بخصوص السيّد تومohيكو أمادا. لقد تحدّثنا سابقًا عن سفره للدراسة في النّمسا. وتحدّثنا بشأن عودته مستعجلًا قبل أن تندلع الحرب العالميّة الثانية بقليل».

«أجل، أذكر ذلك».

«حاولتُ أن أستجمع عنه مزيدًا من المعلومات. كان لديَّ فضول بتفاصيل الأمر. حسنًا، إنّها حكاية قديمة جدًّا. والحقيقة، ليست واضحة

بما يكفي. لكنَّ الناس وقتها تناقلوا شائعات بشأن الموضوع. شائعات عن فضيحة».

«فضيحة؟»

«أجل، فضيحة. لقد تورَّط السيِّد أمادا في محاولة اغتيال في ڤيِنّا، وتطوَّرت إلى أزمة سياسيَّة، تحرَّكت على إثرها السفارة اليابانيَّة في برلين، وأعادته سرًّا إلى البلاد. بعد حادثة أنشلوس مباشرةً. تعرف ما معنى هذا المصطلح، أليس كذلك؟»

«ضمّ النمسا إلى ألمانيا عام 1938».

«تمامًا. لقد أُلحِقَتْ النمسا بألمانيا أثناء حكم هتلر. سيطر الحزب النازيّ، بعد اضطرابات سياسيَّة، على جميع أراضي النمسا بالقوَّة المسلَّحة تقريبًا، فاختفت دولة النمسا من الوجود. في مارس من عام 1938، للدقَّة. ثمَّ حدثت فوضى في أماكن متعدِّدة بطبيعة الحال. قُتِلَ خلالها عددٌ كبيرٌ من الناس. اغتيالًا، أو قتلًا بما يُصَوَّر على أنَّه انتحار، وثمَّة مَن أُرسِلَ إلى معسكرات الاعتقال أيضًا. كان توموهيكو أمادا يدرس في ڤيِنّا في تلك الآونة العصيبة. ووفقًا للشائعات، كان لديه حبيبة نمساويَّة، بينهما علاقة وطيدة، ويبدو أنَّه تورَّط في حادثة الاغتيال من خلال صلته بها. ويبدو أنَّ أحد التَّنظيمات السرِّيَّة للمقاومة، المكوَّن من طلَّاب الجامعة، وضع خطةً لاغتيال قائدٍ نازيّ كبير. فلم يَرُق تورُّط أمادا للحكومة الألمانيَّة ولا للحكومة اليابانيَّة. فألمانيا واليابان كانتا قد أبرمتا اتِّفاقية تحالف ودفاع مشترك قبلها بعام ونصف العام. ما أدَّى إلى تعزيز العلاقة بين البلدَيْن. وبالتالي، كان الطرفان يتجنَّبان أيَّ حادث يعكِّر صفو العلاقة القويَّة بينهما. وكان توموهيكو أمادا رسَّامًا مشهورًا إلى حدٍّ ما في اليابان، رغم صغر سنِّه. فضلًا عن كون والده من كبار

ملّاك الأراضي، وكلمته مسموعة سياسيًا واجتماعيًا في إقليمه. فليس من السَّهل التخلُّص سرًّا من شخصٍ مثله كما لو أنَّ شيئًا لم يكن».

«وبالتالي رُحِّلَ إلى اليابان ترحيلًا إجباريًا؟»

«بالضَّبط. من الأصحّ القول إنَّه أُنقِذَ. فمن خلال «مراعاة سياسيَّة» من كبار السياسيِّين، نال عمرًا جديدًا بعد أن كان في موقف حياة أو موت. فلو وقع في براثن الغيستابو، بتهمة التَّخطيط لجريمة كبرى، كانوا سيقتلونه، بأدلَّةٍ أم بغير أدلَّة».

«لكنَّ خطَّة الاغتيال لم تُنفَّذ؟»

«انكشفت قبل الأوان. كان هناك مخبر للأمن داخل التَّنظيم، وسرَّب المعلومات للغيستابو. فقُبِض على أعضاء التَّنظيم بالكامل دفعة واحدة».

«لا بدَّ أنَّ الأمر أحدث ضجَّة هائلة حينذاك».

«الغريب أنَّ الصحف لم تتناولها مطلقًا. تناقل الناس بعض الشائعات سرًّا على أنَّها فضيحة، إلَّا أنَّه ما من تقرير رسميّ بشأنها. يبدو أنَّ هناك مَن آثر دفن الحدث كلّيًّا».

إن كان الأمر كذلك، فربَّما يكون الكومنداتور الذي رسمه أمادا في لوحته يمثِّل مسؤولًا كبيرًا في الحزب النازيّ. وقد يكون المشهد برمَّته تخيُّلًا لحادث الاغتيال الذي كان سيقع في ڤينَّا عام 1938، لكنَّه لم يقع. تورَّط في الأمر كلٌّ من توموهيكو وحبيبته. وتسرَّبت الخطَّة إلى الجهات الرَّسميَّة، فافترق العشيقان إثر ذلك. ومن المرجَّح أنَّها لقيت مصرعها. ثمَّ عاد هو إلى اليابان، وحوَّل تلك التجربة المؤلمة رمزيًّا إلى لوحة فنِّيَّة من خلال فنّ النيهونغا، ليبدو أنَّه اقتبسها من عصر أسْكا الذي مرَّ عليه أكثر من ألف عام. لا بدَّ أنَّ «مقتل الكومنداتور» لوحةٌ

رسمها توموهيكو لنفسه فقط. كان يجب أن يرسم تلك اللَّوحة ليحتفظ بفترة الشباب الدمويَّة القاسية في ذاكرته. ولهذا السَّبب، لم يعرض اللَّوحة على الملأ بعد إنجازها، إنَّما غلَّفها بإحكام، وخبَّأها في السقيفة بعيدًا عن الأعين.

ومن الممكن، أنَّ حادثة ڤيِنّا كانت من بين أسباب تخلِّيه الصارم عن مسيرته الواعدة كرسَّامٍ للأسلوب الغربيّ، وتحوُّله إلى فنّ الرَّسم اليابانيّ التقليديّ. لعلَّه أراد هدم الجسور مع ماضيه كلِّيًّا!

سألتُ منشكي: «كيف تدبَّرتَ كلَّ تلك التَّفاصيل؟»

«لم أذهب بنفسي للبحث هنا وهناك. طلبتُها من صديقٍ يعمل في إحدى المؤسَّسات. المشكلة الوحيدة تكمن في أنَّ الأحداث مضى عليها كثيرٌ من الوقت، ما لا يجعلنا نضمن مصداقيَّتها. ومن جهة أخرى، فالمعلومات واردة من مصادر متعدِّدة، ما يدفعني إلى تصديقها جوهريًّا».

«كان لتوموهيكو أمادا حبيبة نمساويَّة، وكانت عضوًا في تنظيم مقاومة سرِّيّ. وبالتالي، اشترك أمادا في خطَّة الاغتيال تلك».

أمال رأسه قليلًا، وقال: «إن جرت الأمور على هذا النحو، فالقصَّة مأساويَّة حقًّا. لكنَّ مَن بوسعهم تأكيدها ماتوا جميعًا. لذا، ما من وسيلة لمعرفة الحقائق بيقين. وفي كلِّ الأحوال، فإنَّ هذا النوع من القصص غالبًا ما يُضَخَّمُ بمرور الزمن. تبدو الحبكة ميلودراميَّة».

«ألا يمكننا معرفة مدى اشتراك توموهيكو أمادا في الخطَّة؟»

«مستحيل. لا أرى أمامي إلَّا قصَّة ميلودراميَّة أتخيَّلها على هوايَ. بأيِّ حال، ودَّع توموهيكو حبيبته، وربَّما لم يتسنَّ له ذلك أيضًا. طُرد من ڤيِنّا على متن سفينة ركَّاب أبحرت من ميناء بريمن، وعاد إلى اليابان.

واعتزل خلال الحرب في ريف أسو ملتزمًا أعمق الصمت. وبعد الحرب مباشرة، يظهر مجدَّدًا على مسرح الأحداث رسَّام للنيهونغا، فيدهش الجميع. في هذا التَّفصيل أيضًا شيءٌ من الميلودراميَّة»!

وانتهى الحديث عن توموهيكو أمادا عند ذلك الحدّ.

كانت سيَّارة الإنفينيتي السَّوداء نفسها تنتظر في الخارج. وما زال المطر يهطل خفيفًا ومتقطِّعًا، مع هواء بارد ورطب. سيكون من الضروريّ قريبًا أن نرتدي المعاطف الثقيلة.

قال منشكي: «أشكرك كثيرًا على مجيئك حتَّى هنا. وأشكر الكومنداتور أيضًا».

فهمس الكومنداتور في أذني: «أنا مَن عليه أن يشكره». لم يسمعه أحدٌ غيري طبعًا. جدَّدتُ شكري له على العشاء اللَّذيذ والرَّائع التي استمتعتُ به كثيرًا. ونقلتُ إليه امتنان الكومنداتور.

«آمل أنِّي لم أفسد السهرة بأحاديثي المملَّة بعد العشاء».

«على الإطلاق. أرجو أن تمهلني بعض الوقت للتَّفكير».

«بالتَّأكيد».

«أنا بطيء في اتِّخاذ القرارات».

«فأنت مثلي إذن. شعاري هو: من الأفضل أن تفكِّر ثلاث مرَّات على أن تفكِّر مرَّتَيْن. وإن سمح الوقت، فحبَّذا بالتَّفكير أربع مرَّات بدلًا من ثلاث. خذ وقتك وفكِّرْ على مهل».

كان السَّائق ينتظر وقد فتح باب المقعد الخلفيّ، فركبتُ. وكان من المفترض أن يركب معي الكومنداتور، لكنِّي لم أره. صعدت السيَّارة أسفلت المنحدر، وخرجتْ من البوَّابة المفتوحة، ثمَّ بدأت تهبط الجبل

ببطء. وعندما اختفى البيت الأبيض من مجال الرؤية، بدا لي أنَّ كلّ ما حدث فيه كان مجرَّد حلم. أصبحت شيئًا فشيئًا لا أقوى على التَّفريق بين الطبيعيّ وغير الطبيعيّ، وبين الواقعيّ وغير الواقعيّ!

«كلّ ما تراه هو الواقع. يكفي أن تفتح عينَيْك على وسعهما ما استطعت. ثمَّة وقتٌ للحكم على الأشياء»، همس الكومنداتور في أذني.

وكنتُ أفكِّر أنَّ هناك أشياء عديدة قد تفلت من الرؤية رغم فتح العيون على وسعهما؛ أو ربَّما لفظتُ ذلك بصوت منخفض، لأنَّ السَّائق نظر إليَّ عبْر المرآة العاكسة. أغمضتُ عينَيّ، وأسندتُ ظهري إلى المقعد. كم سيكون رائعًا لو استطعت تأجيل كلّ القرارات إلى الأبد...

وصلتُ إلى بيتي قبل العاشرة بقليل. نظَّفتُ أسناني في الحمَّام، وارتديتُ ثياب النوم، ودخلتُ الفراش ونمتُ على الفور. رأيتُ الكثير من الأحلام بالتَّأكيد. كلُّها أحلامٌ سيِّئة تترك انطباعًا بغيضًا. أعدادٌ لا حصر لها من رايات الصليب المعقوف باللَّونَيْن الأسود والأحمر، ترفرف في سماء ڤينَّا؛ سفينة ركَّاب عملاقة تبحر من ميناء بريمن؛ فرقة موسيقى نحاسيَّة على رصيف الميناء؛ غرفة سرِّيَّة لذوي اللِّحية الزرقاء؛ منشكي وهو يعزف على بيانو الشتاينواي...

•

ـ 26 ـ
التَّصميم مذهلٌ في كماله، ومن المستحيل أن يكون الأفضل

بعد يومَيْن، تلقَّيتُ مكالمة من وكيلي في طوكيو. لقد حوَّل السيِّد منشكي ثمن البورتريه، وسيحوِّله الوكيل إلى حسابي في المصرف بعد خصم نسبته من المبلغ الإجماليّ. فوجئتُ بالرَّقم حالما سمعتُه، فقد كان أكثر من المبلغ الذي اتَّفقنا عليه في البداية.

علَّق الوكيل على ذلك: «وصلت رسالة من السيِّد منشكي مع التَّحويل، مفادها أنَّ اللَّوحة المنجزة كانت أروع بكثير ممَّا توقَّعه، وأنَّه أضاف على المبلغ الزائد علاوة مستحقَّة، ويرجو أن تقبلها بلا حرج».

حاولتُ أن أتكلَّم، فما نطقتُ سوى بهمهمات.

«لم أرَ اللَّوحة الأصليَّة، لكنَّ السيِّد منشكي أرسل لي صورة عنها بالبريد الإلكترونيّ. ووفق ما رأيته في الصورة، فهي بالفعل لوحة رائعة».

شكرتُه، وأغلقتُ الهاتف.

وبعد قليل، اتَّصلت عشيقتي. سألتني إن كان بوسعها المجيء بعد ظهر الغد. فرحَّبتُ بها. يوم الجمعة عصرًا، أذهب إلى مدرسة الرَّسم، أمَّا قبل ذلك، فكنتُ في البيت.

«هل ذهبتَ إلى العشاء أمس الأوَّل عند السيِّد منشكي؟» سألتني.

«أجل. لقد كان عشاءً فاخرًا بكلِّ معنى الكلمة».

«هل كان لذيذًا؟»

«جدًّا. والنبيذ لذيذ أيضًا. كلّ شيء كان رائعًا».

«كيف هو البيت من الداخل؟»

«مُبهر. يمكنني أن أقضي نصف يوم في وصف التفاصيل».

«هل ستصفها لي عندما نلتقي؟»

«قبل؟ أم بعد؟»

«بعد. هكذا أفضل»، أجابت بإيجاز.

ذهبتُ إلى المرسم بعد أن أغلقتُ الهاتف، وتأمَّلتُ لوحة توموهيكو أمادا «مقتل الكومنداتور» المعلَّقة على الجدار. لقد رأيتُ تلك اللَّوحة، رأيتها مرارًا وتكرارًا.. لكنِّي آنذاك، حين تأمَّلتُها جيِّدًا بعد حديث منشكي، أحسستُ أنَّها واقعيَّة بشكلٍ غريبٍ ومفاجئ. لم أرَ فيها المشهد التاريخيّ المعتاد الذي يجسِّد حدثًا وقع في الماضي البعيد، بلمسةٍ نوستالجيَّة، بل بتُّ أشعر بعواطف الشخصيَّات في تلك اللَّحظة، وتعابيرها وحركات كلٍّ منها (باستثناء طويل الوجه). كان وجه الشاب، الذي غرز سيفه الطويل في جسد الكومنداتور، خاليًا من أيِّ مشاعر. من الوارد أنَّه كبت في أعماق قلبه كلّ عواطفه. أمَّا وجه الكومنداتور، الذي

غُرز السَّيف في صدره، فكان ينضح بالألم الشديد مع الدَّهشة الخالصة، كأنَّه يقول: «لم أكن أتوقَّعها!» الفتاة التي تراقب المشهد بجانبه (الدونَّة آنا في الأوبرا)، مصدومة وهلعة، تكاد تنشقّ نصفَيْن، وقد اعوجَّ وجهها الجميل بفعل الحزن. الرجل القصير السَّمين، الذي يبدو أنَّه الخادم (ليبوريللو) يكتم أنفاسه إزاء تطوُّر الحدث على نحوٍ غير متوقَّع. عيناه تنظران إلى السَّماء، ويده اليمنى ترتفع عاليًا، كأنَّها تحاول إمساك شيءٍ ما.

كان التَّصميم مذهلًا في كماله، ومن المستحيل أن يكون أفضل. التوزيع رائع، ينمّ عن تفكير عميق. لقد تجمَّد الأشخاص الأربعة لحظيًّا، واحتفظ كلٌّ منهم بديناميكيَّة حركته. حاولت أن أُسْقِطَ على اللَّوحة محاولة الاغتيال الفاشلة في ڤينّا عام 1938. الكومنداتور لا يرتدي زيًّا يابانيًّا عتيقًا من عصر أسْكا، إنَّما بدلة عسكريَّة نازيَّة. يُطعَن في صدره بسيفٍ ضالع أو خنجر. وقد يكون توموهيكو أمادا هو الذي يطعنه. فإذن، من تراها الفتاة التي تحبس أنفاسها بجواره؟ أهي حبيبة توموهيكو النمساويَّة؟ وما الذي يجعل قلبها يكاد ينفطر؟

تأمَّلتُ اللَّوحة طويلًا وأنا على المقعد العالي. إن استعملتَ خيالك، يمكنك قراءة معانٍ ضمنيَّة ورسائل مشفَّرة. لكنَّها تبقى محض فرضيَّات، لا دليل يثبت صحَّتها. ناهيك بأنَّ الإلهام التاريخيّ الذي ولَّدَ اللَّوحة، أي محاولة الاغتيال التي قصَّها عليّ منشكي، ليست بالحدث التاريخيّ المثبت. مجرَّد شائعات. أو قد تكون ميلودراما مكوَّنة من جُملٍ تبدأ كلّها بـ«ربَّما».

«كم كان جميلًا لو أنَّ شقيقتي معي الآن»، خطرت لي الفكرة فجأة.

لو أنَّ كومي هنا، كنتُ سأحكي لها ما حدث حتَّى تلك اللَّحظة. لا بدَّ من أنَّها كانت ستُصغي إليَّ صامتةً، أو تطرح بعض الأسئلة القصيرة من وقتٍ لآخر. لن تعقد حاجبَيْها أو تُصدِر صَيْحاتِ دهشة وهي تسمع تلك الحكاية المعقَّدة ذات التَّفاصيل المتشابكة، التي لا يُفهَم لها أصل. لن تتغيَّر ملامح وجهها الهادئة التي تُظهِر تفكيرها العميق. ثمَّ، عندما أنتهي من الحكاية، وبعد فترة صمت، كانت ستقدِّم لي نصائح مفيدة. لقد كانت علاقتنا على هذا الشَّكل في الطفولة. لكنِّي إذ فكَّرتُ مليًّا، لم أذكر أنَّ كومي شاورتني في أمرٍ يخصّها. ولا مرَّة حسبما أذكر. لماذا يا تُرى؟ هل لأنَّها لم تعانِ مشكلة نفسيَّة عويصة؟ أم أنَّها يئستْ من استشارتي، لأنَّني عديم الفائدة؟ أم لكلا السببَيْن معًا؟

وربَّما لو أنَّها احتفظت بعافيتها، ولم تمت في الثانية عشرة من عمرها، ما كانت لعلاقتنا أن تظلّ قويَّة. قد تتزوَّج كومي رجلًا مملًّا وتقيم في مدينة بعيدة، وتُنهكها مشاكل الحياة اليوميَّة وتربية الأطفال، فتفقد تألُّقها وصفاءها، ولا تملك متَّسعًا لتقبُّل استشارتي. فلا أحد يعرف كيف كانت ستؤول الأمور!

أشعر أحيانًا بأنَّ تدهور علاقتي بزوجتي كان مردُّه أنَّني أردتُها بديلًا عن شقيقتي، بلاوعيٍ منِّي. لم أكن أسعى إلى ذلك بالتَّأكيد، لكنِّي إذ أفكِّر في الأمر، أتذكَّر أنِّي كلَّما تضايقتُ من شيءٍ، بحثتُ عن أحدٍ أتَّكئ عليه لمواجهة حالتي النفسيَّة؛ غير أنَّ زوجتي ليست شقيقتي. يوزو ليست مثل كومي. الموقفان مختلفان، والأدوار مختلفة، وذاكرتي عن كلٍّ منهما مختلفة أيضًا. تذكَّرتُ أثناء ذلك زيارتي لأسرة يوزو في منطقة كينوتا في حيّ سيتاغايا قبل الزواج.

كان والد يوزو رئيسًا لفرع أحد المصارف الكبيرة الشهيرة. وكان ابنه (شقيقها الأكبر) موظَّفًا بنكيًّا في المصرف نفسه، وقد تخرَّج كلاهما من كليَّة الاقتصاد بجامعة طوكيو القوميَّة. ويبدو أنَّ العمل المصرفيّ من تقاليد الأسرة. وحين رغبتُ بالزواج من يوزو (رغبة متبادلة طبعًا)، ذهبتُ إلى بيتها لإبلاغ والدَيْها. لم يتجاوز لقائي بوالدها أكثر من نصف ساعة، ولم يكن لقاءً ودِّيًا بكلِّ الأحوال؛ لأنَّني كنتُ رسَّام بورتريه مغمورًا، ولا أملك دخلًا معتبرًا، ولا يُمكنني توفير مستقبل مضمون أبدًا. ولا غرابة أنَّني لم أنل تعاطف مديرٍ مصرفيّ. توقَّعتُ ذلك، وقرَّرتُ مواجهة المسألة، بالحفاظ على هدوئي واتِّزاني إزاء أيِّ إهانة. كنتُ في الأصل صبورًا وقويّ التحمُّل.

غير أنِّي أثناء استماعي إلى مواعظ والدها المتكرِّرة والمسهبة، شعرتُ بمقتٍ جسديّ، حتَّى فقدت السيطرة. أُصبتُ بالإعياء، فنهضتُ في منتصف المحادثة، واستأذنتُ للذهاب إلى الحمَّام. هناك حيث جثوتُ أمام المرحاض، وحاولتُ إفراغ كلّ ما في معدتي. لكنِّي لم أتقيأ شيئًا، إذ لم يكن في معدتي شيء. بل حتَّى لم أستطع تفريغ عصارة المعدة. لذا، تنفَّستُ بعمق عدَّة مرَّات، وهدَّأت روعي، وتمضمضتُ بالماء لإزالة الرَّائحة الكريهة من فمي، ثمَّ مسحتُ العرق عن وجهي بمنديل، وعدتُ إلى الصالة.

وعندما رأت يوزو وجهي المصفرّ بشكل مريع، سألتني بقلق: «هل أنت بخير؟»

آخر ما قاله والدها وهو يودِّعني عند الباب: «الزواج حرِّيَّة شخصيَّة. لكنَّ زواجكما لن يستمرّ طويلًا. أقصاه أربع أو خمس سنوات». لم أردّ عليه، لكنَّ كلماته تلك ظلَّت تردِّد صداها البغيض في أذنيّ. لعلَّها كانت بمثابة لعنة.

مانع والداها زواجنا حتَّى النهاية، على الرَّغم من أنَّنا قدَّمنا أوراق الزواج إلى البلديَّة، وأصبحنا زوجَيْن رسميًّا. في حين كانت علاقة أمِّي وأبي منقطعة تقريبًا. لم نُقم حفل زفاف. استأجر أصدقاؤنا قاعة، واحتفلوا بنا احتفالًا بسيطًا (الفضل أوَّلًا وأخيرًا لماساهيكو أمادا الطيِّب). وكنَّا سعداء رغم ذلك. أو أعتقد أنَّنا كنَّا سعداء في السنوات الأولى على الأقلّ. فخلال أربع أو خمس سنوات، لم تُثر بيننا أيّ مشكلة أو ما شابه. ثمَّ بدأ التدهور، مثل سفينة عملاقة تنكسر دفَّتُها في عُرض البحر. ولم أفهم أسباب هذا التحوُّل حتَّى الآن! لا أستطيع أن أحدِّد له بداية. لعلّ أفكار كلٍّ منَّا عن الحياة الزوجيَّة لم تجد قاسمًا مشتركًا؛ فكبرت المسافة بيننا مع مرور الأيَّام بدل أن تتقلَّص. إلى أن ارتبطت برجلٍ آخر في السرّ، ولم يستمرّ زواجنا إلَّا ستّ سنوات.

لا بدَّ أنَّ والدها، عندما عرف بانهيار علاقتنا، ضحك مستمتعًا وهو يفكِّر: «ألم أقل لكما!» وكان على صواب بالفعل. لا شكَّ أنَّه رأى انفصال يوزو عنِّي بعين السرور. هل أصلحت يوزو علاقتها بأهلها فيما بعد؟ لا يُمكنني معرفة ذلك، ولا أنا أريد. فتلك مشكلة شخصيَّة تخصُّها وحدها، لا شأن لي بها. ورغم هذا، لا أستطيع التحرُّر من لعنة والدها التي ما زال أثرها الغامض يثقل عليّ. كان يجب أن أعترف بأنَّ الجرح الذي في قلبي أعمق ممَّا تصوَّرت، وما زال ينزف، مثل صدر الكومنداتور في لوحة تومو هيكو أمادا.

كان الظلام يهبط وقتذاك، فالمساء في الخريف يحين باكرًا. اغمقّ لون السَّماء، وحلّقت الغربان السَّوداء اللَّامعة فوق الوادي متَّجهة إلى أوكارها، وهي تنعق نعيقًا صاخبًا. خرجتُ إلى الشرفة، واستندتُ إلى السِّياج، أتأمَّل بيت منشكي على الجهة المقابلة من الوادي.

أُضيئت في حديقته المصابيح الزئبقيَّة لتجعل البيت أشدّ بياضًا وبروزًا وسط الظلام. تخيَّلتُه يتلصَّص على مارية أكيكاوا من شرفته باستخدام المنظار فائق القدرات. وما كان ليقتني ذلك البيت رغمًا عن ساكنيه إلَّا ليحقِّق غايته تلك بالفعل. ودفع مبلغًا ضخمًا من المال، وضغط بإجراءات معقَّدة، للحصول على بيتٍ أوسع ممَّا ينبغي، ولا يتناغم مع ذوقه. ثمَّ أدركتُ أمرًا غريبًا (بالنِّسبة إليَّ على الأقلّ): كنت أستوعب منشكي وأفهم مشاعره، كما لم يسبق لي مع أحد من قبل. أكان مجرَّد تضامن؟ ففي العمق، كنَّا متشابهيْن. لم نكن نتحرَّك وفق ما نملكه بين أيدينا، بقدر ما كان يدفعنا أسانا على ما فقدناه ولم يَعْد مُلكنا. غير أنِّي لا أوافق على كلِّ تصرُّفاته، التي أرى فيها مبالغة؛ إنَّما كنت أفهمه.

ذهبتُ إلى المطبخ، وحضَّرتُ كأس ويسكي سينغل مولت الذي أهداه إليَّ ماساهيكو أمادا على طريقة أون ذا روكس، وجلستُ على أريكة غرفة المعيشة. اخترتُ مقطوعة «روزاموندە» لشوبِّرت من بين أسطوانات توموهيكو أمادا، ووضعتها على الدوَّارة. هي المقطوعة نفسها التي شغَّلها منشكي في غرفة المكتب. وكنتُ أهزّ الثلج الذي في الكأس وأنا أستمع إلى الموسيقى.

لم يظهر الكومنداتور في ذلك اليوم مطلقًا. ربَّما كان يستريح في السقيفة صحبة البومة القرناء. فحتَّى الفكرة تحتاج أيضًا إلى يوم عطلة تستريح فيه. أنا نفسي لم أقف يومها أمام اللَّوح. أنا أيضًا أحتاج إلى يوم عطلة.

رفعتُ الكأس عاليًا بمفردي في صحَّة قائد كتيبة الفرسان.

- 27 -
لم يتبقَّ منه في الذاكرة
سوى صورة ذهنيَّة

عندما جاءت عشيقتي، حدَّثتُها عن تفاصيل العشاء في بيت منشكي، وقد أغفلتُ شأن مارية أكيكاوا، والمنظار ذي الأرجل الثلاث الذي في الشُّرفة، وحضور الكومنداتور معي سرًّا. اقتصرتُ على ذكر قائمة الطعام، وتصميم غرف البيت والأثاث، والأشياء التي لا ضرر من ذكرها. كنَّا على السرير، عاريَيْن، بعد أن أنهينا الممارسة الجنسيَّة في نحو نصف ساعة. بدايةً، كنت مضطربًا، أفكِّر ما إذا كان قائد الفرسان يراقبنا. ثمَّ تجاهلتُ أمره. فليرَ ما يشاء.

كانت عشيقتي تريد الاطِّلاع على كلّ تفاصيل العشاء، تمامًا كما يرغب أحد المشجِّعين بمعرفة كلّ صغيرة وكبيرة في المباراة التي خاضها ناديه المفضَّل في اليوم السَّابق. فوصفتُ على مسمعها بالتَّفصيل المملّ كلّ الأطباق من المقبِّلات إلى الحلوى، ومن النَّبيذ

إلى القهوة، بل وحتّى أنواع الأطباق. فأنا في الأصل، أتمتّع بذاكرة بصريّة قويّة. فإن ركّزتُ نظري على شيء، وخزّنته في الذاكرة، استطعتُ تذكُّر أدقّ تفاصيله مهما مرّ عليه من وقت. وهكذا، أحييتُ المشهد في مخيّلتها، كأنّني أرسم مسوّدة سريعة للوحة زيتيّة. فيما كانت تُصغي وتبتلع ريقها مسحورةً.

قالت كأنّها ترى حلمًا: «رائع. أنا أيضًا أودّ أن أُدعى إلى عشاء كهذا، ولو لمرّة واحدة».

«بصراحة، لا أذكر مذاق الطعام الذي تناولتُه».

«لا تذكر مذاق الطعام؟ لكنّه كان لذيذًا، أليس كذلك؟»

«كان لذيذًا جدًّا. أذكر ذلك. لكنّي لا أذكر مذاقه. ولا أستطيع وصف المذاق».

«لم يتبقّ منه في ذاكرتك سوى صورة ذهنيّة».

«تمامًا. أستطيع رسم الطعام ومظهره، لأنّني رسّام. فذلك عملي. لكنّي لا أستطيع وصف مذاقه. لعلّ الروائيّ يستطيع التّعبير عن المذاق بمهارة».

«غريب! بمعنى أنّك تستطيع رسم ما نفعله هنا بالتّفصيل، لكنّك لا تستطيع سرده بالكلام؟»

حاولتُ أن أفهم سؤالها. فسألتها: «هل تقصدين المتعة الجنسيّة؟»

«أجل».

«ربّما. إذا قارنّا الجنس بالطعام، يبدو أنّ المتعة التي يؤمّنها الجنس أسهل على الوصف من المتعة الآتية من الطعام».

فسألتْ بصوتٍ يوحي ببردِ ليالي مطلع الشتاء: «بمعنى أنَّ المتعة الجنسيَّة التي أقدِّمها لك أقلّ عمقًا ورهافة من الطعام الذي قدَّمه لك منشكي هذا؟»

«لا، لا» ـ سارعت إلى طمأنتها ـ «الأمر مختلف. المقارنة ليس في جودة المحتوى، بل في صعوبة شرحه بالكلمات، بالمعنى الفنِّيّ».

«حسنًا، لا يهمّ. ولكنْ، أليس ما أقدِّمه لك جيِّدًا، بالمعنى الفنِّيّ؟»

«بالتَّأكيد. رائع. رائع بالمعنى الفنِّيّ، وبكلِّ المعاني الأخرى، لدرجة أنَّني لا أستطيع رسمه في لوحة».

كنت صادقًا، لا يمكنني أن أشتكي من المتعة الجسديَّة التي تقدِّمها لي تلك المرأة. حتَّى ذلك الحين، كان لديَّ علاقات مع عدد معيَّن من النساء ـ ليست كثيرة إلى حدِّ التباهي ـ ولكنْ، لهذه المرأة خصوصيَّة شبقيَّة تميِّزها عن غيرها. ومن المؤسف أنَّها أُهْمِلتْ لوقت طويل. وعندما صارحتها بذلك، لم تبدُ ممتعضة.

«ألستَ تكذب؟»

«لستُ أكذب».

ظلت تتأمَّل وجهي مرتابة، حتَّى بدا أنَّها صدَّقتني. فسألتني: «حسنًا. هل أراك المرأب؟»

«المرأب؟»

«أجل. المرأب الأسطورة الذي يحتوي على أربع سيَّارات بريطانيَّة؟»

«كلَّا، لم أرَه. البيت كبيرٌ جدًّا ولم تصل عيناي إلى المرأب».

«حقًّا! ولم تسأله إن كان يملك سيَّارة جاغوار من نوع E أم لا؟»

«لم أسأله. ولم يطرأ السُّؤال في ذهني أساسًا. ليس لديَّ اهتمام بالسيَّارات إلى تلك الدَّرجة».

«تروقك سيَّارة كارولا واغن مستعملة، أليس كذلك؟»

«فعلًا».

«أمَّا أنا، أودُّ ركوب جاغوار E، إنَّها سيَّارة الأحلام! شاهدتُ في طفولتي فيلمًا سينمائيًا من بطولة أودري هيبورن وبيتر أوتول، ومن وقتها، وأنا أهيم حبًّا بتلك السيَّارة. كان بيتر أوتول في الفيلم يقود سيَّارة من نوع جاغوار E جديدة تمامًا. ماذا كان لونها؟ صفراء على ما أذكر».

وبينما كانت تتذكَّر السيَّارة الرياضيَّة التي رأتها في طفولتها، ظهرت في عقلي الباطن سيَّارة سوبارو فورستر إيَّاها. المدينة الساحليَّة الصغيرة في محافظة مياغي، السوبارو البيضاء في مرأب مطعم عائليّ على تخوم المدينة، تلك السيَّارة التي لا أراها جميلة بقدر ما كنتُ أجدها سيَّارة رياضيَّة متعدِّدة الأغراض. لا أرجِّح وجود عدد كبير من الناس ممَّن يحلمون بركوبها مرَّة واحدة في حياتهم. بخلاف جاغوار E.

«لم يُرِكَ السُّونا وغرفة الرِّياضة؟» سألتني، وما زالت مهتمَّة ببيت منشكي.

«لم أرَ السُّونا ولا غرفة الرِّياضة، ولا غرفة الغسيل، ولا الغرفة الخاصَّة بالخادمة ولا المطبخ، ولا الخزنة ذات الأمتار العشرة المربَّعة، ولا صالة البلياردو. لم يُرِني هذه الأشياء. فأنا لم أكن في رحلة سياحيَّة».

كان منشكي يحضِّر موضوعًا مهمًّا وضروريًّا ليفتحه معي في تلك اللَّيلة. لم يكن في مزاجٍ يسمح له باقتيادي في جولة تعريف للبيت!

«هل هناك حقًّا خزنة بمساحة عشرة أمتار مربَّعة يمكن السَّير فيها، وصالة بلياردو؟»

«لا أدري! تخيَّلتُ ليس إلَّا. لكنِّي لن أستغرب وجودها».

«بمعنى أنَّه لم يُرِكِ شيئًا عدا غرفة المكتب؟»

«أجل. لأنِّي لا أهتمّ بديكور المنازل. أراني المدخل وغرفة المعيشة والمكتب وغرفة الطعام فقط».

«ولم تخمِّن أيّ الغرف هي الغرفة السرِّيَّة للدوق ذي اللِّحية الزرقاء؟»

«لم يكن لدينا متَّسعٌ من الوقت. ولا يمكنني أن أسأله: بالمناسبة، يا سيِّد منشكي، أين غرفة الدوق ذي اللِّحية الزرقاء الشهيرة؟»

قرقعت بلسانها مَلَلًا وهزَّت رأسها عدَّة مرَّات، وقالت: «لا نفع في الرجال بهذا المجال. أليس لديكم فضول؟ لو كنتُ في مكانك لجعلته يُريني البيت من أقصاه إلى أقصاه، وكأنَّني ألحسه بلساني».

«الفضول بين الرجل والمرأة يختلف اختلافًا تامًّا».

«هذا صحيح على ما يبدو. ولكنْ لا بأس بهذه المعلومات الجديدة التي حصلتُ عليها عن بيت السيِّد منشكي»، قالت بنبرة استسلام.

انتابني القلق، فقلت لها: «على هذه المعلومات أن تبقى بيننا. لا أريدها أن تتسرَّب إلى وكالة أنباء الغابة، وإلَّا وضعتني في ورطة...»

«اطمئنّ. لن أفشي سرًّا»، قالت بمرح.

أمسكتْ يدي برفق، وقادتها إلى بظرها. كانت تلك طريقتنا في توسيع ميدان فضول كلٍّ منّا. ما يزال ثمَّة وقت على موعد ذهابي إلى مدرسة الرَّسم. بدا لي أنِّي سمعتُ الجرس يرنّ من المرسم، لكنَّه كان وهمًا أغلب الظنّ.

غادرتْ عشيقتي بسيَّارتها الميني الحمراء قبل الثالثة، فدخلتُ المرسم، وأخذتُ الجرس من على الرفّ لأفحصه. لم يبدُ لي مختلفًا عن آخر مرّة رأيته فيها. كان في مكانه هادئًا. نظرتُ حولي، فلم أجد أيّ أثر للكومنداتور.

ثمّ اتّجهت إلى اللّوح، وجلستُ على المقعد العالي، متأمّلًا لوحة الرجل صاحب السوبارو فورستر البيضاء. ما تزال في طَوْر التّكوين. كنتُ أفكّر في تحديد المسار الذي عليّ اتّخاذه لإنجازها. فاكتشفتُ حينها ما لم يخطر في بالي من قبل: اللّوحة مكتملة فعلًا.

في الحقيقة، كان العمل ما يزال في منتصفه. وكان على الأفكار المقترحة أن تأخذ شكلها الملموس واحدة تلو أخرى. فاللّوح كان يعرض وجه الرجل بشكلٍ بدائيّ من ثلاثة ألوان، صنعتُها بنفسي. لكنّ صورة الرجل كانت ظاهرةً لعينيّ في تلك المسوّدة المرسومة بالفحم. الوجه مستترٌ، وكأنّ اللّوحة إيهامٌ بصريّ. لا أحد كان سيلاحظه غيري. فاللّوحة ما تزال مجرّد مسوّدة. فيها تلميحات وإشارات لما سيظهر عاجلًا أم آجلًا. والحال، أنّ ذلك الرجل بدا مكتفيًا بصورته التي استحضرتُها من ذاكرتي. بل كاد يقول إنّه لا يطمح في الظهور بطريقةٍ أوضح من تلك.

الرّجل يخاطبني من عمق اللّوحة، كأنّه يملي أوامره: «هذا يكفي. لا تضف شيئًا آخر!»

اكتملت اللّوحة مع أنّها لم تكتمل. فالرّجل، بشكله الناقص ذاك، كان كاملًا. لم أجد سوى تلك العبارة المتناقضة لوصف حالته. كانت صورته المتخفّية في اللّوحة تتواصل معي، أنا الذي خَلَقها. كانت تحاول إقناعي بشيءٍ، لكنّني لم أتمكّن من فهمه. راودني شعورٌ بأنّه حيٌّ... حيٌّ ويتحرّك فعلًا.

أنزلتُ اللّوحة عن الحامل قبل أن تجفّ ألوانها، وأسندتها إلى الجدار عند الزاوية، مقلوبةً بالعكس كي لا تُفسد ألوانها. فلم أَعُد أستطيع رؤيتها أكثر من ذلك. كنتُ أرى أنّها تحتوي على شيء مشؤوم، من الأفضل ألّا أعرفه.

كان هواء المدينة وميناء الصيد فيها يفوح من اللّوح. وتمتزج به رائحة البحر وقشر السمك ومحرّكات مراكب الصيد التي تعمل بالديزل. وأسراب طيور البحر وهي تدور ببطء مع الرّيح وتصيح صياحًا حادًّا. وقبّعة الغولف السوداء التي يضعها الرجل على رأسه، والذي لا يبدو أنّه مارس تلك الرّياضة أبدًا. وجهه الذي اسمرّ من لفح الشمس، وعنقه المتشنّج، وشعره القصير المختلط بالشيب. معطفه الجلديّ الذي بلي من كثرة الاستعمال. أصوات الشوكات والسكاكين في المطعم العائليّ تعلو؛ تلك الأصوات المتشابهة في كلّ مطاعم العالم أجمع. ثمّ سيّارة سوبارو فورستر البيضاء المركونة في المرأب، وملصق سمكة المرلين على مصدّها الخلفيّ.

«الطمني!» قالت لي الفتاة أثناء مضاجعتها، ثمّ غرستْ أظفارها في ظهري. وقد فاحت منها رائحة عَرَق شديدة. فلطمتها على وجهها كما طلبت.

لكنّها هزّت رأسها بعنف قائلة: «ليس هكذا! اضربني بجدّيّة! لا تهتمّ! اضرب بقوّة أكبر، بكلّ عزمك. ولا بأس إن بقيت آثار الضرب. اضربني بقوّة حتّى تنزف الدّماء من أنفي».

لكنّي لم أكن راغبًا في ضربها، فأنا بطبعي لا أميل إلى العنف. غير أنّها كانت تطالبني بأن أضربها بجدّيّة. كانت في حاجة إلى آلام حقيقيّة. فلم يكن أمامي سوى أن أزيد في ضربها بقوّة. بقوّةٍ تترك أثرًا

أحمر في مكان الضربة. وكلّما ضربتها، كان لحم جسدها يقبض على ذَكري أكثر وأكثر، كأنّها حيوانٌ يتضوّر جوعًا وينقضّ لالتهام الفريسة.

ثمَّ همستْ في أذني: «اسمعْ! هلّا خنقتني؟ باستخدام هذا؟» أخرجتْ من تحت الوسادة حزام معطف الحمّام الأبيض. ولا بدَّ أنّها وضعته مسبقًا هناك لهذا الغرض. تولّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ صوتها يأتيني من أبعاد أخرى.

رفضتُ. ما كنتُ لأفعلها حتّى لو طلبتْه بنفسها. فهذا خطير. قد تموت بين يديَّ.

فقالت متوسّلة بنبرة تأوُّه: «يكفي أن تتظاهر بأنّك تخنقني. لا داعي لأن تخنقني حقًّا. يكفي أن تقلّد حركة الخَنْق. لفّ الحزام حول عنقي، واضغط عليه برفق».

لم أستطع رفض هذا التوسُّل.

ارتدَّ صدى صوت مطاعم العائلات بلا أيِّ ميزة.

هززتُ رأسي، وحاولتُ أن أُبعد ذكرى تلك اللَّيلة عنّي. تمنَّيتُ لو أنساها نهائيًا. إلّا أنَّ الذكرى كانت حيَّة مثل ملمس الحزام بين اليدَيْن، وعنق تلك الفتاة المجهولة. كيف كنتُ سأتناسى هذه الذكرى؟

ثمَّ إنَّ ذلك الرجل كان يعرف كلَّ شيء! يعرف أين كنتُ في تلك اللَّيلة، وماذا فعلتُ. وبماذا فكّرتُ.

أين كنتُ سأضع اللَّوحة؟ أأتركها هناك مقلوبة بوجه الحائط في المرسم؟ كانت اللَّوحة تؤرّقني على الرّغم من تلك الوضعيَّة. إن أردتُ إبعادها عن عينيَّ فليس لي سوى أن أضعها في السقيفة، المكان الذي

أخفى فيه توموهيكو أمادا لوحة «مقتل الكومنداتور». بدا أنَّه المكان المثاليّ لدفن المشاعر.

تردَّدتِ الكلماتُ التي قلتها قبل قليل مرارًا: «أستطيع رسم الطعام ومظهره، لأنَّني رسَّام. فذلك عملي. لكنِّي لا أستطيع وصف مذاقه».

في ذلك البيت، كثيرٌ من الظواهر المبهمة ينتهي بها المطاف للتقاطع مع حياتي، واحدة تلو أخرى. لوحة توموهيكو أمادا التي عثرتُ عليها في السقيفة؛ الجرس الذي وجدناه في الغرفة الحجريَّة في الغابة؛ «الفكرة» التي تظهر متجسِّدةً بهيئة الكومنداتور؛ وأخيرًا الرجل متوسِّط العمر صاحب السوبارو البيضاء. كي لا نتحدَّث عن الشَّخص العجيب ذي الشعر الأبيض الذي يسكن على الجهة المقابلة من الوادي، منشكي، الذي يحاول أن يورِّطني في خطَّةٍ من بنات أفكاره!

كنت وسط دوَّامةٍ تتزايد سرعة دَوَرانها. دوَّامةٌ مخيفةٌ بصمتها. لم أَعُد قادرًا على الصمود في وجه التيَّار. فات الوقت. وكان انعدامُ الصوتِ الغريبِ يُرهبني.

ـ 28 ـ
كان فرانز كافكا يُحبّ المنحدرات

في مساء ذلك اليوم، كنتُ في درس الأطفال في مدرسة الرَّسم قرب محطّة أوداوارا. وكانت الوظيفة هي رسم شخصٍ ما، بحيث يكوّن كلّ اثنَيْن فريقًا، ويختاران أدوات الرَّسم التي أعدّتها الإدارة مسبقًا (بالفحم أو بأقلام الرصاص الملوَّنة)، ويرسم كلٌّ منهما الآخر في دفتره. الوقت المتاح لإنجاز كلّ لوحة خمس عشرة دقيقة. لا يُسمَح باستخدام الممحاة كثيرًا. وعلى كلّ طفلٍ أن يستخدم ورقة واحدة فقط من دفتر الرَّسم.

وعندما انتهوا، دعوتهم واحدًا واحدًا إلى الوقوف في المقدّمة لإظهار ما رسم على مرأى الجميع، كي يتسنّى للأطفال إبداء انطباعاتهم بحرّيّة. كان صفًّا متجانسًا بلا تعقيدات، لأنّهم قليلو العدد. ثمّ وقفتُ في المقدّمة، وشرحت لهم نقاطًا مبسّطة عن رسم المسوَّدة. وشرحتُ الفرق

بينها وبين اللَّوحة الحقيقيَّة. فالأولى تُعَدُّ تصميمًا لما ستكون عليه اللَّوحة، وبالتالي تتطلَّب قَدْرًا معيَّنًا من الدقَّة. وعليه، فإنَّ المسوَّدة تشبه الانطباع الأوَّل الحرّ. يتخيَّل الرسَّام انطباعه، ويمنحه حوافَّ وظلالًا مختصرة قبل أن يختفي من الذهن. فتتكوَّن العناصر الأساسيَّة للوحة من التوازن والسُّرعة، فضلًا عن الدقَّة. هناك كثيرٌ من الرسَّامين المشاهير غير بارعين في المسوَّدات. أمَّا أنا، فكنتُ ماهرًا فيها منذ زمن. وفي النهاية، اخترت من بين الأطفال موديلًا لأعلِّمهم طريقة إنشاء المسوَّدة على السبُّورة بالطباشير. بمعنى أنَّني أعطيتهم مثالًا حيًّا. فأجاب الأطفال منبهرين «رائع»، «بهذه السُّرعة»، «طبق الأصل». فإحدى وظائف المعلِّم الجوهريَّة هي أن يجعل تلاميذه يعبِّرون عن رأيهم بتلقائيَّة.

بعد ذلك، طلبتُ منهم تبادل الأدوار لنبدأ من جديد. فتحسَّن أداء الجميع كثيرًا. للأطفال سرعة كبيرة في اكتساب المعرفة إلى درجة تُبهر المعلِّم. بالتأكيد، هناك طفل ماهر وآخر أقلّ مهارة. لا بأس. فأنا كنت أريدهم أن يتعلَّموا كيفيَّة رؤية اللَّوحة، أكثر من كيفيَّة رسمها.

في ذلك اليوم، اخترتُ مارية أكيكاوا لرسم المثال الحيّ (متعمِّدًا طبعًا). رسمتُ نصفها الأعلى على السبُّورة تبسيطيًّا، وبسرعة. وكانت مسوَّدة ناجحة بعض الشيء، في غضون ثلاث دقائق. أي أنَّني اغتنمتُ الفرصة لتجريب إمكانيَّة رسمها في بورتريه. وكانت النتيجة أنَّني اكتشفتُ أنَّها تخفي مقدَّرات غنيَّة ونادرة ومتميِّزة في أدائها كموديل.

حتَّى ذلك الوقت، لم أكن أنظر إليها باهتمام كبير، لكنِّي عندما تمعَّنتُ بها كموضوع للّوحة، وجدتُ أنَّ وجهها يحتوي على ملامح تثير الاهتمام أكثر من ذي قبل. ليس لأنَّ تقاطيع الوجه متَّسقة فحسب، بل لأنَّها طفلة جميلة، على الرَّغم من أنَّ وجهها ـ بالنَّظر إليه جيِّدًا ـ فيه

اختلال توازن. كان تعبيرها المتردِّد يُخفي في أعماقه ما يشبه الاندفاع، مثل حيوانٍ رشيقٍ متخفٍّ بين حشائش طويلة.

آهٍ.. لو استطعتُ أن أُعبِّر عن ذلك الانطباع بالرَّسم! لكنَّ ثلاث دقائق لا تكفي. بطبشورة على سبُّورة. صعبٌ للغاية. بل مستحيل. فذلك يتطلَّب وقتًا طويلًا في مراقبة وجهها بتمعُّن، وتشريح عناصره المتنوّعة بدقَّة. ولاسيَّما أن أتعرَّف عليها أكثر.

لم أمحُ الرَّسمة من على السبُّورة. وعندما غادر الأطفال، بقيتُ وحيدًا هناك أتأمَّلها عاقدًا ذراعيَّ. حاولتُ أن أفهم ما إذا كان للفتاة شبهٌ بمنشكي، فلم أتوصَّل إلى حُكم. فإذا فكَّرتُ أنَّها تشبهه، فسوف تشبهه، والعكس صحيح. الشيء الوحيد المتشابه بلا شكّ هو العينان. النظرة، والبريق الذي يظهر فجأة.

عندما تحدِّق إلى قاع نبع ماء رائقة وعميقة، ترى كتلةً تشعّ بالضوء أحيانًا. ينبغي أن تنظر جيِّدًا. فذلك الجرم البرَّاق يرتعش ويتغيَّر شكله حالًا. وكلَّما أمعنتَ في النَّظر، ازدادت شكوكك بوجود إيهامٍ بصريّ. إلَّا أنَّ النبع في أعماقه يحتوي على نقطةٍ مضيئة فعلًا. وهكذا، فعندما ترسم بورتريه لعدد كبير من الأشخاص، يحدث أن تستشعر في عيون بعضهم ذلك النور المتميِّز. قلَّة قليلة منهم. وتلك الفتاة ـ حالها كحال منشكي ـ كان لدَيْها ذاك البريق.

دخلت موظَّفة الاستقبال وهي امرأة في منتصف عمرها لترتيب الفصل، فوقفتْ بجواري تتأمَّل الرَّسم بانبهار.

«هذه مارية أكيكاوا!» قالت، إذ عرفَتْها من النَّظرة الأولى ـ «يا للبراعة! تبدو أنَّها على وشك أن تتحرَّك. من المؤسف أن تُمحى!»

فشكرتُها ونهضتُ، ومسحتُ كلّ أثر للرَّسم عن السبُّورة.

في اليوم التالي (السبت)، ظهر الكومنداتور أخيرًا، أو «تجسَّدَ» بحسب تعبيره، للمرَّة الأولى منذ مساء الثلاثاء، على العشاء في بيت منشكي. كنت عائدًا إلى البيت بعد أن تبضَّعتُ موادَّ غذائيَّة، فوجدتُ الكومنداتور جالسًا على الرفّ، وممسكًا الجرس عند أذنه ويرنّه بخفَّة.

«أراك بعد فترة طويلة»، قلت له.

ردَّ الكومنداتور ردًّا جافًّا: «لا فترة ولا طويلة. الأفكار تروح وتجيء في عالمٍ يقاس الزمنُ فيه بمئات وآلاف السنوات الضوئيَّة. لا بالأيَّام».

«ما رأيك في حفل عشاء السيِّد منشكي؟»

«أجل، أجل، كان عشاءً مثيرًا للفضول. لم أذق شيئًا من الطعام، لكنَّ عينيَّ استجمَّتا بما يناسبهما. شخصيَّة السيِّد منشكي تثير الإعجاب كثيرًا. إنَّه رجلٌ يفكِّر في مصائر أمور عديدة. ويحمل داخله أسرارًا كثيرة لا يفصح عنها».

«لقد فاجأني بطلب».

فقال الكومنداتور، وهو يتأمَّل الجرس القديم من دون أن يُبدي اكتراثه: «أعرف. كنتُ أستمع إلى الحديث بجواركم. لكنِّي لا أتدخَّل فيما لا يعنيني. مسألةٌ عمليَّة، ملموسة، تخصُّكم أنتم والسيِّد منشكي فقط».

«هل لي بسؤال؟»

حكَّ لحيته، وقال: «تفضَّلْ. مع أنِّي لست متأكِّدًا من القدرة على الإجابة».

«بخصوص لوحة توموهيكو أمادا «مقتل الكومنداتور». تعرف اللَّوحة بالتَّأكيد، وإلَّا ما كنتَ استعرتَ هيئة إحدى شخصيَّاتها. يبدو

أنَّ موضوع اللَّوحة يجسِّد حدثًا تاريخيًّا وقع في ڤيِنّا عام 1938. محاولة اغتيال تورَّط فيها توموهيكو نفسه. فهل تعرف شيئًا بالخصوص؟»

عقد الكومنداتور ذراعيْه، وفكَّر. ثمَّ ضيَّق حدقة عينَيْه، وقال:

«ثمَّة أحداثٌ في التاريخ من الأفضل تركها في غياهب الظلام. فليس بالضرورة أن تُغْني المعلومات الصحيحة الإنسانَ. وليس بالضرورة أن تتفوَّق النَّظرة الموضوعيَّة على النَّظرة الشَّخصيَّة. وليس بالضرورة أن تُزيل الحقائقُ الأوهامَ».

«هذا يصحّ كنظريَّة عامَّة ربَّما. لكنَّ تلك اللَّوحة تفتقر إلى شيءٍ ما برأيي. حدْسي يُخبرني أنَّ توموهيكو رسمها بغية ترميز شخصيّ لشيء في غاية الأهمِّيَّة بالنِّسبة إليه، وفي الوقت نفسه لا يستطيع البوْح به علانيَّة. أشعر أنَّه قام بما يمكن وصفه بالاعتراف. اعترافٌ على شكل مجازٍ مستتر من خلال النيهونغا، بعد أن غيَّر الشَّخصيَّات وجعل مسرح الأحداث في عصر مختلف. حتَّى إنِّي أراه قد تخلَّى عن فنّ الرَّسم الغربي، وتحوَّل إلى فنّ الرَّسم اليابانيّ من أجل ذلك فقط».

فأجاب بنبرة هادئة: «أليس من الأفضل أن تجعل اللَّوحة تتحدَّث عن نفسها؟ إن كانت تريد أن تقول شيئًا، فلتعبِّرْ عنه بنفسها. من دون إحراج المجاز. والرموز. والغربال. هل تجد ضررًا في ذلك؟»

لم أفهم لماذا جاء على ذكر الغربال، على حين غرَّة. فأجبتُ: «لا ضرر في ذلك. أردتُ معرفة الظروف التي رسم فيها توموهيكو تلك اللَّوحة. والأسباب التي جعلته يرسمها لغرضٍ معيَّنٍ وواضح في حدّ ذاته».

مسح الكومنداتور لحيته ثانية، كأنَّه يحاول تذكُّر أمرٍ ما، ثمَّ قال: «لقد كان فرانز كافكا يحبّ المنحدرات. كان ينجذب إلى جميع أنواع

المنحدرات. وكان يحبُّ تأمُّل البيت المبنيّ وسط سفح منحدر شديد. يجلس على قارعة الطريق، ويتأمَّل البيت ساعاتٍ طويلةً. يلوي رأسه ذات اليمين وذات الشِمال، ويعيده إلى وجهته. غريب الأطوار. أكنت تعلم ذلك؟»

«لا، لم أكن أعلم. لم أسمع بهذا من قبل».

«حسنًا.. هل بعد أن عرفتَ ذلك، سيتعمَّق فهمك لأعماله التي تركها بعد موته؟ ما رأيك؟»

لم أجب. لكنّي سألت: «هل كنتَ تعرف فرانز كافكا معرفةً شخصيَّة؟»

«بالطبع، لم يكن يعرفني شخصيًّا»! ثمَّ ضحك عاليًا، كأنَّه تذكَّر شيئًا ما. ربَّما هي المرَّة الأولى التي أرى فيها الكومنداتور يضحك من قلبه. أكان فرانز كافكا يدعو إلى الضحك؟ استعاد الكومنداتور ملامح وجهه السابقة، وأكمل قائلًا: «إنَّ الصُّورة تعني الحقيقة، والحقيقة تعني الصُّورة. الشيء الأفضل هو تقبُّلُ الصُّورة كما هي. العقل، الواقع، سُرَّة الخنزير، خصية النملة... كلّ هذا غير موجود. إن أراد الإنسان اتِّباع طريق الفهم باستخدام وسيلة مغايرة، فكأنَّه يجمع الماء بالغربال. لا أقصد الاغتياب، لكنْ ما يفعله السيِّد منشكي المسكين شبيه جدًّا بذلك».

«أتعني أنَّ أيّ محاولة ستبوء بالفشل حتمًا؟ بلا جدوى؟»

«هل في اغتراف الماء بالغربال جدوى؟»

«وما الذي يحاول السيِّد منشكي فعله على وجه الدقَّة؟»

شدَّ كتفَيْه بلا مبالاة، ثمَّ عقد حاجبَيْه مُظهرًا تجاعيد ساحرة تُذكِّر بمارلون براندو في شبابه. لا أعتقد أنَّ الكومنداتور قد شاهد فيلم «على

الواجهة البحريَّة» للمخرج إيليا كازان، لكنَّ تعبيره ذاك مطابقٌ لتعابير مارلون براندو. تساءلتُ إن كان حرًّا في تقليد أيّ شخص يريد!

«ليس لديَّ الكثير بخصوص لوحة تومو هيكو أمادا. لأنَّها لوحة مجازيَّة، ومغزاها مرموز. لا يمكن تفسير المغزى والمجاز بالكلمات. فإمَّا أن نفهمهما وإلَّا فلا» ـ قال، وحكَّ خلف أذنه بطرف خنصره، مثل قطٍّ يحكّ خلف أذنه قُبيل هطول الأمطار، وتابع قائلًا: «دعني أخبركم بشيء. بسيط لكنَّه مهمّ. سيتَّصل السيِّد منشكي مساء غد. قبل الاستجابة لما يريده منكم، فكِّروا مليًّا. قد لا تغيِّر إجابتكم كثيرًا، ولكنْ فكِّروا جيِّدًا».

«هل من الأفضل أن أجعله يفهم بأنَّني أفكِّر؟ على سبيل الإيحاء».

«تمامًا. تمامًا. إنَّ رفض العرض الأوَّل هو إحدى القواعد الذهبيَّة في عالم المال والأعمال. لن يضرَّكم إن حفظتموها» ـ قال الكومنداتور وضحك مرَّة أخرى. يبدو أنَّه في مزاجٍ جيِّد هذا اليوم. «بالمناسبة، سؤال بموضوع آخر: هل في ملامسة البظر متعة؟»

قلتُ رأيي بصراحة وصدق: «لست متأكِّدًا ما إذا كان البظر يُلمَس بهدف المتعة».

«بالمشاهدة، لم أفهم شيئًا».

«لا أظنّ أنَّني فهمتُ كثيرًا أنا أيضًا». هذا يعني أنَّ الفكرة لا تفهم كلّ شيء.

«عمومًا، حان وقت اختفائي. لديَّ ما أفعله في مكان آخر. لا يجب أن أتأخَّر»، قال واختفى تدريجيًّا، مثلما يختفي القطّ شيشاير. ذهبتُ إلى المطبخ لإعداد عشاء خفيف. تناولته وأنا أتساءل: ما الذي لدى الفكرة كي تفعله في مكان آخر؟ ولم أصل إلى نتيجة بالطبع.

وكما تنبَّأ الكومنداتور، اتَّصل بي منشكي في اليوم التالي، بعد الثامنة مساءً.

في البداية، شكرته على حفل العشاء. قلت إنَّ العشاء كان في غاية الرَّوعة. فردَّ بأنَّه لا شيء مقابل الوقت الممتع الذي قضاه معي. وشكرته على تحويله مبلغًا أعلى من المتَّفق عليه بشأن البورتريه. فردَّ بأنَّ جهودي كانت تستحقّ ذلك. انتهى تبادل التهاني، فمرَّت لحظة صمتٍ اخترقها منشكي بالحديث بأريحيَّة، كأنَّه يتحدَّث عن الطقس: «بخصوص مارية أكيكاوا، هل تذكر أنَّنا تكلَّمنا في شأنها، كي ترسم لها بورتريه؟»

«أذكر بالتَّأكيد».

«وافقت مارية أكيكاوا على ذلك. أو بالأحرى أوعزتُ إلى المدير ماتسوشيما لجسّ نبض عمَّتها، فحصل على موافقتها».

«حقًّا؟»

«وعليه، إن وافقتَ على رسم البورتريه، فالدَّرب سالك».

«ولكنْ يا سيِّد منشكي، ألم يستغرب السيِّد ماتسوشيما تدخُّلك أنت في الأمر؟»

«أنا أتحرَّك بحذر بالغ في هذا الخصوص. كن مطمئنًّا. شرحتُ له بأنَّني أقوم بدور الراعي لك. آمل ألَّا يزعجك ذلك...»

«قطعًا. لكنِّي مندهشٌ من أنَّ الطفلة وافقت على الفور. فهي تبدو متكتِّمة وانطوائيَّة».

«والحال، أنَّ عمَّتها عارضت في البداية. خشيتْ أنَّه من المشين وضع طفلة كموديل لرسَّام بورتريه. اعذرها، فهي لا تعرفك».

«لا بأس. هذا ما يفكِّر به الناس بالعادة».

«ثمَّ بدا أنَّ مارية نفسها رحَّبت بأن تكون موديلًا للوحة. وقالت إن كنتَ أنت الرسَّام، فذلك سيسعدها. وأقنعت عمَّتها».

تساءلتُ لماذا! ربَّما لأنَّني رسمتها على السبُّورة، ما أدَّى إلى نسج رابط بيننا. لكنِّي تعمَّدتُ ألَّا أُخبر منشكي بذلك.

«الأمور تجري كما كنَّا نأمل، أليس كذلك؟»

فكَّرتُ قليلًا. هل هذا صحيح؟ كان منشكي، على الطرف الآخر من الخطّ، ينتظر أن أعبِّر عن رأيي.

«هلَّا أخبرتني بتفاصيل المباحثات؟»

«بسيطة. قلتُ إنَّك تبحث عن موديل لترسم لوحة، وفكَّرتَ في أنَّ مارية أكيكاوا هي الفتاة المثاليَّة لذلك. فاعتبرتَ أنَّه من الأفضل أن يتوسَّط لك مدير المدرسة في الحديث مع وليّ أمرها. هذه هي الخطوة الأولى. فضَمِنَك السيِّد ماتسوشيما لموهبتك وأخلاقك على مسؤوليَّته الشَّخصيَّة؛ وقال لعمَّتها إنَّك رجلٌ صالحٌ ومعلِّم مجدّ، ورسَّام موهوب وواعد. لم يتحدَّث عنِّي. فقد شدَّدتُ عليه بألَّا يأتي على ذكري. وستكون الفتاة موديلًا بكامل ملابسها طبعًا، وسترافقها العمَّة دائمًا. وأرجو أن تنهي العمل قبل الظهر. فهذا هو شرط الطرف الآخر. ما رأيك؟»

واتِّباعًا لنصيحة الكومنداتور (عليك أن ترفض العرض الأوَّل)، قرَّرتُ أن أوقف حديث منشكي عند هذا الحدّ.

«لا مشكلة لديَّ في هذا الشرط، لكنِّي أرجو منك أن تعطيني مهلة للتَّفكير في قبول فكرة رسم الفتاة أساسًا».

فقال منشكي بصوتٍ مطمئِنْ: «بالتَّأكيد. خذ ما تشاء من وقت. لا سبب يستدعي العجلة. وبما أنَّك أنت الرسَّام، فأنت مَن عليه أن يكون مقتنعًا، وإلَّا ما تحدَّثنا في الأمر أصلًا. لقد اقتصر دوري على ترتيب اللِّقاء، وأردتُ إخبارك بهذا. سوى أنَّني أودّ أن أُبلغك بأنَّ أجر العمل الذي أطلبه منك جيِّد جدًّا».

فكَّرتُ في أنَّ الأمور تتقدَّم بسرعة وليونة مبهرتَيْن. مثل كرة تتدحرج على منحدر... تخيَّلتُ فرانز كافكا جالسًا في منتصف المنحدر يتأمَّل تلك الكرة. عليَّ أن أكون حذرًا.

قلت: «أتسمح لي بيومَيْن كي أردّ على طلبك؟»

«بالتَّأكيد. سأتَّصل بك بعد يومَيْن».

وأنهينا المكالمة.

في الواقع، لم أكن أحتاج إلى يومَيْن، لأنَّني كنتُ أخذتُ القرار مسبقًا. لديَّ رغبة عارمة في رسم بورتريه لمارية أكيكاوا. كنت سأوافق حتَّى لو حاول أحدهم منعي. أمَّا اليومان اللذان طلبتُهما، فلأنَّني لا أريد لتيَّار منشكي أن يبتلعني. فالغريزة ـ والكومنداتور ـ يقولان لي من الأفضل أن أتوقَّف برهةً، وألتقط نَفَسًا عميقًا.

كان الكومنداتور قد قال لي: «كأنَّك تغترف الماء بالغربال». «هل في اغتراف الماء بالغربال جدوى؟» كان يلمِّح لي عن شيءٍ قادمٍ محتوم.

- 29 -
عملٌ فيه عناصر غير طبيعيَّة

أمضيتُ الوقت خلال هذَيْن اليومَيْن في تأمُّل كلٍّ من اللَّوحتيْن الموجودتَيْن في المرسم. لوحة توموهيكو أمادا «مقتل الكومنداتور»، ولوحتي «الرجل صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء». كانت الأولى معلَّقة على حائط المرسم، والثانية في الزاوية ووجهها إلى الحائط (لا أعيدها إلى الحامل إلَّا إذا أردتُ مشاهدتها). كنتُ أقرأ أو أستمع إلى الموسيقى أو أطبخ أو أنظِّف البيت أو أقتلع حشائش الحديقة أو أتنزَّه بجوار البيت لتمضية الوقت. لم أرغب بإمساك فرشاة الرسم؛ وظلّ الكومنداتور مختفيًا.

أثناء نزهتي في الطرق الجبليَّة بجوار البيت، بحثتُ عن مكان يمكن منه رؤية بيت مارية، لكنِّي لم أستطع العثور عليه في نطاق نزهاتي. بناءً على ما رأيته من بيت منشكي، فالمسافة المستقيمة بينه وبين بيتي قريبة جدًّا، لكنَّ مجال الرؤية يبدو محجوبًا بسبب التضاريس. وكنتُ أثناء تنزُّهي في الغابة أحترس لاإراديًّا من الدبابير.

ما أدركته مجدَّدًا، بعد تأمُّل اللَّوحتَيْن خلال اليومَيْن، أنَّ مشاعري كانت في محلِّها. فلوحة «مقتل الكومنداتور» تتطلَّب إيجاد تفسير لشيفرتها، ولوحة «رجل سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء» تتطلَّب من الرسَّام (أي منِّي أنا) ألَّا يضيف إليها أيّ شيء. وكانت قوَّة الطلبَيْن شديدة ـ أو هذا ما شعرتُ به على الأقلّ ـ ولم يكن في وسعي إلَّا الرُّضوخ. تركتُ لوحتي على حالها (رغم محاولتي في إدراك هذا الخيار)، وتفرَّغتُ لفكّ شيفرة لوحة توموهيكو. اللُّغز متينٌ كقشرة الجوز في كلا اللَّوحتَيْن، ولا أستطيع تحطيم قشرة الجوز بقبضتي مهما حاولت.

لو لم يأتني طلب رسم مارية أكيكاوا، لربَّما أمضيت كلّ أيَّامي في التمعُّن باللَّوحتَيْن بلا نهاية. لكنِّي تلقَّيت مكالمة من منشكي في ليلة اليوم الثاني، وبفضلها تخلَّصتُ من تلك اللَّعنة لفترة.

سألني، بعد تحيَّته المعتادة: «هل توصَّلتَ إلى نتيجة نهائيَّة؟» كان سؤاله عن قراري بشأن رسم الفتاة.

«سأقبل العرض مبدئيًّا. إنَّما هناك شرط واحد».

«ما هو؟»

«لا أستطيع توقُّع شكل تلك اللَّوحة. تقف مارية أمامي، وأمسك الفرشاة، ومن ثمَّ، أحدِّد الأسلوب المناسب لرسمها. وفي حال انعدام ظهور فكرة جيِّدة، لن أكمل العمل عليها. وقد تكتمل بما لا يعجبني، أو بما لا يعجبك يا سيِّد منشكي. لذا، أودّ أن أرسمها، لا بناءً على طلبك، أو بتلميح منك، إنَّما بناءً على رغبتي الذاتيَّة».

التقط نَفَسًا، وقال كأنَّه يحاول سبر غور أفكاري: «بمعنى أنَّك إذا لم تقنعك اللَّوحة، فلن تسلِّمني إيَّاها. أهذا ما تقصده؟»

«احتمال وارد. عمومًا، أريد منك أن تترك لي حرِّيَّة التَّصرف باللَّوحة بعد اكتمالها. هذا هو شرطي».

فكَّر منشكي بكلامي، ثمَّ قال: «موافق، وهل بإمكاني غير أن أوافق؟ إن لم أوافق فلن ترسم اللَّوحة. صحيح؟»

«أعتذر منك. أجل، صحيح».

«تريد أن تتحرَّر من عاتق الطلب لتعمل بحرِّيَّة، من الناحية الفنِّيَّة. فضلًا عن أنَّ الجانب الماليّ يشكِّل عبئًا عليك. أليس كذلك؟»

«كلا الأمرَيْن معًا. لكنّ الأمر الأهمّ هو أنَّني أريد أن أكون عفويًّا قدر المستطاع».

«عفويًّا قدر المستطاع؟»

«أي أنَّني أريد إزالة أيّ عنصر غير طبيعيّ من هذا العمل».

فقال بنبرةٍ محتدَّة قليلًا: «هذا يعني أنَّك ترى في طلبي برسم بورتريه لمارية أكيكاوا عنصرًا غير طبيعيّ؟»

«كأنَّك تغترف الماء بالغربال» ـ كان الكومنداتور قد قال لي. «هل في اغتراف الماء بالغربال جدوى؟».

فقلتُ: «ما أقصده أنَّني أريد أن تكون العلاقة بيننا نزيهة، قائمة على مصالح متبادلة، ندِّيَّة. إن كان في هذا ما يغضبك، فاعذرني».

«لا، ليس في كلامك ما يغضبني. العلاقة بين اثنين لا بدَّ أن تقوم على الندِّيَّة. بإمكانك أن تقول كلَّ ما تفكِّر فيه».

«أريد اعتبار بورتريه مارية أكيكاوا على أنَّه عملٌ ذاتيّ نابع منِّي أنا، ولا يكون لك فيه أيّ ارتباط. وإلَّا لن تكون الفكرة عبقريَّة. تصبح مجرَّد قيد ماديّ ومعنويّ بالنِّسبة إليَّ».

فكَّر منشكي قليلًا، وقال: «فهمتُ، فهمتُ جيِّدًا، حسنًا فلنلغِ حاليًّا عبء الطلب. ولتنسَ أمر الأجر أيضًا. لعلِّي تهوَّرتُ بطرح مسألة المال باكرًا. فلنتناقش معًا بشأن اللَّوحة، وكيف سنتعامل معها عند إنجازها. في كلِّ حال، سأحترم رأيك، أنت صانعٌ للوحة وصاحبها. ولكنْ، ما رأيك في الطلب الآخر الذي طلبته منك؟ هل تذكره؟»

«أن تأتي لزيارتي في البيت عن طريقة الصدفة أثناء رسم الفتاة في المرسم، أليس كذلك؟»

«بالضَّبط».

فكَّرت قليلًا، وقلت: «لا مشكلة بخصوص ذلك. فأنت صديق، وتسكن في الجوار، وأتيت لزيارتي في نزهة صباحيَّة يوم الأحد. يمكننا أن نُدردش جميعًا. يبدو لي الأمر طبيعيًّا، هكذا».

تنفَّس الصُّعداء بعد أن سمع منِّي هذا الكلام، وقال: «سأكون ممتنًّا لك على هذا المعروف الكبير. أؤكِّد لك أنَّني لن أتسبَّب بإزعاجك أبدًا. كيف نرتِّب الأمر؟ هل بإمكان مارية المجيء إليك اعتبارًا من الأحد القادم، لتباشر رسم البورتريه لها؟ في الواقع، سيكون السيِّد ماتسوشيما هو الوسيط الذي سيُرتِّب الأمر بينك وبين عائلة أكيكاوا».

«لا مانع مطلقًا. رتِّب الأمر كما تشاء. فلتأتِ مارية وعمَّتها في حدود العاشرة من صبيحة الأحد، وسأطلب من الفتاة أن تكون موديلًا للوحتي. وفي الثانية عشرة تمامًا، سأترك الألوان والفرشاة. سنستمرّ على هذا المنوال عدَّة أسابيع. ربَّما خمسة أو ستة».

«سأبلغك في حال طرأت مستجدَّات».

وبهذا، انتهى الأمر الضروريّ الذي كان يجب أن نتناقش بشأنه. لكنَّ منشكي أضاف، وكأنَّه يتذكَّر فجأة:

«آه، بالمناسبة، عرفت بعض الحقائق عن الفترة التي أمضاها توموهيكو أمادا في ڤينّا. لقد قلتُ فيما سبق إنَّه اشترك في محاولة اغتيال قائدٍ نازيٍّ كبير، وقعتْ مباشرة بعد أنشلوس، في بداية خريف عام 1938 بالتَّحديد. أي بعد ستة أشهر من أنشلوس. أنت مطَّلعٌ على ظروف أنشلوس، أليس كذلك؟»

«لا أعرف تفاصيل دقيقة».

«لقد عَبَر الجيش الألماني، في الثاني عشر من مارس عام 1938، الحدود من جانب واحد، واقتحم النمسا وسيطر بلمح البصر على ڤينّا. ثمَّ هدَّد الألمانُ ميكلاس ـ رئيس النمسا، وأجبروه على تنصيب زعيم الحزب النازيّ النمساويّ زايس إنكفارت رئيسًا للوزراء. وزار هتلر ڤينّا بعد يومَيْن من ذلك؛ ثمَّ جرى استفتاء عام للشعب في النمسا في العاشر من أبريل للتَّصويت على اندماج النمسا مع ألمانيا. وشكليًّا، ظهر الاستفتاء على أنَّه حرّ، لكنَّه كان مليئًا بالحِيَل والخُطَط. فالتَّصويت ضدّ الاندماج يحتاج إلى شجاعة كبيرة من صاحبه. وكانت النتيجة هي الموافقة على الاندماج بنسبة 99.75 ٪. وهكذا مُحيت دولة النمسا من الوجود، وباتت مجرَّد ولاية إقليميَّة من الولايات الألمانيَّة. هل سبق لك أن زرت ڤينّا؟»

«تخيَّل... لم أغادر اليابان قطّ. بل لم ألمس جواز سفر في حياتي».

«ڤينّا مدينة لا مثيل لها في العالم. لو أقمتَ فترة فيها أدركتَ ما أقول. مختلفة عن ألمانيا. الجوّ مختلف والبشر مختلفون. الأطعمة

والموسيقى كذلك. ڤينّا مكان مميَّز للاستمتاع بالحياة وحبّ الفنون. لكنَّها في تلك الفترة، عاشت فوضى عارمة حقًّا، وهبَّت عليها رياح عنفٍ ووحشيَّة - في الفترة ذاتها التي أقام فيها توموهيكو أمادا. حتَّى موعد التَّصويت على الاستفتاء، سلك أعضاء الحزب النازيّ سلوكًا مؤدَّبًا وراقيًا. أمَّا وقد وصلوا إلى غايتهم، أماطوا اللِّثام عن جوهرهم الوحشيّ العنيف. أوَّل شيء أنشأه هيملر[1] بعد أنشلوس، كان معسكرات التَّجميع في ماوتهاوزن شمال النمسا. لم يستغرق بناؤها إلَّا أسابيع قليلة، لما كان لها من أولويَّة عند الحكومة النازيَّة. قُبض على عشرات الآلاف من الناس في وقتٍ وجيز بتُهم سياسيَّة، وأُرسِلوا إلى هناك. جلُّهم من المتَّهمين السياسيِّين «غير القابلين للإصلاح»، وعناصر معادية للمجتمع. وبالتالي، كانت معاملة المعتقلين في غاية القسوة. وأُعدم أغلبهم هناك، أو ماتوا تحت وطء العمل الشاقّ في تقطيع الأحجار من الجبال. ومعنى «غير قابلين للإصلاح»، أي أنَّهم لا يجدر بهم العودة من هناك أحياء. وكان المعارضون للنازيَّة يُعذَّبون ويُقتَلون أثناء الاستجواب قبل أن يُرسَلوا إلى المعسكرات. اختفى أناسٌ كثيرون من ظلامٍ إلى ظلام. ومعنى هذا أنَّ محاولة الاغتيال التي تُرجِّح مشاركة تومو هيكو فيها، وقعت أثناء الفوضى والاضطراب بعد أنشلوس.»

استمعتُ إلى حديث منشكي صامتًا.

«ولكنْ، كما ذكرتُ لك من قبل، لا وجود لأيّ توثيق رسميّ يَذكر وقوع محاولة الاغتيال في ڤينّا إبَّان تلك الفترة. وهذا غريب. غريبٌ

(1) هاينريش هيملر (1900 - 1945): من أقوى أعوان أدولف هتلر، تولى قيادة القوات الخاصَّة التي كانت معنيَّة بحماية هتلر. وكان صاحب فكرة إنشاء معسكرات الاعتقال وأنشأ العديد منها، وهو الذي أنشأ معسكر ماوتهاوزن شماليّ النمسا. (المترجم)

أنَّ هتلر وغوبلز لم يعلنا عن تفاصيلها واستغلَّاها سياسيًّا، مثل ليلة البلَّوْر. من المؤكَّد أنَّك تعرف «كريستال ناخت». أليس كذلك؟»

«بقدرِ ما» ـ سبق أن شاهدتُ في الماضي فيلمًا سينمائيًّا عن تلك الحادثة. «عندما أطلق أحد اليهود النار على دبلوماسيّ في سفارة ألمانيا في باريس، فقتله. واستغلَّت ألمانيا النازيَّة الحدث لتوسيع نطاق العنف ضدّ اليهود في كلّ أنحاء البلاد، فدُمِّرت المحالّ والمتاجر التي يديرها يهود، وقُتل عدد كبير منهم. وسُمِّيت بذلك، لأنَّ زجاج النوافذ كُسِّر وطار في الهواء لامعًا برَّاقًا مثل بلَّوْر الكريستال».

«بالضبط. وقعت تلك الحادثة في نوفمبر من عام 1938. وأعلنت الحكومة الألمانيَّة أنَّ العنف انتشر تلقائيًّا بين الجماهير. والحال، أنَّ الحزب النازيّ بقيادة غوبلز استغلّ الحدث، ونفَّذ تلك الأفعال الوحشيَّة الممنهجة. أمَّا منفِّذ الاغتيال هيرشيل جرينشبان، فقال إنَّه أقدم على الاغتيال اعتراضًا على معاملة عائلته بعنف واضطهاد في ألمانيا. خطَّط في البداية لاغتيال السَّفير الألمانيّ، لكنَّه لم يستطع. فأطلق النار على دبلوماسيّ يعمل في السَّفارة، وقعت عليه عيناه فقتله. ومن السُّخريَّة أنَّ فون رات، الدِّبلوماسيّ القتيل، كان معارضًا للنازيَّة، وكان تحت مراقبة الحكومة النازيَّة بسبب ذلك. عمومًا، لو حدث في ڤينّا شيء من هذا القبيل، تخطيطًا أم تنفيذًا، لَشنّ النازيُّون حملة مشابهة، وتذرَّعوا بالحادثة لمزيدٍ من القمع تجاه القوى المعارضة لهم، أو على الأقلّ يُفترض ألَّا يُدفن الخبر بسرِّيَّة تامَّة من هذا النوع».

«لا بدَّ من وجود سبب لعدم الإعلان عنه».

«يبدو أنَّ التخطيط للاغتيال وقع بالتَّأكيد. لكنَّ أغلب العناصر التي يُقال إنَّها اشتركت فيه كانوا طلَّابًا في جامعة ڤينّا، فقُبِض عليهم

جميعًا، وأُعدِموا. أي صمتوا إلى الأبد. وهناك تفسيرٌ آخر يقول إنَّه من ضمن أعضاء التَّنظيم المقاوم ابنة أحد قادة الحزب النازيّ، وهذا مردّ التكتُّم على الخبر. من الصَّعب التَّأكُّد من حقيقة ذلك التَّفسير. بعد انتهاء الحرب، ظهرت بعض الشهادات، لكنَّها بلا مصداقيَّة، لأنَّ أصحابها لا صلة وثيقةً لهم بما حدث. بالمناسبة، اسم التنظيم المقاوم هو «كانديلا». باللَّاتينيَّة يعني الشعلة التي تضيء ظلام الأنفاق. وأصل كلمة «كانتلا» اليابانيَّة، التي تعني القنديل، جاءت من تلك الكلمة.

«إذا كان كل المتورِّطين في العمليَّة قد ماتوا، فهل هذا يعني أنَّ الوحيد الذي بقي منهم على قيد الحياة هو توموهيكو أمادا؟»

«هذا ممكن. لقد أُحرقت كلّ المستندات السرِّيَّة المتعلِّقة بالقضيَّة، بناءً على أوامر من هيئة الأمن القوميّ قبل نهاية الحرب، وبذلك، دُفنت الحقائق في ظلام التاريخ. ربَّما كان من الأفضل لو استطعنا أن نسأل توموهيكو أمادا عن التَّفاصيل، ويبدو أنَّ هذا صعبٌ جدًّا الآن».

«أجل، هذا صعب. لم يبح توموهيكو بالسرّ لأيِّ أحد حتى الآن. ناهيك بذاكرته التي غرقت في قاع النسيان»!

شكرتُ منشكي، وأنهيتُ المكالمة.

لقد امتنع توموهيكو عن الحديث بتلك القضية حتى عندما كانت ذاكرته سليمة . لا بدَّ أنَّ السَّبب شخصيّ. وربَّما أقنعته السُّلطات عند مغادرته ألمانيا بالتزام الصمت. ومقابل صمته الأبديّ، ترك اللَّوحة الفنِّيَّة المسمَّاة «مقتل الكومنداتور» التي أودع فيها حقيقة ما جرى، أو مشاعره بالخصوص بعد أن مُنع من التَّعبير عنها بالكلمات.

اتَّصل بي منشكي في مساء اليوم التالي، وأخبرني أنَّه تقرَّر مجيء مارية إلى بيتي في العاشرة من صباح الأحد القادم. ستأتي مع عمَّتها. ولن يظهر منشكي في أوَّل يوم.

«سأظهر بعد مرور فترةٍ تكون مارية خلالها قد تعوَّدت على العمل معك» ـ قال. «ستكون مرتبكة في البداية؛ ولا أريد إرباكها أكثر».

كان في صوته توتُّرٌ غير معتاد، ما أدَّى إلى فقداني الطمأنينة. فأجبتُ: «حقًّا، هكذا أفضل».

قال، بعد تردُّد وجيز: «ولكنْ، قد أكون مرتبكًا أكثر منها». ثمَّ أضاف، وكأنَّه يبوح بسرّ: «أخبرتك مسبقًا أنَّني لم أقترب منها من قبل. ولم أرها حتى من بعيد».

«لكنَّك كنتَ قادرًا على اختلاق فرصة للاقتراب منها، أليس كذلك؟»

«بالتَّأكيد. لو كنت أريد لاستطعتُ».

«ما سبب أنَّك تتعمَّد عدم فعل ذلك؟»

استغرق منشكي وقتًا في اختيار الكلمات على غير عادته، ثمَّ قال: «السَّبب أنَّني لم أستطع توقُّع مشاعري وأقوالي إذا كانت قريبة مني بشحمها ولحمها. لذا، تعمَّدتُ الاقتراب منها، واكتفيت بالنَّظر إليها من الجهة المقابلة من الوادي بذلك المنظار. هل ترى أنَّ لي ذهنيَّة مشوَّهة؟»

«لا، أبدًا. سوى أنَّني أراها غريبة نوعًا ما. في أيِّ حال، لقد اتَّخذتَ قرارًا بمقابلتها هنا في بيتي. ما السَّبب؟»

التزم منشكي الصمت، ثمَّ قال: «السَّبب أنَّك ستكون بيننا. أي ثمَّة ما يُشبه الوسيط بيننا».

دُهشِتُ، فقلت: «أنا؟ لماذا أنا بالذات؟ اعذرني. ولكنَّك يا سيِّد منشكي لا تكاد تعرف عنِّي شيئًا. وأنا كذلك لا أكاد أعرف عنك شيئًا. لقد تعارفنا منذ أقلّ من شهر واحد، بمجرَّد أنَّنا نسكن على طرفَي الوادي. لكنَّنا آتيان من بيئتَيْن مختلفتَيْن كثيرًا. فلماذا تثق بي إلى هذه الدَّرجة، وتبوح لي بأسرارك الشَّخصيَّة؟ فأنت يا سيِّدي، لا تبدو أنَّك من الرجال الذين يبوحون للآخرين بكلِّ ما في قلوبهم بسهولة».

«معك حقّ. إنَّني من الرجال الذين إذا ائتُمنوا على سرٍّ أودعوه في خزانة حديديَّة وأقفلوا عليه بالمفتاح، وابتلعوا المفتاح إلى الأبد. لا أستشير أحدًا ولا أبوح بأسراري لأحد».

«فما الذي يجعلك... ما الذي يجعلك منفتحًا معي إلى هذا الحدّ؟»

صمت منشكي لحظات، وقال: «لا أستطيع أن أشرح لك السَّبب جيِّدًا، لكنِّي شعرتُ منذ أن قابلتك بأنَّني في مأمن. ما يشبه الحدْس. وبعد أن رأيت البورتريه الذي رسمتَه لي، تأكَّدتُ أكثر من حدْسي. أنت جديرٌ بالثقة. وتأكَّدت من أنَّك ستتقبَّل ذهنيَّتي بأريحيَّة ودونما افتعال، على غرابتها وريبتها».

فقلتُ لنفسي: ذهنيّة غريبة ومريبة حقًّا. ثمّ قلتُ له: «أنا سعيد بكلامك هذا. لكنِّي لا أعتقد أنَّني سأفهمك حقًّا. فطريقتك في التَّفكير تفوق قدرتي على الفهم. وإن أردتَ الصدق، فإنَّ كثيرًا من أفعالك تسبِّب لي الدَّهشة والعجب. وأحيانًا، أفقد القدرة على النطق إزاءها».

«لكنَّك لا تحاول إصدار حكم عليَّ، أليس كذلك؟»

لن أفعلها الآن، وقد قالها على مسمعي. لم أحاول البتَّة أن أصدر حكمًا على طريقة حياته وأقواله بناء على معاييري. ولم أكن أمدحه ولا أقدحه. إنَّما أُدهَش فقط.

فاعترفت له: «أجل، قد تكون على حقّ».

«هل تذكر عندما نزلتُ إلى قاع الحُفرة؟ وبقيتُ فيها مدة ساعة؟»

«طبعًا».

«لم تفكِّر في أن تتركني وحيدًا في تلك الحفرة الباردة والمظلمة إلى الأبد. كنتَ قادرًا، لكنَّ الفكرة بحدِّ ذاتها لم تطرأ على بالك. صحيح؟»

«صحيح، ولكنْ يا سيِّد منشكي، لن يفكِّر أيُّ إنسان طبيعيّ بفعل ذلك».

«هل أنت متأكِّد؟»

عجزتُ عن الردّ على ذلك السؤال. لا أستطيع أن أتخيَّل بما يفكِّر الآخرون في أعماقهم!

«اسمع، لديَّ رجاء آخر عندك»، قال.

«ما هو؟»

«بشأن حضور مارية وعمَّتها صباح الأحد. هلَّا سمحتَ لي برؤية بيتك من خلال المنظار المكبِّر؟»

قلتُ له لا أمانع. فحتَّى الكومنداتور يراقبني عن كثب، وأنا أمارس الجنس مع عشيقتي. فلا ضير في أن يراني هو بالمنظار من الطرف الآخر للوادي.

دافع منشكي عن نفسه: «رأيت من الأفضل أن أستأذنك مسبقًا».

انبهرتُ بغرابةِ صدقِ هذا الرجل. ثمَّ أنهينا حديثنا، وأغلقتُ السمَّاعة. وشعرت بألمٍ في أذني، بسبب طول المكالمة.

في اليوم التالي، وصلني بريدٌ بعلم الوصول ومعرفة المحتوى[1]. وقَّعتُ على الوصل، فأعطاني ساعي البريد ظرفًا كبيرًا. لم أشعر بالفرح عندما أمسكته بيدي. فبناء على الخبرات السَّابقة، لا يُفترض أن يحتوي البريد الموصّى بخبر سعيد.

وكما توقَّعت، كان المرسِلُ مكتبَ محاماة، وفي الظرف نسختان من أوراق الطلاق. إضافة إلى رسالة صغيرة من مكتب المحاماة، وظرف آخر مدموغ لاستخدامه في الردّ. لا يجب عليَّ فعل شيء سوى قراءة المكتوب في الأوراق والتحقُّق منه، ووضع ختمي الرّسميّ على إحدى النُّسختَيْن وإعادتها إلى المُرسل، في حال عدم وجود اعتراض من جانبي. وإن كان لديَّ أيُّ تساؤل أو استفسار، فيُمكنني التَّوجُّه مشكورًا إلى المحامي الذي سيتولّى الموضوع. مررتُ ببصري سريعًا على الأوراق، ثمَّ كتبت تاريخ اليوم، وختمتها. لم يكن لديَّ أي «تساؤل» بشأن المحتوى. فلا وجود لالتزامات ماليَّة على أيِّ طرف، وما من ثروةٍ تُقسَّم بيننا، وما من أطفال نتصارع على الحقّ في حضانتهم. كان طلاقًا في منتهى البساطة والوضوح. بل يمكن وصفه بطلاق للمبتدئين. حياتان اندمجتا معًا في حياة واحدة. وبعد ستّ سنوات، افترقتا من جديد. هذا كلُّ ما في الأمر. وضعتُ تلك الأوراق في الظرف المخصَّص لإعادتها بالبريد، وتركتُ الظرف على طاولة الطعام بالمطبخ. لم يبقَ سوى إيداعه في الصندوق الذي أمام المحطَّة، عندما أذهب غدًا إلى مدرسة الرَّسم.

تأمَّلتُ الظرف وأنا شارد الذهن طوال فترة العصر من دون رغبة، وفكَّرتُ خلالها بأنَّه يحتوي على ثقل الحياة الزوجيَّة التي وصلت

(1) أحد الإجراءات القانونيَّة في اليابان أن يوقع المُرسَل إليه على استلامه البريد وعلى علمه بمحتواه حتَّى لا يُنكر مستقبلًا ذلك أمام القضاء. (المترجم)

إلى ستّ سنوات بالكامل. ذلك الوقت فقط ـ هنا تصطبغ العديد من الذكريات والمشاعر ـ يُخنَق في ظرفٍ عاديّ، في طريقه إلى الاحتضار تدريجيًّا. وكلَّما تخيَّلت المنظر، ضغطتْ على صدري أعباء ثقيلة، وضاقت أنفاسي. أخذتُ الظرف وذهبت به إلى المرسم، ووضعته على الرفّ بجانب الجرس القديم المتَّسخ. أغلقتُ باب المرسم، وعدتُ إلى المطبخ، وصببتُ لنفسي الويسكي التي أهداها إليَّ ماساهيكو أمادا، وشربتُ. ورغم قراري بعدم الشرب في النهار، فإنَّني لا أمانع ذلك أحيانًا. كان المطبخ يغرق في سكون تامّ. لا ريح ولا ضوضاء سيَّارات. ولا طيور تصيح.

ما من مشكلة في الطلاق ذاته، لأنَّنا كنَّا فعليًّا كالمطلَّقيْن. ولم يكن لديَّ أيّ اهتمام تجاه ختم الأوراق الرَّسميَّة. إن كانت تلك رغبتها، فليس لديّ اعتراض. فهذا الأمر لا يزيد عن كونه مجرَّد إجراء قانونيّ.

ولكنْ... ولكنْ، كيف، ولماذا وصلت بنا الأمور إلى هذه الحال؟ أفهم أنَّ قلوب البشر تتقارب وتتباعد مع مرور الزمن، ومع تغيُّر الأحوال. فحركة القلب ديناميكيَّة محض، ولا يمكن السَّيطرة عليها بالقانون أو العادات أو البديهيَّات. تُحلِّق بحريَّة تامَّة. مثلما أنَّ الطيور المهاجرة لا تقيم اعتبارًا لمفهوم الحدود بين الدُّوَل.

هذه مجرَّد تبريرات عامَّة. إلَّا أنَّني لم أستطع أن أفهم، في حالتنا، سبب رفض يوزو مضاجعتي، واختيارها رجلًا آخر. إنَّني أخضع لعقاب في منتهى القسوة والعنف، ناهيك أنَّه خارج المنطق. لكنِّي لا أغضب (على ما أعتقد). متى أغضب من كلّ قلبي تجاه شيء ما؟! كنتُ في حالةِ شللٍ عاطفيّ، شللٍ يولِّده القلب آليًّا ليخفِّف من آلامٍ يعانيها، عندما يودّ شخصًا ولا يستطيع الحصول عليه. عمليَّة تخديرٍ للروح.

عجزتُ عن نسيان يوزو بسهولة. قلبي ما يزال يطلبها. ولكنْ لو افترضتُ أنَّها تسكن في الجهة المقابلة من الوادي، وأنَّني أمتلك منظارًا فائق القدرات، فهل سأتلصَّص على حياتها كلّ يوم؟ كلَّا، من المؤكَّد أنَّني لن أفعل شيئًا كهذا؛ بل لن أختار الإقامة في المكان نفسه. فهذا أشبَه بأن يصنع المرء أداة تعذيب، ويستخدمها ضدّ نفسه.

بسبب السُّكْر من الويسكي، دخلت الفراش قبل الثامنة، ونمت. ثمَّ استيقظتُ في الواحدة والنصف ليلًا، ولم أستطع النوم من بعد. ما زال وقتٌ طويلٌ حتَّى شروق الشمس، الأمر الذي يثير الإحساس بالتعاسة. لم أستطع قراءة أيّ كتاب، ولا سماع الموسيقى، بل جلستُ وحيدًا على أريكة غرفة المعيشة، أحملق في الفراغ المظلم الذي لا وجود فيه لأيِّ شيء. وأفكِّر في أمور عديدة. ولا يجدر بي التَّفكير في أغلبها.

حبَّذا لو كان الكومنداتور بجواري. حبَّذا لو تبادلتُ معه أطراف الحديث. لو سمعتُ صوته. كان صوته يكفيني.

لكنَّه لم يتجسَّد في أيِّ مكان، ولم أكن أملك وسيلة لاستدعائه!

- 30 -
أعتقد أنَّ الأمر يختلف من شخص لآخر

بعد ظهر اليوم التالي، أودعتُ أوراق الطلاق، التي ختمتها، في صندوق البريد. لم أرفق بها أيّ رسالة. اقتصرتُ على وضعها في الظرف المخصَّص لإعادة الإرسال المرفق بطابع البريد، وألقيته في الصندوق أمام محطَّة أوداوارا. بدا أنَّ مجرَّد اختفاء الظروف من البيت، خفَّف كثيرًا من العبء الثقيل الذي أحمله في قلبي. لا أدري المسار القانونيّ الذي ستسير فيه تلك الأوراق. لا يهمّ. فلتسِر في المسار الذي يروقها.

وفي صباح يوم الأحد، جاءت مارية أكيكاوا إلى بيتي قبل العاشرة بقليل. صعدت المنحدرَ سيَّارةُ تويوتا بريوس زرقاء من دون أن تصدر صوتًا، وتوقَّفت بسكون أمام مدخل البيت. تألَّق هيكل السيَّارة تحت الشمس الصباحيَّة، فبدت السيَّارة جديدة تمامًا، وكأنَّه نُزع عنها غلافها توًّا. تأتي إلى بيتي مؤخَّرًا سيَّارات متنوِّعة: سيَّارة منشكي الجاغوار الفضِّيَّة، وسيَّارة عشيقتي الميني الحمراء، والإنفينيتي السَّوداء التي

أرسلها لي منشكي، وسيَّارة ماساهيكو أمادا الڤولڤو السَّوداء قديمة الطراز، وأخيرًا سيَّارة تويوتا بريوس الزرقاء التي تقودها عمَّة مارية. وبالتَّأكيد، لا ننسى سيَّارتي الكارولا واغن (التي بسبب تراكم الغبار عليها، لم أعد أذكر لونها الأصليّ). يختار الناس السيَّارة التي يقودونها لأسباب مختلفة، لكنّي لن أفهم بالطبع سبب اختيار العمَّة لسيَّارة تويوتا بريوس الزرقاء. عمومًا، بدت السيَّارة مثل مكنسة عملاقة تعمل في تفريغ الهواء.

انطفأ محرِّكها الهادئ، فعادت السكينة إلى المكان. فُتح الباب ونزلت منه مارية وعمَّتها. تبدو المرأة شابَّة، لكنَّها قد تكون في مطلع الأربعينيَّات من عمرها. تضع نظَّارة شمس غامقة، وترتدي فستانًا بلون أزرق فاتح، وفوقه معطف صوفيّ رماديّ. تمسك حقيبة يد سوداء لامعة، وتنتعل حذاءً بلون رماديّ غامق منخفض الكعب، يتناسب مع قيادة السيَّارة. نزعتِ النظَّارة الشمسيَّة ووضعتها في حقيبة اليد، بعد أن أغلقت باب السيَّارة. شعرها طويل حتَّى الكتفَيْن، مجعَّدٌ بشكل جميل (لكنَّه ليس على درجة من الكمال تخالها قد خرجت من غرفة مصفِّف الشعر للتوّ). لا تضع حلِيًا ظاهرة للعيان، فقط دبوس ذهبيّ على ياقة الفستان.

أمَّا مارية، فكانت ترتدي سترة قماشيَّة سوداء ما بين القطن والصوف، وتنُّورة صوف بنِّيَّة تصل إلى ركبتَيْها. لم يسبق لي رؤيتها إلَّا بزيّ المدرسة الموحَّد. لذا، اختلف انطباعي عنها كثيرًا عن المعتاد. عندما وقفتا بجوار بعضهما بعضًا، بدتا كأنَّهما أمٌّ وابنتها من أسرة راقية. لكنِّي كنتُ أعرف من خلال منشكي أنَّهما ليستا كذلك.

كنتُ أراقبهما كعادتي مع الزوَّار، من خلال فتحة الستائر في النافذة المطلَّة على المدخل. ثمَّ دقَّ جرس الباب، فذهبت وفتحتُ الباب.

كانت لعمَّة مارية ملامح وجه جميلة، وتتحدَّث بطريقة هادئة للغاية. لم تكن بالجمال الذي يجذب الأنظار، لكنَّها من النوع الراقي. تبرز ابتسامتها العفويَّة على فمها بحياء، مثل قمر أبيض يظهر في الصباح. كانت تمسك في يدها لفَّة من الحلوى هديةً. لا ضرورة بتاتًا لحمل هديَّة، فأنا من طلب أن تكون مارية أكيكاوا موديلًا لأرسم لها لوحة. من المؤكَّد أنَّها تربَّت من صغرها على واجب الإتيان بهديَّة عند زيارة شخص للمرَّة الأولى. لذا، تقبَّلتُ الهديَّة بتلقائيَّة، وشكرتُها عليها. ثمَّ أرشدتُ الاثنتَيْن إلى غرفة المعيشة.

قالت عمَّة مارية (كان اسمها شوكو أكيكاوا. وشَرَحتِ الاسم بأنَّ شو تعني الناي): «البيت الذي نسكن فيه قريب بالنَّظر إليه من مسافة مستقيمة، لكنّ طريق السيَّارة يوجب انحناءات متعدِّدة. أنا أعرف طبعًا أنَّ هذا بيت الأستاذ توموهيكو أمادا الشَّهير، لكنَّها المرَّة الأولى الذي نأتي فيها إلى هنا».

شرحتُ لها قائلًا: «لقد سُمح لي الإقامة في هذا البيت منذ ربيع العام. أؤدِّي دور الحارس. اضطررتُ لذلك لأسباب شخصيَّة».

«هذا ما سمعتُه. يسعدني أن نكون جيرانًا. وآمل أن تكون بخير هنا».

شكرتني شوكو باحترام، لأنِّي أعلِّم ابنة أخيها الرَّسم؛ وقالت إنَّها بفضل ذلك، تتردَّد على فصول تعليم الرَّسم باستمتاع ولهفة.

«لا نصل إلى درجة التَّعليم، لكنَّنا نستمتع بالرَّسم معًا»، قلت.

«عرفتُ أنَّك بارع جيِّدًا في التَّعليم. سمعتُها من كثيرين».

لا أعتقد أنَّ من يمدح تعليمي كثر، لكنِّي لم أعلِّق، والتزمت الصَّمت إزاء المديح. كانت شوكو أكيكاوا امرأة مهذَّبة حسنة التربية.

عندما يُنظر إلى مارية أكيكاوا وشوكو أكيكاوا جالستيْن بجوار بعضهما بعضًا، فأوّل ما يخطر في بال المرء أنّه ما من ملامح متشابهة في وجهَيْهما. مع أنّهما من مسافة بعيدة تبدوان أمًّا وابنتها. لكنّي أدركتُ عدم صواب ذلك. فملامح وجه مارية حسنة التّنسيق، وشوكو تدخل في تصنيف الجميلات بلا أيّ جدال، غير أنّ الملامح مختلفة، إلى درجة التضادّ نوعًا ما. فإن كان وجه السيّدة يبدو مثالًا عن التوازن، فإنّ وجه الصبيّة متمرّد يسعى إلى تحطيم الأطر. وإن كانت العمّة تطمح إلى الانسجام، فابنة أخيها تبتغي الخصام. ومع ذلك، يتّضح الوئام العائليّ بينهما. وئامٌ قد لا يتحقّق فعلًا إذا كانتا أمًّا وابنتها. أو هذا هو انطباعي عنهما على الأقلّ!

وبالتأكيد، لا حيلة لي لمعرفة سبب بقاء امرأة جميلة وراقية مثلها عزباء حتّى عمرها ذلك، وتقنع بالعيش مع عائلة أخيها الأكبر فوق جبل منعزل. قد يكون حبيبها في الماضي يعشق تسلُّق الجبال، ثمّ لقي حتفه عندما حاول تسلُّق قمّة تشومولانغما (إحدى قمم جبال الهيمالايا) في أصعب مسارات التّسلُّق؛ فقرّرت أن تبقى عزباء إلى الأبد وهي تحمل تلك الذكريات الجميلة في قلبها. أو قد تكون منذ فترة طويلة في علاقة غير شرعيّة برجل وسيم له زوجة وأسرة. بأيّ حال، لا شأن لي بها.

ذهبت شوكو إلى جوار النافذة الغربيّة، ونظرت باهتمام عميق إلى الجهة المقابلة من الوادي. وقالت بانبهار: «الجبل المقابل نفسه، لكنّ زاوية الرؤية تتغيّر، فتجعله يبدو مختلفًا كثيرًا».

يبدو بيت منشكي الأبيض هناك متلألئًا (ولعلّه كان ينظر إلينا بالمنظار). تُرى كيف يبدو بيته بالنّظر إليه من بيتها؟ أردتُ التّحدُّث

بهذا الأمر معها، لكنّي استشعرتُ خطورةً في طرح الموضوع منذ اللّقاء الأوّل. من يدري كيف سيتطوّر مجرى الحديث!

وتلافيًا لأيّ تعقيدات، أخذتُهما إلى المرسم. قلتُ: «ستكون مارية موديلًا في هذا المرسم».

«لا بدَّ من أنَّ الفنان توموهيكو أمادا كان يعمل في هذا المرسم أيضًا. أليس كذلك؟» قالت شوكو وهي تنظر حولها هناك.

«أعتقد ذلك».

«غريب... يبدو المكان هنا مختلف في جوّه العامّ عن باقي البيت. ألا ترى هذا؟»

«لا أدري... فأنا أعيش هنا، ولم ألحظ الأمر، تبدو لي غرفةً كالغرف الأخرى».

توجّهتْ شوكو بالسّؤال إلى مارية: «ما رأيك يا مارية؟ ألا تشعرين بأنَّ للمرسم جوًّا خاصًّا؟»

كانت مارية مشغولة بتأمُّل كلّ الأغراض هناك، فلم تجب. لم يصل سؤال عمّتها إلى أذنَيْها. مع أنّني رغبتُ بسماع رأيها.

«هل من الأفضل أن أنتظر في غرفة المعيشة أثناء عملكما هنا؟» سألتني شوكو.

« هذا يعتمد على مارية. أهمّ ما في الأمر توفير البيئة التي تشعرها بالاسترخاء. أمّا بالنّسبة إليّ، لا فرق إذا بقيتِ هنا أو جلستِ هناك».

تكلّمتْ مارية لأوّل مرّة في ذلك اليوم، وقالت: «من الأفضل ألّا تبقى عمّتي هنا».

كان إعلانًا بصوت هادئ وفي منتهى الإيجاز، وليس فيه تنازل.

فأجابت عمَّتها من دون أن تبالي بفظاظتها: «سأفعل ما تفضّله مارية. توقَّعتُ ذلك. لذا، هيَّأتُ نفسي، وأحضرتُ معي كتابًا لأقرأه» ـ لا بدَّ أنَّها معتادة على مثل ذلك الحوار يوميًا.

تجاهلت مارية ما قالته عمَّتها تمامًا، وقوَّست خصرها قليلًا للنَّظر من الواجهة إلى لوحة «مقتل الكومنداتور» المعلقة على الحائط. كانت تحدِّق إليها مطوَّلًا وبجدِّيَّة. تتفحَّص كلّ تفصيلاتها واحدًا واحدًا، وتحاول أن تنقش كلّ عناصر اللَّوحة في ذاكرتها. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يرى فيها أحدٌ غيري تلك اللَّوحة. نسيتُ أن أنقلها مسبقًا كي لا تقع عينُ أحدٍ عليها. لكنِّي قلت لا بأس، لم يَعُد في اليد حيلة.

جرَّبتُ أن أسألها: «هل أعجبتك تلك اللَّوحة؟»

تجاهلت مارية هذا السُّؤال أيضًا. يبدو أنَّ صوتي لم يصل إلى أذنَيْها، بسبب تأمُّلها اللَّوحة بتركيزٍ شديد. أم أنَّها تجاهلت السُّؤال حقًّا؟

فقالت عمَّتها، كأنَّها تتوسَّط بيننا: «المعذرة. فالطفلة غريبة الأطوار قليلًا. ربَّما تتميَّز بقوَّة تركيز عالية. فإذا ركَّزت في شيء ضاق عقلها بالأشياء الأخرى. هي كذلك منذ صغرها. إزاء أيِّ شيء. سواء أكان كتبًا أم موسيقى، أم لوحة، أم فيلمًا».

لا أدري لماذا غاب عن بال كلٍّ منهما أن تسألا: هل اللَّوحة لتوموهيكو أمادا؟ فتعمَّدتُ عدم التوغُّل في الأمر؛ ولم أخبرهما أنَّ عنوانها «مقتل الكومنداتور». فكَّرتُ أنْ لا مشكلة في أن ترى هاتان المرأتان اللَّوحة. فعلى الأرجح، أنَّهما لن تنتبها إلى أنَّها عمل فنّيّ

في منتهى الخصوصيَّة لا تتضمَّنه مجموعة لوحات توموهيكو أمادا. سيختلف الأمر إذا رآها منشكي أو ماساهيكو.

تركتُ مارية تتأمَّل اللَّوحة حتى ترضى تمامًا. ذهبتُ إلى المطبخ، وسخَّنت مياهًا وأعددتُ الشاي. ثمَّ حملتُ الآنيَّة وعليها الأكواب وبرَّاد الشاي إلى غرفة المعيشة. وأضفتُ البسكويت الذي أحضرته شوكو. وجلسنا أنا وهي على مقعدَيْن في غرفة المعيشة، وتناولنا الشاي، وتحدَّثنا أحاديث عامَّة (عن الحياة في الجبل وطقس الوادي). من الضروريّ بالنِّسبة إليَّ أن أحاور أحدًا بحديث عام قبل البدء في العمل.

لكنَّ مارية، بعد أن فنَّدت «مقتل الكومنداتور»، بمفردها، تجوَّلت في كلّ ركن من أركان المرسم مثل قط شديد الفضول. وكانت تمسك الأشياء بيدها كي تتأكَّد منها. فرشاة الرَّسم، الألوان، اللَّوح، ثمَّ الجرس الذي أُخرِجَ من الحفرة. أخذت الجرس في يدها، وهزَّته عدَّة مرَّات، فصدر الصوت المعتاد.

«لماذا يوجد هذا الجرس القديم هنا؟» سألتْ مارية من دون التوجُّه إلى شخصٍ بعينه. لكنَّها كانت تقصدني أنا بالطبع.

فأجبت: «لقد وجدته تحت الأرض، بجوار البيت، صدفةً. وأعتقد أنَّ له علاقة بالبوذيَّة. يهزُّه الرَّاهب وهو يتلو الكتب المقدَّسة».

هزَّته مرَّة أخرى بجوار أذنها، وقالت: «صوته غريب نوعًا ما».

انبهرتُ مجدَّدًا من أنَّ ذلك الصوت الخافت كان يصل إليَّ من عمق تلك الأرض تحت الغابة حتَّى بيتي. وربَّما له طريقة معيَّنة كي يرنّ.

نبَّهتْ شوكو بنتَ أخيها قائلة: «لا يجب عليكِ لمس الأشياء بهذه الطريقة في بيوت الآخرين».

«لا مانع. ليس بالشيء المهمّ»، قلت.

لكنَّ مارية لم تَعُد تهتمّ بالجرس، فأعادته إلى الرفّ، وجلست على المقعد العالي في منتصف المرسم، وتأمَّلت المنظر من النافذة.

«حان وقت العمل إن لم يكن لديكما مانع»، قلت.

فأجابت شوكو بابتسامة راقية: «حسنًا، سأقرأ الكتابَ هنا بمفردي أثناء ذلك».

ثمَّ أخرجت من حقيبتها السّوداء كتابًا سميكًا من حجم نسخ الجيب، مغلَّفًا بغلاف إحدى المكتبات. تركتُها هناك ودخلت المرسم، وأغلقتُ الباب الذي يفصله عن غرفة المعيشة. وبذلك، أصبحنا أنا ومارية أكيكاوا بمفردنا.

أجلستُها على كرسيّ مزوَّد بمسند للظهر، أتيتُ به من المطبخ. وجلستُ أنا كالمعتاد على المقعد العالي. المسافة بيننا نحو مترَيْن.

«هل يمكنك الجلوس هكذا بعض الوقت؟ لكِ مطلق الحرّيّة في اتّخاذ الوضع الذي تفضّلين، ويمكنك التّحرّك بما يناسبك، ما دمتِ لا تغيّرين جلستك بشكلٍ عام. لا ضرورة للثبات على وضعٍ واحد من دون حركة».

«هل يمكنك أن تتكلَّم أثناء الرَّسم؟» سألتْ.

«لا مانع بالتّأكيد. فلنتحدَّث».

«الصورة التي رسمتها لي في ذلك اليوم كانت رائعة جدًّا».

«أتقصدين الرسمة التي رسمتُها على السبُّورة بالطباشير؟»

«من المؤسف أنَّها مُسحت.»

ضحكتُ، وقلت: «مستحيل أن تظل على السبُّورة إلى الأبد. ولكنْ إن أعجبتك، فبإمكاني أن أرسمها لك مرارًا. لأنَّها سهلة جدًّا».

لم تجب. أمسكتُ بيدي قلمَ رصاص، واستخدمته مسطرةً، وقستُ عناصر تقاطيع وجه مارية. عند رسم المسوَّدة، ثمَّة ضرورة لاستيعاب تقاطيع وجه الموديل وتفاصيله بدقَّة، مستغرقًا الوقت اللَّازم، مهما كانت نتيجة الرَّسم النِّهائيّ.

قالت مارية بعد صمتٍ دام لفترة، وكأنَّها تذكَّرت فجأة: «أعتقد يا أستاذ أنَّك موهوب في الرَّسم».

«شكرًا. قولك هذا يمدُّني بشجاعة كبيرة»، أجبتُ بصدق.

«حتَّى أنت تحتاج إلى شجاعة يا أستاذ؟»

«أكيد. الشجاعة ضروريَّة لأيّ إنسان».

أخذتُ دفتر الرَّسم الضخم، وفتحته على صفحة بيضاء.

«من الآن، سأبدأ في رسم مسوَّدة. أُفضِّل استخدام الألوان والرَّسم مباشرة على اللَّوح من البداية. لكنِّي هذه المرَّة، سأرسم مسوَّدة كما ينبغي، لأنِّي أريد أن أفهم شخصيَّتك شيئًا فشيئًا».

«تفهم شخصيَّتي؟»

«رسم الوجه يعني أن نفهم شخصيَّة صاحبه، ثمَّ نفسِّرها. ليس من خلال الكلمات، إنَّما من خلال الخطوط والأشكال والألوان».

«أنا أيضًا أودُّ أن أفهم شخصيَّتي».

وافقتها قائلًا: «وأنا أيضًا أودّ أن أفهم شخصيَّتي. فالأمر ليس هيِّنًا. ولهذا السَّبب، أرسم».

رسمتُ رسمة سريعة لوجهها ونصفها الأعلى بقلم الرَّصاص. كان من الجوهريّ أن أحوِّل العمق وأستعيده على السطح، ونقل الحركة أيضًا. فهذه وظيفة الرسم.

قالت مارية: «ألا ترى أنَّ صدري صغير؟»

«هل هو كذلك حقًّا؟»

«صغيرٌ بحجم خبزةٍ لم تنضج».

ضحكتُ، وقلت: «لقد دخلتِ المدرسة المتوسّطة توًّا. سيكبر صدرك من الآن فصاعدًا. ليس هناك ما يستوجب قلقك».

«لا أحتاج إلى حمّالة الصدر. مع أنَّ كلّ زميلاتي في الفصل يستعملنها».

فعلًا، لم ألاحظ ما يشبه النهد تحت معطفها. فقلتُ لها: «إن كان الأمر يسبِّب لك مشكلة، فبإمكانكِ أن تضعي أيّ شيء يُبديه كبيرًا».

«هل تريدني أن أفعل ذلك؟»

«لا يهمّ بالنِّسبة إليَّ. لا أهدف من اللّوحة أن أرسم صدرك الناهد. افعلي ما يروقك».

«ولكنْ، ألا يحبُّ الرجال النساء ذواتِ الصدر الكبير؟»

«ليس بالضرورة. شقيقتي عندما كانت في عمرك، كان صدرها صغيرًا. لكنَّها لم تكن تهتمّ للأمر إطلاقًا».

«ربَّما كانت تهتمّ، لكنَّها لم تُخبرك».

«ربَّما». لكنّي أعتقد أنَّ كومي لم تكن تهتمّ بالأمر بتاتًا، إذ كان لديها ما يجب أن تهتمّ به.

«هل كبر صدر أختك فيما بعد؟»

كنت منشغلًا بتحريك قلم الرَّصاص في الرَّسم، ولم أجب عن السُّؤال. وظلّت مارية أكيكاوا تنظر بثبات إلى حركة يدي.

ثمّ ردَّدت السُّؤال: «حسنًا، هل كبر صدرها فيما بعد؟»

أجبت مستسلمًا: «كلّا. لم يكبر. توفِّيت شقيقتي في العام الذي دخلت فيه المدرسة المتوسِّطة، ولم تكن تبلغ من العمر إلّا اثني عشر عامًا».

سكتت مارية بعد ذلك.

ثمّ سرعان ما غيّرت الموضوع: «ألا ترى أنّ عمّتي امرأة جميلة جدًّا؟»

«إنّها جميلة حقًّا».

«أنت أعزب يا أستاذ، أليس كذلك؟»

«تقريبًا».

حالما يصل ذلك المظروف إلى مكتب المحاماة، سأصبح أعزبَ كليًّا.

«أليس لديك رغبة في مواعدتها؟»

«حسنًا. يسعدني ذلك».

«وصدرها كبير».

«لم ألحظ».

«لصدرها شكلٌ في غاية الجمال. أعرفه جيّدًا، لأنّنا نستحمّ معًا».

دقّقتُ النّظر في وجه مارية أكيكاوا، وقلتُ: «تبدين على علاقة جيّدة بعمّتك».

«نتعارك أحيانًا».

«لماذا؟»

«لأسباب متعدّدة. عندما تختلف آراؤنا، أو لمجرّد أنّنا غاضبتان».

«أنتِ فتاة عجيبة. شخصيّتكِ الآن مختلفة تمامًا عمّا تكونين عليه في الدّرس! كنت أراكِ في المدرسة قليلة الكلام».

فأجابت بسرعة، وبلا تحفُّظ: «لا يعجبني التّحدُّث كثيرًا في مكانٍ لا أرغب بالتحدُّث فيه. هل تحدَّثتُ اليوم أكثر من اللّازم؟ أم من الأفضل أن ألتزم الهدوء؟»

«ليس هذا ما أقصده بالتَّأكيد. فأنا أحبّ التَّحدُّث. لا مانع أبدًا من أن تتحدَّثي أكثر وأكثر».

كان الحديث معها يعجبني حقًّا. فلا يمكن الصمت مدَّة ساعتَيْن متتاليتيْن أثناء الرسم.

«أنا قلقة جدًّا بشأن صدري. أفكِّر في أمره كلّ يوم. هل هذا غريب؟»

«لا أعتقد أنَّه غريب. فهذا معتاد في مثل عمرك. أذكر أنَّني في عمركِ كنتُ لا أفكِّر إلَّا في عضوي. كنت أخشى أن يأخذ شكلًا غريبًا، أو أن يبقى قصيرًا، أو ألَّا يعمل...»

«وكيف الوضع الآن؟»

«تقصدين كيف أرى عضوي الآن؟»

«أجل».

قيَّمتُ السُّؤال، وقلت: «لم أعد أفكِّر فيه تقريبًا. أعتقد أنَّه طبيعيّ جدًّا، ولا أشعر بأيّ مأزق بسببه».

«وما رأي النساء فيه؟ هل يمدحنه؟»

«أحيانًا، ونادرًا. قد يمدحنه لمجرَّد المجاملة. مثلما يمدحنَ لوحاتي».

فكَّرت مارية لفترة، ثمَّ قالت: «أنت غريب الأطوار قليلًا، يا أستاذ».

«حقًّا؟»

«عادةً، لا يتحدَّث الرجال بهذه الأمور بسهولة. أبي مثلًا، لا يتحدَّث معي في هذه الأمور».

«من الطبيعيّ أنَّ الأب لا يتحدَّث مع ابنته عن عضوه الذكريّ»، كنت أنظر إليها وأرسم في الوقت نفسه.

«متى تكبر حلمة الثدي؟» سألتني مجدَّدًا.

«حسنًا، لا أعرف عنه شيئًا، لأنَّني رجل. لكنِّي أعتقد أنَّ الأمر يختلف من شخص لآخر».

«هل كان عندك صاحبةٌ وأنت صغير؟»

«أوَّل صاحبة عندي، حين كنت في السَّابعة عشرة من العمر. في الصف نفسه من المدرسة الثانوية».

«وفي أيِّ مدرسة ثانويَّة كنتَ؟»

أخبرتها باسم المدرسة الثانويَّة الحكوميَّة التي في حيّ تويوشيما. يُفترض أنَّه لا أحد يعلم بوجودها باستثناء أهالي الحيّ نفسه.

«هل كنتَ تحبّ الذهاب إلى المدرسة؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلتُ: «كلَّا، ليس كثيرًا».

«حسنًا، هل رأيت حلمة صاحبتك تلك؟»

«أجل. أرتني إيَّاها.»

«إلى أيِّ مدى كانت كبيرة؟»

تذكَّرتُ حلمة تلك الفتاة، وقلتُ: «لم تكن كبيرة ولا صغيرة. كان حجمها عاديًّا».

«هل كانت تملأ حمّالة الصدر؟»

حاولت تذكُّر حمّالة صدرها. فما وجدتُ إلَّا ذاكرة ضبابيَّة ومبهمة. أتذكَّر أنَّها تستصعب لفّ يديْها على ظهرها لنزع الحمّالة.

«كلّا، أعتقد أنَّها لم تكن تضع شيئًا».

«وأين تلك الفتاة الآن؟»

فكَّرتُ في أمرها. تُرى ما الذي تفعله حاليًّا؟

«حسنًا، لا أدري. فأنا لم أقابلها منذ زمن بعيد. ربَّما تزوَّجت رجلًا ولديْها الآن أطفال».

«لماذا لا تقابلها؟»

«لأنَّها قالت لي آخر مرَّة لا أريد أن أراك ثانية».

قطَّبت مارية حاجبيْها، وقالت: «هذا يعني أنَّك تصرَّفتَ بشكل سيِّئ يا أستاذ».

«أعتقد ذلك». بالتَّأكيد، ما من شكّ في ذلك.

لقد رأيت تلك الفتاة في الحلم مرتيْن خلال فترة حديثة نسبيًّا. في الأوَّل، كنَّا نتنزه جنبًا إلى جنب على ضفاف نهر كبير في غروب أحد أيَّام الصيف. حاولتُ أن أقبّلها، ولكنْ لسببٍ ما، كان يحجب وجهَها شعرٌ أسود طويل كالستائر، ولم تستطع شفتاي أن تلمس شفتَيْها. وانتبهتُ وقتها إلى أنَّ الفتاة كانت في الحلم بعمر السَّابعة عشرة، فيما كنتُ أنا في السَّادسة والثلاثين. وهنا أفقتُ من النوم. كان حلمًا حيًّا للغاية، وكأنَّه حقيقيّ. بقيَ على شفتَيَّ ملمس شعرها، مع أنَّني لم أفكِّر فيها منذ فترة طويلة من الزمن!

غيَّرت مارية مجرى الحديث مرَّة أخرى، وسألتني: «حسنًا، كم كانت تصغرك أختك؟»

«بثلاث سنوات».

«ماتت في عمر الثانية عشرة، أليس كذلك؟»

«بلى».

«ما يعني أنَّك كنتَ في الخامسة عشرة».

«أجل. كنتُ في الخامسة عشرة من عمري. وقد دخلتُ المدرسة الثانوية توًّا. وكانت هي تدخل المدرسة المتوسِّطة. مثلك الآن».

أحسستُ أنَّ الفرق بالعمر بيني وبين كومي، كان يزداد منذ أن توفِّيت، وباتت تصغرني بأربعة وعشرين عامًا. وهذا طبيعيّ.

قالت مارية: «عندما توفِّيت أمِّي، كنتُ في السَّادسة من عمري. ماتت بعد أن لسعتها دبابير في عدَّة مواضع من جسمها، عندما كانت تتنزَّه بمفردها في أحد الجبال القريبة من هنا».

«آسف لذلك»، قلت.

«كانت لديها حساسيَّة خُلقيَّة من الدبابير. حملتها سيَّارة الإسعاف إلى المستشفى، لكنّ قلبها ورئتَيْها كانت قد توقَّفت من آثار الصدمة».

«وبعد ذلك، تقرَّرَ أن تقيم عمَّتك في البيت نفسه؟»

«أجل. إنَّها شقيقة أبي الصغرى. كنتُ أتمنَّى لو أنَّ لي أخًا أكبر؛ أخًا يكبرني بثلاث سنوات»!

انتهيتُ من رسم أُولى المسوَّدات، وبدأت في رسم الثانية. كنتُ أريد أن أرسمها من زوايا متعدِّدة. وقد نويتُ أن أخصِّص اليوم كلَّه لرسم المسوَّدات.

سألتني: «هل كنتَ تتعارك مع شقيقتك؟»

«كلَّا. لا أتذكَّر أنَّنا تعاركنا مطلقًا».

«كنتما على علاقة جيِّدة؟»

«أجل، أعتقد ذلك. لكنِّي لم أصنِّف العلاقة، سواء أكانت جيِّدة أم سيِّئة».

«ماذا كنتَ تقصد بقولك «أعزب تقريبًا»؟» ـ غيَّرت مجرى الحديث للمرة الثالثة.

«قريبًا جدًّا، سيتمّ الطلاق رسميًّا. يقوم مكتب محاماة بالإجراءات القانونيَّة اللَّازمة حاليًّا. هذا معنى «تقريبًا»».

ضيَّقت حدقة عينَيْها، وقالت: «لا أفهم ماذا يعني الطلاق. ما من شخص مطلَّق في نطاق مَن أعرفهم».

«أنا نفسي لا أفهمه جيِّدًا. فهذه تجربتي الأولى مع الطلاق».

«بماذا تشعر؟»

«ما يسعني قوله إنَّها مشاعر غريبة! كمن يمشي في طريق ظنًّا منه أنَّها طريقه؛ وفجأةً، تختفي تلك الطريق من تحت قدمَيْه، ويجد نفسه مجبرًا على التَّقدُّم في فراغٍ ليس فيه شيء، ولا يعرف اتِّجاه السَّير، ومن دون أيّ مساعدة».

«كم استمرّ الزواج؟»

«ستّ سنوات تقريبًا».

«كم عمر زوجتك؟»

«أصغر منّي بثلاث سنوات»، كانت صدفةً أنَّها من عمر شقيقتي طبعًا.

«هل ترى أنَّك عشت تلك السنوات الستّ بلا جدوى؟»

فكَّرتُ قليلًا، ثمَّ قلتُ: «كلّا، لا أعتقد ذلك. لا أريد أن أعتبرها هباء. كان فيها أشياء ممتعة».

«وهل تُفكِّر زوجتك بطريقتك نفسها؟»

هززتُ رأسي، قائلًا: «لا أدري. ولكنّي آمل أنَّها تفكِّر بالطريقة نفسها».

«ألم تحاول أن تسألها؟»

«لم أسألها. في المرّة القادمة، إن سنحت لي فرصة، سأسألها».

انقطعنا عن الكلام لفترة. كنتُ أركِّز ذهني في المسوَّدة الثانية، وكانت مارية تفكِّر بجدِّيَّة في أمرٍ ما ـ حجم حلمة الثدي، أو الطلاق، أو الدبابير، أو ربَّما أمر آخر ـ فغرقتْ في بحر من الأفكار وهي تضيِّق حدقة عينَيْها، وتزمّ شفتَيْها بخطّ مستقيم، وتقبض على ركبتَيْها بيدَيْها. يبدو أنَّها دخلت ذلك المزاج. سجَّلتُ تعبيرات الوجه تلك والملامح الجدِّيَّة على الورق الأبيض من دفتر الرسم.

كلَّما انتصف اليوم، سمعت دقَّات ساعة تأتي من سفح الجبل. ربَّما من البلدية، أو المدرسة، لتُعلن الوقت. وعندما سمعتها، نظرتُ إلى السَّاعة، ثمَّ أنهيت العمل. وكنتُ، حتَّى ذلك الوقت، قد أنهيت ثلاث مسوَّدات، كلًّا منها بتشكيلٍ يثير الاهتمام نوعًا ما. ويلمِّح إلى شيء محتَّمٍ مجيئه. لم يكن عملًا سيِّئًا بالنِّسبة إلى يوم واحد!

أدَّت مارية دور الموديل في المرسم إجمالًا مدَّة ساعة ونصف الساعة. والأرجح، أنَّ تلك هي حدود التَّحمُّل عندها بالنِّسبة إلى يوم العمل الأوَّل. فليس من السُّهولة أن يفعل شخصٌ شيئًا لم يعتده، خصوصًا إن كان طفلًا في أوْجِ مرحلة النموّ.

كانت شوكو أكيكاوا تجلس على الأريكة، تقرأ بحماسة وهي تضع على عينَيْها نظَّارة ذات إطار أسود. وعندما دخلتُ غرفة المعيشة، نزعتِ النظَّارة وأغلقتِ الكتاب، ووضعته في حقيبتها. بدت بالنظَّارة مثقَّفة للغاية.

قلتُ لها: «انتهى عمل اليوم بسلام. هل يمكن أن تتفضَّلا بالحضور الأسبوع القادم في الوقت نفسه، إن لم يكن ثمَّة مانع؟»

«أجل بالتَّأكيد» ـ قالت شوكو. «إنَّ الجلوس للقراءة وحيدة في هذا المكان يحمل إليَّ متعة كبيرة. ربَّما بسبب الأريكة المريحة».

وجَّهتُ السُّؤال إلى الطفلة: «أليس لديكِ مانع أنت أيضًا يا مارية؟»

أومأت مارية بوضوح، من دون أن تقول شيئًا. تعني أنَّها لا تمانع. تغيَّرت سريعًا عمَّا كانت عليه منذ قليل، وأصبحتْ قليلة الكلام أمام عمَّتها، أو ربَّما لا يروقها وجودنا نحن الثلاثة معًا.

ثمَّ استقلَّت الاثنتان سيَّارة تويوتا بريوس الزرقاء، وغادرتا عائدتَيْن. أخرجت شوكو أكيكاوا التي وضعت على عينَيْها نظَّارة شمسيَّة، يدها من نافذة السيَّارة ولوَّحتْ بها إليَّ عدَّة مرَّات بخفَّة. كانت يدًا بيضاء صغيرة. رفعتُ يدي، وأدَّيتُ التَّحيَّة بدوري. كانت مارية تنظر إلى الأمام فقط. عدتُ إلى البيت بعد أن هبطت السيَّارة المنحدر، واختفت عن الأنظار. وفجأةً، بدا البيت مهجورًا بعد مغادرتهما. وكأنَّ شيئًا كان موجودًا واختفى.

ففكَّرتُ وأنا أتأمَّل كوب الشاي الذي تركته على الطاولة: يا لهما من ثنائيّ عجيب! ولكنْ، ثمَّة أمرٌ غير معتاد فيهما. فما هو؟

بعد ذلك، تذكَّرتُ أمر منشكي. ربَّما كان عليَّ أن أُخرج مارية إلى الشُّرفة، لأجعله يتأمَّلها جيِّدًا بالمنظار. لكنِّي فكَّرتُ أكثر، واستنتجتُ أنَّه لم يكن عليّ فعل ذلك، وأنَّه لم يطلب منِّي أساسًا.

في أيِّ حال، ما تزال هناك فرصة. فالأمر ليس عاجلًا.. ربَّما.

- 31 -

كان كمالًا زائدًا عن الحدّ، ربَّما

اتَّصل منشكي في ليلة ذلك اليوم. كانت الساعة قد تخطَّت التاسعة. اعتذر عن اتِّصاله في وقتٍ متأخِّرٍ، وقال إنَّه كان مشغولًا بأمورٍ مملَّةٍ لم تتحْ له وقتًا للاتِّصال قبلئذٍ. فقلت، إنَّه ما زال هناك وقت للذهاب إلى النوم، فلا داعي للقلق بشأن تأخُّر الوقت.

سألني: «كيف جرت الأمور، هل استطعت العمل جيِّدًا هذا الصباح؟»

«لا بأس. أتممت عددًا من المسوَّدات. وسوف يأتيان الأسبوع القادم في التوقيت نفسه.»

«جيِّد. بالمناسبة، هل كانت عمَّتها ودِّيَّة في تعاملها معك؟»

ودِّيَّة؟ كان لتلك الكلمة صدى مريب!!

«أجل. بدت لي امرأة لطيفة جدًّا. لا أدري إن كان من الدَّقيق وصفها بالودِّيَّة. لكنَّها لم تتعامل معي بحَذَر».

ثمَّ شرحتُ له جزءًا مما حدث في الصَّباح. سمع منشكي حديثي وهو يكتم أنفاسه. وكان يبدو أنَّه يحاول امتصاص أكبر قدرٍ من المعلومات الدقيقة والمحدَّدة والفعَّالة من ذلك الشرح. لم يطرح أسئلة من حين لآخر، بل ظلَّ صامتًا، يُصغي إليَّ. ما ملابسهما وكيف سلوكهما؟ كيف مظهراهما؟ وعمَّ تحدَّثتا؟ ثمَّ كيف رسمتُ مسوَّدات مارية؟ أخبرتُ منشكي عن كلِّ ذلك. لكنِّي لم أطلعه على قلق الصَّغيرة من صغر حجم صدرها. يُفترض أن يبقى الأمر بيني وبينها.

فسألني: «أعتقد أن ظهوري الأسبوع القادم في بيتك سيكون مبكِّرًا قليلًا، أليس كذلك؟»

«هذا أمرٌ تقرِّره بنفسك، يا سيِّد منشكي. لا أستطيع إصدار مثل هذا الحكم. فأنا لا أشعر بأنَّها مشكلة».

ظلَّ منشكي ممسكًا بسمّاعة الهاتف صامتًا، ثمَّ قال أخيرًا: «سأفكِّر قليلًا في الأمر، فهو في منتهى الحساسيَّة».

«خذْ وقتك في التَّفكير بتأنٍّ. يبدو أنَّني سأستغرق وقتًا طويلًا لإنجاز اللَّوحة، وسيكون هناك عددٌ من الفرص فيما بعد. لا مانع بالنِّسبة إليَّ إن جئتَ في الأسبوع القادم أو الذي يليه».

كانت تلك المرَّة الأولى التي أرى فيها منشكي متردِّدًا حائرًا! فما عرفت عن شخصيَّته إلَّا سرعته في اتِّخاذ القرارات إزاء أيِّ موقف.

فكَّرت في أن أساله إن شاهد بيتي بالمنظار هذا الصباح، وإن استطاع مراقبة مارية وعمَّتها. لكنِّي عدلتُ عن السُّؤال. فمن الفطنة عدم التطرُّق لهذا الموضوع ما لم يذكره هو بنفسه، حتَّى وإن كان البيت الذي ينظر إليه هو بيتي.

شكرني مجدَّدًا، وقال: «أرى أنَّني أثقلتُ عليك بالطلبات. أعتذر منك».

«لا تقلق. فأنا لا أفعل كلّ ذلك من أجلك. أنا أريد أن أرسم بورتريه لمارية أكيكاوا. وليس هناك ما يستوجب أن تشكرني عليه».

فقال بصوت هادئ: «ومع ذلك، أنا ممتنّ لك امتنانًا عظيمًا، بمعانٍ كثيرة».

لم أفهم ماذا يعني بمعانٍ كثيرة، وآثرت ألّا أسأله عن قصده. تأخَّر الوقت ليلًا. تبادلنا تحيَّة قبل النوم، وأنهينا المكالمة. ولكنْ، بعد أن وضعت سمَّاعة الهاتف، فكَّرتُ فجأةً في أنَّ منشكي قد يكون مقبلًا على قضاء ليلة طويلة يجافيه النوم فيها. لقد سمعت صدى ذلك التوتُّر في صوته. لا بدَّ أنَّه سيفكِّر في أمور كثيرة.

لم يحدث شيء ذو طبيعة خاصَّة في ذلك الأسبوع. فلم يظهر الكومنداتور، ولم تتَّصل عشيقتي المتزوِّجة التي تكبرني سنًّا. كان أسبوعًا في منتهى الهدوء. سوى أنَّ الخريف كان يتعمَّق من حولي. والسَّماء تزداد ارتفاعًا بشكلٍ ملحوظ، والهواء يزداد صفاءً، والغيوم ترسم خيوطًا بيضاء جميلةً بفرشاة رسم..

أمسكتُ المسوَّدات الثلاث لمارية أكيكاوا في يدي عدَّة مرَّات، وتأمَّلتها. تأمَّلت كلّ وضع من أوضاعها الثلاثة، وكلّ زواياها. كانت مثيرة للاهتمام جدًّا، وغنيَّة بالتلميحات. ولكنَّني، منذ البداية، لم يكن في نيَّتي أن أختار واحدة من تلك المسوَّدات لجعلها الأساس الذي أرسم عليه البورتريه. كان هدفي من تلك المسوَّدات الثلاث، كما قلت لها شخصيًّا، هو فهم ماهيَّة الفتاة التي تُسمَّى مارية أكيكاوا فهمًا شاملًا، وأن أتعرَّف إليها، كي أفهم وجودها وأدخله في داخلي.

تأمَّلتُ المسوَّدات مرَّات ومرَّات، ثمَّ ركَّزتُ وعيي، وأنجزت مظهرها بشكل محدَّد في داخلي. وأثناء ذلك، كان ثمَّة إحساس بأنَّ هيئة مارية أكيكاوا تمتزج داخلي بهيئة شقيقتي كومي. ولم أفهم إن كان هذا ملائمًا أم لا. لكنَّ روحَيْ هاتَيْن الفتاتَيْن، اللَّتَيْن في العمر نفسه تقريبًا، تردَّد صداهما بالفعل ـ في قاعٍ عميقٍ لا يُمكنني أن أصل إليه ـ وارتبطتا معًا. وأصبحتُ بالفعل عاجزًا عن فكِّ ارتباط هاتيْن الروحيْن.

تسلَّمتُ في نهاية الأسبوع رسالةً من زوجتي. كان ذلك أوَّل تواصل منها، منذ أن تركتُ البيت في شهر مارس. كُتب على الظرف بخطٍ منمَّقٍ اعتدتُ رؤيته كثيرًا، اسم المرسِل والمرسَل إليه. ما تزال زوجتي تحمل اسم عائلتي. وقد يكون حمل اسم الزوج حتَّى الطلاق رسميًّا أمرًا نافعًا.

قصصتُ الظرف بالمقصّ بعناية. كان فيه بطاقة عليها صورة دبّ أبيض واقف، كأنَّه جبل جليديّ. وفي البطاقة عبارات شكر، لأنَّني وضعتُ ختمي الرَّسميّ على أوراق الطلاق، وأعدتُ إرسالها على الفور.

هل أنت بخير؟ أنا أعيش حياتي بلا مشاكل نوعًا ما. ما زلت في البيت نفسه. شكرًا على إعادة الأوراق بهذه السُّرعة. أنا ممتنَّة لك جدًّا. سأتَّصل بك حالما تتطوَّر الإجراءات.

أرجو أن تخبرني إن كنتَ تحتاج إلى شيء من الأمتعة التي تركتَها في البيت. سأرسلها إليك بالبريد السريع. وفي أيّ حال، آمل أن يُوفَّقَ كلٌّ منَّا في حياته الجديدة.

يوزو

قرأت تلك الرّسالة عدّة مرّات؛ واجتهدتُ في تأويل المشاعر المختفية وراء الجمل المكتوبة، لكنّي لم أستطع قراءة أيّ مشاعر أو نوايا خارج ما هو مكتوب في تلك الجمل القصيرة. يبدو أنّها كانت تحاول توصيل الرّسالة الواضحة المكتوبة في تلك الجمل، كما هي.

الأمر الثاني الذي لا أفهمه: هل استغرق إعداد أوراق الطلاق كلّ ذلك الوقت الطويل؟ يُفترض أنّها ليست إجراءات صعبة، ويُفترض أيضًا أنّها كانت تريد الخلاص من علاقتي بأسرع ما يمكن. ولكنْ مرّت ستة أشهر تقريبًا منذ تركتُ عشّ الزوجيّة. تُرى، ما الذي كانت تفعله أثناء ذلك الوقت؟ وما الذي كانت تفكّر فيه؟

أخذتُ أتأمّل صورة الدبّ الأبيض في البطاقة. فلم أكتشف أيّ مقصد! تُرى لِمَ اختارت الدبّ القطبيّ الأبيض؟ ربّما عثرت على البطاقة عن طريق الصُّدفة، فاستخدمتها. توقّعتُ أنّ الأمر لا يزيد عن ذلك.. أم أنّ الدب الأبيض الذي يقف فوق قمّة جبل الجليد، لا يدري إلى أين يذهب، يشير ضمنيًّا إلى حالتي وأنا أتّجه تاركًا تيّار البحر يأخذني حيث يشاء؟ كلّا، أعتقد أنّني أبالغ في التأويل.

ألقيتُ الظرف التي يحتوي على تلك البطاقة في أعلى دُرْج من أدراج المكتب. وبعد أن أغلقتُ الدُّرْج، جاءني إحساس طفيف بأنّ الأمور تقدّمت إلى مرحلة أخرى للأمام. وكأنّه مع صوت إغلاق الدُّرْج، ارتفع التّرتيب إلى أعلى. ولم يكن ذلك التّقدُّم المرحليّ بناءً على حركةٍ منّي أنا، بل إنّ أحدًا ما، أو شيئًا ما، أعدّ تلك المرحلة نيابة عنّي، وكنت أتحرّك وفق الخطّة ليس إلّا.

ثمّ تذكّرتُ أنّني تحدّثت يوم الأحد إلى مارية أكيكاوا عن حياتي بعد الطلاق.

«ما يسعني قوله إنَّها مشاعر غريبة! كمَنْ يمشي في طريق ظنًّا منه أنَّها طريقه، وفجأة تختفي تلك الطريق من تحت قدمَيْه، ويجد نفسه مجبرًا على التَّقدُّم في فراغٍ ليس فيه شيء ولا يعرف اتِّجاه السَّير، ومن دون أيّ مساعدة».

لا أهتمّ إذا كان التيّار البحريّ يجرفني إلى حيث لا أدري، مثل طريق بلا طريق. سيّان عندي. فالأمر في كلتا الحالتَيْن مجرّد مجاز. فعلى أيّ حال، كنت أمسك في يدي بالشيء الحقيقيّ. وداخل ذلك الشيء الحقيقيّ، أبتلع الواقع. ما ضرورة المجاز إذن؟

أردت أن أكتب رسالة إلى يوزو، وأخبرها بظروفي الحالية بكلّ تفاصيلها. لا بدَّ أنّي لست قادرًا على كتابة جملة، مثل «أنا أعيش حياتي بلا مشاكل نوعًا ما». بل الأمر فاق ذلك، وشعوري الذي لا يُمكن تكذيبه كان أنَّ المشاكل تفاقمت. ولا شكَّ في أنَّني لن أستطيع الاختصار إذا كتبتُ عمَّا حدث لي منذ أقمت هنا حتَّى تلك اللَّحظة. والمأزق الأكبر هو أنَّني، أنا نفسي، لا أستطيع شرح ما الذي يحدث هنا بالضبط، أو على الأقلّ، لا أستطيع شرحه في جملٍ منطقيَّةٍ مرتَّبةٍ بتسلسلٍ عقلانيّ!

لذا، قرَّرت ألَّا أكتب ردًّا على رسالة يوزو. فإمَّا أن أكتب كلّ ما حدث (بتجاهل المنطق والتسلسل)، وإمَّا أن لا أكتب شيئًا البتَّة. اخترتُ ألَّا أكتب. بالتَّأكيد، أحد التَّفسيرات هو أنِّي دبّ أبيض وحيد، تُرك على جبل جليديّ ينجرف. فليس هناك أيّ صندوق بريد في أيّ مكان. أليس الدبّ عاجزًا عن إرسال جواب؟

أتذكَّر جيّدًا فترة تعرُّفي على يوزو، وبداية علاقتنا.

في أوَّل موعد بيننا، تناولنا الطعام، وتحدَّثنا في العديد من الأمور. وبدا أنَّها أخذت عنِّي انطباعًا حَسَنًا. فسألتني متى نلتقي ثانيةً؟ كان قلبانا يتواصلان لسبب غامض منذ البداية. فهو تقاربٌ في الميول ببساطة.

لكنَّها استغرقت وقتًا كي تصبح حبيبتي رسميًا. حينذاك، كان لدى يوزو حبيب، بينهما علاقة على مدى سنتَيْن. ولكنَّها لم تكن تحبُّه بعمق.

قالت لي: «إنَّه شخص وسيم جدًّا. ربَّما كانت شخصيَّته مملَّة قليلًا، ولكنّ ذلك لم يكن مشكلة»!

رجل وسيم جدًّا، ولكنَّه مملّ... لم يكن حولي من الرجال من يشبه ذلك الشخص، لذا لم يستطع عقلي تخيُّل طبيعة الرجل. تخيَّلتُ شيئًا يشبه الطعام، صُنع لكي يبدو لذيذًا، لكنْ رديء المذاق. ولكنْ من يسعده طعامٌ كهذا؟!

قالت، وكأنَّها تبوح لي بسر: «أتعرف! أنا منذ زمن بعيد ضعيفة تجاه الرجل الوسيم. يتعطَّل المنطق عندما أكون مع رجل جميل الوجه. فحتَّى لو عرفتُ أنَّه لديه مشاكل، لا أستطيع المقاومة. ومهما حاولتُ، فأنا لا أستطيع الشفاء من هذا الداء. هذه هي نقطة ضعفي الأولى».

«مرضٌ مُزمن»، قلت لها.

أومأت بنعم، ثم قالت: «حقًّا. ربما يكون هكذا. مرضٌ لعينٌ لا علاج له. مرض مُزْمن.»

«عمومًا، هذه المعلومة تقوّض فرصتي» ـ للأسف الشديد، لم يكنْ وجهي من نقاط القوَّة التي تساعدني على تسويق نفسي كرجل.

لم تستنكر. لكنَّها ضحكتْ فاتحةً فمها باستمتاع. يبدو أنَّها على الأقلّ لا تشعر بالملل وهي معي! كان الحوار نابضًا، وكانت تضحك.

فانتظرتُ آملًا أن تفشل علاقتها بالحبيب الوسيم (لم يكن وسيمًا وحسب، بل كان خرِّيج جامعة راقية، ويعمل في شركة تجاريَّة مرموقة ويتقاضى مرتَّبًا ضخمًا. ومن المؤكَّد أنَّه كان سينسجم مع والد يوزو). في أثناء ذلك، تحدَّثت معها بشؤون كثيرة، وذهبنا معًا إلى أماكن كثيرة. ثمَّ أصبح كلٌّ منَّا يفهم الآخر جيِّدًا. وتبادلنا القُبل والعناق، لكنَّنا لم نمارس الجنس، لأنَّها لم تكن تفضِّل إقامة علاقة جنسيَّة مع أكثر من شخصٍ في وقت واحد. قالت لي: «أنا رجعيَّة من هذه الناحية». فلم يتبقَّ أمامي سوى الانتظار.

استمرَّت تلك الفترة ستَّة أشهر على ما أذكر. كانت بالنِّسبة إليَّ فترة طويلة جدًّا، تراودني في أحيانها نزعة إلى التخلِّي عن كلِّ شيء. لكنِّي تحمَّلتُ، لأنَّني كنتُ متأكِّدًا من أنَّها ستكون لي مع مرور الوقت.

وأخيرًا، انتهت العلاقة بينها وبين رفيقها الوسيم (أعتقد أنَّها انفصلت عنه، لم تحكِ لي التَّفاصيل، لكنِّي خمَّنت)، واختارتني حبيبًا لها، أنا الذي لا يمكن وصفي بالوسيم، ناهيك بفقري! وبعد ذلك بفترة قصيرة، قرَّرنا أن نتزوَّج رسميًّا.

أذكر جيِّدًا أوَّل مرَّة مارست معها الجنس. كنَّا ذاهبيْن في رحلة إلى أحد الينابيع الساخنة في الأقاليم، وكانت تلك أوَّل ليلة تذكاريَّة لنا. تمَّ كلُّ شيء بجودة وبلا منغِّصات. كل شيء كان كاملًا. كمالًا زائدًا عن الحدّ. كانت بشرتها بضَّة بيضاء ناعمة. وفَعَلَ ماء الينبوع السَّاخن، وبياضُ ضوء القمر في بدايات الخريف، فِعلَه في جمالها ونعومتها. عندما حضنتُ جسدها العاري، وأولجتُ فيه لأوَّل مرَّة، أطلقتْ صوتًا خفيضًا في أذني، وقبضتْ بقوَّة على ظهري بأناملها الرَّفيعة. وكانت حشرات الخريف تطنّ طنينًا صاخبًا. وسمعتُ هدير الشلَّالات المنعشة.

وأقسمتُ في قلبي قَسَمًا متينًا: لن أفعل أيَّ شيء يجعلني أتخلّى عن تلك المرأة مطلقًا. ربّما كانت تلك أكثر اللّحظات تألُّقًا في حياتي حتّى ذلك الوقت؛ وقت استطعت الحصول على يوزو.

بقيتُ أفكّر بها، بعد أن استلمت رسالتها القصيرة. فكّرتُ أوّلًا في بداية لقائنا، ثمّ في تلك اللّيلة الخريفيّة التي جامعتها لأوّل مرّة، ثمّ في عدم تغيُّر مشاعري تجاهها من البداية وحتّى الآن. فأنا مازلت لا أريد التخلّي عنها. كان هذا واضحًا بشدّة. لقد وقّعتُ على أوراق الطلاق، لكنّ هذا لا يغيّر في الأمر شيئًا. لقد جافتني في غفلة من الزّمن، ولم تكترث لمشاعري تجاهها. بَعُدتْ عنّي بعيدًا؛ بعيدًا جدًّا. إلى مكان لا يمكنني أن أرى فيه أيّ جزء منها حتّى باستخدام المنظار الجبّار!

يبدو أنّها عثرت في مكانٍ ما على حبيب جديد وسيم بدون علمي. وكعادتها تُعطّل المنطق. كان عليّ معرفة ذلك عندما رفضت ممارسة الجنس معي. كان يكفي أن أفكّر قليلًا. فهي لا تقيم علاقة جنسيّة بأكثر من شخصٍ في وقتٍ واحد.

فكّرتُ في أنّه مَرَضٌ مزمن. مَرَضٌ لعين لا أمل في الشفاء منه. ميول القلب إلى طباع من دون اكتراث بالحجج العقليّة.

في تلك اللّيلة (ليلة خميس ممطرة)، رأيت حلمًا طويلًا كئيبًا وقاتمًا.

كنتُ في بلدة صغيرة على ساحل البحر في محافظة مياغي، أقود سيّارة سوبارو فورستر بيضاء (كانت السيّارة في ذلك الحلم ملكي أنا). كنت أرتدي معطفًا جلديًّا قديمًا أسود، وأعتمر قبّعة غولف سوداء عليها علامة YONEX. كانت قامتي طويلة وبشرتي سمراء من لفح الشمس،

وشعري قصيرٌ اختلط به الشيب. بمعنى أنَّني كنتُ «الرجل صاحب سيَّارة السوبارو فورستر البيضاء». كنتُ ألاحق خفيةً زوجتي وعشيقها، وهما يستقلَّان سيَّارة صغيرة (سيارة بيجو 205 حمراء)، في طريق رئيسيَّة محاذية للساحل. رأيتهما يدخلان فندق عشَّاق مزيَّن عند أطراف المدينة. وفي صباح اليوم التالي، ضيَّقت الخناق على زوجتي بحزام معطف الحمَّام الأبيض الرفيع حتَّى قتلتها. كنت رجلًا مفتول العضلات، وذراعاي متعوِّدتان على الأعمال البدنيَّة الشاقَّة. وفي أثناء خنقي لعنق زوجتي بكلِّ قواي، كنتُ أصرخ عاليًا بكلماتٍ ما. لكنِّي لم أستطع أنا نفسي سماع ما كنتُ أقول. كانت صرخات لا معنى لها تعبِّر عن الغضب الجامح. الغضب العنيف الذي لم أخُض تجربته من قبل، يسيطر تمامًا على روحي وجسدي. تطاير البصاق الأبيض في الهواء أثناء صراخي.

رأيتُ صدغ زوجتي يرتجف ارتجافًا دقيقًا وهي تستميت محاولةً إدخال الهواء مجدَّدًا إلى رئتيْها. رأيت لسانها الورديّ متكوِّرًا ومتعثِّرًا في فمها. وبرزت عُروقها الزرقاء فوق بشرتها مثل خارطةٍ رُسمت بحبرٍ سرّيّ. شممتُ رائحة عَرقي. تنبعث من جسدي رائحةٌ كريهةٌ لم أشمّ مثلها من قبل، كأنَّها بخار يرتفع من ينبوع ساخن. رائحة تُذكِّر بحيوان متوحِّش كثيف الشعر.

أمرتني قائلًا: لا ترسمني باللَّوحة! متوجِّهًا إلى صورتي التي تنعكس على مرآة الحائط، قائلًا: لا تُكمل اللَّوحة التي ترسمها لي!

وفي تلك اللَّحظة، استيقظتُ من الحلم.

وعندها، أدركتُ ما كان يسبِّب لي الرعب على فراش فندق العشَّاق في تلك المدينة الساحليَّة. هل كنتُ خائفًا من أعمق أعماق قلبي أن أقتل تلك الفتاة (التي لا أعرف اسمها) في اللَّحظة الأخيرة

فعلًا؟ لقد قالت الفتاة: «يكفي أن تتظاهر بذلك». وربَّما ذلك لم يكفِ. ربَّما لم ينتهِ الأمر بمجرَّد التظاهر، لأنَّه خاضعٌ لإرادة داخليَّة عندي...

أنا أيضًا أودّ أن أفهم نفسي. ولكنَّه ليس أمرًا هيِّنًا.

تلك الكلمات التي قلتها لمارية أكيكاوا، تذكَّرتُها وأنا أجفِّف جسدي من العَرَق بالمنشفة.

توقَّفتِ الأمطار صباحَ يوم الجمعة، وأصبحتِ السماء صافية وجميلة. وكي أهدِّئ روعي بسبب اضطراب النوم في اللَّيلة الماضية، خرجتُ قبل الظهيرة في نزهة بجوار البيت لمدَّة ساعة تقريبًا. دخلت الغابة، ودرتُ خلف نموذج مجسَّم المعبد، وفحصتُ وضع الحُفرة بعد غيابٍ طويل. دخل شهر نوفمبر، وازدادت برودة الجوّ بشكلٍ مؤكَّد. وفرشتْ أوراق الشجر السَّاقطة الرَّطبة الأرض بكثرة. كانت الحُفرة كما هي، مغلقة بإحكام، بواسطة عدد من الألواح التي تراكمت فوقها أوراق الأشجار ذات الألوان المتنوِّعة، بجانب الصخور الثقيلة. أحسستُ أنَّ الصخور مرتَّبة بشكلٍ يختلف عن آخر مرَّة رأيتها فيها. اختلف توزيعها قليلًا.

لم أهتمّ كثيرًا. ما من أحدٍ سيأتي خصِّيصًا إلى المكان عدا منشكي وأنا. أزلتُ لوحًا واحدًا، وفحصتُ الحُفرة من الداخل. بالطبع، ليس فيها أحد. السلَّم مسنود إلى الجدار كما كان، والحُفرة مظلمة وصامتة بعمق تحتَ قدمَيّ. أعدتُ الغطاء إلى الفُتحة، ورتَّبتُ الصخور ثانية.

لم أهتمَّ أيضًا لعدم ظهور الكومنداتور على مرآي منذ ما يقارب الأسبوعَيْن. فالفكرة، على حدِّ قوله، لديها أشغال كثيرة؛ أشغال تتخطَّى الزمان والمكان.

ثمَّ جاء يوم الأحد التالي أخيرًا، ووقعتْ في ذلك اليوم أحداثٌ كثيرة. يومُ أحدٍ في منتهى الجموح!

- 32 -
عوملت مهارته الفنِّيَّة المتخصِّصة كالجواهر النادرة

اقترب منَّا رجل آخر أثناء حديثنا. كان رسّامًا محترفًا من وارسو. متوسّط القامة بأنفٍ كالنسر، وله شاربٌ عظيم شديد السّواد في وجهه ذي البشرة الشاحبة. [...] تُلمح من بعيد ملامحه المتميّزة تلك، وفي الواقع، كان علوّ رتبته واضحًا أيضًا (عوملت مهارته الفنِّيَّة المتخصّصة في معسكرات الاعتقال كالجواهر النادرة). كان الجميع يحترمونه ويعاملونه بكل تقدير واعتبار. وكان كثيرًا ما يحكي لي حديثًا مطوّلًا عن العمل الذي يقوم به.

«أرسم لوحات بألوان مائيّة للجنود الألمان. لوحات بورتريه. يحملون معهم صورًا فوتوغرافيّة لأقربائهم مثل الزوجة أو الأمّ أو الأبناء... إلخ. والجميع يريد أن أرسم له لوحة لأحد أفراد عائلته. يتحدّث جنود الشوتزشتافل عن أُسرهم بحميميّة. ويصفون لي بكلّ حبٍّ: لونَ عيونهم

أو لونَ شعرهم. ثمَّ أرسم البورتريه بالألوان لأحبابهم معتمدًا على الصورة الفوتوغرافيَّة الباهتة التي صوَّرها شخص غير محترف. ومهما يقُل الناس، فلم تكن عائلات الألمان ما أريد أن أرسمه. كنت أريد أن أرسم لوحات بالأبيض والأسود للأطفال المكدَّسين في «عنبر فصل المرضى»[1]. أرسم لهم الأطفال الذين قتلوهم، وأجعلهم يحملونها معهم عائدين إلى بيوتهم، ويزيِّنون بها الجدران. هؤلاء البهائم الأجلاف».

كان الفنّان في تلك اللَّحظات تتوتَّر أعصابه حتَّى الانفجار.

«تمرُّد في تربلينكا»

صامويل ڤيلنبرغ

(1) عنبر فصل المرضى: الاسم الذي أطلق على منشآت الإعدام في معسكرات التجميع في تربلينكا.

رسّام متمكّن من التقاط الأسرار المتخفّية خلف وجوه الأشخاص الذين يرسمهم. لوحة مُربكة رسمها فنّانٌ كبيرٌ، عُثِرَ عليها بعد عشرات السنوات في سقيفة بيت. دبيبٌ في غابةٍ محاطةٍ بجيرانٍ غريبي الأطوار. وثمّة جرسٌ برنينه المهيب والمحزنِ ينسلّ بين أشجار الغابة في قلب الليل.

رواية حول قوّة الفنّ البنّاءة وقوّة العنف الهدّامة؛ حول القدرة على جعل هشاشتنا ذهبًا، مهما بدتْ أيّامُنا قاتمةً.

«كعادته، موراكامي يَفْتِننا بكشفه للخارقِ فينا داخل رتابتنا، عاثرًا على السحر في تفاصيل حياتنا اليوميّة».

The Guardian

في «مقتل الكومنداتور»، تتحرّك عبقريّةُ موراكامي بأسلوبٍ بديعٍ بين الواقع والهذيان.

Der Spiegel

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135 -1861633 (961+)

ISBN: 978-9953-89-688-5